بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعـــة الإســـلامية بغـــزة
عمـــادة الدراســـات العليـــا
كليـــــــــــــــة الآداب
قـــسم التـــاريخ والآثـــار

الأوضاع الدينية والسياسة والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر

إعداد
نيفين ظافر حسيب الكردي

إشراف الأستاذ الدكتور
رياض مصطفى أحمد شاهين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي (بحث تكميلي) في قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية بغزة – فلسطين

1432هـ-2011م
غزة – فلسطين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

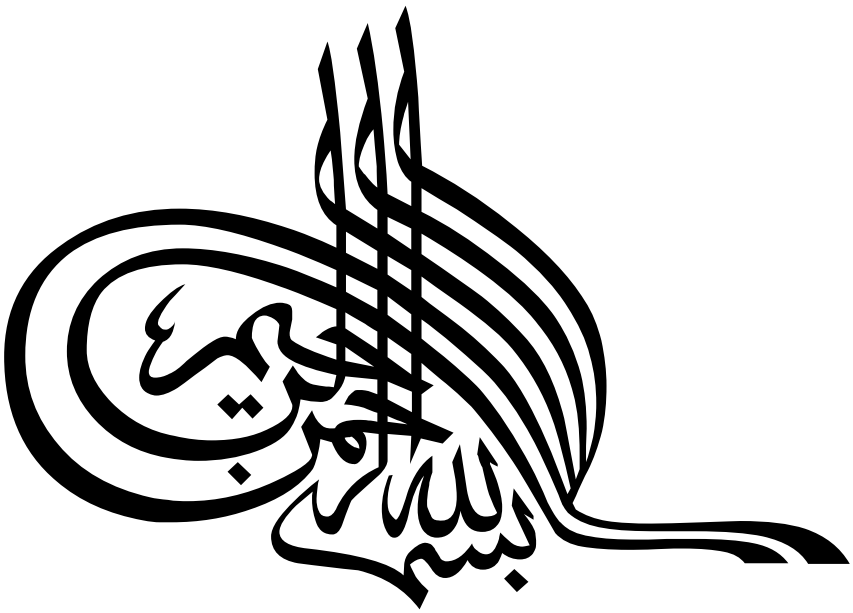

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإهـــــــداء

- إلى روح والدي رحمه الله، وإلى والدتي الحبيبة...
- إلى زوجي الغالي، ورفيق دربي ...
- إلى أبنائي، فلذات كبدي حماهم الله ورعاهم ...
- إلى إخواني، وأخواتي الأعزاء ...
- إلى أهلي، وأحبائي، وكل مَنْ يهمه أمري ...
- إلى جميع الشهداء، والجرحى، والمعتقلين ...

إليهم جميعاً أهدي هذه الدراسة.

الباحثة

نيفين الكردي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين أفضل الصلوات وأتم التسليم، أما بعد :

اعترافاً لذوي الفضل بفضلهم، تتقدم الباحثة بجزيل الشكر لأستاذها الجليل؛ الأستاذ الدكتور/ رياض شاهين، لإشرافه على رسالتها، وتقديم النصائح القيمة لها.

كما تتقدم بالشكر إلى الأساتذة الأفاضل، أعضاء لجنة المناقشة، لتكرمهم بمناقشة رسالتها، وإبداء الملاحظات المفيدة لها ولرسالتها.

كما تتقدم بالشكر للعاملين في مكتبة الجامعة الإسلامية بغزة، وللمترجمين الذين ساعدوها في ترجمة عشرات المراجع الإنجليزية، وتخص بالذكر الأستاذ/ نعيم عيسى.

كما تشكر السيد/ رامز نسمان الذي قام بطباعة الرسالة، وكل مَنْ قدم لها خدمة ساعدت في إنجاز هذه الرسالة.

الباحثة

نيفين الكردي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	أ
شكر وتقدير	ب
فهرس الموضوعات	ت
قائمة الملاحق	ج
المقدمة	ح
الفصل الأول **الأوضاع الدينية في غرب أوروبا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر**	**1**
أولاً : نظام الكنيسة	2
ثانياً : الكنيسة الإقطاعية	9
ثالثاً : البابوية والكنيسة الغربية	14
رابعاً : حركة الإصلاح الكلـــوني	17
خامساً : الإمبراطورية والبابوية	28
الفصل الثاني **الأوضاع السياسية في فرنسا والمانيا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر**	**47**
أولاً : الأوضاع السياسية في فرنسا (840-1108م)	**48**
1- سقوط البيت الكارولنجي (840-987م)	48
2- أسباب انهيار البيت الكارولنجي	58
3- أسرة كابيه الأوائل وقيامها في حكم فرنـــسا (987-1108م)	61
ثانياً : المانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (887-1106م) :	**65**
1- نهاية البيت الكـــارولنجي (887-911م)	66
2- الأسرة السكسونية (919-1024م)	71
3- الأسرة السالية أو الفرانكونية (1024-1106م)	93
الفصل الثالث **الأوضاع السياسية في إيطاليا وإنجلترا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر**	**104**
أولاً : الأوضاع السياسية في إيطاليا (920-1091م) :	**105**
1- إيطاليا قُبيل الغـــزو النورمـــاني	105
2- قيام دولة النورمان جنـــوب إيطاليـــا (1018م)	107
3- شمال إيطاليا ووسطها في القرن الحادي عـــشر	118

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : الأوضاع السياسية في إنجلترا (871-1097م) : **122**
1- إنجلترا وأخطاء الفايكنج (871-1042م) 122
2- نهاية الحكم الإنجلوسكسوني (1042-1066م) 136
3- إنجلترا تحت حكم النورمان (1066-1097م) 145

الفصل الرابع

الأوضاع الاقتصادية في غرب أوروبا من القرن التاسع وحتى القرن الحادي عشر (الإقطاع) **157**

أولاً : نظام الإقطاع 158
ثانياً : أركان الإقطاع 169
ثالثاً : جانب من حياة المجتمع الأوروبي في ظل النظم الإقطاعيـــة 205
الخاتمة 220
أهم النتائج 220
الملاحق 221
المصادر والمراجع 241
الملخص باللغة الإنجليزية 252

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة الملاحق

رقم الملحق	عنوان الملحق	رقم الصفحة
1-	الإرادة البابوية (Dictatae Papae)	222
2-	البابا جريجوري السابع يقرر قطع الملك هنري الرابع من الكنيسة وعزله عن العرش سنة 1076م	224
3-	رسالة البابا جريجوري السابع إلى الأمراء الالمان عن الإمبراطور هنري الرابع، وما أعلنه من التوبة والندم في كانوسا (28 يناير 1077م)	225
4-	الإمبراطورية الكارولنجية	226
5-	أنساب أسرة شارلمان	227
6-	معاهدة فردان عام 853م	228
7-	معاهدة ميرسين	229
8-	الإمبراطورية الرومانية القديمة	230
9-	الإمبراطورية الغربية في القرن العاشر	231
10-	الإمبراطورية السكسونية	232
11-	خريطة إيطاليا	233
12-	النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا	234
13-	الممالك الإنجلوسكسونية السبع	235
14-	إنجلترا في عهد الملك ألفريد	236
15-	الملك كانوت وخلفاؤه	237
16-	الممالك الجرمانية	238
17-	القرية الإقطاعية	239
18-	إمبراطورية شارلمان	240

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمة :

إن علم التاريخ من العلوم الإنسانية التي تستهوي النفوس وتستفز الحوافز. وهو السجل الحافل لجهد الإنسان وإنجازاته ومسيرته عبر العصور جيلاً بعد جيل.

وكانت هناك ثمة تطلعات تحفزنا للكتابة في تاريخ أوروبا الغربية في العصور الوسطى، خاصة الفترة القريبة من خروج الحملات الصليبية. وترجع الحملات الصليبية في أصلها إلى أوروبا الغربية خلال القرن الحادي عشر، وبذلك فنحن لا نستطيع فهم حقيقة الحروب الصليبية ولا دوافعها ولا أهدافها إلا بالتعرف على أوضاع أوروبا في تلك الفترة، والاضطلاع على الحياة التي كانت تعيشها أوروبا.

ولا ينبغي أن يكون ذلك على المستوى السياسي فقط بل على المستوى الديني والاقتصادي والاجتماعي، لتأخذ فكرة كاملة عن الأوضاع هناك، ونفهم جيداً حقيقة التوجه الأوروبي نحو الشرق.

ولعل مثل تلك الدراسة توضح الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية، تلك الحروب التي عانى منها الشرق الإسلامي وخصوصاً فلسطين.

ولتكون الصورة واضحة؛ لا بد أن تظهر القوى التي كانت الحملات الصليبية نتاجاً طبيعياً لها.

فقد هيأت أوضاع أوروبا الغربية في العصور الوسطى، الظروف المناسبة للحملات الصليبية، التي لم تكن وليدة فكرة معينة أو سنة محددة، لكنها كانت نتيجة عوامل تراكمية عديدة، نبتت في تربة ملائمة حتى اكتمل نضجها، وتمثلت تلك العوامل : بالدينية والسياسية والاقتصادية.

لذلك من خلال هذا البحث تتم دراسة الأوضاع : السياسية والاقتصادية والدينية كأهم قوى تتحكم في التطورات على الساحة الأوروبية.

لقد كان للعامل الديني المتمثل في الكنيسة دوراً رئيساً وهاماً في أوروبا في القرنين : العاشر والحادي عشر الميلاديين، فبعد أن خرجت الكنيسة بالغة الضعف، وفاقدة أهميتها الروحية؛ كان لزاماً عليها أن توثق علاقاتها مع النبلاء العلمانيين؛ لذلك أصبح رجال الكنيسة أتباعاً لسيد إقطاعي؛ مما أدى إلى تحول الكنيسة إلى كنيسة إقطاعية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما سياسياً فقد أحدثت الهجمات البربرية تغييرات هامة في النظام السياسي لغرب أوروبا، حيث اتجهت السياسة للانقسام إلى وحدات محلية صغيرة، ولأن الجيوش الملكية البطيئة الحركة اتضح أنها عاجزة عن التصدي للغارات الخاطفة؛ كان ذلك واقعاً لظهور الإقطاع كإجراء واقعي للتوفيق والعلاج لحقائق العصر.

ومن تلك الظروف خرجت الحملات الصليبية، حيث كان الإسلام في موقف دفاع.

مبررات الدراسة :

ترجع مبررات الدراسة إلى :

1- التعرف على بعض جوانب الأوضاع في الغرب الأوروبي المتمثلة في الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر.

2- التعرف على المؤسسات : الدينية والاقتصادية والاجتماعية في الغرب الأوروبي، وعلاقتها بالنظام السياسي.

3- تعريف القارئ، وصناع القرار في الوطن العربي عامة، وفلسطين خاصة، بحقيقة الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي وُلدت منها الحروب الصليبية، ليتمكن القادة والسياسيون الاستفادة منها.

4- إضافة الجديد للمكتبة العربية، حول الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب الأوروبي من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر.

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى :

1- دراسة الأوضاع الدينية في أوروبا الغربية.

2- دراسة العلاقة بين الكنيسة والسياسة في أوروبا الغربية.

3- دراسة العلاقة بين الكنيسة والإقطاع في أوروبا الغربية.

4- دراسة الأوضاع السياسية التي سادت أوروبا الغربية من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر.

5- دراسة الأوضاع الاقتصادية التي سادت أوروبا الغربية من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر.

6- دراسة الإقطاع وتطوره في أوروبا الغربية.

7- التعرف على مدى تأثير الإقطاع على مجتمع أوروبا الغربية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدراسات السابقة :

اطلعت الباحثة على أدلة الرسائل العلمية في الجامعات العربية، فلم تجد رسالة لها علاقة مباشرة بموضوع بحثها.

حدود الدراسة :

الحد الزماني : تمتد الدراسة من نهاية القرن التاسع إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلاديين.

الحد المكاني : تدرس الباحثة الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في المانيا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا (غرب أوروبا).

منهج الدراسة :

اتبعت الباحثة في دراستها منهج البحث التاريخي، فجمعت بين الروايات المتعددة حول الموضوع الواحد وقامت بتحليله، واعتمدت على عدد من المراجع العربية والإنجليزية، وأولت اهتماماً خاصاً بالمراجع الإنجليزية، لأنها الأقرب إلى مجال دراستها.

صعوبات واجهت إعداد الدراسة :

واجهت الباحثة أثناء دراستها عقبة الحصول على مراجع بلغات أخرى غير العربية والإنجليزية، وذلك بسبب عدم إمكانية سفرها إلى الخارج، لذلك اكتفت بما حصلت عليه من مراجع إنجليزية من المكتبة الإلكترونية Quistia.

تقسيمات الدراسة :

قسمت الباحثة دراستها إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

أما الفصل الأول، فتناول الأوضاع الدينية في غرب أوروبا من القرن التاسع وحتى القرن الحادي عشر، ويتكون هذا الفصل من خمس نقاط : نظام الكنيسة، الكنيسة الإقطاعية، والبابوية والكنيسة الغربية، وحركة الإصلاح الكلونية، والإمبراطورية والبابوية.

ويدرس الفصل الثاني الأوضاع السياسية في فرنسا والمانيا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، ويشتمل هذا الفصل على نقطتين؛ أولاً : الأوضاع السياسية في فرنسا من حيث سقوط البيت الكارولنجي، وقيام أسرة كابيه في حكم فرنسا، وآل كابيه الأوائل (1087-

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1108م)، أما ثانياً : فيدرس المانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة من 887-1106م، من حيث الأسرة السكسونية، والأسرة السالية أو (الفرانكونية).

ويتناول الفصل الثالث، الأوضاع السياسية في إيطاليا وإنجلترا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر، ويشتمل على نقطتين، أولاً : الأوضاع السياسية في إيطاليا من حيث : إيطاليا قُبيل الغزو النورماني، وقيام دولة النورمان جنوب إيطاليا عام 1018م، وشمال إيطاليا ووسطها في القرن الحادي عشر، أما ثانياً : فيتناول الأوضاع السياسية في إنجلترا من حيث : إنجلترا وأخطار الفايكنج، ونهاية الحكم الإنجلوسكسوني، وإنجلترا تحت الحكم النورماني (1066-1097م).

أما الفصل الرابع فيدرس الأوضاع الاقتصادية في غرب أوروبا من القرن التاسع وحتى القرن الحادي عشر (الإقطاع) من حيث : نظام الإقطاع، وأركان الإقطاع، وجانب من حياة المجتمع الأوروبي في ظل النظم الإقطاعية.

وأنهت الباحثة دراستها بالخاتمة التي تضمنت عدداً من النتائج التي خلصت لها الباحثة، ثم ألحقت قائمة المصادر والمراجع والملاحق بدراستها.

وفي الختام، أسأل الله عز وجل أن يتقبل مني، وأن يجعل عملي هذا في ميزان حسناتي يوم القيامة.

الباحثة

نيفين الكردي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دراسة لأهم المراجع :

1- المراجع العربية :

- عاشور، سعيد عبد الفتاح :

أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى، بجامعة القاهرة-كلية الآداب، ألف كتباً عديدة، منها ما أفاد البحث وهي : أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، والحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى).

اشتمل الكتاب الأول : على مواضيع عديدة في التاريخ السياسي والحضاري لأوروبا الغربية، حيث تناول بداية العصور الوسطى واستمر في سرد أحداث تلك العصور والقبائل التي تكونت منها، كما تناول كذلك مواضيع عديدة في التاريخ الحضاري لأوروبا، اشتمل الكتاب على مصادر ومراجع أجنبية عديدة، كان لها أثرها الواضح في جميع فصول الرسالة.

- عمران، محمود سعيد :

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعتي : الإسكندرية، وبيروت العربية، له كتب عدة، أفادت البحث منها : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، حضارة أوروبا العصور الوسطى، معالم التاريخ الإسلامي، وتاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م).

ومن أهم تلك الكتب : كتاب معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، وقد اشتمل ذاك الكتاب على تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، امتد من بداية القرن الرابع حتى الخامس عشر الميلادي.

اعتمد محمود سعيد عمران في كتابه على مصادر وكتب أجنبية عديدة؛ مما أثرى مادة البحث بمعلومات قيمة.

وقد استفاد البحث مما أورده الكتاب عن الأوضاع السياسية في كل من : فرنسا، المانيا، إيطاليا، إنجلترا، وتمثل ذلك في الفصلين : الثاني فالثالث من الرسالة.

- العريني : السيد الباز :

أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بجامعة القاهرة-كلية الآداب، له كتب عربية عديدة وكتب مترجمة، ومن الكتب العربية التي أفادت البحث : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى. أما الكتب المترجمة فمنها : الحروب الصليبية (لآرنست باركر)، وتاريخ الحروب الصليبية (لستيفن رنسيمان)، ومن أهم تلك الكتب التي أفادت البحث : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الذي تناول التطور التاريخي لغرب أوروبا في العصور الوسطى، وكذلك مرحلة نمو كل مظاهر حضارة ونظام أوروبا في العصور الوسطى.

ولقد استفاد البحث بشكل كبير منه في الفصلين : الثاني والرابع، كذلك اعتمد الكتاب على كتب ومصادر ووثائق أجنبية عديدة كانت لها أهميتها في معلومات البحث.

- يوسف، جوزيف نسيم :

أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بجامعة الإسكندرية-كلية الآداب، له كتب عربية ومترجمة عديدة، قد أفاد البحث بكتابة : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، وقد تناول الكتاب التعريف بالعصور الوسطى، وما ثار من جدل حول بدايتها ثم نهايتها من : آراء وأفكار، ثم انتقل للحديث عن الأسس الي ارتكزت عليها تلك القرون، ثم تناول دراسة أبرز قضاياها في المجالين : السياسي والحضاري.

امتاز أسلوب الكتاب : بالسهولة والوضوح في الأفكار والألفاظ، وقد استفاد منه البحث في فصوله الأول فالثالث ثم الرابع.

2- المراجع المترجمة :

- فشر، هـ.أ.ل :

افاد البحث بكتابه : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، الذي نقله للعربية كلٌ من محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني. استطاع ذاك الكتاب أن يشتمل على معالم التاريخ الأوروبي منذ القرن الخامس حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، وقد امتاز في أنه اشتمل على موضوعات تاريخية عديدة في ترتيب زمني دقيق، إضافة إلى اعتماده على مصادر ومراجع أجنبية متنوعة. وقد استفاد البحث بشكل كبير من موضوعات الكتاب في الفصلين : الثاني فالثالث.

- كوبلاند، ج.و :

أستاذ تاريخ العصور الوسطى، بجامعة ليفربول بإنجلترا، أمدنا (كوبلاند) بكتابه : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا، وقد أفاد ذلك الكتاب البحث في الفصل الرابع حيث تناول الكتاب حقائق الإقطاع في العصور الوسطى، مع شرح كثير مما غمض من مظاهر الحياة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والنظم الإقطاعية. وقد ظهرت أهمية الكتاب في أن مؤلفه الأستاذ (كوبلاند)، قد اعتمد في كتابه على ترجمة كتب فريدة والتي تعد من المصادر اللاتينية القديمة.

- كولتون، ج.ج :

هو جورج جوردن كولتون، زاول مهنة التدريس في كلية ترينيتي بكامبريدج محاضراً لمادة : تاريخ الكنيسة، كما كان زميلاً في كلية سان جون San Jhone، ومحاضراً في اللغة الإنجليزية بالجامعة. وهو أحد الثقاة المختصين في تاريخ العصور الوسطى. وفي سنة 1929م قُبِلَ زميلاً في الأكاديمية البريطانية، وله مؤلفات عديدة.

وقد اعتمد كولتون في استقاء معلوماته على عدد من : المخطوطات القديمة، والمصادر اللاتينية، التي أمدتنا بمعلومات هامة.

تناول كتابه : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، واشتملت هوامش الكتاب على معلومات وتعريفات كثيرة. وقد استفاد البحث منه في الفصلين : الأول فالرابع.

هذا، وبالله التوفيق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

الأوضاع الدينية في غرب أوروبا

من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر

أولاً : نظام الكنيسة.

ثانياً : الكنيسة الإقطاعية.

ثالثاً : البابوية والكنيسة الغربية.

رابعاً : حركة الإصلاح الكلوني.

خامساً : الإمبراطورية والبابوية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً : نظام الكنيسة :

إن المتأمل للطبيعة المسيحية في العصور الوسطى يجد نفسه مجبراً أن يبحث ويتعمق في البحث عن النظام الذي سارت عليه الكنيسة في العصور الوسطى، والحديث بالذات عن الديانة المسيحية لا يمكن أن يتلخص في حياة أفراد معينين كان لهم تمييز ديني؛ لأن تلك الديانة وفي تلك العصور كانت تتعلق بالمجتمع بأكمله[1].

إن من المستحيل محاولة فهم تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى وعلاقتها مع الدولة والحياة الاجتماعية داخلها إذا ما تعاملنا في فهمها مع مقتضيات العصر الحديث؛ لأن الكنيسة في العالم الحديث تعتبر كمؤسسة تطوعية محدودة العضوية، محدودة المهام، وتعتبر الدول هي الحقيقة القائمة كهيئة فاعلة تقوم على كل كبيرة وصغيرة في الأمور الحياتية للمجتمع داخل إطارها[2].

كانت الكنيسة في العصور القديمة بمثابة مجلس للصلاة والعبادة يرتاده المسيحيون المؤمنون بالعقيدة المسيحية، وكان أولئك يقطنون مع بعضهم البعض في مكان واحد ربما كان ذلك المكان يتبع أحياناً للكنيسة، وتجمعهم علاقة حميمة باسم الدين، وعندما كانت الحكومة تُقر تشكيل الأمور الكنسية وتنظيمها، كانت (الأبرشية)[3] مجرد تابع يطبق ما تمليه الحكومة بالرغم من أنها كانت تعتبر الرأس المسيحي، وكانت الأديرة والصوامع تتبعها في كل كبيرة وصغيرة، وفي تلك الفترة كان التنظيم الكنسي يتم على نطاق ضيق من حيث المساحة والتأثير. كذلك لم يكن للمجلس (الكهنوتي)[4] أي تأثير في صياغة شريعة الكنيسة وقوانينها[5].

أما الكنيسة في العصور الوسطى المبكرة فكانت القوة الحضارية الرئيسة في أوروبا الغربية، فقد قدمت القيادة للشعب[6]، وكادت أن تقوم مقام الدولة في كل كبيرة وصغيرة، حتى أن أرباب الملك والسيادة كانوا أحياناً لا يقطعون أمراً إلا بمشورتها وإرادتها[7].

كان للكنيسة قانونها الخاص بما يعرف باسم (القانون الكنسي)، وكان يتبع ذلك القانون نظم إدارية لتعزيزه، وكانت تلك القوانين تمارس بشكل مباشر على الكثير من المناحي الحياتية عند المجتمعات، فالزواج وكل ما يتعلق به كان يقع تحت سلطة الكنيسة، حتى عملية تقليد المناصب

---

(1) Bratlet and Carlyle, Christianity in, P. 361.
(2) Dawson, Medieval Essags, P. 75.
(3) الأبرشية : وحدة صغرى من وحدات الكنيسة، ويرأس الأسقف الكنيسة الخاصة بالأبرشية. (هيئة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج1، ص 75).
(4) المجلس الكهنوتي : هو مجلس يضم كبار أساقفة الكنيسة، يُعهد إليه بانتخاب البابوات وإصدار التشريعات الدينية الجديدة. (Rops, The church, P. 131).
(5) Bratlet and Carlyle, Christianity in, P.P. 361-363.
(6) Chadwik, The church, P. 33.
(7) Dawson, Medieval Essags, P. 75.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والتوصية بها كان للكنيسة التأثير الأعظم فيها، وقد كانت كل التشريعات الأخلاقية من سلطة الكنيسة التشريعية، وكانت هي المُنفِّذة إدارياً لكل العقوبات الناشئة عن الإخلال بتلك التشريعات[1].

كانت القوانين الكنسية في العصور الوسطى تستمد في أغلبها من التقاليد التي كان يعيش عليها الناس، وللكنيسة نصيب في ذلك وكل قانون كنسي يُستحدث من قِبل بابا وأسقف، يعود مردوده أصلاً للعرف السائد في تلك المنطقة التي كان يسودها التأثير الكنسي، لذا فقد كان العرف هو السيد، والعرف الكنسي هو العرف الشعبي بلا تغيير ولا تجديد. والمجلس الكهنوتي بمثابة الكينونة الإدارية القائمة عليها، لكنه لا يمكن القول بأنهم هم وحدهم من كانت لهم القوة المطلقة في أخذ القرار وصياغته وعدم مراجعتهم فيه. ورغم ذلك فقد استنكر البابا (نيقولاس Nicholas)[2] ادعاء الإمبراطورية البيزنطية في حقها مشاركة الكنيسة في الصلاحيات التي كانت تمارسها من خلال رسالة إمبراطور القسطنطينية (ميشيل) في القرن التاسع والتي جاء فيها: "أين قرأتم؟، ومن أين علمتم : أن الأباطرة وسابقيهم قد شاركوا في حكم المجلس الكهنوتي؟، اللهم إلا في بعض الأمور التي كان يتم فيها النقاش؛ من أجل الإيمان، ذلك الإيمان الذي هو ليس من خصوصية رجال الدين وحدهم، بل عامة المؤمنين في كل مكان"، تلك الجملة الاستنكارية كانت تمثل قناعة الكنيسة بأكملها في أنها هي الوحيدة المخولة بإدارة نفسها[3].

كان التطور الأهم للكنيسة في العصور الوسطى هو التطور الإقليمي النظامي للكنيسة، أي توحد الكنائس والمؤسسات الدينية تحت نظام واحد في أكثر من بلد في أوروبا، ويمكن القول: بأن حكومة المجتمع المسيحي لم تكن تقتصر على مجمع كنسي واحد في مكان واحد، لكنها كانت تدار تحت مقاييس أعم وأشمل عن طريق التكتلات الأبرشية في مناطق مختلفة من أوروبا، وكانت تلك التكتلات لها مركزية واحدة هي المجمع الكنسي الأكبر، وكانت الكنيسة وبالتحديد في أوروبا الغربية واعية تماماً بأن ذلك التوحد المسيحي يسير تحت مركزية الكنيسة الرومانية، أي أن الكنيسة الغربية كانت تؤمن وتطبق قوانين التسلسل الإداري فيها ابتداءً بالأبرشية فمروراً بالأقلمة الكنسية ثم انتهاءً بالكنيسة الأعظم ألا وهي كنيسة روما[4].

لقد كان الكهنوت منقسماً في مهامه ما بين الدنيوية والدين، أي : أنه كان يحكم الكنيسة بقوانين إمبراطورية فيما يتعلق بالوظيفة التي أُوليت له من قِبل الحكومة، ومن الجانب الآخر كان يحكمها دينياً من خلال النظم الروحية التي كانت تسود الكنيسة[5].

---

(1) Singman, Daily life, P. 12

(2) نيقولاس الأول : بابا روما من عام 858م حتى عام 867م. (عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 308. هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 201 (هامش رقم 1)، تم اختياره بالإجماع خلفاً (لبندكت الثالث)، في وجود الإمبراطور (لويس الثاني). (McCabe, Crisesin the History, P. 103).

(3) Bratlet and Carlyle, Christianity in, P.P. 363, 364.

(4) Bratlet and Carlyle, Christianity in, P. 365.

(5) Singman, Daily life, P. 11

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبذلك انقسم رجال الكنيسة إلى فريقين رئيسين : الفريق الأول : رجال الكنيسة من القساوسة والأساقفة الذين عاشوا حياة أقرب إلى حياة العلمانيين، حيث تزوجوا وأقاموا الأسرات والروابط العائلية والعلاقات الأسرية، وأُطلق عليهم رجال الكهنوت العلمانيين (Secular Clergy)، أما الفريق الثاني فهم رجال الهيئات والمنظمات الديرية المختلفة، وهم الذين اختاروا حياة العزوبة؛ فعاشوا حياة دينية منتظمة، وأُطلق عليهم "رجال الكهنوت النظاميون" (Regular Clergy)، وقد أخذ التقارب بين الفريقين يزداد منذ القرن الثالث عشر الميلادي، فاشترط القساوسة والأساقفة أن يحيوا حياة العزوبة مثل بقية الرهبان[1]. وقد قُسمت إدارياً كالتالي :-

القسم الأول : الإدارة الدنيوية.

كانت الأبرشية هي المحرك الأول لوحدة التنظيم الكنسي، فمنها انطلق التكوين الدستوري للكنيسة والذي كان يمثل العرف العام لدى العامة. لقد انتشرت المسيحية في أوروبا حتى أصبحت رمزاً للوحدة المسيحية في كل أنحاء أوروبا، وكانت في بادئ الأمر مرتكزة على العماد المسيحي من رجال الدين، وكانت بمثابة الممثل أو المندوب عن الأسقفية والتي تعتبر المؤسسة المسيحية الأكبر في الوسط الديني المسيحي[2].

فبذلك كانت الأبرشية هي المثال الأبرز في عالم الكهنوت الدنيوي حيث كان قسيس الأبرشية يمارس صلاحياته فيها على أنه موظف حكومي ويمارس نشاطات تتعلق بالعامة وبالخاصة، وكانت تعاونه في ذلك طبقة أقل منه منزلة من الرهبان، وكان فوق رئيس الأبرشية هنالك طاقم إداري متكامل يدير شؤون الأبرشيات كلها جمعاء، وكان الأسقف يدير ذلك الطاقم الذي يدير جميع الأبرشيات الواقعة تحت إدارته والكنائس التابعة لتلك الأبرشيات والتي كانت منتشرة بالمئات[3].

وقد تكونت الهيكلية الإدارية للكنيسة من :

1- البابا.

كانت كلمة (بابا) تطلق على كل أسقف، ولكن مع بدايات القرن السادس الميلادي أصبح المصطلح يُستخدم في الكنيسة الغربية للدلالة على أسقف روما خاصة[4]، والذي يعتبره الكاثوليك خليفة القديس (بطرس الأول) Peter، وهو معصوماً أو منزهاً عن الخطأ[5].

مثّل البابا وما زال قمة الهيكل الإداري، وهو مسؤول عن كل ما يتعلق بالكنيسة من الناحية الإدارية والروحية[6].

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 174.

(2) Bratlet and Carlyle, Christianity in, P. 366.

(3) Singman, Daily life, P. 11

(4) Ruther, The church, P. 72.

(5) المسيري، موسوعة اليهود، ج1، ص 451.

(6) هيئة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج2، ص 120.

Hughes, A history, P. 61.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُختار البابا من بين أعلى درجات رجال الدين النصراني المعروفين (بالكرادلة)[1][2]، ومعظم البابوات من أصل إيطالي تقريباً، وللبابا سلطة دينية وسلطة دنيوية. كان حكم البابا قضائي مطلق؛ مما مكنه من أن يضع قانوناً لكل الكنيسة، حيث كان يعين الكرادلة، والأساقفة ثم يعزلهم، ويؤسس الأبرشيات ويقسمها ويوافق على الطوائف الدينية النصرانية الجديدة[3].

2- الأسقف.

شخص ذو منزلة رفيعة في الكنيسة، يدير منطقة تحتوي على عدد من الكنائس[4]، حيث كان يرأس أسقفية، ويقوم بالإشراف على شؤون الكنيسة ورجال الدين فيها، أي : أنه يقوم بالإشراف على شؤون الكنيسة في إقليم معين[5]. ويعتبر الأسقف أهم موظف في الهيئة الكنسية، ولا يزيد عنه رئيس الأساقفة في السلطة، إلا في اتساع حدود أسقفيته، وازديادها في الثروة، ومع ذلك فليس له سلطان على الأساقفة. أما الأسقف فله مطلق السلطة على الكنيسة بأبروشيته، من الناحية الروحية، ولا يخضع لأية سلطة روحية عليا[6].

كما كان يطلق على الأساقفة (المطارنة)، وكان يتكون منهم مجمع المطارنة، وهو مسؤول عن قيادة الكنيسة، ويعتبر ذلك المجمع مسؤول أمام البابا[7]. وكان الأساقفة يملكون الكهانة الكاملة، وعليه فإنهم هم فقط الذين يتمكنون من تعيين رجال الدين النصارى، ويؤدون وظائف كهنوتية معينة أخرى، وتعتبر الكنيسة الأساقفة خلفاء لحواريي عيسى عليه السلام، وتدعى تلك العلاقة بالخلافة البابوية أو الرسولية[8].

وقد انقسم العالم المسيحي إلى أسقفيات واسعة، كان يرأس كل منها أسقف يشرف على شؤون الكنيسة ورجال الدين في أسقفيته، ثم انقسمت كل أسقفية من تلك الأسقفيات إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة أو بواسطة الحكام العلمانيين الذين يهبونها للكنيسة. واعتاد مؤسسو تلك الكنائس أن ينظروا إليها على أنها ملك خاص لهم؛ وبالتالي أصروا على الإشراف عليها[9].

---

(1) الكرادلة : هم أبرز أعضاء (الإكليروس) في روما من أساقفة منطقة روما، والمسؤولون عن أكبر كنائسها، والشماسة السبعة المكلفين بإدارة شؤون الكنيسة. (مفرج، موسوعة عالم، ج1، ص 45).

(2) هيئة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج2، ص 7.

(3) Ruther, The church, P. 72.

(4) هيئة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج2، ص 8.

(5) الشيخ، النظم والحضارة، ص 179.

(6) العريني، تاريخ أوروبا، ص 447.

(7) Hughes, A history, P. 61.

(8) هيئة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، مج2، ص 8.

(9) عاشور، حضارة ونظم، ص 353، 354.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- القساوسة.

كان يتبع الأسقف في الدوقية التي يعمل بها طاقم أساسي من موظفي الكنيسة، وهو عبارة عن هيكلية ضخمة من القساوسة كانوا يسمون الكهنة، أي : القائمون على تطبيق القوانين الإدارية للكنائس والأبرشيات، وتأدية المهمات الدينية في الكاتدرائية أو الأسقفية[1].

وكان القسيس يقوم بمراقبة سير الأمور الإدارية في الأبرشية، ويقوم بإلقاء الإرشادات لرئيس الأبرشية التي كان قد تلقاها سابقاً من الأسقف الأكبر[2].

كان أولئك القسس يتم ترشيحهم من قِبل السيد الإقطاعي من الأقنان[3]، ولم يمتاز عن الفلاحين المحيطين بهم في مستواه الاقتصادي، حيث اعتمدوا في معيشتهم على نصيبهم في غلة أراض القرية. وكانوا من الناحية العلمانية يخضعون للسيد الإقطاعي الذي تقع الأبرشية في أراضيه، أما في الجانب الديني للأسقف الذي يتبعه[4].

وكان القساوسة يشتغلون بالتأليف أو قراءة الكتب، وكانوا في كافة المناطق الواقعة شمال الألب، هم المحتكرون شرعاً للتعليم، ابتداءً من المدارس الأولية حتى الجامعة، رغم أنه لم تكن في العصور الوسطى أية طريقة تربوية نظامية. وكان الأساقفة أو البابوات يقررون على كل قسيس التدريس مجاناً في نطاق أبرشيته[5]، ولأهمية ذلك العضو؛ كان من الضروري مراعاة الدقة في اختيار قسيس الأبرشية والتأكد من ثقافته، وسلامة أخلاقه، وألا يقل سنه عن خمس وعشرين سنة، إلا أن قساوسة الأبرشيات ظلوا في كثير من أنحاء أوروبا لا يتميزون عن عامة الناس في شيء، فضلاً عن اشتهار كثير منهم بسوء السيرة ومعاقرة الخمر، وبخاصة في الأعياد المقدسة[6].

وكان كُلٌّ من البابا ورئيس الأساقفة يحملان مهام وظيفية ذات أعباء ثقيلة؛ لذلك كانت تتبعهم طواقم إدارية ضخمة من الكهنوت، وكان لكل منهما طاقمه الإداري الخاص به[7].

---

(1) Singman, Daily life, P. 11
(2) Ibid, P. 11
(3) العريني، تاريخ أوروبا، ص 448.
(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 354.
(5) كولتون، عالم العصور، ص 99، 100.
(6) الشيخ، حضارة ونظم، ص 181.
(7) Singman, Daily life, P. 11

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القسم الثاني : الإدارة الدينية.

كان الكهنوت الإداري الديني يتعلق بالرهبان والذين كانوا يتحلون بكمال روحي منسجماً انسجاماً كلياً عن العالم الدنيوي ويعيشون في جماعات خاصة محكومة بنظام إداري ديني بحت[1].

انتقلت الرهبنة من مصر إلى أوروبا، حيث انتشرت هنالك حوالي القرن الرابع الميلادي[2]، وكان أول من أنشأ الحياة الرهبانية في الغرب القديس (مارتن Martin)[3] (316-397) أسقف (تور Tours) في فرنسا، وكان راهباً نشر الحياة النسكية، وأسس فيها الأديار الأولى[4]. وبزيادة عدد الرهبان؛ بدأت الحركة الديرية الغير منظمة، حتى ظهر النظام البندكتي في القرن السادس الميلادي، أسس الراهب (بندكت Benedict) جماعة رهبانية في جبل (كاسينو Cassino) بجنوب إيطاليا في عام 529م، فكُتب له من خلالها تأثير هائل على طبيعة تلك الحركة في كافة أنحاء الكنيسة الغربية، ووضع لرهبانه مجموعة من القواعد الثابتة كانت هي البذرة التي نشأت منها حركة من الإصلاح الشامل[5].

حقق (بندكت) الفكرة الديرية في أوروبا على الوجه الأكمل، حيث أدخل نظام الديرية على أساس الحياة الاجتماعية للرهبان في أديرة لها قوانينها وتقاليدها وأنظمتها، وقام نظام (بندكت) على أربعة اعتبارات رئيسة هي : التبتل، الطهارة، نكران الذات، والطاعة العمياء. وقد نظر بندكت إلى الراهب كمخلوق بشري؛ فأوصى بالاعتدال في التقشف، وأدخل نظام العمل اليدوي والذهني في نشاطهم اليومي، فخصص بعض الرهبان لفلاحة الأرض، والبعض الآخر لرعاية الماشية، ولإعداد الملبس والمأكل والمشرب، بحيث يصبح الدير البندكتي وحدة مستقلة لا تحتاج للعالم الخارجي في شيء[6].

واعتنى أيضاً بالناحية العلمية؛ فأوجد في كل دير نواة لمكتبة ومكاناً لنسخ الكتب؛ تشجيعاً لمن يجدون في نفوسهم ميلاً للكتابة والتأليف. لذلك كانت الأديرة البندكتية منبعاً للعلم في المجتمع الغربي الوسيط، بينما كان عامة الناس يغطون في الجهل[7].

---

(1) Singman, Daily life, P. 11. Chadwik, The church, P. 33.

(2) يوسف، تاريخ، ص 171.

(3) القديس مارتن : لقبه سيد القديسين، وأسقف مدينة تور الفرنسية، أسس العديد من الأديرة، ووقف حياته على نشر النصرانية ومحاربة الوثنية. (البعلبكي : معجم أعلام المورد، ص 404).

(4) مفرج، موسوعة عالم، مج8، ص 184 (هامش رقم 1).

(5) _____, The fathers, P. 125.

(6) يوسف، تاريخ، ص 171.

(7) كولتون، عالم العصور، ص 172 (هوامش).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قام النظام البندكتي على أساس الاستقلال الذاتي لكل دير، فيكفي الدير نفسه بنفسه ويصبح مأوى دائماً لأعضائه، يعيشون داخله في شبه عزلة تامة عن غيرهم. لكن تلك العزلة عرضته في كثير من الأحيان؛ للانحلال والتدهور، حتى قيل : إن اثنين من رهبان دير فارفا قتلا مقدم الدير سنة 936م ثم فرضا سيطرتهما على الدير حيث عاشا عيشة أقرب إلى الأمراء، فصار لكل منهما زوجته وأولاده وأتباعه الذين ينعمون بخيرات الدير وضياعه[1].

نشأت بعد بندكت رهبانيات جديدة اتخذت قواعده أُنموذجاً لها؛ فظهرت في كافة أنحاء أوروبا جماعات كان الرجال فيها يعملون ويصلون معاً، مبشرين الناس المقيمين من حولهم وداعين إياهم لاعتناق المسيحية. وكانت تلك الجماعات مراكز للتعليم والفن وحتى إدارة المزارع، ومن تلك الأديرة خرج المزيد من الرهبان ليصبحوا مستشارين لدى الملوك والأساقفة، ويضعوا هيكلاً لرجال الدين العاديين، وأصبح أحد الرهبان البابا (غريغوريوس الكبير)[2]،[3].

لكن الرهبان كانوا، بصفة عامة أفضل رجال الدين، وأكثرهم شعبية. لذلك كان بعض اللوردات أثناء حياتهم، وعند مماتهم عندما يدلون بوصاياهم وهم على فراش الموت، يهبون الأديرة تلك الكنائس التي كانوا يمتلكونها؛ لأن أسلافهم هم الذين أسسوها. وكان البابوات والأساقفة قد أخذوا يأذنون للرهبان في حالات خاصة متميزة في الاستيلاء على الكنائس للاستعمال الشخصي، وكان الوضع القانوني في مثل تلك الحالات بأن يكون الدير هو راعي الأبرشية، أي المشرف عليها، وله الحق في كافة العشور وغيرها من الواجبات. ولكن الرهبان قلما كانوا يقومون بواجبات القساوسة في الأبرشيات؛ لذلك عين الرهبان رجلاً يسمى (خوري) وهو مساعد أو نائب لراعي الأبرشية؛ لأداء الواجبات الفعلية للأبرشية[4].

كان الإداري الدنيوي هو نفسه الإداري الديني، لكن الإداري الديني لا يكون إدارياً دنيوياً؛ لأنه اقتصر في إدارته على ما يخص الجانب الروحي من الكنيسة، أما الدنيوي فقد عمل بالمجالين معاً[5].

---

(1) عاشور، حضارة ونظم، ص 364.

(2) غريغوريوس الكبير : بابا روما من عام 590م حتى عام 604م، اتصف بالتواضع والحماسة للدين المسيحي. (البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 140).

(3) _____, The fathers, P. 125.

(4) كولتون، عالم العصور، ص 105، 106.

(5) Singman, Daily life, P. 11.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : الكنيسة الإقطاعية :

اقتنت الكنيسة أموالاً تم الحصول عليها في عصر سبق عصر الإقطاع، فالهيمنة الكنسية الروحية كانت هي المسيطرة، وكادت سيطرتها تفوق سيطرة الدولة[1]. لكن رغم ذلك لم يتخطَّ تأثير النظام الإقطاعي الكنيسة، بل على العكس فلقد كانت الكنيسة إقطاعية بكل ما في الكلمة من معنى[2].

استطاعت الكنيسة الكاثوليكية في ظل العلاقات الإقطاعية أن تصوغ الدين في شكل يتفق مع تلك العلاقات؛ فعملت على تمجيد حياة الزهد، والتقشف، والنهي عن التمتع بجمال الحياة ونعيمها بالنسبة للشعب فقط دون رجالها، كما دعت أولئك الناس إلى تعذيب النفس وحرمانها؛ استعداداً لنعيم الآخرة؛ وذلك بغرض حمل الشعب على قبول الاستغلال الإقطاعي في إذعان واستسلام[3].

بدأت الكنيسة في تشكيل الممتلكات والهبات التي حصلت عليها في عصر الإقطاع، ثم تحويلها إلى مؤسسة إقطاعية، وليس الهبات وحدها كانت تعمل على تحويل الكنيسة إلى مؤسسة إقطاعية، بما تحويه من ممتلكات وأموال، لكن جميع المؤثرات الأخرى المحيطة أيضاً كان لها دور في ذلك[4].

كانت ثروة الكنيسة الهائلة تستمد من اعتمادها على قطع الأراضي التابعة لها والتي كانت تقع طبيعياً ضمن النظم والمجالات الإقطاعية[5]. فقد مُنحت السلطات الكنسية الكثير من الأراضي والممتلكات للكنيسة، خلال عهد الإقطاع؛ وبالتالي أصبحت الكنيسة بمثابة مالك له الحق في التصرف بتلك الأراضي على النحو الذي تريد، ولذا فإن الأديرة والأسقفيات التي كانت في ذلك البلد أو غيره، أصبحت معنية وملزمة بتوفير قوى عاملة مدنية؛ لرعاية شؤون الممتلكات التي تسيطر عليها، ولكن على النسق الإقطاعي الطاغي في تلك الفترة، وبالتالي فإن الأراضي التي كانوا يمتلكونها بدأت في التحول لتصبح بمثابة إقطاعات كما الحال عند السادة النبلاء[6].

كانت معظم الأراضي التي حازتها الكنيسة إنما بدعوى استخدامها لأغراض كنائسية وخدماتية، ولكن رجالات النظام الكهنوتي أنفسهم كانوا يمتلكون أراضٍ خاصة بهم[7]. فكثيراً ما

---

(1) Sellery (editor), Medieval, P. 189.
(2) Lamonte, The world of of, P. 223.
(3) _____, States Rights, P. 60.
(4) Sellery (editor), Medieval, P. 189.
(5) Lamonte, The world of, P. 223.
(6) Sellery (editor), Medieval, P. 189.
(7) Lamonte, The world of, P. 223.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان مالك الأرض أسقفاً أو رئيس دير، وبالرغم من أن الكثير من الرهبان كانوا يعملون بأيديهم، وأن الكثير من الأديرة والصوامع كانت تبنى بمساهمات مادية إلا أن الدعم المادي الإضافي كان ضرورياً لبناء صروح كنائسية ضخمة، وقد كان معظم الدعم يأتي عن طريق الملوك والنبلاء، وذلك بمنح قطع أراضي للبناء أو بمساهمات مادية ناتجة عن الدخل الإقطاعي الوارد لخزينة الدولة، أو لخزينة أحد النبلاء، ومع بدء جمع تلك المساهمات، أصبحت الكنيسة أكبر مالك للأراضي في أوروبا، وأكبر عنصر في المؤسسة الإقطاعية، وكان من بين الأديرة ما يمتلك مساحات أراضٍ مبني عليها ما لا يقل عن 1500 مسكن فخم[1].

وهكذا فإن القسيس أو الكاهن، الذي كان عضواً من أعضاء الكنيسة والمدرج ضمن منظومة كهنوتية هرمية ومستقلة استقلالاً تاماً عن المجتمع المدني في تلك الفترة، أصبح عضواً ضمن المنظومة الهرمية الإقطاعية[2].

كان الكثير من السادة على مدار القرن الحادي عشر يقدمون الإقطاعات للكنيسة؛ طالبين البركة والغفران والنجاة من الآخرة، حيث كان الكاهن أو الراهب يقوم بالتوسط لذلك السيد عند الرب؛ ليمنحه العفو والغفران، من ذلك مَنح السادة الكثير من أموالهم للكنيسة وخاصة من أموالهم الموروثة، والتي كانوا يوصون بجزء منها للكنيسة مقابل الافتداء من الخطايا والذنوب، أو لتأمين أنفسهم من الآخرة[3].

واجهت الكنيسة باستمرار مشكلة كبرى ألا وهي : هل رجل الكنيسة يعتبر ذا مكانة دينية خالصة؟ أم أنه قطب من أقطاب النظام الإقطاعي[4][5]؟ كان الكهنوت مجبراً وملزماً بممارسة عدة مهام إقطاعية لا تتناسب مع شخصيته الدينية، وكانت الحرية المطلقة للكنيسة في الانتخابات الداخلية، تخضع لاعتبارات مادية محضة، حتى إنها كانت تحسم إقطاعياً، وكان القائم على مكتب الكنيسة يقوم على إدارة أراضٍ وهبت من قبل النظام الإقطاعي للكنيسة، وبما أن السيد أو المالك كان هو الواهب لتلك الإقطاعيات؛ فإنه كان يحق له التدخل في الانتخابات[6].

---

(1) Durant, The age, P. 564.
(2) Sellery (editor), Medieval, P. 189.
(3) Sellery (editor), Medieval, P.P. 199, 200.
(4) الإقطاع : كلمة إقطاع مأخوذة من اقتطاعية، وهي قطعة من الأرض أو قطع أراضي، يُشرف عليها سيد أو نبيل؛ من أجل الاستفادة منها. (Smith, A constitutional, P. 40)، وسيأتي له دراسة مفصلة بعد.
(5) Lamonte, The world of, P. 223.
(6) Sellery (editor), Medieval, P.P. 199, 200.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بذلك ازداد سلطان البابوية السياسي إلى جانب سلطانها الديني، وأصبحت تمثل إحدى القوى الحاكمة في إيطاليا، وخير ما يوضح نفوذ البابوية في تلك الفترة، هو تضاعف ممتلكاتها الكنسية، تلك الممتلكات التي لم تضمن للبابوية مورداً مالياً ضخماً فحسب، بل حققت لها نوعاً من النفوذ المادي والمعنوي في البلاد[1].

أما الأساقفة ورؤساء الأديرة فقد عينهم الملوك أو بعض الأمراء الذين استأثروا بالصلاحيات الملكية، لذلك، وبتأثير من المفاهيم الإقطاعية، كانت الوظيفة الدينية، والسلطات المرتبطة بها، في نظر المعاصرين، بمثابة استثمار يعود للسيد العلماني الذي يسلمه لرجل الكنيسة بمعاملة تقليد رمزية[2].

كان الرهبان والأساقفة ينالون ترقيات ومناصب عليا، ومِنَح من الملك، حيث كانوا يعلنون له الولاء والإخلاص كباقي الإقطاعيين الآخرين، ومثل تلك المناصب (الدوق والكونت) وقد كانت تُستغل لجمع أكبر قدر من المال وتقلد مناصب أكبر كرئاسة مجلس الأساقفة، أو حتى كرسي البابوية نفسه، وكانت تمارس تلك الممارسات الإقطاعية وبشكل كبير في كُلٍّ من : المانيا وفرنسا[3].

وكان الرهبان أنفسهم مكاتبهم ومبانيهم الخاصة بهم؛ مما كان يؤكد على كينونتهم الإقطاعية، بالرغم من أن تلك الإقطاعيات كانت تستخدم لأغراض كنائسية، ذلك كان بمثابة محطة فاصلة لعبت دوراً هاماً في رصد وتشكيل أحداث أواخر القرن الحادي عشر[4].

كما ظهرت أيضاً كنائس الرعاية الريفية التي كانت ملك للعائلات الشريفة، التي ورثت مؤسسي المعبد واعتبرت من حقها استثماره على غرار أملاكها الأخرى والتي لم تستحل كافة مداخيل المذبح فحسب، بل عينت قساوسة من بين أتباعها، واختارتهم بين أوضع الناس مرتبة؛ كي يكونوا أسهلهم انقياداً[5]. تلك المسألة طورت أُنموذجاً إقطاعياً جديداً سُمي (بالكنائس المملوكية)، والذي من خلاله مارس رجال الكهنوت تحكماً غير لائق حيث إنهم حاولوا استقطاب المزيد من تلك الملكيات للمبرر ذاته. ولم يكن معظم القساوسة الذين يوظفون في تلك الكنائس يستحقون تلك المناصب، ولأن مالك الأرض وبكل بساطة كان يستطيع توظيف أبناء رفاقه

---

(1) Garrey, Mistake Identity, P. 15.

(2) بروي، تاريخ، مج3، ص 316.

(3) Durant, The age, P. 564.

(4) Lamonte, The world of, P. 223.

(5) بروي، تاريخ، مج 3، ص 316.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأقاربه بغض النظر عن كفاءته الدينية أو العلمية، فقد كان معظم رجال الكهنوت المحليين من طبقة الأميين، كما كان الابن الأصغر لأي نبيل من النبلاء يُمنح العضوية الأسقفية[1].

مارست الكنيسة الاستغلال المادي لتلك الجماهير بأشد مما كانت تمارسه طبقة النبلاء والإقطاعيين، وكان البابوات في روما يعيشون عيشة الترف، حيث انغمس بعضهم في الرذيلة، كما تمتع بعض رجال الكنيسة بالكثير من الحقوق والامتيازات الدينية والمدنية، التي لم يكن يتمتع بها سائر أفراد المجتمع، وكانت الكنيسة إلى جانب امتلاكها الإقطاعيات الواسعة معفاة من الضرائب، كما كان لها الحق في جمع نوع من الضرائب على شكل العشور[2].

كانت العشور تشكل ضريبة ثقيلة للغاية، وهي عبارة عن ضريبة دخل تسدد بواقع شلنين عن كل جنيه، وكانت تمتد إلى الطبقات الدنيا حتى تصل إلى خدم المنازل، وكانت تحسب على جملة الإيراد، مقابل ما كانوا يتكبدونه من النفقات المتصلة بالعمل. كما كان هنالك ما يعرف بالغرامة المفروضة في شكل بهائم حية أو مواشي مذبوحة أو أموال، تؤول إلى الدير – في حال كان هو صاحب الإقطاعية وراعي الأبرشية– عند وفاة عاهلها. فالأسرة التي تمتلك ثلاث أبقار فقط، يتعين عليها أن تتنازل عن بقرتين منها، وفي المدن، كان أجمل رداء، والقزان النحاسي والسرير الذي مات عليه الرجل، يؤخذ على أنه ضريبة وفاة[3].

وبسبب الأموال الطائلة التي حصلت عليها الكنيسة؛ لجأ رجال الكهنوت إلى إحاطة أنفسهم بجنود وعساكر؛ للدفاع عنهم، أو تعزيز كرامتهم كسادة إقطاعيين من الدرجة الأولى، واقتطعوا أجزاء من ممتلكات الكنيسة، وأجروا عليها نظام الاقتطاعات، وجلبوا لها المزارعين والفلاحين والعبيد ممن بايعوهم على الخدمة والدفاع كحال العبيد لدى السادة الإقطاعيين[4].

بوقوع الكنيسة في شرك الإقطاع، وجدت نفسها مؤسسة سياسية وعسكرية واقتصادية إضافة لكونها مؤسسة دينية[5].

أصبح الأساقفة والرهبان ملزمين بإرسال رجالهم للانضمام في صفوف جيش الملك، وقد بدأت تلك المسألة في فرنسا ثم انتشرت في المانيا، حيث أقدم الكهنوت على اعتبار

---

(1) Lamonte, The world of, P. 223.
(2) _____, States Rights, P. 61.
(3) كولتون، عالم العصور، ص 121، 122.
(4) Sellery (editor), Medieval, P. 200.
(5) Durant, The age, P. 564.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إقطاعيات الكنيسة عاملاً مؤثراً في تعزيز قوة الملك مقابل تقلدهم للمناصب العليا في الدولة، وقد منحوا ألوية مشابهة تماماً للألوية التي كان يتقلدها سادة الإقطاع[1].

وتولى رجال الكنيسة القضاء، وراقبوا الشؤون العامة، والسلوك الفردي الخاص، وأسهموا في تكييف العرف بتسجيله في كتاباتهم؛ لذلك بلغوا مكانة ملحوظة في الحياة القبلية أو القومية[2].

وقد وصف أحد المؤرخين الكنيسة بقوله : "الكنيسة الكاثوليكية كانت المركز الدولي العظيم للإقطاع، وهي التي وحدت أوروبا الغربية الإقطاعية، وجعلت فيها –برغم كل الحروب الداخلية– نظاماً سياسياً موحداً ضد الكنيسة المنشقة عليها، والممالك الإسلامية على حد سواء، فقد أحاطت الأنظمة الإقطاعية بهالة من القداسة ونظمت طبقاتها؛ وبذلك أصبحت الكنيسة أقوى سيداً إقطاعياً؛ وتملكت ثلث أرض العالم الكاثوليكي"[3].

ورأى دورانت أن : "كانت ممارسات الكنيسة الإقطاعية عاراً وفضيحة بالنسبة للدين المسيحي في كل أوروبا"[4].

أما ديفيز فرأى : "أن الأساقفة تحولوا إلى أمراء يلبسون لباس رجال الدين، واستغلوا تلك الناحية لمصالحهم، منذ القرن السابع حتى الحادي عشر والثاني عشر؛ وبذلك استشرت أمراض في المجتمع الأوروبي يمكن أن يطلق عليها أمراض الكنيسة"[5].

ذهب المؤرخ الأول : إلى أن الكنيسة عبارة عن نظام مركزي مقدس للإقطاع، وبذلك لا توجد أية مشكلة في كونها إقطاعية ما دامت تعود بفائدة على المجتمع أو أوروبا بأكملها على حسب قوله، بغض النظر عن المشاكل أو المفاسد التي نتجت عن ذلك النظام[6].

ومن الطبيعي أن تصل الكنيسة إلى تلك المرحلة من الضعف والهوان في ظل الحكومات والشعوب التي سكنت أوروبا الغربية، ذلك أنه لم يوجد بها العمق الديني، أو الصفاء والنقاء.

---

(1) Sellery (editor), Medieval, P. 200.

(2) كرامب وجاكوب (تحرير)، تراث، ج1، ص 46.

(3) _____, States Rights, P. 62.
(4) Durant, The age, P. 564.
(5) Davis, Business, P. 131.
(6) _____, States Rights, P. 62.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثاً : البابوية والكنيسة الغربية.

إن جزءاً كبيراً من تاريخ الكنيسة هو بالضرورة تاريخ البابوية، التي تُعتبر من أفضل مؤسسات المسيحية توثيقاً، ولقد اقتضى تقسيم روما القديمة أن تصبح روما هي البطلة الحامية للإيمان في الغرب[1]. وتطلب موقف الكنيسة الغربية المتعاظم وتشبهها بالإمبراطورية قيام شخصية عظيمة على رأسها، كما كان للإمبراطورية إمبراطور يتزعمها[2].

وتكشف العوامل التي هيأت لأسقفية روما تلك الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب. ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدنية التي يقوم فيها كرسيه الأسقفي، فضلاً عن أن روما كانت تزداد فخراً بذهاب بطرس وبولس ومرقس[3] إليها و(استشهاد) بطرس وبولس في أراضيها[4]. وبذلك ارتكز ادعاؤها بالسيادة على كونها القيمة على رفات القديس بطرس، فكانت هي الأسقفية الرسولية الوحيدة في الغرب بلا منازع[5].

وبذلك زرع أساقفة روما هيبتهم، وحاولوا فرض سيطرتهم الدينية على العالم المسيحي من وقت لآخر. ففي سنة 455م أصدر الإمبراطور (فالنتيان الثالث) إمبراطور روما مرسوماً يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب لبطريرك روما، وهكذا سادت الأمور حتى تحققت للبابوية في روما سيادتها الفعلية في صورة عالمية، بدءاً من عهد البابا جريجوري الأول عام 590م بوصفه خليفة القديس بطرس[6].

وكان أهم مظاهر السيادة الكنسية في العصور الوسطى، اتساع نشاط المحكمة البابوية في روما، حتى صار الكثيرون يلجأون إلى روما في القضايا الصغيرة والكبيرة على السواء؛ مما جعل القانون الكَنسي يتخذ صفة عالمية من جهة، وجعل الكنيسة على صلة وثيقة بأطراف العالم المسيحي من جهة أخرى، وقد توسعت الكنيسة في ذلك العصر في نظام المبعوثين أو المندوبين، فكان البابا يرسل مندوباً أو أكثر إلى أية جهة من جهات العالم المسيحي لحل مشكلة

---

(1) _____, The fathers, P. 124.
(2) McCabe, Crises, P. 38.
(3) اعتقد المسيحيون : أن (بطرس وبولس ومرقس) من الرسل، أما بطرس فاتجه إلى تبشير الوثنيين بدلاً من اليهود، وكان أول من بشره هو القائد الروماني (قرنيليوس) مع جميع أهل بيته، و(بولس) هو أول من اقتنع بوجوب تحرير المسيحية من الموسويّة، كما عُرف برسول الوثنيين، ومرقس هو تلميذ (لبولس). (مفرج، موسوعة عالم، ج11، ص 21-23).
(4) McCabe, Crises, P. 39.
(5) _____, The fathers, P. 124.
(6) McCabe, Crises, P. 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو قضية أو إبلاغ عن رغبة بابوية معينة، وعن طريق أولئك المبعوثين؛ استطاع البابا أن يقف على أحوال الكنيسة المسيحية في مختلف البلاد الأوروبية من ناحية، وأن يضمن تحقيق مصالحه وتنفيذ رغباته من ناحية أخرى[1].

لقد ساهمت الدبلوماسية البابوية بالتدريج في نشوء نمط من الممالك المسيحية في أوروبا البربرية، وواجهتها في تلك المساعي صعوبات جمّة؛ لأن الكثير من الشعوب الجرمانية كانت وثنية، بل إن بعضها كانت تعتنق مذهباً مسيحياً يسمى الأريوسي[2] الذي ينكر ألوهية المسيح، ولم يكن بالإمكان أن تقتلع بين ليلة وضحاها التربة التي نشأت فيها تلك المعتقدات. لذلك كانت المسيحية في العادة تتصرف بحذر كبير، فَتَنْصُر المقامات الوثنية القديمة مثلاً عن طريق ربطها بشهيد أو ناسك مسيحي، وتتبنى أيام الأعياد الوثنية ثم تحولها إلى أعياد مسيحية؛ وهكذا دخل الكثير من السحر والخرافة إلى المسيحية، وبقي فيها لزمن طويل. أما في المسائل الجوهرية، مثل إدانة الثأر بالدم، أو تأييد مبدأ الزواج المسيحي الأحادي[3]، فقد وقفت الكنيسة موقفاً حازماً، وعلى تلك الصورة تشكلت الشعوب التي نشأ منها الأوروبيون الأوائل[4].

وبذلك فإن تلك الإدارة البابوية المترامية الأطراف كانت بحاجة إلى موارد مالية ضخمة تسد مطالبها، وهنالك استطاع البابا أن يوسع أملاك الكنيسة ويوازي عوائدها بالعوائد والرسوم التي حصل عليها الملوك والأمراء من أراضيهم، زيادة على الأموال التي حصلت عليها البابوية من الأديرة والملوك والأمراء الذين ينشدون حمايتها في مختلف أنحاء أوروبا. كذلك اعتادت بعض البلاد الغربية وحكامها أن يدفعوا ضريبة معينة للكنيسة، كما أدى ازدياد نشاط المحكمة الكنسية إلى إضافة مورد مهم؛ نتيجة للرسوم القضائية التي تُفرض على المتقاضين[5].

وبذلك اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام في الفترة الواقعة بين القرن التاسع ثم نهاية الحادي عشر. فالبابا غدا أقرب أن يكون نبيلاً رومانياً، لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة في فرنسا والمانيا وإيطاليا وإنجلترا وغيرها. أما الأساقفة فقد أصبحوا من رجال الإقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات[6].

---

(1) Bonhoeffer, The Communion, P. 28.

(2) المذهب الأريوسي : مذهب مسيحي يُنكر ألوهية المسيح وينسب إلى الكاهن آريوس أحد كهنة الإسكندرية، وتتمحور تعاليمه المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة الثالوث (الأقدس) ببعضها البعض. (Rops, The church, P. 256).

(3) مبدأ الزواج المسيحي الأحادي : هي الوحدانية في سر الزواج، التي هي من خصائص الزواج المسيحي التي لا يجوز من خلالها فرض مبدأ تعدد الزوجات. (Rops, The church, P. 256).

(4) _____, The fathers, P. 124.

(5) Bonhoeffer, The Communion, P. 28.

(6) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 334.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتولّى البابوات والأساقفة وظائف حكومية عديدة، بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة، وجمعت الكنيسة الضرائب، واحتفظت بالمحاكم التشريعية لمعاقبة المجرمين، فضلاً عن أن المباني الكنسية كانت بمثابة مشافي للمرضى ونُزُل للمسافرين[1].

حتى أن الحكم داخل الكنيسة كان محلياً، ففي السابق كان الأساقفة المحليون لا يتخذون التشريع الكنسي الذي يفرضه أسقف روما؛ لكونه البابا الأعظم في العالم المسيحي، ولكن بالضعف المتواصل للملوك، وقلة قنوات الاتصال بين الكنيسة الأم والكنائس الأخرى أصبحت البابوية وخاصة بعد موت البابا (نيكولاس) تلعب دوراً سلبياً ومهمشاً إلى درجة بعيدة، فقد كانت نادراً ما تبادر بتوطيد علاقاتها مع الكنائس البعيدة عنها، وحتى القريبة منها في إيطاليا نفسها. كما أصبحت البابوية المنهارة في روما بمثابة ألعوبة في أيدي أرباب السياسة المحلية، وإن كانت أوروبا منهارة ومفتتة في تلك الحقبة فإن البابوية لا شك كانت تشاركها ذلك الضياع والتفتت[2].

كانت الوحدة الأساسية للكنيسة، والتي ميزتها البابوية كسلطة مباشرة عليها قد اختفت قرون عدة؛ ففقدت الكنيسة تلاحمها؛ فتاهت في متاهات النظم الإدارية وسرقة المراتب وبيعها وشرائها، إضافة إلى شراء الذمم والكسب الديني غير المشروع عن طريق صكوك الغفران[3].

حقيقة : أن الكنائس المحلية في مختلف بلاد غرب أوروبا ظلت تنظر إلى البابا على أنه زعيمها الروحي، ولكن نفوذ البابوية على تلك الكنائس كان اسمياً، فكثير من البابوات في الفترة الواقعة ما بين القرنين التاسع والحادي عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيهاً فعلياً رشيداً، ولم يفكروا في دعوة مجامع دينية عامة، وتركوا مهمة ذلك التوجيه ودعوة المجامع إلى الملوك في كل بلد من البلدان حسب مقدرة أولئك الملوك، ومقدار سيطرتهم على الكنيسة في بلادهم؛ مما أدى إلى تفكك الكنيسة، وعدم وجود رابطة تربطها في غرب أوروبا[4].

---

(1) Chadwick, The church, P. 33.
(2) Logan, A History, P.P. 90, 91.
(3) Bartlet and Carlyle, Christianity in, P. 503.
(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 339.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رابعاً : الإصلاح الكلوني (Reform Cologne).

إن من أهم فترات تغيير مجرى التاريخ بالنسبة للكنيسة في العصور الوسطى قد بدأت مع منتصف القرن العاشر الميلادي إلى منتصف القرن الثاني عشر، حيث كانت تلك الفترة هي جوهر الإبداع الذي أثر على جميع المفاهيم الدينية والكنسية، وقد كانت نتاجاً لبروز حياة كنسية منظمة بزغت من قلب الظلام الدامس الذي كان يحيق بالمؤسسة الدينية ككل، فقد عرفت الكنيسة النظام الإداري الهرمي والذي يمتد من البابا رأس المؤسسة الدينية إلى أصغر قسيس فيها وعرفت الرعاية المباشرة للأديرة المحلية من قِبل الأساقفة الكبار من خارج النطاق المحلي، وبروز العديد من الهيكليات والمؤسسات الدينية المتعددة المفتوحة لجميع المسيحيين من مختلف الصعد. كل تلك المفاهيم والتي إن كانت موجودة قبل تلك الفترة كانت مجرد مثاليات، ولم تكن وقائع حقيقية كالتي كانت منذ منتصف القرن العاشر[1].

لقد بدأت تلك الوقائع الحقيقة؛ نتيجة لظهور العديد من الإصلاحيين الذين قادوا الإصلاح؛ للتمييز بين المسيحية كدين والكنيسة كمؤسسة دينية[2].

وكان هنالك سببان رئيسان لهما وقع خاص في التغيرات الكثيرة التي طرأت على الكنيسة وهما : التطور الديمغرافي والتطور الاقتصادي، حيث أدى التوسع السكاني والاستيطان الذي بدأ في أواخر القرن العاشر إلى خلق أزمة تأدية المهام الكنسية من حيث المباشرة والرعاية للمؤسسات الكنسية الأخرى خارج الكنيسة الأم، كذلك أدى التطور الاقتصادي واتساعه إلى تزويد الكنيسة بمصادر إبداعية على المستوى المؤسساتي والمستوي الروحي معاً، وقد ساهمت تلك المصادر في بناء الكنائس والأديرة، كما ساهمت في تحفيز الكثير من الأفراد على ابتداع أنواع جديدة من المؤسسات الدينية التي تخدم الكنيسة[3].

وبذلك فقد ظهرت في القرن العاشر الميلادي جماعة جديدة دعت إلى الإصلاح الشامل، خصوصاً؛ نتيجة للوضع السيئ في الأديرة البندكتية[4].

بدأت تلك الجماعة كحركة إصلاح كبرى، كان جوهرها إحياء المثل الأُنموذجية للرهبنة، فقام عدد قليل من النبلاء بتأسيس أديرة جديدة الهدف منها إعادة الرهبنة المتدهورة في أصولها، ومراعاة أصول القانون البندكتي، وكان أشهر تلك الأديرة (دير كلوني) في منطقة برغنديا[5].

---

(1) Miller, The formation, P. 1.
(2) Bartlet and Carlyle, Christianity in, P. 503.
(3) Miller, The formation, P. 2.
(4) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 173.
(5) Mathews, The church, P. 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأسس ذلك الدير في عام 910م، على يد دوق (أكويتاني)[1] في موضع كان يشغله أحد أكواخ الصيد[2]، قام ذلك الدوق وكان يُدعى (وليام William) ببناء دير ضخم سماه دير كلوني، به غرف فرعية تتسع لمئات الراهبات، وقد كان بناؤه قد أوحى بظهور حركة جديدة، ألا وهي حركة إصلاح الأديرة، والتي كان يقصد من ورائها السير على نهج قوانين بندكت. وقد أقيمت أديرة عديدة على نفس النمط والمنهجية في نفس الفترة في مناطق مختلفة، وقد دعم بناءها الكثير من المناصرين الأثرياء، لكن دير كلوني الضخم ظل مستقلاً عن باقي الأديرة من حيث إدارته، فقد قام (وليام) بإصدار ميثاق يقضي بتوظيف رئيس للدير يعمل تحت يديه اثنا عشر راهباً يقوم بانتخاب رئيس الرهبان الذي يعقب السابق على أن يشارك العامة في انتخاب ذلك الرئيس، وأن يتولى البابا رعايته كونه ديراً ضخماً له تأثير على الوسط المسيحي[3].

ولم يقبل دير كلوني أرضاً من أمير إقطاعي أو حاكم مقابل خدمات أو ارتباطات إقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم، وهكذا جاءت جميع المنح التي تلقاها دير كلوني –من أراضٍ وغيرها– حرة غير مشروطة[4]، إذ أن المنح التي حصل عليها كانت على سبيل الصدقات، ليس لها مقابل إلا الدعوات للمتصدق من قِبل الجماهير والمصلين[5].

ظل دير كلوني حافزاً نشيطاً لإصلاح الكنيسة طوال قرنين ونصف القرن تقريباً، وكان رهبانه يتبعون نسخة معدلة من القانون البندكتي، لكن الشيء الجديد والمختلف في ذلك الدير عن الأديرة البندكتية السابقة : أن الأديرة الكلونية الجديدة صارت خاضعة لرئيس دير كلوني نفسه، بينما الأديرة البندكتية كانت مجتمعات مستقلة[6]. وبعبارة أخرى : أصبح دير كلوني بمثابة الدير الأم أو الدير الرئيس العام في ذلك التنظيم الجديد[7]. وأعلن (وليام دوق أكويتاني) في ميثاقه ما يلي : "إن مؤسستنا تلك سوف تخدم الوسط المسيحي إلى الأبد وسوف تكون ملجأ للذين عزفوا عن الدنيا وللفقراء الذين لم يقدروا على شيء سوى تقديم نواياهم الطيبة"[8].

---

(1) ويطلق عليها أكوتين، انظر الملحق رقم (18).

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 367.

(3) Logan, A History, P. 106.

(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 339.

(5) العريني، تاريخ أوروبا، ص 449.

(6) Mathews, The church, P. 17.

(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 365.

(8) Logan, A History, P. 106.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وضع رهبان كلوني خطة عامة وشاملة للإصلاح في ثلاثة بنود هي :

1- إعلان الحرب على السيمونية[1] التي دمرت الكنيسة، فوصل إلى المناصب الكنسية من هم غير أهل لها، كما امتلأت جيوب النبلاء والحكام بتلك الرشاوي.

2- إجبار الرهبان على الالتزام بحياة العزوبة، والتي كانت هي الأصل في الكنيسة الكاثوليكية على أساس قول عيسى عليه السلام : "بأن المتزوج يعمل ما يرضي زوجته، أما المتبتل فيعمل ما يرضي الله"، وكان أولئك المصلحون يعتقدون أنهم لو تمكنوا من تنفيذ هذين البندين، فإنهم سيحققون قدراً كبيراً من الإصلاح بتحرير الكنيسة من روح العالم.

3- تطهير حياة رجال الدين الشخصية من الخطايا التي كانوا مستعبدين لها فطالبوا بإعطاء البابا سلطان أوسع لإصدار أحكام رادعة على كل مَنْ يخرج على تعاليم الكنيسة وقوانينها[2].

كما ركز رهبان كلوني جهودهم بادئ الأمر على إصلاح أحوالهم الداخلية بين جدران أديرتهم، وبعد ذلك أخذوا ينشرون إصلاحاتهم بين الجماعات الأخرى المجاورة لهم، ثم انضمت إليهم بعض الأديرة القديمة. كما أسسوا من أموالهم أديرة كلونية جديدة[3]. ومنذ نشأة ذلك الدير، لجأ الرهبان إليه وكانوا يعمدون إلى الصلوات الهامسة والصامتة حتى أصبح الهمس والصمت سمتان من سمات ذلك الدير الشهير[4].

وركز أولئك الرهبان على الصلوات والعبادة، حتى في أيام العطلات، وكانت ساعات العبادة تستمر من منتصف الليل وحتى ظهيرة اليوم التالي، أو من الغسق حتى الشروق، بما لا يدع مجالاً للرهبان أن يقترفوا شيئاً من الآثام، باستثناء ما قد يدور بأذهانهم منها، ولكن بمرور الوقت أخذت تلك الصرامة عند الكلونيين تخف حدتها مثل غيرهم من جماعات الرهبان[5]. وقد رأى عاشور : أن مضاعفة الرهبان للساعات اليومية المخصصة للعبادة والصلاة، إنما جاءت من عدم توفير فرص للعمل اليدوي للرهبان في الحقول؛ وذلك لأن معظم الأراضي التي كانت تُمنح للأديرة عليها أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها، الأمر الذي وفر على الديريين عناء العمل في الحقول من جهة وأوجد فراغاً كبيراً في حياتهم من جهة أخرى[6].

---

(1) السيمونية : اصطلاح المقصود منه المتاجرة بالأشياء والأمور المقدسة، منسوبة إلى (سيمون) الساحر، وهو رجل سامري الأصل، كان ماهراً في فن السحر، تنصر وأراد أن يشتري من بطرس سلطان وضع الأيدي وصنع المعجزات فخُذل. (مفرج، موسوعة عالم، ج10، ص 46 (هامش رقم 1)).

(2) Olin, The catholic, P. 98.

(3) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 173.

(4) Logan, A History, P. 107.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 81.

(6) أوروبا العصور، ج1، ص 340.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تولى الراهب (أودو Udo) منصب رئيس دير كلوني في العام 926م، وقام بتركيز جهوده لجعل ذلك الدير مركزاً للإصلاح الديني الذي انطلقت منه حركات إصلاح دينية للأديرة المسيحية الأخرى، ومع حلول منتصف القرن العاشر كانت خمسة من الأديرة تخضع لسلطة دير كلوني الكبير[1]، منهم : دير (جورز Gorze) الكبير في اللورين، وديـر (فليري Fleury) الملكي الفرنسي الواقع على نهر اللوار، حيث قاموا بإصلاحه والسيطرة عليه، كذلك دير (ديجون Dijon) في نورماندیا، حيث استقدم مقدم ذلك الدير أحد الرهبان الكلونيين ليبدأ عملية تطوير وتنمية الكنيسة النورمانية[2].

وخلال تلك الفترة تم بناء مئات المساكن للراهبات المتطوعات كانت تسمى أديرة الراهبات وكان معظمها يخضع لإدارة دير كلوني قابلة روحه وقوانينه وعاداته، وأصبحت دور الراهبات منتشرة بشكل أكبر حتى وصلت فرنسا ومحيطها الخارجي، وطالت أجزاء من أسبانيا المسيحية وشمال إيطاليا. وقامت رئاسة دير كلوني في العام 1077م ببناء دير للراهبات في إنجلترا في منطقة (لويس Louis)، وأربعة أديرة أخرى في أسكتلندة فقد أصبح دير كلوني قوة روحية ضخمة وفريدة شغلت غرب أوروبا بأكمله روحياً ودينياً[3].

طالب دير كلوني الأديرة الكلونية وغيرها من الأديرة المستقلة والأديرة المنتسبة إليه أن تلتزم بالقاعدة البندكتية كما عدلها بندكت الأنيابي، وقد أحرز رهبان كلوني شهرتهم بفضل احتفالاتهم وطقوسهم التي كانوا يمارسونها في الدير، فقد كان الملوك والنبلاء في شتى أنحاء أوروبا، ممن أخذوا تعاليم الكنيسة مأخذ الجد وحرصوا على ضمان الخلاص لأرواحهم وأرواح أقاربهم، متحمسين لإغداق الأوقاف الضخمة على الدير؛ كي يرد ذكر أسمائهم في الصلوات الكلونية[4].

ولم يلبث النظام الكلوني أن انتشر بفضل رؤساء الدير المتعاقبين، فنشأت أديرة عديدة، وقبلت أديرة بندكتية كبيرة في المانيا وفرنسا قاعدة كلوني. يضاف إلى ذلك أن النظام الكلوني اقتضى مستوى رفيعاً من النظام والتهذيب، على أن التأثير الكلوني تجاوز الأديرة الكلونية إلى سائر الأديرة[5].

ففي المانيا، خاصة في المناطق التي كانت تقع في وادي (موزيل Musil) وأراضي نهر الراين تجذر هنالك إصلاح ديني للأديرة والكنائس، وكان دير (غورزي Goorzai) المجاور (لميتز Metz) قد أسهم بقدر كبير في عمليات الإصلاح الديني، وقد أُنشئ ذلك الدير في عام 933م، وقد

---

(1) Logan, A History, P. 107.

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 369.

(3) Logan, A History, P. 107.

(4) كانتور، العصور الوسطى، ص 369.

(5) العريني، تاريخ أوروبا، ص 450.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قام رهبان كثر من ذلك الدير بإحياء المعبد القديم المتواجد في منطقة (ترايرTrier)، عوضاً عن ذلك قاموا بإنشاء أديرة جديدة حملت روح الإصلاح، كما قاموا بتجديد أديرة أخرى في منطقة اللورين. ثم بدأت نبضات الإصلاح تنتشر في تلك المنطقة حتى اعتُبرت من أهم مراكز الإصلاح الديني التي ألقت بصداها على عمليات الإصلاح في القرن الحادي عشر[1].

بدأت حركة الإصلاح في المانيا بشكل هادئ نسبياً من داخل الأديرة والتي وضعت معايير أخلاقية جديدة يغلبها الطابع الزهدي وحكمت بفرض ذلك الطابع على الكهنة برمتهم، ولم يرَ الحكام الألمان خطراً من ذلك النظام الجديد في بادئ الأمر؛ فقاموا بالتشجيع على تطبيقه متصورين في مخيلتهم بألا يصبح الدير فقط مكاناً قدسياً فحسب، وإنما يصبح قابلاً للذوبان في حضن الرغبة الملكية السياسية. وقدمت عملية الإصلاح نتاجاً رائعاً على مستوى الأديرة، حيث كان الملك يرغب أيضاً في تطبيق الإصلاح على أعضاء آخرين في الكنيسة خاصة فيما يتعلق بالبابوية، ومنذ إحياء الإمبراطورية عام 962م، لم يكن البابوات يتميزون بشكل خاص عن باقي أعضاء الكنيسة باستثناء شخصية أو اثنتين، فقد كانوا يختارون من قِبل النبلاء الرومان أو من قِبل الملك نفسه[2].

بدأت إمارات الإصلاح في إنجلترا تظهر منذ بدايات القرن العاشر ومنتصفه، فقد قام الكثير من الملوك الإنجليز أمثال الملوك : أديموند، فأدريد، ثم أدغار بإعطاء القائمين على الإصلاح الكثير من الدعم اللازم؛ لحثهم على إنجاز مهامهم، وقد كان من أبرز المتحمسين لذلك الإصلاح ثلاثة من أبرز الأساقفة الإنجليز هم : دونستان Dunstan أسقف كانتربوري، والأسقف إثييلوند Atheilond أسقف وينشيستر، والأسقف أوسوولد Aoswol أسقف وورستير، وقد كان نتاج الدعم المادي والمعنوي الذي قام الملوك بتقديمه إصلاح الكثير من الأديرة وتجديدها وتنظيم الحياة الدينية فيها[3].

وفي القرن الحادي عشر انتشرت الأديرة في إنجلترا خصوصاً بعد الغزو النورماني لها[4]. فبعد أن تحول النورمان إلى الدين المسيحي حظي الدوقات النورمان بمكانة رفيعة عند البابا؛ لتحمسهم لإصلاح الأديرة والكنائس التي دمرها آباؤهم في السابق، ولقد ولد النورمان وفيهم سمة الهندسة والمعمار فطرياً، حتى أن أبنيتهم المقامة على رسوم موحدة وشبيهة كانت تعكس ما بداخلهم من الميل للتوحد في الحكم، وكانوا من أوائل من بنى الكاتدرائيات الضخمة

(1) Logan, A History, P. 108.
(2) Strayer, Western Europe, P. 70.
(3) Logan, A History, P. 108.
(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والصروح المسيحية العريقة، فكانوا يجلبون رجال العلم من بلاد أخرى؛ ليعلموهم جميع العلوم المختلفة[1].

وفي فرنسا حيث شعر الملوك الكارولنجيون بأنهم مسخرون لخدمة الرب، وبأن معظم أعمالهم كان يراد بها إرضاء الرب[2]، كما جعل الملك نفسه أُنموذجاً إلهياً من خلال تزويد مسؤولياته تجاه الكنيسة، وقد عبر عن شغفه لتوسيع دعمه للكنيسة وفتح باب بلاطه الملكي للهيكلية الكهنوتية، وحرص على المضي في التوحد، والحرص على العبادة، كما دأب على إصلاح شأن الكنيسة[3].

كما قام الملك روبرت التقي وهو ثاني ملوك أسرة كابيه بدعم مهمة دير كلوني في الإصلاح، وكان معاصره وقرينه الملك الألماني (هنري Henry) الثاني قد نجح في جلب عملية الإصلاح الديني إلى أديرة (فلوردا Florda وريتشينو Richino) وغيرهما من المناطق الألمانية، وأما حفيده (هنري الثالث) فقد تزوج بامرأة فرنسية من نساء النبلاء تجمع أسرتها علاقة وطيدة مع دير كلوني، كانت عمليات الإصلاح التي اتبعتها سلالة الهنريين قد نمت عن سياسة ملكية مسيحية مع عدم التدخل في شؤون الكنيسة، ولكنهم كانوا يقومون بالإيفاء بواجباتهم نحو الكنيسة كملوك ملتزمين ومتحمسين لعمليات الإصلاح الديني والكنسي[4].

ولما كان أهم ما يميز نظام كلوني هو الاتصال المباشر بالبابوية والاستقلال التام عن السلطات الدينية والدنيوية المحلية، والاتحاد التام بين جميع الأديرة، واتصالها ببعضها البعض عن طريق خضوع جميع البيوتات الجديدة لدير كلوني الأصلي[5]. إلا أن ذلك النظام كانت تكمن فيه نقطة ضعف خطيرة هي إلقاء عبء الإشراف على جميع الأديرة التابعة لذلك النظام على كاهل مقدم دير كلوني، ومعنى ذلك التركيز أنه إذا حاد الأخير عن جادة الصواب فإن ذلك يؤدي إلى انحراف بقية الأديرة الكلونية هي الأخرى عن الطريق السوي[6].

أصبح عدد الأديرة في القرن الحادي عشر المتأثرة تأثراً قوياً بنظام دير كلوني، لا يقل عن مائتي دير خضع رؤساؤها خضوعاً مباشراً لمقدم دير كلوني[7]، والذي خضع بدوره

---

(1) Maurois, The Miracle of, P. 51.
(2) Pirenne, A history, Vol. 2, P. 110.
(3) Morrision, Imperial life, P. 11.
(4) Logan, A History, P. 108.

(5) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 173، 174.
(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 366.
(7) المرجع نفسه، ص 366.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لإشراف البابوية، وبذلك امتاز النظام الكلوني بالمركزية التي كان لها أثر فعال في تقوية الاتصال بين المؤسسات الكلونية، وبالتالي زيادة الرحلات والأسفار في غرب أوروبا، الأمر الذي أدى إلى سرعة انتقال الكتب وتبادلها. وقد شجع النظام الكلوني فكرة نسخ الكتب داخل الأديرة، ولكنه لم ينظر بعين الرضى إلى الكتب الكلاسيكية، زيادة على الكتب الدينية. لذلك لوحظ افتقار النظام الكلوني إلى مدارس شهيرة ملحقة بأديرته، إذ وجه رهبان الأديرة الكلونية نحو الدراسات اللاهوتية وأهملوا ما عداها، مثل التاريخ والنحو وغيرها من الفنون[1].

أصبح دير كلوني القائد العام لجيش مكون من آلاف الرهبان الذين لا يدخلون أديرتهم إلا بعد خضوعهم لفترة من التدريب في الدير الأم، وقد بلغ ذروة سلطته في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، عندما كان هنالك أكثر من ثلاثمائة دير بعضها في بلاد بعيدة مثل فلسطين، تتطلع كلها إليه للإرشاد والتوجيه، وكان يضم أكبر كنيسة في المسيحية الغربية بعد كنيسة القديس بطرس في روما[2].

كانت الفترة ما بين 950–1150م مشهود لها ليس فقط من خلال عدد المؤسسات الدينية التي أُنشأت فيها، ولكن أيضاً من خلال استحداث الأنواع الجديدة من المؤسسات التي أُقيمت في تلك الفترة. لقد كان التطور الديمغرافي والتطور الاقتصادي وراء الزيادة الكمية لعدد المؤسسات والمنشآت الدينية، وكلاهما أثر وبقوة على شخصية تلك المؤسسات وقد كانا عاملين مهمين في تشكيل الصيغة النهائية للسلوك المؤسساتي الديني للكنيسة في العصر الوسيط. كما حدثت في تلك الفترة تطورات إصلاحية داخل الأبرشية المسيحية التي ظلت على ولائها للإمبراطور، ولكن الولاء السياسي خلال أزمة توزيع المناصب لا يعتبر مؤشراً يمكن الاعتماد عليه للإصلاح الديني[3].

والذي يهم الآن من أمر تلك الحركة هو أنها لم تلبث أن تطورت واتسع أفقها، فبعد أن كانت تستهدف في أول أمرها إصلاح الحياة الديرية وحدها، إذا بها في القرن الحادي عشر تسعى نحو إصلاح الكنيسة إصلاحاً شاملاً، معتمدة في ذلك على ما أصبح للأديرة الكلونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع حتى منتصف القرن الحادي عشر[4]. وقبل انتهاء القرن الحادي عشر الميلادي جلس على كرسي رئاسة ذلك الدير راهبان مشهوران هما : (أوديليو Odeillo) (994–1049م)، وهوف (1049–1109م)، في حين خرج من ذلك الدير راهبان

(1) عاشور وأنيس، النهضات الأوروبية، ص 14.

(2) Mathews, The church, P. 17.

(3) Miller, The formation, P.P. 3, 4.

(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 339.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آخران جلسا على عرش البابوية وكانا يمتلكان مهارات إدارية غير عادية وهما : (البابا أوربان الثاني Ourban)[1]، (1088–1099م)، و(البابا باسكال Bascal الثاني)، (1099–1118م)[2].

ومن النتائج التي ترتبت على الإصلاح الكلوني أن الديرية أصبحت لها مكانة بارزة في المجتمع الغربي الوسيط وفي الكنيسة اللاتينية. وأقبل الناس على اعتناق مبادئها في أعداد كبيرة. ولما كانت أديرة كلوني لا تتسع لذلك السيل الجارف من الناس الذين اعتنقوا الرهبانية، فقد فكر الكثيرون في إنشاء جماعات جديدة لتحتضن الفائض من الناس ولتعمل في ذات الوقت على استكمال مشروعات كلوني، والقيام بإصلاحات جديدة[3].

وقد رأى عاشور : أن تلك الجماعات الجديدة قامت نتيجة لعوامل الانحلال والفساد التي سرعان ما تطرقت إلى الحياة الديرية مرة أخرى، فأخذ الديريون يحيون حياة مترفة ويُسرفون في تناول الطعام والشراب الفاخر، وارتداء الثمين من الملابس، في الوقت الذي جنحوا إلى حياة البطالة والكسل[4].

ومن أهم الجماعات الجديدة ما يلي :-

1- إخوان جراند مونت (Order of Grandmont).

تأسست تلك الجماعة ما بين عامي 1073، 1076م، وهي تشبه إلى حد ما جماعة كلوني[5]، أسسها (اسطفان دي موريه)، وفيها بحثوا عن الزهد التام بالعالم، وكان يتوجب على أفرادها ألا يقتنوا أية ثروة زمنية، حتى ولا أرضاً للزراعة، وألا يمارسوا أي عمل، فاضطروا

---

(1) أوربان الثاني : اسمه الأصلي أودو لاجري، ولد سنة 1042م بالقرب من مدينة شاتيون على نهر المارون بفرنسا، وقد جاء من أسرة نبيلة، وتلقى تعليماً جيداً وابتدأ في سلك الرهبنة والكهنوت، من مراحله الأولى حتى أصبح بابا الكاثوليك سنة 1088م. كانت شخصيته قوية ومؤثرة، وكان السبب الذي أكسبه الشهرة هو القرار الذي اتخذه عام 1095م، حيث دعا في ذلك اليوم لاجتماع كنسي كبير في مدينة كليرمون، واحتشد ألوف الناس وألقى فيهم أخطر خطبة ألقاها إنسان في التاريخ، وقد ظل أثرها قرون عديدة، ففي تلك الخطبة احتج على السلاجقة والأتراك الذين احتلوا الأراضي المقدسة لما فيها من معابد وكنائس، وطالب جميع المسيحيين، بأن يشنوا حرباً مقدسة لإنقاذ تلك الأراضي من أيدي المسلمين، وطلب منهم أيضاً أن يقيموا هناك لأن أرضها أغنى وأرحب من أوروبا، وأعلن أنه سوف يغفر جميع ذنوب من يشارك بالحروب المقدسة. وتوفي عام 1099م بعد أسبوعين من استيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة، ومات ولم يعلم نبأ النصر. (Young, The charch, P.P. 218, 219).

(2) Logan, A History, P. 108.

(3) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 174.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 366.

(5) يوسف، تاريخ اوروبا، ص 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالتالي لأن يستعينوا بمساعدين يكونون رهباناً من الدرجة الثانية، ويكلفون بجمع الصدقات؛ لتأمين معاشهم اليومي[1].

2- جماعة الإخوان الكارثوذيان (Carthusian Order).

أنشأ القديس (برونو St. Bruno) الألماني الأصل جماعة ديرية في جبال الألب[2] عام 1084م[3]،في مقاطعة (دوفينيه Dauphine) في الجنوب الغربي من فرنسا على الحدود الألمانية[4]. ومن ذلك الدير الأم المسمى ("دير أصحاب البراءة الكبرى" La Grande Chartreuse)، استمد الرهبان اسمهم وهو (جماعة الكارتسيان أو الكارثوذيان Carthusians)، وكان كل دير من أديرتهم ليس به سوى كنيسة، وخلاوي للرهبان، ينزلون بها في عزلة تامة عن بعضهم البعض، ويتم إمدادهم فيها بطبق من الخضروات كريهة الرائحة، ويلتقون مرة كل أسبوع في اجتماع عام لرجال الدير. وكانت القاعدة التي يسيرون عليها هي "ما دام هناك صلاح فلن تكون هناك أخطاء"[5]. امتاز ذلك النظام الديري بالصرامة والتطرف في حياة الزهد، والعناية الفائقة بالتأمل والعبادة الانفرادية[6]. عاش أولئك الرهبان في مجموعات صغيرة بمعزل عن العالم الخارجي متعبدين معاً في صوامع معدة، حيث تمسكوا بالقيم؛ فنالوا إعجاباً شديداً[7].

3- جماعة الإخوان السيسترشيان (Cistercian Order).

أسس تلك الجماعة الراهب الفرنسي روبرت سنة 1098م[8]، وقد قامت جماعة من الرهبان البندكتين مدفوعين بالرغبة في العزلة، والقيام بمغامرة روحية في الصحراء، فعثروا على مكان مناسب يبعد حوالي اثني عشر ميلاً جنوب (ديجون Dijon) في إقليم (سيتو Siteau)، ومنها استمدوا اسمهم، وهو جماعة (السيسترشيان)، الذين عقدوا العزم على أن يتبعوا قاعدة القديس بندكت حرفياً، رافضين كل شيء يتناقض معها[9].

---

(1) بروي، تاريخ، مج3، ص 322.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 81.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 212. كولتون، عالم العصور، ص 173 هامش رقم (1).

(4) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 175.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 81.

(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 367. عمران، حضارة أوروبا، ص 106.

(7) الشيخ، النظم والحضارة، ص 212.

(8) كولتون، عالم العصور، ص 173، هامش رقم (1). عمران، حضارة أوروبا، ص 106. الشيخ، النظم والحضارة، ص 213.

(9) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أقام السيسترشيان بعيداً عن الأماكن المأهولة، في قلب الغابات والوديان المستنقعة، إلا أنهم اعتقدوا أن أضمن وسيلة للاهتداء إلى الله هي الانصهار في جماعة؛ فعاشوا حياة مشتركة صافية[1].

كان غرض الجماعة إضافةً إلى اتباع قاعدة بندكت، إدخال نوع من التصوف فيها، وتجنب الملبس الفاخر، والتمسك بالبساطة في كل شيء[2].

عملت تلك الجماعة على تسوية الأرض وزراعتها، وبناء المساكن بنفسها، وإقامة مصارف المياه، وحراثة الأرض البور، واستصلاح مساحات من الأرض التي تغمرها مياه البحر، ولقد قامت شهرتهم على أنهم من كبار رعاة الأغنام والماشية، وبيع الصوف والجبن لسكان المدن الجديدة. ولم يمر وقت طويل حتى امتلكوا بعض الأفران والطواحين والقرى، وحتى الفلاحين[3]، ذلك الامتلاك كان خلافاً لتعاليم بندكت الذي وعى إلى الزهد والتقشف، والذي تبنت الجمعية تعاليمه.

وهنالك حقيقة على مستوى العالم ككل، أنه من الطبيعي أن الأفراد الذين ينضمون إلى الجماعات التي تدعو إلى الزهد والتقشف، هم الذين في الأصل فقراء معدومون، يلتحقون بتلك الجماعات من شدة يأسهم من الحياة الدنيا، وعندما تظهر أمامهم بوادر العمل والإنتاج، تتفتح لديهم آفاق جديدة، وأمل في الحياة الدنيا ومباهجها. فيبدأ التخلي رويداً رويداً عن المبادئ التي تمسكوا بها في السابق، مع إدخال بعض التنازلات عنها، وإدخال مبادئ أخرى تشبع رغباتهم في الحياة بدلاً منها.

أمام مبادئ تلك الجماعات الدينية، يجب دراسة حقيقة خروج الحملات الصليبية في لباس ديني تتوافق مع حالة التصوف والزهد والسكون والتأمل التي دعت لها تلك الجمعيات.

نتبين مما سبق : أن الإصلاح الكلوني بدأ في القرن العاشر، وكانت ذروته في القرن الحادي عشر، الذي انتهى بخروج الحملات الصليبية على المشرق العربي.

ومن المرجح كانت هنالك عدة عوامل نتيجة لذلك الإصلاح أثرت في خروج الحملات الصليبية منها :

---

(1) بروي، تاريخ، مج3، ص 322.

(2) عمران، حضارة أوروبا، ص 107. كولتون، عالم العصور، ص 173 (هوامش).

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً : ركز النظام الكلوني على دراسة العلوم الدينية داخل أديرته، ومن الطبيعي أن تلك العلوم بمفهومها تحدثت عن عيسى عليه السلام، وارتباطه بفلسطين، ومهما كانت أصول أولئك الرهبان إلا أنهم باعتناقهم الدين المسيحي أحسوا بارتباطهم بعيسى عليه السلام وبالأرض المقدسة التي وُلد ثم دُفن فيها[1].

ثانياً : سبق النظام البندكتي ذلك النظام، إلا أنه لم يؤدِ إلى النتيجة نفسها، ذلك أن النظام البندكتي انشغل الرهبان فيه بالعمل والزراعة إلى جانب العبادة، أما في النظام الكلوني فقد وجد الرهبان أوقاتهم كلها فراغاً قضوها في الصلاة والعبادة؛ مما دفعهم للتفكير في عمل آخر، هو الحرب. وربما نبع ذلك التفكير من داخلهم، حيث هم في الأصل قبائل غازية، استوطنت تلك البلاد واعتنقت ديانتها، فمن السهل عليهم أن يغزو أية بلاد أخرى.

ثالثاً : حالة التدين والرغبة في التقرب إلى الله والاستعداد لتنفيذ أي تعليمات تصدر عن البابا ورجال الكنيسة يمكن أن تقربهم إلى الله.

(1) ذلك حسب اعتقاد المسيحيين الذي لا ينطبق مع اعتقادنا كمسلمين من خلال القرآن الكريم في سورة النساء آية 157 "**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خامساً : الإمبراطورية والبابوية.

في الوقت الذي كان فيه الإقطاع في ذروته، أي : الفترة التي كان فيها انفصال واستقلال محلي عن الحكومة المركزية، ولم تكن لأحد السلطة المطلقة بالمعنى المعروف للكلمة. كانت تطغى على عقول الرجال في المجتمع الأوروبي نظريتان مهمتان، هما نظرية الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، ونظرية الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكانت لكل نظرية منهما أسسها ومفاهيمها، التي نمت من خلال الإمبراطورية ذات الأصول الوثنية فقد خرجت من قلب الوثنية أفكار دينية لها علاقة بالكنيسة، وأفكار دنيوية لها علاقة بالإمبراطورية[1].

ومن المفترض أن تلك الأفكار الدينية هي الأفكار التي سادت العصور الوسطى، وقد تزامن ذلك مع الإصلاح الكلوني. من ذلك يتضح أن الأفكار الدينية التي ارتبط بها الإصلاح الكلوني، والذي غُرست في عقول الرهبان في أوروبا، خرجت في الأصل من الوثنية، وذلك دليل صريح على أن ادعاءات الرهبنة في أوروبا بحقهم في تحرير قبر المسيح[2]، وإنقاذ الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين[3]، هي من خُرافات الوثنية، وبذلك اتخذ الرهبان الدين ساتراً؛ لدس معتقداتهم الفكرية. ولما كانت الحروب الصليبية دينية خالصة، ودوافعها دينية خالصة، استهدف بشكل مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة[4]. فإن ذلك ارتبط ارتباطاً وثيقاً بذلك الدين الذي استمد أصوله من الوثنية.

كثيراً ما شعر قادة الكنيسة في القرون الوسطى حتى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر بالانعزال والتهديد المستمر لكينونتهم كرجال دين. إذ أن الكنيسة لم تكن تشعر بالأمان حيث كان المسلمون يشكلون خطراً كبيراً على الكنيسة الغربية، إضافة إلى غارات (الفايكينج)[5] الذين كانوا همجاً ووثنيين، كما شعر رجال الكنيسة بأنهم محاصرون داخلياً؛ لأنهم كانوا يعيشون وسط شعوب ما زالت تتشبث بالوثنية إلى حد ما، فكان عليهم التعايش معها وترويضها قدر المستطاع

---

(1) Adams, Civilization, P. 224.

(2) بالار، الحملات الصليبية، ص 54. عمران، تاريخ الحروب، ص 22.

(3) الجنزوري، الحروب الصليبية، ص 249.

(4) حبشي، الحرب الصليبية الأولى، ص 7. الجنزوري، الحروب الصليبية، ص 250. عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 29.

(5) الفايكنج : أو الشماليون أو النورثمن، هم مجموعة الشعوب التي سكنت جزيرة أسكندیناوة، وشبه جزيرة الدانمرك وحوض بحر البلطي من السويديين والنرويجيين والدانيين. (الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 293)، ويدينون بالوثنية المتعددة الآلهة مثل اليونان القدماء. وقد ولوا وجوههم شطر غرب أوروبا. (هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 122 هامش رقم (1)).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مع تقبل بعض عاداتهم وتقاليدهم المحلية، ولكن مع الحذر الشديد، وكان على الكنيسة أن تقوم بذلك من خلال رجال دين أكثرهم من طبقة غير مثقفة بما للقيام بتلك المهمة، وينقصهم الانضباط الكبير والروحانية الحقيقية، وكان الملوك والزعماء يقدمون لهم العون أحياناً ويطمعون في عونهم أحياناً أخرى، فكانوا بذلك مصدر قوة لهم، وفي الوقت نفسه خطراً حقيقياً على استقلال الكنيسة عن المجتمع الذي يجب عليها أن تسعى لتخليصه من آثامه[1].

ولكي يستطيع رجال الدين أن تكون لهم السلطة على الملوك والأباطرة، فقد كانوا سابقين لعصرهم في الناحية التنظيمية، إذ كانوا مؤسسة تنظيمية مركبة تركيباً دقيقاً من القاعدة العريضة الممتدة في كافة الأقاليم إلى قمة الهرم المتمركزة في روما، وتلك الميزة أكسبتهم نفوذاً مستمراً لا يقبل المنافسة وجذوراً عميقة يصعب اقتلاعها[2].

كذلك كانت الكنيسة معتادة على البحث الدائم عمن يحميها، كما أن البابوية كانت معرضة لهجمات المسلمين الذين كانوا يهددون إيطاليا منذ بداية القرن الثامن، ناهيك عن الزعماء الإيطاليين الذين اشتدوا وصاروا أقوياء مع غياب هيمنة اللمبارديين[3]. وقد مرت أيام عصيبة جداً خلال القرنين التاسع والعاشر، ونصف القرن الحادي عشر، فلم تكن بيد روما إمكانات كبيرة، وبدا أنها إنما بدلت سيداً بآخر، وظل البابوات زمناً طويلاً عاجزين عن الحكم الحقيقي حتى ضمن أراضيهم، إذ لم تكن لديهم قوات مسلحة كافية ولا إدارة مدنية، حتى أنهم كانوا معرضين للسلب والنهب والابتزاز، كما إن بعض الأباطرة كانوا يتولون بأنفسهم تنصيب البابوات وإقالتهم[4].

كان الصراع بين الكنيسة والعرش من ناحية، وبين الإقطاع والدوقية من الناحية الأخرى صراعاً مريراً، ففي كل مكان من الدولة كانت هنالك أراضي ومناطق تحت إمرة الكنيسة وكان الدوقات يعمدون دوماً لإزالتها أو سحب الهيمنة الكنسية منها[5].

---

(1) Wells, Brief, P. 52.
(2) Ruether, The church, P. 67.
(3) اللمبارديون : شعب جرماني أصله من شمال أوروبا (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2313)، وعند نهاية القرن الخامس الميلادي تمكنوا من السيطرة على هنغاريا وأصبحوا السلطة الحاكمة فيها، وتوسعوا بعد ذلك حتى وصلوا إلى نهر الدانوب (عمران، معالم التاريخ، ص 219)، وفي سنة 568م قادهم ملكهم المسمى ألبوين Alboin عبر الألب إلى سهول إيطاليا الشمالية. (هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 109 هامش رقم (1)).
(4) Wells, Brief, P. 160.
(5) Thampson, Feudal, P. 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مع اقتراب انتهاء الألفية الأولى من التقويم الغربي كانت هنالك أسساً ومفاهيم واضحة وجلية لعملية الإصلاح الديني، حيث كان دير كلوني وأديرة اللورين أدوات أساسية للقيام بعمليات التجديد وبث الروح المسيحية من جديد. أما في روما فكان الوضع على حاله، فكان البابا مجرد دمية في أيدي بعض العائلات الحاكمة، وكان الكيان الديني مستثنى من الوجود السياسي والاجتماعي على حد سواء، وكان البابا عاراً للعالم المسيحي في ذلك الوقت[1]. وكان المشهد في أسقفية (إس تي بيتر S.T. Peter) مخجلاً لأبعد الحدود نتاج ما خلفته فضائح ثلاثة بابوات كبار كانوا يتنافسون على التاج البابوي في عهد هنري الثالث[2].

هنري الثالث والبابوية.

كان الملك هنري الثالث (1039-1056م) متحمساً للإصلاح ومدركاً لمسؤوليته كقطب أول مؤقت للعالم المسيحي، حيث وجد أن تلك المسؤولية لا تطاق ولا تحتمل[3].

لقد كان هنالك ثلاثة أقطاب جلسوا على كرسي البابوية في روما في الفترة نفسها، حيث كان بندكت التاسع بابا لمنطقة لاتيرن، وجريجوري Gregory السادس بابا الفاتيكان، أما سليفستر الثالث فقد كان بابا إس تي ماريا ماجوري S.T. Marid Maggiore[4].

لقد هبَّ الرومان ثائرين ضد البابا بندكت التاسع، الذي حصل على التاج البابوي من خلال نفوذ عائلته وهو في سن السادسة عشرة[5]، وبسبب رغبته في الزواج من إحدى الفتيات ذوات النسب الرفيع في إيطاليا تخلى عن كرسيه البابوي وباع حقه في التاج الثالوثي إلى البابا جريجوري السادس[6]، فقام الرومان بتعيين البابا سلفستر الثالث بدلاً من بندكت التاسع، لكن بندكت سرعان ما ندم وزعم أن المنصب الذي هجره من حقه، وهكذا كان ثلاثة بابوات يتنازعون العرش البابوي، وكان ذلك موقف لا يستطيع الإمبراطور هنري الثالث أن يتجاهله[7]. ولحرصه على إصلاح الكنيسة وتطهيرها من المفاسد والتنازع على الكرسي البابوي[8]، عبر جبال الألب على رأس جيشه[9]، وعقد مجمعاً كنسياً عند سوتري Sutri عام 1046م، ثم قام بعزل البابوات الثلاثة من

---

(1) Logan, A History, P. 108.
(2) Pirenne, A history, Vol. 2, P. 162.
(3) Strayer, Western Europe, P. 70.
(4) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 376.
(5) كين، حضارة أوروبا، ص 46.
(6) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 376.
(7) كين، حضارة أوروبا، ص 46.
(8) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 330.
(9) كين، حضارة أوروبا، ص 46.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مناصبهم، ثم عين الأسقف سودغار (Suidiger) أسقف مدينة بامبيرغ (Bamberg) على الكرسي البابوي باسم البابا كليمنت الثاني (Clement II)[1].

شرع سودغار (كليمنت الثاني) بسلسلة إصلاحات داخل الكنيسة، واستمتع بالكرسي البابوي عدة أشهر فقط، فقد حاول بندكت التاسع العودة إلى منصبه؛ فقام بمؤامرة تم فيها تسميم كليمنت وقتله، لكن محاولة بندكت في استعادة البابوية فشلت[2].

ثم قام هنري بملء الكرسي البابوي من جديد بتعيين أسقف مدينة بريكسين (Brixen) تحت مسمى داما سيوس الثاني (Damasus) عام 1048م، ولم يستشر أحداً من مجلس الكهنوت الروماني في تعيين البابا، ولم يتمتع البابا الجديد بكرسي البابوية أكثر من ثلاثة أسابيع، فقام هنري مرة ثالثة بتعيين أحد أقاربه ويدعى برونو (Bruno) أسقف مدينة تاول (Toul) والذي اتخذ المسمى البابوي ليو (Leo) التاسع عام 1049م[3].

كان البابا ليو التاسع من أصل ألماني، وكان رجلاً تقياً وورعاً، ورجل دولة في الوقت نفسه، وأصبح قائد الحركة الإصلاحية، وكان أول بابا يمتلك رؤى ومفاهيم سلطوية تسببت في نشوء تنافس بينه هو ومن خلفه مع السلطة العلمانية القائمة في أوروبا[4].

رفض برونو (ليو التاسع) قبول البابوية على طريقة التوظيف الإمبراطوري، وطالب بانتخابات يشترك فيها الكهنة والشعب الروماني بأكمله، حيث جاء إلى روما على هيئة حاج بسيط رافضاً التشريفات البابوية إلى أن يصبح بابا منتخباً رسمياً[5].

إن العمل الذي قام به البابا الجديد كمحاولة أولى من البابوية للاستغناء أو التحديث لقوة العلمانيين الذين دأبوا على التدخل في شؤون الكنيسة، وعلى رأسهم هنري الثالث نفسه، فقد كان التدخل في الشأن الكنسي مريراً في السنوات السابقة، لكن سياسة ليو الإصلاحية كانت حازمة وصارمة خصوصاً فيما تعلق بأمور تدخل الحكام في الشأن البابوي[6].

مع وجود طموح من الطرفين (البابوية والإمبراطورية)، اللذين دأبا على توسيع ما تحتويه نظرية السيطرة التي كانوا يسعون لتحقيقها، كانت العلاقة بينهما تشوبها خلافات حادة،

(1) Lamonte, The world of, P. 180. Logan, A History, P. 108, 109. Menzel, The history of, Vol. 1, P. 376.
(2) Lamonte, The world of, P. 180.
(3) Lamonte, The world of, P.P. 180, 181. Menzel, The history of, Vol. 1, P. 377.
(4) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 40.
(5) Lamonte, The world of, P. 181.
(6) Logan, A History, P. 109.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لكن تلك الخلافات لم تكن محكومة بأيدلوجية واضحة أو مفهومة، فكلٍ من جهته ادعى لنفسه العلو والرفعة والحق في امتلاك السلطة، ولكن لم يكن لأحد من الطرفين أن يتمتع بالسلطة المطلقة كما فهموها هم دون أن يخضع الطرف الآخر لصالحه، كما أن لكل طرف ادعاءاته التاريخية التي لجأ إليها، وتلك الادعاءات التي مارسها الطرفان لإثبات الحقوق التي طلبها لنفسه بهدف إخضاع الطرف الآخر المنافس في القوة والهيمنة، لكن بالرغم من الاختلاف المتواصل إلا أنه لم يشهد للطرفين أن وقفا موقف تنازع مباشر[1].

قام ليو التاسع بوضع برنامج قوي يهدف إلى إصلاح الكنيسة العالمية، أي على مستوى العالم المسيحي بأكمله، كما قام بجلب العديد من الرجال المسيحيين ممن تربوا على سياسة الإصلاح الديني، وكان من أبرزهم الأسقف (هامبيرد Hamberd) أسقف موينيموديتر Moenemodter والذي أصبح فيما بعد كاردينالاً لكنيسة سلافيا كانديدا Slavia Candida. كما قدم معه الأسقف (فريدريك) الذي كان يتمتع بحنكة سياسية لا مثيل لها في عصره، وكان فردريك أخاً (لجيودفري Giodfrey) دوق منطقة اللورين، إضافة إلى أولئك، كان يساند (ليو Lio) التاسع أبرز راهب في روما وهو هيدلبراند Heldbrand، والذي عُين فيما بعد بابا باسم جويجوري السابع[2]، حيث لاقت خطط ليو دعماً حماسياً من هيلدبراند، الذي انتبه إليه ولذكائه وموهبته؛ فأخذه معه إلى إيطاليا، وللغرابة كان البابا ليو أداة في يد ذلك الراهب[3].

شغل البابا ليو أمران مهمان، هما : مسألة شراء الذمم، والفساد الإداري الكنسي، فقد كان الفساد الكنسي شائعاً بدرجة كبيرة في الأديرة والكنائس وقد كانت الألقاب تُباع[4]، وكانت الوظائف الدينية تؤدى إلى السيد الإقطاعي، وارتبطت السيمونية بتدخل السلطة الدنيوية في أمر الكنيسة، كما أن الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين وصلوا إلى مراكزهم، عن طريق السيمونية، كانوا لا يهتمون إلا بأحوالهم الاجتماعية والسياسية، لا الدينية[5].

إضافة فقد ظهرت في عهد ليو التاسع فكرة الجيش البابوي الذي كان يقوم بمهمة دفاعية، ويعمل تحت راية بابوية، مقابل إعلان البابا لجنود ذلك الجيش منحهم الغفران لكل ما تقدم من ذنوبهم وخطاياهم. فقاد ليو التاسع في عام 1053م بنفسه جيشاً، وأخذ البابا على عاتقه مهمة (تأبين الشهداء) الذين سقطوا في المعركة[6].

---

(1) Adams, Civilization, P.P. 225, 226.
(2) Logan, A History, P. 109.
(3) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 377.
(4) Logan, A History, P. 109.

(5) العريني، تاريخ أوروبا، ص 450.
(6) سميث، الحملة الصليبية، ص 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توصل ليو ومستشاروه إلى وضع دستور قانوني للكنيسة ضمن للبابوية قوتها وهيبتها، وكان له الفضل في تغيير سياسات الكنيسة، والسير على نظم روحية لا تحيد إلى الدنيوية، ولا يتمكن معها المفسدون من ارتكاب جرائمهم بحق المسيحية[1].

توفي ليو التاسع في عام 1053م[2]، وظل تعيين هنري الثالث للبابوات قاعدة في تلك المرحلة، حيث عين هنري البابا فيكتور الثاني Victor[3].

وفي عهد أولئك البابوات سيطر هنري على رجال الكنيسة سيطرة تامة، ولم يعارض أي منهم هنري في شيء ما، ولم يكن ذلك في صالح الإمبراطورية، فإن القبضة التي ساندت البابوية كانت شديدة لدرجة كادت تخنقها، وعندما حاولت الكنيسة الإعلان عن الضيق الذي تشعر به من جانب الحكام العلمانيين كان الصدام حتمياً بين القوتين[4].

بدأ البابوات بكسر القيود الملكية والتي طغت على المشهد والرؤية المسيحية المستقلة في الخمسينيات من القرن الحادي عشر، ففي عام 1054م تم اختيار البابا عن طريق تعليمات صدرت من الإمبراطور لمجموعة من الكاردينالات، وبعد ذلك وخلال السنوات التسع اللاحقة التي اقترب فيها انتخاب هنري الرابع الشاب ملكاً، تم انتخاب حبرين مسيحيين عظيمين هما (نيكولاس Nicholas[5] الثاني)، (1057–1061م)، و(الكسندر Alexander الثاني)، (1061–1073م)، اللذان اتبعا نظرية الهيمنة الكنسية، التي سرعان ما أقحمت النزاع والصراع بين الكنيسة وهنري الرابع فور انتخابه ملكاً[6].

كانت شعارات الإصلاح في النصف الثاني من القرن الحادي عشر بمثابة نذير شؤم على الإمبراطورية بأكملها؛ لذا كان على رجال الكنيسة أن يتحرروا من أي تحكم أو ارتباط داخلي أو خارجي، ولا يعني ذلك فقط الحرية من لوردات الإقطاع، ولكن من الإمبراطور ذاته. كان على الملك أن يفقد سلطته في التدخل في تعيين البابا، وأن البابا لا بد أن يُختار من جماعة معينة من الكاردينالات، وكان على الملك أيضاً أن يفقد سيطرته في استثمار الأديرة، والتحكم فيها، ولا يتسنى لأي عضو من أعضاء الكنيسة أن يعتبر نفسه موظفاً لدى الإمبراطورية أو

---

(1) Logan, A History, P. 110.
(2) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 377.
(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 200.
(4) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 330. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 201.
(5) سمى نفسه ذلك البابا بهذا الاسم استعادة لذكرى نيكولاس الذي ادعى في القرن التاسع بتملكه السلاح الروحي الأكبر في تاريخ المسيحية. (Pirenne: A history, Vol. 2, P. 164).
(6) Maehl, Germany in Western, P. 50.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خادماً لدى الملك، وأن عليهم أن يكرسوا مجهوداتهم وأنفسهم بكامل طاقاتهم لخدمة الكنيسة والبابا، وأن عملهم لدى الحكام العلمانيين هو عمل طارئ ومتقطع[1].

بدأتاريخ الصراع بين البابوية والإمبراطورية منذ فترة ذلك الإصلاح، أما بالنسبة لنيكولاس الثاني فلم تكن تخدعه أحداث المستقبل، والتي كان يحتاط لها، بعقده حِلفاً مع النورمان[2] من عام لآخر عملاً للوقت الذي يتيح للكاردينالات انتخاب بابا جديد، وفي الوقت نفسه اتخذ البابا إجراءات خاصة تُحرِّم زواج الكهنة والرهبان، وكان كل قرار يتخذه يقابل باستحسان شعبي لدى العامة[3].

وفي عام 1059م، قرر المجلس البابوي أن تكون عملية انتخاب البابا الجديد بيد مجلس الكاردينالات، وكان ذلك بمثابة علامة مميزة في الإصلاح الكنسي[4].

في عام 1061م، خلف البابا نيكولاس الثاني شخص يدعى (لوكا Luka) وقد تلقب باسم الكسندر الثاني، وكان أول من انتخب انتخاباً حراً من الكاردينالات، وكان الكسندر مناهضاً للاستعمار بشكل صارم[5].

أثار انتخاب الكسندر الثاني عاصفة في المانيا، وقد قام الألمان بانتخاب بابا لهم دون الكسندر (يعرف لدى المؤرخين بنقيض البابا)، وبعد النقاشات الحارة والجدل الواسع تم حسم الموقف لصالح الكسندر، طالت يد البابا الكسندر ما لم تطله يد سلفه من الباباوات الستة الذين سبقوه، وقد أعطيت له الفرصة لمباشرة عملية الإصلاح الديني بشكل أعمق والذي طالما كان ملتزماً بها، وقد قام الكسندر بإرسال وفد ممثل عن البابا إلى (أراغون Arguan) أحد أهم المراكز المسيحية في الشمال الأسباني، وحتى أنه تدخل في تنصيب التاج الملكي في إنجلترا. فعندما مات الملك (إدوارد Edward) عام 1066م، أرسل وليام النورماني مبعوثيه إلى روما مطالباً بدعم البابا حيال ادعائه في أحقيته عرش إنجلترا، وقد كان الإنجليزي (هارولد Harold) قد ادعى أحقية العرش مستنداً على ما أولاه إياه البابا المناقض للإلكسندر، وما كان من الأخير إلا أن أرسل مرسوماً يؤيد فيه وليام النورماني. استطاع وليام من خلاله هزيمة هارولد في موقعة هيستينغ Histings، ثم قام البابا بخلع الكثير من الأساقفة الإنجليز واستبدالهم بغيرهم، وبذلك دخلت الكنيسة الإنجليزية دائرة الإصلاح الديني[6].

---

(1) Strayer, Western Europe, P. 71.

(2) النورمان : هم فرقة من الفايكنج استوطنت على طول نهر السين من الناحية الشمالية الغربية لفرنسا، وأسسوا هناك لبنة دوقية الدولة النورماندية. (Bill and Houts (editors), A companion, P. 18).

(3) Pirenne: A history, Vol. 2, P. 165.

(4) بروي، تاريخ، مج3، ص 317. Hearder and Waley (editor), A short history, P. 40.

(5) Pirenne, A history, Vol. 2, P. 165.

(6) Logan, A History, P. 112.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت الكنيسة تملك عدداً من نقاط القوة التي ساعدتها على تشكيل نواة دولة بابوية قوية، حيث كان للكنيسة الكثير من الإقطاعات، وربما كان تتويج البابا للأباطرة يحمل في طياته ادعاءات خفية بأنه هو الذي يعين الإمبراطور، بل رأى البعض أن منح البابا التاج للإمبراطور، وختمه بخاتم اعتراف الرب كان مشروطاً وقابلاً للرد. وعملياً كانت البابوية بحاجة ماسة لسلطة الملوك الأقوياء من أجل الكنائس المحلية، ودعم الحملات التنصيرية[1]. كذلك اعتمد الملوك الألمان –الذين كانوا القلب الحقيقي لالمانيا– كلياً على الدعم الأسقفي لدولتهم، وفي حال لم يستطع الملوك توظيف القساوسة حسب إرادتهم والتأكد من ولائهم واستعمالهم كعملاء مخلصين لهم فإن النظام الحكومي الملكي سيصاب بالضعف والوهن، في تلك الحالة كان رجال الإصلاح لهم موقفهم الخاص بهم فالكنيسة لم تنشأ لخدمة الدولة، ولا يمكن لرجال الدين أن يكونوا تحت أي سلطة إلا السلطة الدينية التابعين لها؛ لذلك كان من الصعب إيجاد طريقة لتطبيق مشروع تسوية بين رجال الكنيسة والملك[2].

يتضح من ذلك مدى قوة البابوية وتدخلها في صنع القرار من خلال وصول البابوية إلى مرحلة الانتخاب، وذلك بتصميمها عليه والمحاربة من أجله ضمن برنامج الإصلاح الذي اتبعته.

كذلك عندما وصلت البابوية لمرحلة أن كل قرار تتخذه يُقابَل باستحسان شعبي لدى العامة، فذلك شيئاً عظيماً لها؛ لأن فئة رجال الدين في أي مجتمع وأي عصر من العصور، من الصعب إملاء قراراتهم التي تتلاءم مع الشعب؛ لأن عامة الناس تكون محبة للحياة الدنيا، منغمسة في ملذاتها، وتلك الفئة من رجال الدين تنغص عليها مسيرة حياتها من خلال قراراتها.

تلك المكانة التي كانت للبابوية عند الشعب، ساعدتها في فكرتها للخروج في الحملات الصليبية على المشرق العربي، لأنه من الطبيعي مع التعود على استحسان أي قرار، يكون قرار الحملات مستحسن ضمناً للقرارات جميعها، حيث أصبح عند الشعب أن أي قرار تمليه البابوية يكون في مصلحتهم، لأنه شعب غير مثقف أو متعلم.

هنالك نلاحظ الفرق بين فكرة الحروب الصليبية عند طبقة الرهبان وعند عامة الشعب، فنجد أنها عند الرهبان تتمثل في أنهم استقبلوا الفكرة بدافع المعتقدات الدينية التي غُرست في عقولهم بغض النظر عن مدى صحة تلك المعتقدات.

أما عامة الشعب فَهُم فئة فقيرة تعيسة لا حول لها ولا قوة، غير مثقفة، تسير مع التيار الأقوى، وتردد ما يتناقله الجميع، وتقبل بالوضع القائم كيفما يكون؛ أملاً منها بحياة أفضل.

---

(1) Wells, Brief, P. 54.
(2) Strayer, Western Europe, P. 71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هنري الرابع والبابوية.

مات هنري الثالث في عام 1056م، فورثه على العرش ابنه هنـــري الرابـــع (1056-1105م) الذي كان في سن الخامسة من عمره، وخلال فترة الوصاية، شرع أقطاب المملكة بنيل الاستقلالية عن الملك وعن الدولة بينما ظل الإصلاحيون قائمون على رعاية شؤون الكنيسة[1].

وفي عام 1059م أصبح (هيلد براند) -الذي كان مشمول برعاية وعطف البابا ليو التاسع- رئيس الشماسة في روما ليصبح من ذلك الوقت المحرك الروحي الأول لحملة الإصلاح الكنسي[2].

يعتبر هيلدبراند من الشخصيات التي اكتنفها الغموض، وأثارت الإعجاب فـــي العـــصور الوسطى، إذ اشتد الجدل حول ما إذا كانت أسرته تنحدر من جد يهـــودي اعتنـــق المـــسيحية[3]. وقيل: إن هيلد براند من أسرة يهودية اسمها (البيرليوني)، تمكنت من الـــسيطرة علـــى العـــرش البابوي أكثر من مرة في القرن الحادي عشر، وكان آخر من قدمته تلك الأسرة هو البابا أوربان الثاني الذي دعى إلى الحروب الصليبية[4].

وإن صح أن كان هيلدبراند من أسرة يهودية فإن هناك عدة أمور جديرة بالـــذكر علـــى اعتبار أنه مثالاً لشخصية سُلط عليها الضوء، من ضمن شخصيات كان لها نفس المعتقـــد ولـــم تُذكَر في التاريخ :

1- أحب اليهود دائماً الوصول للمراكز العليا في الدولة؛ لتحقيق أهدافهم.

2- سار اليهود حتى في العصور الوسطى مع التيار الأقوى، حتى أنهم تخلوا عـــن معتقـــداتهم الدينية؛ من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.

3- تستر اليهود بلباس الدين؛ لإخفاء نواياهم الحقيقية، وظهروا بمظهر المُصلح الديني.

ظهر هيلدبراند بمظهر المصلح الديني الذي كان يهـــدف لتحقيـــق الـــصلاح الربـــاني، وإيصاله لكل أطراف الكرة الأرضية. وكانت الوسائل التي اقتنع بأنها تحقق ذلك هـــي أن يلتـــزم الجميع بأوامر الكنيسة ووجوب طاعتها في كل كبيرة وصغيرة، ويذعن الجميـــع للبابـــا بـــصفته صوت الرب في الأرض، والبابا ذاته يجب عليه أن يتحمل المسؤولية المخيفة التي ألقاها علـــى عاتقه الرب ويبذل كل ما بوسعه؛ للفصل بين الحق والباطل[5].

---

(1) Strayer, Western Europe, P. 71.

(2) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 40.

(3) العريني، تاريخ أوروبا، ص 452، 453.

(4) وليام، تاريخ، ص 17.

(5) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 41.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أُعطي هيلدبراند البابوية صفة النبوة، فهل كان يحق له ذلك؟

تم انتخاب هيلدبراند بابا عام 1073م تحت اسم جريجوري السابع[1]، بإجماع مجلس الكاردينالات المستقل، ونال رضا الشعب الروماني بأكمله[2]. وكان هيلدبراند رجل مسن شابه هنري الثالث في عدم رغبته في إيجاد مشاريع تسوية وتشوقه لإيجاد حلول ونتائج سريعة[3]، وبذلك بدأت صفحة في تاريخ البابوية بل في تاريخ الكنيسة الغربية في العصور الوسطى[4].

أراد جريجوري السابع أن تكون للبابا مكانة متميزة ليس فقط كإداري أو رأس للكنيسة، ولكن قائداً للكينونة المسيحية برمتها، وكان على البابا من وجهة نظره أن يكون السلطة والقوة المطلقة في أوروبا ويصبح أتباعه محررين بالكامل من أي تحكم خارجي[5].

بدأ جريجوري عمله بأن عقد اجتماعاً في روما عام 1074م؛ لمعالجة مشاكل الكنيسة في ذلك الوقت كالسيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني[6]. والتقليد العلماني مصطلحاً جرى استخدامه حينما يتلقى رجل الكنيسة شارات الوظيفة –وهي الخاتم العكاز– من رجل علماني، لا من رئيسه المباشر بالكنيسة، فإذا قلد الملك الأسقف بالخاتم والعكاز فلا يعني ذلك إلا أنه خاضع لسلطانه، وذلك ما اعتبره المصلحون مصدر السيمونية[7].

أصدر ذلك الاجتماع عدة قرارات نصت على إبطال مهمة كل من توصل إلى منصبه في الكنيسة عن طريق الشراء، وألا يُسمح في المستقبل بشراء الحقوق الكنسية ثم بيعها، وفصل كل عضو من الكنيسة اتهم بالاستسلام لشهواته، كما منع جريجوري السابع القساوسة المتزوجين من الخدمة والوعظ في الكنائس، وحَرَّم على الشعب الاستماع إليهم، وإذا كان البابا جريجوري السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية في الكنيسة، فإنه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلماني دون الاصطدام بالحكام العلمانيين وعلى رأسهم إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، وصاحب النفوذ السياسي الواسع في المانيا وإيطاليا[8].

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 335. العريني، تاريخ أوروبا، ص 453.
Maehl, Germany in Western, P. 50.
(2) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 41.
(3) Strayer, Western Europe, P. 71.
(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 345.
Young, The Churche, P. 125.
(5) Strayer, Western Europe, P. 72.
(6) Young, The Churche, P. 126.
(7) العريني، تاريخ أوروبا، ص 453.
(8) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 346.
Young, The Churche, P. 126.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والواضح أن الأمراء لم يقبلوا ذلك الوضع، إذ أن التخلي عن السلطة للكنيسة، معناه فقد السيطرة على الإمبراطورية، حسب نظام أوتو. فكان لزاماً على الإمبراطور أن يقاوم دعاوي المصلحين، فلم يسع هنري الرابع بعد أن بلغ سن الرشد، إلا أن يختار أساقفته وأن يقلدهم بشارات السلطتين الروحية والزمنية لوظائفهم، مثلما فعل أسلافه، فإذا أصر المصلحون على منع التقليد العلماني، فإنه لن يتحقق لهم ذلك، ما لم يجعلوا لهم هيئة يعترف بها الأساقفة الإمبراطوريون، وتعتبر بذلك أعلى مكانة من الإمبراطورية. ولذا كانت السيادة البابوية أمراً جوهرياً[1].

لذلك عمل جريجوري السابع على إعادة نظرية السمو البابوي التي تعود إلى أيام جريجوري الأول (590-604م)، وكثير غيره من البابوات كانوا قد حاولوا تطبيق تلك النظرية، وهي نظرية سمو البابوية في علاقتها مع الأباطرة، لكن إذا كانت نظرية السمو البابوي في ذاتها ليست وليدة أفكار جريجوري السابع إلا أنه أول من طبق تلك النظرية في إصرار وعناد، من خلال اعتقاده بضخامة مهمة البابوية وعِظم رسالتها وقد قال في ذلك : "إنني لا أقبل البقاء في روما يوماً واحداً إذا أدركت أنني عديم الفائدة في الكنيسة"[2].

وهناك ملخص لآراء البابا الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحي العالمي، فهي المجموعة التي تُنسب إليه والتي جُمعت بعد وفاته بقليل حوالي عام 1087م، وتُعرف باسم مجموعة الإرادة البابوية[3] أو الأوامر البابوية، وأهم موادها :

1- البابا وحده هو الذي يتمتع بسلطة عالمية.
2- البابا وحده من يمتلك سلطة توظيف الأساقفة ثم عزلهم.
3- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يُقَبّلوا قدم البابا وحده.
4- لا يجوز عقد أي مجمع ديني (كنسي) أو مرسوم إلا بأمر البابا.
5- للبابا الحق في عزل الأباطرة (الإمبراطور).
6- ليس لأي فرد أن يلغي قراراً بابوياً، في حين أنه من حق البابا أن يلغي قرارات بقية الشعب.
7- لا يُسأل البابا عما يفعل ولا يُحاكم على تصرفاته.
8- يجيز البابا لرعايا أي حاكم علماني التحلل من عهود الولاء التي أقسموها لحاكمهم[4].
9- إن أسقف روما، إذا تم اختياره حسب القانون الكنسي يكون مقدساً بخصائص بطرس نفسه.
10- من حق البابا استخدام الشارات الإمبراطورية[5].

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 454.
(2) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 346، 347.
Young, The Churche, P. 125.
(3) انظر الملحق رقم (1).
(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 347، 348؛
Young, The Churche, P. 127.
(5) كين، حضارة أوروبا، ص 83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت معظم تلك المواد مستمدة مباشرة من مجموعة معاصرة من مجموعات القوانين الكنسية عنوانها (الكتاب ذوي السبعة وأربعين عنواناً)، وكانت المادة التي تنص على "حق البابا في عزل الإمبراطور"، والتي لم تكن تُذكر من قبل بهذا الوضوح، نتيجة منطقية للمواد الأخرى، ويُقال : إن الكثير مما وضعه مؤلف الكتاب قد جاء من وثائق زُيفت في القرنين الثامن والتاسع، وقد وُجدت في مجموعة القوانين الكنسية التي تُعرف حالياً باسم "إسبيدور المزيف Pseudo-Isidore"، وبين تلك الوثائق كانت الوثيقة المزيفة عن هبة قسطنطين[1] التي زعمت أنه أعطى السلطة الزمنية في إيطاليا للبابوات[2].

وبغض النظر عن مدى مصداقية تلك المواد، فقد آمن البابا جريجوري السابع إيماناً قوياً بأن البابا له السلطة العليا في حكم المجتمع المسيحي، وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائب القديس بطرس، فإذا امتنع حاكم علماني عن تنفيذ تعاليم الكنيسة، فإن لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية والمادية، ولذلك وجه جريجوري السابع مجمع روما الديني عام 1075م نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلماني، ونصه كالتالي :

"إن أي فرد من الآن فصاعداً يستمد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين، يُعتبر مطروداً من الوظيفة، ومحروماً من الكنيسة، ومن رعاية القديس بطرس، وإذا جرؤ إمبراطور، أو ملك، أو دوق، أو كونت، أو أي شخص علماني على استغلال أحد رجال الدين في مهام وظيفته الدينية؛ فإنه يُحرم من الكنيسة فوراً"[3].

اصطدم قرار جريجوري السابع بمقاومة عنيفة أبداها كافة المستفيدين من الإتجار بالقدسيات، وذوو المناصب الذين اشتروا وظيفتهم، وباتوا عرضة لأن يمنعوا من ممارستها؛ والأمراء الذين لم يقبلوا بالتخلي عن امتيازاتهم بسبب الأرباح التي توفرها لهم، ولا سيما بسبب الفوائد السياسية التي يوفرها لهم الإشراف على الكنائس الكبرى[4].

---

(1) هبة قسطنطين : تتلخص في أن بعض المتحمسين للبابوية، ذكروا أن الإمبراطور قسطنطين الكبير قد ابتلي بمرض عضال لم يشف منه إلا بصلوات البابا سيلفستر الأول، فكافأه الإمبراطور على نعمته بإصدار قانون يبيح للبابا لبس التاج واستعمال الصولجان كالأباطرة تماماً، كما منح الأساقفة وكبار رجال الدين في روما نفس الامتيازات التي كان يتمتع بها رجال الدين في الإمبراطورية القديمة، وحتى لا تتأثر سلطة البابا بوجود شخص الإمبراطور في روما، فقد تركها قسطنطين للبابوات، وشيد لنفسه عاصمة جديدة في الشرق هي القسطنطينية، ثم عهد للبابوات بحكم روما وإيطاليا كلها. (كولتون، عالم العصور، ص 110).

(2) كين، حضارة أوروبا، ص 83، 84.

(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 347، 348.

Young, The Churche, P. 128.

(4) بروي، تاريخ، مج3، ص 318.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما كان اعتماد الأرستقراطية يزداد شيئاً فشيئاً على الأساقفة، وخلال عهود متتالية جمع الأباطرة الكثير من الممتلكات لصالح الكنيسة؛ بغرض تقوية الجانب الديني مقابل الجانب الإقطاعي في الإمبراطورية، لكنهم فعلوا ذلك على أساس أن يكونوا هم من يُعَيّن الأساقفة ويستثمرونهم لحماية سيادتهم على الإمبراطورية، وبمنحهم العصا (العكاز) والخاتم (شعار العمل الكنسي) أراد الإمبراطور أن يبين للأساقفة أنهم تحت الإرادة الأرستقراطية، وأنه هو من يمتلك حكم الأبرشية. لكن في المقابل هل كان على الرهبان أن يشجبوا سياسة المراتب ويعلنوا الولاء للبابا؟ وهل كان الإمبراطور يجرؤ على السماح للبابا بتولي الشأن الكنسي في الإمبراطورية ويعين من يشاء، ويدخل يداً خفية في إمبراطوريته تعمل على تقويضها؟[1].

لقد رفض وليم الفاتح ملك إنجلترا (1066–1087م) الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية لها، في حين لم يعبأ فيليب الأول ملك فرنسا (1060–1108م) بآراء البابا وطلباته، واستمر في سياسته نحو الكنيسة. أما أباطرة المانيا فكان من الطبيعي ألا يقبلوا قرار جريجوري السابع الذي يمس سيادتهم وإشرافهم على رجال الدين في بلادهم، خصوصاً أنه نحو نصف مساحة أراضي المانيا وثروتها كانت في أيدي رجال الدين من أساقفة وأديرة، فكان معنى تنفيذ قرار البابا خروج تلك الأراضي من قبضة الإمبراطور ثم دخولها تحت سيطرة البابا، الأمر الذي يجعل الحكومة الإمبراطورية أمراً فارغاً من مضمونه، وبذلك أوشكت البابوية أن تقع في صدام عنيف مع السلطة السياسية، وهو النزاع الذي شغل أوروبا طوال القرنين التاليين، حتى أصبح تاريخها في تلك الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد هو البابوية والإمبراطورية[2].

كان سبب النزاع بين الطرفين هي أسقفية ميلانو Milano القديمة، والتي كانت أسقفية هامة في المصطلحات السياسية؛ لأنها كانت تتحكم في الممرات التي تربط بين المانيا الإمبراطورية ولمبارديا. وصار الموقف معقد بالفعل عندما تولي جريجوري البابوية، إذ أن كبير الأساقفة جويدو Guido الذي مات سنة 1071م، كان يريد أن يستقيل من منصبه، وفي حياته تم تنصيب خليفة له هو (جودفري Joedfrey)، في بلاط هنري الرابع حيث أخذ الخاتم والعكاز، لكن جو دفري لم يكن مقبولاً سواء لدى البابا أو لدى أهالي ميلانو، وعندما مات جويدو قام الأهالي، في حضور المندوب البابوي، باختيار قس يدعى أتو Otto لخلافته، وأعلن البابا الإلكسندر الثاني موافقته على ذلك الانتخاب، وبذلك كان على جريجوري –من بعده– أن يتمسك به. وفي سنة 1073م عندما واجه هنري تمرد في سكسوني، اضطر إلى وضع المسألة كلها للبابا؛ وذلك بسبب انشغاله. وهكذا بدا أن هدف البابا قد تحقق، ولكن بعد سنة تراجع هنري عن موقفه بعد أن انتصر على رعاياه المتمردين. وكان جريجوري على أعتاب افتتاح مجمع

(1) Pirenne, A history, Vol. 2, P. 166.

(2) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 349.

Young, The Churche, P. 128.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كنسي كبير في اللاتيران Allatyran، وعليه أن يختار، إذ كان عليه أن يستسلم للإمبراطور، أو أن يسعى للحفاظ على مبدأ حرية الكنيسة في اختيار قادتها مستعيناً بأية موارد يجدها[1]. ويبدو أن جريجوري السابع كان مستعداً للتحدي والصراع، فقد كانت له تحالفات عدة مع أمراء الإمبراطورية، والذين أغضبتهم محاولات هنري في تعزيز سطوته الملكية. حيث رأى أولئك الأمراء أن حرية الكنيسة تعني في المقابل تحررهم هم أنفسهم من التسلط الملكي[2].

كما اعتمد جريجوري على سلاح قوي، هم رجال الأديرة الكلونية، وأولئك كانوا قوة عظمى ساندت البابا في سياسته واعتمد عليهم في تنفيذها[3]، فأرسل جريجوري رسالة إلى هنري الرابع في أواخر عام 1075م أنذره وهدده بقرار الحرمان ضده وعزله من منصبه إن هو لم يخضع لرأي البابوية، ولم يرجع عن قراراته، ورد الإمبراطور هنري الرابع بعقد مجلس في يناير من عام 1076م في مدينة ورمز[4]، وقد حضر ذلك المجلس جميع الأساقفة الألمان تقريباً[5]، وفي ذلك المجلس اتهم الأساقفة الحاضرون البابا بالتدخل في شؤونهم المحلية، وأرسلوا إلى البابا رسالة بدأت بعبارة الأخ هيلد براند، ولم يخاطبوه باسم البابا، كما أرسل الإمبراطور هنري الرابع رسالة أخرى إلى البابا مطلعها "من هنري الملك الشرعي الذي اختاره الله إلى هيلد براند الذي لا يعتبر البابا بل راهباً مزيفاً"، وذيل الرسالة بقرارات مجمع ورمز التي تقضي بعزل البابا[6].

عندما سمع البابا بذلك قابله بهدوء، ودعا هو الآخر لعقد مجمع في الفاتيكان في روما في فبراير 1076م، قرر فيه توقيع الحرمان[7] على هنري الرابع، وعزله من منصبه، وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من إيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها[8]، وحَرّم على الجميع أن يتعاملوا معه كملك؛ وقد أدى ذلك إلى تصدع الإمبراطورية، وارتاع رجال الدين الألمان؛ فاتجه بعضهم إلى البابا يعلن ولاءه. كما عقد الأمراء الألمان الذين وجدوا في ذلك الموقف فرصة لزيادة نفوذهم اجتماعاً في مدينة تريبور Tribur في أكتوبر عام 1076م، وانحازوا إلى جانب البابا،

---

(1) كين، حضارة أوروبا، ص 81، 82.

(2) Strayer, Western Europe, P. 72.

(3) Young, The Churche, P. 128.

(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 296.

Young, The Churche, P. 135.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 296؛

Maehl, Germany in Western, P. 52.

(6) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 296.

(7) انظر الملحق رقم (2).

(8) Young, The Churche, P. 136.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأعلنوا أنه في حالة عدم تمكن هنري من رفع قرار حرمانه قبل الثاني والعشرين من فبراير 1077م؛ فإنهم في حل منه كملك وعليهم أن يختاروا ملكاً آخر[1]. كانت تلك خطوة بالغة الخطورة والأهمية، إذ أن الحرمان الكنسي وضع هنري خارج حدود الكنيسة التي كان تتويجه بواسطتها قد جعله ملكاً، وكذلك جُردت سلطته كلها من أية أهمية دينية[2].

أصبح وضع هنري حرجاً، بعد أن خطط البابا والأمراء لخلعه عن طريق إصدار قرار بذلك من قِبل المجلس الأعظم وأن يقتصر ملكه فقط على المانيا[3].

وجد هنري الرابع نفسه في كفة غير راجحة مع الكنيسة؛ لأن سلطته العلمانية لم تكن تطغى على سلطة البابا الروحية[4]، وقد استند الإمبراطور فيما ذهب إليه إلى :

1- القانون الروماني الذي يمجد الإمبراطورية وسلطتها، وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها.
2- الجيش الإمبراطوري الذي ثبت عجزه في أكثر من مناسبة عن إخضاع البابوية.
3- لم يجد الإمبراطور له نصيراً سوى تلك الفئة قليلة العدد من رجال الدين الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة، وأولئك لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سنداً حقيقياً للإمبراطور، أما ذو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد بايعوا جميعاً البابوية في موقفها المعادي للملك[5].

لذلك لم يجد الإمبراطور هنري الرابع حلاً أمامه إلا أن يرحل سراً إلى البابا في الوقت الذي كان البابا قد بدأ رحلته إلى المانيا، لكن البابا عندما علم أن خصمه هنري الرابع عبر جبال الألب ساعياً إليه، أسرع واحتمى في قلعة "كانوسا" Canossa التابعة لماتيلدا Matilda ملكة توسكانيا Toskanya[6].

وقف الإمبراطور هنري بباب القلعة لمدة ثلاثة أيام، في برد يناير لعام 1077م، حيث بقي الإمبراطور واقفاً على الجليد حافياً تائباً، أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه[7]، حتى

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 296، 297.
(2) كين، حضارة أوروبا، ص 83.
(3) Strayer, Western Europe, P. 72.
(4) Hearder and Waley (editor), A short history, , P. 41.
(5) Young, The Churche, P. 136.
(6) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 297.
Maehl, Germany in Western, P. 52. Young, The Churche, P. 137.
(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 297. كين، حضارة أوروبا، ص 84.
Hearder and Waley (editor), A short history, P. 47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعطّف عليه البابا وسمح له بالمثول بين يديه على الشرط بأن يسلم للبابوية بكل ما تطلبه بدون أي قيد[1]،[2].

استطاع هنري إنقاذ عرشه لكن على حساب كرامته الشخصية، أما بالنسبة لجريجوري فلم يكن ذلك انتصاراً كاملاً، فقد شعر رجال الدولة الألمان أنهم قد خُدعوا، حتى أن تأكيدات البابا على أنه لا زال يقف إلى جانبهم لم تعد ذات تأثير لديهم، ومن ثم فقد عاد الكثير منهم للانضمام إلى حزب هنري من جديد، وبذلك فإن قبول جريجوري لتوبة هنري أضعفت من مكانة البابا في المانيا[3].

لم يكن هنري جاداً في توبته فعاد إلى المانيا لينكل بالنبلاء ويعمل على زيادة نفوذه، وضج النبلاء من أعمال هنري[4]؛ فقاموا بعزل هنري من ولاية فرانكونيا واختاروا والي سوابيا رادولف ملكاً على سوابيا المستقلة، وكانت تلك أول مرة تحدث في المانيا أن يعلن النبلاء خلع ملكهم، والتجهيز لإعلاء ملك آخر على عرش المانيا عن طريق انتخاب شرعي[5].

نشب النزاع مرة أخرى وبشكل أكثر ضراوة وحدّة، فقد أعلن البابا جريجوري السابع عن حرمان وخلع هنري من كرسي الإمبراطورية عام 1080م، ثم اختيار Radolphe حاكم سوابيا كملك[6]، وكان ذلك الدوق الأشد عداءً لهنري، وفي المقابل اجتمع مجلس الأساقفة الألماني وأعلنوا عن خلع البابا جريجوري السابع ثم تعيين أسقف جديد مناهض للبابا وهو غيلبيرت Gilbert دوق رافينيا Rafinha وكان زعيماً للأسقفية اللمباردية خلال ثورتها ضد السلطة البابوية الرومانية[7]، وقد عُرف باسم كليمنت الثالث (Clement III)[8]، وأما رادولف فقد هُزم وذبح في نفس العام[9].

رتب هنري أوراقه لغزو إيطاليا؛ لفرض قرارات المجلس الأسقفي الألماني بالقوة، وفي عام 1084م دخل روما منتصراً ثم تُوِّج كإمبراطور من قِبل البابا الألماني الجديد والمناهض للبابوية

---

(1) Young, The Churche, P. 137.

(2) انظر الملحق رقم (3).

(3) Strayer, Western Europe, P. 72.

(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 297.

(5) Maehl, Germany in Western, P. 52.

(6) كين، حضارة أوروبا، ص 84.

(7) Hearder and Waley (editor), A short history, P.P. 41, 42.

(8) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 298.

(9) Maehl, Germany in Western, P. 52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الرومانية[1]. أما البابا فقد احتمى بقلعة سانت أنجلو St-Angelo واستنجد بروبرت جويسكارد Robert Guiscard زعيم النورمان[2]، وعندما سمع هنري بقدوم قوات روبرت انسحب بقواته وعاد إلى المانيا[3]. جاء المدد من النورمان، ولكن على حساب روما، فقد رأت روما لمدة ثلاثة أيام متواصلة من الشناعة والفظاعة التي ارتكبت على أيدي أنصار البابوية (النورمان) ما لم تشهده من قبل ولا من بعد. ولم يكن بمقدور جريجوري السابع النجاة من غضب الجماهير الرومانية؛ لذلك حمله النورمان معهم إلى سالرينو حيث مات هناك في العام 1085م[4].

في الحقيقة عاد ذلك الصراع بالفائدة الكبرى على البابوية برمتها حيث نالت استقلالها من نفوذ السلطة الملكية، وذلك الاستقلال كان أحد أهم نتائج الصراع الطويل، حتى أنه لم يكن بمقدور النبلاء الإيطاليين ولا الملوك الألمان تحديد المصير الانتخابي للبابوات، وظهر أثر ذلك بشكل كبير في المانيا؛ لأن الملوك الألمان أكثر من أي حكام آخرين كانوا يعتمدون كلية على الدعم المادي والعسكري المستمد من الهيكلية الكهنوتية، وعندما لم يعد الملوك الألمان متأكدين من ولاء الكهنوت المسيحي من دعمه لهم سيفقدون السيطرة الفاعلة على المملكة[5].

ورُغم ذلك فلا نستطيع القول بأن الصراع بين الإمبراطورية والبابوية انتهى، لكن لهم جولات أخرى ليس لنا أن نخوض بها.

ويجدر بنا الذكر : أن البابا البيرليوني جريجوري السابع هو من خطط لحملة صليبية تتوجه إلى القدس لكن صراعه مع الإمبراطور هنري شغله عن تنفيذ مشروعه، وبعد وفاته خلفه بابا جديد باسم فيكتور Victor الثالث الذي توفي عام 1087م ليخلفه أوربان الثاني (1088–1099م)، وعندما حدث ذلك كان البابا المضاد كليمنت الثالث في روما، والأمور مشوشة في العالم المسيحي بشكل منقطع النظير، وعاش أوربان في فرنسا وشرع يخطط للقيام بمغامرة مثيرة وعلى مستوى تمكنه من ربح المعركة مع الإمبراطورية[6]، فكان أن دعى أوروبا للقيام بأول حرب صليبية ضد المسلمين في الشرق، حيث كانت الحرب الصليبية في مضمونها بابوية بحتة[7].

رأى كثير من الباحثين أن فكرة الحرب المقدسة في شكلها النهائي كان من صياغة جريجوري السابع، الذي أحدث نقلة نوعية في موقف المسيحية من الحرب، فقد دعا أمراء عدة لنجدة

---

(1) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 42.

(2) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 298.

(3) Maehl, Germany in Western, P. 52.

(4) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 42.

(5) Strayer, Western Europe, P. 73.

(6) وليام، تاريخ، ص 17.

(7) Hearder and Waley (editor), A short history, P. 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكنيسة ومحاربة المسلمين الذين يهددون القسطنطينية، وحين ربط البابا جريجوري السابع بين الحرب ضد المسلمين وفكرة الحرب المقدسة، كان يجسد الفكرة القائلة : بضرورة استخدام القوة لحماية شعب المسيح من الأعداء باعتبار ذلك سبباً عادلاً لشن الحرب، وتلك الذريعة هي التي اتخذها أوربان الثاني في كليرمون سنة 1095م، وهو يدعو أمراء أوروبا وفرسانها، لأخذ شارة الصليب[1].

ذلك لا يعني أن الحروب الصليبية كانت دينية بحتة، ومما يؤكد ذلك قول سيدني بانتر : "بأن رجال الدين مثل جريجوري السابع ورؤساء دير كلوني الأوائل، كانوا من الكهنوت السياسيين، إذ كانوا يسعون أساساً إلى السلطة والنظام والكفاية، بل إن النظام الرئيس للأديرة في تلك الفترة، خصوصاً النظام المعمول به في دير كلوني، إنما هو بمثابة إصلاح إداري وليس إصلاحاً روحياً"[2].

ولعل تلك الحملات الصليبية قامت في الأصل بدعم وتأثير من الفكر اليهودي، وليس بالضروري أن يكون الفكر اليهودي هو المعتقد الديني عند اليهود، وإنما الفكر السياسي والإداري والاقتصادي الذي يدعم وجود اليهود في الغرب الأوروبي، وقد كانت هناك أسباب عديدة لذلك الاحتمال منها :

1- ظهر الإصلاح الكلوني في مدينة كولون، وهي مدينة ورد ذكر تجمعات يهودية استوطنت فيها في القرن العاشر الميلادي[3]، ومن ذلك الدير خرج كل من جريجوري السابع وأوربان الثاني اللذان دعيا للحملات الصليبية، وهم من أسر يهودية[4].

2- كان اليهود هم العنصر الرأسمالي في غرب أوروبا حيث عملوا بالتجارة[5]، وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه، وكادوا يحتكرونه قبل القرن الحادي عشر، وباستيلاء جنوا والبندقية على تجارة البحر المتوسط، قضت على زعامة اليهود التجارية في المتوسط، فتحولت تجارتهم إلى تجارة محلية في أنواع محددة من السلع[6]. فربما وجد اليهود بخروج الحملات الصليبية فرصة جديدة لهم؛ ليعوضوا بذلك ما خسروه.

وقد وضع العالم التلمودي البابلي Rab لليهود شعاراً يقول : "تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر، أما إن استغللت هذا القدر نفسه في الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح"[7].

---

(1) قاسم، ماهية الحروب، ص 44، 45.
(2) بانتر، تاريخ، ص 10.
(3) المسيري، موسوعة، ج3، ص 325.
(4) وليام، تاريخ، ص 17.
(5) المسيري، موسوعة، ج3، ص 317.
(6) المرجع نفسه، مج 14، ص 61، 62.
(7) ديورانت، قصة الحضارة، مج 14، ص 61.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- ربما وجد اليهود أن خروج العامة في الحروب سيؤدي إلى نقص في الأيدي العاملة في الزراعة، وإهمال شؤونها، وبالتالي نقص للمواد الغذائية، فيحتكر اليهود بيع المواد الغذائية في أوروبا.

4- اعتبر أحد المؤرخين أن ذهاب اليهود إلى القدس من خلال رحلاتهم التجارية بأنها حج محاولاً ربط اليهود عاطفياً بمدينة القدس التي يوجد بها هيكل سليمان المزعوم، وذهب إلى اتساع حركة الحج عند اليهود في القرن الحادي عشر عبر رحلاتهم التجارية[1]. وفي حين ذهب ديورانت إلى أنه في القرن الحادي عشر حرمت البندقية نقل التجار اليهود على سفنها، ولم يمضِ بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصبة المدن الهنسية The Hansatic Leayue موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطي في وجه التجارة اليهودية[2].

5- لقد شعر اليهود في أوروبا بأنه ليس لهم حق في أن يكون لهم ملك خاص، لأن ما يحصل عليه من أملاك، ليست لهم ولكن للملك. ذلك لأنه يجوز لأي ملك جديد، عملاً بالسنن القديمة، إما أن يحرق اليهود جميعاً، أو أن ينقذ حياتهم ويأخذ ثلث أملاكهم[3]. لذلك كانت الحملات الصليبية فرصة جديدة للبحث على موطن آخر لحياة أفضل، أو أن خروج الملوك والفرسان والنبلاء سيمكنهم من تحقيق ما يطمحون إليه.

---

(1) كاهن، الشرق والغرب، ص 73.

(2) ديورانت، قصة الحضارة، مج 14، ص 62.

(3) المرجع نفسه، مج 14، ص 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في فرنسا والمانيا

من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر

أولاً : الأوضاع السياسية في فرنسا من (840-1108م) :

1- سقوط البيت الكارولنجي (810-987م).

2- قيام أسرة كابيه في حكم فرنسا (987-1087م).

3- آل كابيه الأوائل (1087-1108م).

ثانياً : المانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (887-1056م) :

1- نهاية البيت الكارولنجي (887-910م).

2- الأسرة السكسونية (919-1024م).

3- الأسرة السالية أو الفرانكونية (1024-1106م).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً : الأوضاع السياسية في فرنسا من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر.

1- سقوط البيت الكارولنجي (840-987م) :

قُسمت الإمبراطورية الكارولنجية (Carolingian Empire)[1] طبقاً لتقاليد الفرنجة بين أولاد (شارلمان Charlmagne)[2]، والتي ظلت طوال حياته قوية، لكن وفاة اثنين منهم وبقاء (لويس Louis)[3] التقي 814-840[4]، وهو الابن الأصغر، جعلته يعتلي العرش، وفي عام 817م قسم لويس الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، أما ابنه (بيبن Pepin) فقد حصل على (أكوتين Aquitaine)، في حين استأثر لويس بحكم بافاريا، أما (لوثر Luther) فكانت له الإمبراطورية بأكملها بعد موت أبيه. بعد فترة وجيزة تُوفيت الملكة زوجة لويس التقي، فقام بالزواج من (جوديث Judith) التي أنجب منها تشارلز والذي عُرف فيما بعد بتشارلز الأصلع (الأقرع)، لكن لويس لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل لتشارلز حيث إنه قام بتقسيم إمبراطوريته بين أبنائه، وبعد أن التمس من أبنائه نصيب لتشارلز، وافق لوثر على إعطائه أي جزء من المملكة أراده تشارلز، وأقسم بأن يكون حامياً لحق أخيه تشارلز، وأن يدافع عنه ضد أعدائه، ولكن بفعل من حوله ندم لوثر على ما فعله[5].

تمرد الأبناء على أبيهم وترتب على ذلك صراع وصل إلى درجة الصدام المسلح. وبعد وفاة بيبن عام 838م، ثم وفاة لويس التقي الأب عام 840م، تم إعادة تقسيم الإمبراطورية بموجب معاهدة فردان عام 843م[6]، حيث اختص لويس الابن "وهو من عُرف بلويس الألماني" بالأراضي المحصورة بين الألب والراين، وحكم تشارلز الجزء الأكبر من فرنسا وولايات الحدود الأسبانية،

---

(1) الإمبراطورية الكارولنجية : هي الإمبراطورية التي حكمتها الأسرة الملكية الثانية التي خلفت الأسرة الميروفينجية سنة 751م، وحكمت فرنسا والمانيا لغاية سنة 987م. (Schutz, The Carolingians, P. 9) انظر الملحق رقم (9).

(2) شارلمان : (742-814م)، حاكم الإمبراطورية الكارولنجية بين عامي (768-800م)، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين عامي (800-814م)، وهو الابن الأكبر للملك بيبن الثالث من سلالة الكارولنجيين. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2662). انظر الملحق رقم (5)، (18).

(3) لويس التقي : أو لويس الورع، رأس الإمبراطورية الكارولنجية بين عامي (814-840)، ملك أكتيانيا عام 781م، إمبراطور وملك الفرنجة بالاشتراك مع والده شارلمان عام 813م. صار الحاكم الوحيد للفرنجة إثر وفاة والده عام 814م؛ لكونه الابن البالغ الوحيد الباقي على قيد الحياة، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى وفاته باستثناء إزاحته بين عامي 833-834م. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 3662).

(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 183.

(5) Speed, (editor), Those Who Fought, P. 15.

(6) معاهدة فردان : معاهدة وقعت سنة 843م، قسّم بموجبها أبناء لويس الورع الثلاثة الباقين على قيد الحياة الإمبراطورية الكارولنجية إلى ثلاث ممالك. (_____, The Coumbia, Vol. 6, P. 403) للمزيد انظر الملحق رقم (6).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأعطى لوثر إيطاليا والأراضي المحصورة بين الراين Rhine شرقاً، والشلد Alcld، والسلؤون Asalwon، والرون Rhone غرباً، وكان لذلك التقسيم أهميته في ظهور بعض الدول مثل فرنسا والمانيا[1]، وقد أتاحت معاهدة فردان لتشارلز السيطرة على منطقة أكويتاني Aquetani، والتي كانت منطقة نزاع بينه وبين بيبن الثاني بن بيبن الأول، لكن النزاع انتهى بهزيمة بيبن الثاني وأسره[2].

كان لتلك السياسة أثرها في ظهور الفوضى في البلاد، والتي ترتب عليها وصول النورمان إلى باريس في العام 845م، حيث عاثوا فيها فساداً، ورفضوا الخروج منها إلا مقابل مبلغ من المال، ولم يتوقفوا عند باريس بل كانت بريتاني واكويتاني تحت رحمة سيوفهم وتدميرهم، ومن الجنوب لم يترك المسلمون فرصة للأراضي الفرانكونية والإيطالية لالتقاط أنفاسها، حيث كان المسلمون يهاجمون انطلاقاً من قواعدهم المركزية في شمال أفريقيا، حتى روما نفسها هوجمت من قبل المسلمين عام 846م[3].

أما من الناحية الشرقية فقد هددت التخوم الكارولونجية من قبل البرابرة الجدد، حيث بدأ العبيد من الموارفيين والبلغار[4] في مهاجمة الإمبراطورية وكانت الخطورة الأشد في الهجمات التي كان يشنها الموارفيون والذين نهبوا شرق المانيا إبان حكم لويس الألماني وخلفائه[5].

وعندما مات لوثر الأول عام 855م قسمت مملكته بين أخويه لويس الثاني وتشارلز الأصلع وابنه لوثر الثاني، فقد حصل لوثر الابن على المناطق الشمالية لجبال الألب، وأما لويس الثاني فقد حصل على مملكة إيطاليا، وحصل تشارلز على منطقة بروفنس[6].

وفي عام 856م عاد النورمان مرة أخرى واحتلوا أورلنياس Eurlinas، وذبحوا رهبان دير سينت مارتن Saint Martin –الواقع في منطقة تورز Tours– جميعهم، ووقعت باريس مرة أخرى في يدهم. أما النبلاء ومالكي الأراضي والسادة الذين أوكلت إليهم مهمة الدفاع عن الدولة فقد شرعوا بدورهم في نهب الممالك، وتركوا مهمتهم التي أوكلها إليهم تشارلز، وبذلك تعرض الكونتات والسادة إلى التهديد بعقاب أليم في حال تمكن تشارلز منهم، مما دعا أولئك الكونتات لمناشدة الملك

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 183.

(2) Brentano, The Earliest Times, P. 401.

(3) Ibid, P. 401.

(4) البلغار : عرق يتكون من قوميات مختلفة، بعضها من أصول سلافية، والبعض من أصول تركية، جاءوا في هجرات منتظمة للأراضي البلغارية من دول مجاورة كجمهورية مقدونيا واليونان والبلقان.

(_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2334)

(5) Lamonte, The world of, P. 166.

(6) Ibid, P. 164.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لويس الألماني، الذي كان منشغلاً بحربه ضد السوابيين، بسبب قلاقل واضطرابات حدثت في بلاده، ولم تكن تلك المناشدة ضد النورمان، لكن ضد تشارلز[1].

وعندما مات لوثر الابن قام أعمامه لويس الثاني وتشارلز الأصلع بتقسيم نصيبه من الإرث من خلال معاهدة ميرسين عام 870م[2]، مقسمين بذلك لوثنغريا من المنتصف خالقين بذلك أزمة حدودية عُرفت باسم أزمة إقليمي ألاسك واللورين، أثرت في العصر الحديث على العلاقة ما بين فرنسا والمانيا[3].

وفي عام 872م وأثناء احتفال إحياء ذكرى تقلد العرش الإمبراطوري، انتزع تشارلز الأصلع من الأساقفة الحاضرين يمين الولاء على أن إسداء النصح، وتوفير الحماية ومساعدته في الاستيلاء على مناطق جديدة[4]، وفي عام 875م تم تتوج تشارلز الأصلع إمبراطوراً للدولة الكارولونجية[5].

وفي تلك الفترة مات الملك لويس الثاني وكان قد قسم مملكته بين أبنائه حسب رغبتهم فكانت بافاريا وإيطاليا من نصيب كارلومان، وحصل تشارلز البدين على سوابيا Swabian، أما لويس الثالث فقد أُولي حكم سكسوني Saxony ولوثنجريا Lotherngia وفرانكونيا Franconia[6].

فقام كارلومان بن لويس الثاني بمعارضة تتويج تشارلز الأصلع إمبراطوراً، واستطاع نزع تاج إيطاليا بعد وفاة الإمبراطور تشارلز في عام 877م، لكنه لم يتوج إمبراطوراً حيث مات بعد استيلائه على العرش بوقت قصير، وتم تتويج تشارلز البدين الأخ الأصغر لكارلومان Karoulman إمبراطوراً عام 881م[7].

وفي عام 886م وأثناء حكم تشارلز البدين تعرضت مدينة باريس لحصار من قبل النورمانديين[8]، فلم يستطع تشارلز البدين حماية المدينة[9]، لذلك ظل روبرت الصنديد –كونت باريس وأحد أفراد أسرة كابيه– يدافع عنها حتى قُتل[10] في معركة حامية الوطيس عام 886م[11]، فأكمل

---

(1) Brentano, The Earliest Times, P. 402.

(2) انظر الملحق رقم (7).

(3) Lamonte, The world of, P. 164.
(4) Schutz, The Carloingians, P. 125.
(5) Lamonte, The world of, P. 164.
(6) Schutz, The Carloingians, P. 126.
(7) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 171.
(8) Ibid, Vol. 1, P. 171.

(9) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 215.

(10) فشر، تاريخ أوروبا، ص 160.

(11) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 171.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابنه أودو الدفاع بشجاعة رائعة، ومن ثم كان أودو هو صاحب الفضل في حماية باريس من النورمان[1]، فكوفئ على خدمته بأن أصبح كونت باريس، ثم دوقاً لفرنسا[2]. ولم يكن ذلك بالأمر السهل على المواطن الفرنسي الذي دفعته أمجاد شارلمان إلى التمسك بالبيت الكارولنجي، وترتب على ذلك صراع طويل بين البيت الكارولنجي وبيت النبلاء ظل قرابة مائة عام[3].

أما تشارلز الأصلع فقد خلفه ابنه لويس الثاني في عام 879م، ثم تحولت المملكة إلى لويس الثالث في عام 879، ثم تحولت إلى كارلومان عام 882م[4]، وفي عام 884م قُتل الملك كارلومان الثاني أثناء قيامه بالصيد وكان حادث موته غريباً، كما كان حادث موته أمراً مفجعاً للدولة الكارولنجية، فخلال الفترة ما بين 879م إلى عام 884م مات خمسة ملوك من الأسرة الكارولنجية الأمر الذي سارع في تفاني الأسرة المالكة، حيث إن نسل شارلمان لم يكن بالعدد المهول والذي يؤمن فترة طويلة في الحكم[5].

وعندما مات كارلومان انتخب تشارلز البسيط حفيد تشارلز الأصلع[6]، وكذلك لم يكن سواه ممثلاً للبيت الكارولنجي بعد وفاة شارل البدين عام 887م، والذي كان في السابعة أو الثامنة من عمره[7].

لكن كما ذُكر سابقاً فقد تعرضت البلاد لهجمات عديدة من الفايكنج، وتعرضت باريس للحصار منهم، مما جعل من الضروري انتخاب ملك يحكم البلاد، فكان انتخاب أودو كونت باريس ملكاً لفرنسا[8]؛ وبذلك أصبح أودو على رؤوس الحكام الإقطاعيين في أوروبا، بحيازته لحكم مناطق واسعة، ولم يكن أودو محظوظاً في تملكه تلك المساحات الشاسعة من الأراضي الفرنسية والأوروبية، فقد كانت هيمنته بمثابة سلاح توجه ضده[9].

ففي ظل نمو النظم الإقطاعية، ووجود كونتات ونبلاء إقطاعيين نظروا إلى أودو على أنه ليس إلا شخصاً منهم لا يزيد عن أحدهم في شيء، فبدأ بعضهم يتطلع إلى ذلك العرش طالما هو في حوزة أودو، ولم يعد إلى الأسرة الشرعية (الكارولنجية)، إضافة إلى ذلك فإن النصر الذي أحرزه

---

(1) فشر، تاريخ أوروبا، ص 160.

(2) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 171.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 215.

(4) Lamonte, The world of, P. 164.

(5) Maclean, Hinyship and politics, P. 124.

(6) Lamonte, The world of, P. 165.

(7) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 385.

(8) المرجع نفسه، ص 385.

(9) Guignebert, A short History, P. 171.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أودو على النورمان عام 888م سرعان ما جرى نسيانه حين عاد أودو ليشتري مسالمة النورمان بدفع الأموال الطائلة لهم حين هددوا البلاد من جديد سنة 891م، بعد أن اجتاحوا غرب فرنسا وشمالها، ولم يوقف ذلك التقدم إلا ما أنزله بهم أرنولف ملك المانيا من هزيمة، أخلوا على أثرها البلاد ثم اتجهوا إلى الجزيرة البريطانية[1]. واتسعت هوة الخلاف بين أودو والأمراء، خصوصاً فولك أسقف الرايمز، حيث أراد فولك منافسة أودو في الانتخابات الكنسية، وإحكام السيطرة الدينية على مناطق بحر لانغير خصوصاً وأن فولك قد نجح في جعل نفوذ تلك المناطق تحت سيطرة تيبوتبلاد أحد أعضاء الأسرة الكارولنجية ودحض ادعاءات أرغريم أحد أنصار أودو في تولي منصب كنسي هام[2].

واندلعت الثورات في فلاندرز وفي أكوتين وغيرهما، وبرز في سنة 983م شارلز البسيط ليطالب بحقه في التاج الفرنسي[3]، وكان فولك هو من قاد تلك الثورات وشاركه فيها كُلٌّ من اسكيرك أسقف باريس، وهيربرت سليل بيرنهارد Bernhard ملك إيطاليا وبعض الكونتات من أقرباء أدهيلد Adhild أم تشارلز البسيط[4]. كما كتب الأسقف فولك إلى أرنولف ملك المانيا وشرق فرانكونيا، وقد كانت الرسالة هي بمثابة تمهيد لأخذ الاعتراف من أرنولف لتتويج تشارلز البسيط كملك لغرب فرانكونيا، كحركة مناهضة لأودو الذي اقتنص التاج الملكي لغرب فرانكونيا في خضم أزمة عام 888م[5]. وقد وعد فولك الملك أرنولف بتأييد مُلكه فوق ملك تشارلز البسيط، وبذلك قام أرنولف بالاعتراف بتشارلز البسيط كملك[6].

فقام فولك بجمع الجموع الكبيرة من حوله، وأعلن عن قيام مُلك تشارلز البسيط ابن لويس المتهته من داخل كنيسة سانت ريمو[7] St. Remo. وكان ذلك في شهر يناير من عام 893م، حيث أصبح تشارلز البسيط ملكاً على منطقة الرايمز Alrimes، وكان يبلغ من العمر آنذاك الثالثة عشر[8].

بعد إعلان ملكية تشارلز البسيط، لم يترك أودو اكوتياني حيث مكث فيها تسعة أشهر ظناً منه بأن مناطق نفوذ تشارلز البسيط ستستقر في شمال المملكة ومناطق الفلاندرز Flanders والفيرماندوز Elvirmando والمناطق المجاورة لمنطقة الرايمز، وبأن توليه لمنطقة أكويتاني سيظل ثابتاً بصفتها من أهم أولوياته كحاكم هناك[9].

---

(1) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 385، 386.

(2) Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 271.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 386.

(4) Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 271.
(5) Hen and Innes, The uses of the past, P. 47.
(6) Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 271.
(7) Brentano, The Earliest Times, P. 419.
(8) Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 271.
(9)Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 271.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى الرغم من تعاطف البابا ومساندة أرنولف لتشارلز البسيط، إلا أن تشارلز قد أخفق في إجبار خصمه أودو على التنازل عن العرش، في حين انشغل أرنولف بحملته الثانية على إيطاليا ولم يعد يهتم بالنزاع في فرنسا، ولذلك نشط أودو في محاولة القضاء على تشارلز البسيط وأحلامه في استعادة العرش الكارولنجي[1].

هكذا وفي خضم الوضع المتفاقم بفعل الصراع على الحكم عادت فرنسا إلى الانقسام من جديد مما أثار مخاوف عودة الحروب الأهلية المميتة بين الأطراف المعادية لبعضها البعض[2]. إضافة إلى ذلك ففي عامي 895–896م وصل النورمان من جديد إلى مصب نهر السين، واخترقوا البلاد عبر ذلك النهر[3]، وأمام تلك الأخطار ما كان من أودو إلا أن يتنازل لتشارلز البسيط عن جزء من مملكته وهي منطقة ليون Lyon وجعلها نواة عاصمة لتشارلز[4]، من خلال معاهدة سلام عُقدت بينهما اعترف فيها أيضاً تشارلز بأحقية أودو في الحكم[5].

كان أودو ملكاً عقيماً لا ينجب[6]، وقد أوصى رجالات دولته بأن يقوموا بتتويج تشارلز البسيط كملك لفرنسا بعد موته، ومات أودو في الأول من يناير عام 898م، وكان أخوه روبيرت أول من قام بدعم عملية انتخاب الملك الكارولنجي الجديد تشارلز البسيط[7]، وما كان من تشارلز إلا أن حفظ له الجميل واستبقاه على كل ما كان قد أولاه إياه أخوه الملك السابق لفرنسا، وبذا أصبح روبرت Robert الرجل الأغنى والأرفع مكانة من بين عظماء فرنسا[8].

لم يكن من الممكن للملوك الكارولنجيين الأواخر أن يتحلوا بحلة الكسل الملكي فتشارلز والذي دهته الأيام بلقب البسيط لم يكن بسيطاً بالبعد المعروف للكلمة، ولسوء الحظ كانت وسائل السياسة لدى الملوك في الحقبة الأخيرة من عهد الدولة الكارولنجية ضعيفة وغير مستقرة ولم تكن تتماشى مع احتياجات الملك والحكم[9]، فقد بذل أولئك الحكام قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم، لكن كان ينقصهم المال اللازم، حيث إن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد حوض الراين، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من إمبراطوريته سوى القليل، وهو الجزء الذي صار من

---

(1) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 387.

(2) Brentano, The Earliest Times, P. 419.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 387.

(4) Brentano, The Earliest Times, P. 419.

(5) Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 272.

(6) Brentano, The Earliest Times, P. 419.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 474.
Brentano, The Earliest Times, P. 419. Duggan, (editor), Nobles and Nobility, P. 30. Mckitterick, The Frankish kingdoms, P. 272.

(8) Brentano, The Earliest Times, P. 419.

(9) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 172.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نصيب سلالة ملوك فرنسا، وذلك هو السبب في أن ملوك الجزء الغربي من الإمبراطورية –فرنسا– ظلوا دائماً في فقر وحاجة إلى المال حتى زوال البيت الكارولنجي[1].

قام تشارلز البسيط في عام 911م بعقد معاهدة مع الفايكنج؛ بهدف تأمين مصالح دعم قوته الملكية وهيمنته الحكومية[2]، عُرفت بمعاهدة (كلاجور ابيتي) وسان كلير، على الابت، وقد كان أولى رواللو زعيم الفايكنج من خلال تلك المعاهدة نفسه زعامة شريحة كبرى من المنطقة التي عُرفت فيما بعد بمنطقة نورماني، وقد استولى على منطقة روين Rouen بأكملها. وتعتبر تلك المعاهدة أهم العلامات البارزة في عهد تشارلز[3]، كما تعتبر أبرز أحداث تاريخ النورمان في تلك البلاد، ونقطة البداية في تأسيس المملكة النورمانة بغالة، ويبدو أن كلاً من شارل البسيط وروللو رغبا في إبرام تلك المعاهدة؛ طلباً للراحة، بعد فترة طويلة من القتال والغارات النورمانية، والتصدي الفرنسي لها، وذهاب الاستقرار وضياع الأمن، وتنصر رولو في العام التالي للمعاهدة (912م)، وجرى تعميده وفقاً للمسيحية الكاثوليكية Catholic، وتسمى باسم (روبرت)[4].

وفي عهد تشارلز البسيط ظهر تحول سياسي جديد في فرنسا حيث إن الشرق الفرانكوني لم يمل إلى ملكية تشارلز لعدم رغبته بالتبعية للغرب الفرانكوني وقاموا بدورهم بانتخاب ملك لهم وهو كونراد الأول ملك المانيا؛ لأنه كان واحداً من أفراد كينونتهم السياسية[5].

كما كان تشارلز البسيط آخر ملك من السلالة الكارولنجية حكم لوثنغريا والتي انبثقت منها هولندا، حيث حصل على مُلكها من خلال معاهدة بون Bonn، وفي عام 922م قام بتقديمها إلى أحد الكونتات. في تلك الفترة كان هنري الصياد ملك شرق فرانكونيا، فقام بخلع ذلك الكونت وتم الاعتراف بالصياد كملك على لوثنغريا، وبذلك انتقل حكم هولندا من فرنسا إلى المانيا، ومن تلك اللحظة أصبحت دوقيات هولندا وممالكها تابعة لنظام التوارث[6].

وفي عام 922م قاد روبرت –أخو أودو– تمرداً مفتوحاً، ونجح في تأليب أهل نستريا، ومعظم الرعايا وكبار البلاد ضد شارل البسيط، حتى جرى تتويج روبرت في نفس العام ملكاً على فرنسا، وظهر في فرنسا ملكان في وقت واحد، واستمر الوضع على ذلك الحال حتى مات روبيرت قتيلاً في معركة قادها ضد تشارلز[7].

---

(1) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 352، 353.

(2) Duggan (editor), Nobles and Nobility, P. 30. Northcatt, The regions of France, P. 163.

(3) Brentano, The Earliest Times, P. 419.

(4) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 389–392.

(5) Duggan (editor), Nobles and Nobility, P.P. 30, 31.

(6) Motley, The rise of, P. 13.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 481. الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 393.
Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 172.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتقدم روبيرت الأبيض ليخلف أباه على الحكم[1]، وقد مُنح روبيرت لقب هوف فيما بعد من قِبل الملك لويس الرابع ابن الملك تشارلز البسيط[2]. ونظراً لأن ذلك الشخص لم يكن في نظر الأمراء أهلاً لذلك المنصب من ناحية، ومن ناحية أخرى سيعتبر اختياره اعترافاً بالمبدأ الوراثي لصالح أسرة جديدة، وهو أمر كان يعارضه كبار النبلاء والأمراء؛ لذلك استقر رأي الأمراء على اختيار رؤول صهر روبيرت ملكاً في يوليا 923م، حيث جرى تتويجه في سواسون ملكاً بتأييد من كبار رجال الدين، وقبول من شمال فرنسا وغربها، في حين ظلت نورماندیا وجنوب فرنسا وشرقها واللورين تتمسك بملكها الكارولنجي تشارلز البسيط، لكن تشارلز البسيط وقع في أسر أحد الأمراء المحليين من أنصار رؤول يُدعى هربرت أمير فرماندوا Faramando سنة 923م، الذي احتفظ به رهينة يمكن أن يساوم عليها مليكه إذا اقتضى الأمر، وبقي تشارلز البسيط في السجن حتى مات فيه سنة 929م[3].

وبسبب خيانة هربرت فرماندوا، التجأ لويس الرابع بن تشارلز البسيط إلى إنجلترا، مع أمه أوجيف بنت الملك أدوارد الأول، ولم يفكر بالمطالبة بالعرش[4].

كانت الفترة بأكملها ما بين العامين 900–1000م فترة نزاع ما بين البارونات والملوك، وحتى العام 1000 كانت فرنسا تحتوي على 29 مقاطعة، وقد وصلت في عام 1100 إلى أكثر من 55 مقاطعة، وقد كانت تلك المقاطعات بمثابة مقاطعات مستقلة، وقد قال أحد المؤرخين : "إن حكام تلك المقاطعات كانوا يتمتعون بصفات الملوك، فكل واحد منهم كان يعش في قلعته وله الآلاف من الخدم والجنود، وكانت هيمنة الملك على أولئك الحكام ضعيفة جداً، ومع تحطم الوحدة السياسية لفرنسا ضاع السلام"[5].

في عام 936م مات الملك رؤول Raul، ولم يترك وارثاً مباشراً، فخلفه أخوه هوف الأسود الذي لم يكن أهلاً للعرش؛ فكانت الطريق ممهدة أمام هوف بن روبيرت سيد Nostrella القديمة، وكونت باريس[6].

تميز هوف بذكاء خارق وهمة عظيمة وكفاءة دبلوماسية فائقة، تجلت في رفضه قبول التاج أو الانتخاب، حيث أدرك أن الأرستقراطية الفرنسية، ربما لن تمنحه الفرصة حسداً وغيرة، ولذلك

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 481.

(2) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 172.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 394، 395.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 483.

(5) New Fang, World Federation, P. 17.

(6) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 484.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أقنع كبار الأمراء والنبلاء بولائه لسلالة البيت الكارولنجي وبدعوته للويس الرابع ليتسلم تاجه، في حين فضّل هو أن يمارس السلطة من وراء حجاب حتى تتحسن الظروف وتتهيأ الفرصة[1].

إضافة إلى ذلك فقد كانت سلطة هوف ضعيفة، فلم يكن لديه جيش قومي لكنه كان معتمداً كل الاعتماد على جيوش البارونات الإقطاعيين والذين كان يعجز عن إخضاعهم لسلطته[2].

لم يكن لويس الرابع على شاكلة والده، حيث كان فارساً ممتازاً اتصف بالقوة والحزم والشهامة، وكان ذكياً نشيطاً مرناً شديد الصبر والمثابرة، وكلها صفات أهّلته للتغلب على مشاكل عصره والعقبات التي تنتظره في فرنسا؛ لذلك اكتشف هوف أن الصراع لن يكن مستتراً من وراء حجاب[3].

فانتقل هوف من مرحلة إلى مرحلة خلال عمليات نهب واختلاس وانتهاك، حتى طالت يديه الملك نفسه فأودعه السجن لمدة عام حتى سلم الملك آخر قلعة من قلاعه الحصينة، لكن تدخل أوتو الأول الألماني أجبر هوف على التراجع وكان ذلك في عام 946م، كما كان للأساقفة دور في إجبار هوف Hove على إبرام الصلح مع لويس عام 950م[4]. وجاء دور الأساقفة تجاه لويس؛ بسبب ادعاء خلفاء شارلمان كما ادعى شارلمان الادعاء الإلهي بأنهم هبة الله إلى الملك، حيث جعلوا لأنفسهم أُنموذجاً إلهياً من خلال حرصهم على تزويد مسؤولياتهم تجاه الكنيسة وفتح باب بلاطهم الملكي للهيكلية الكهنونية، ونهجوا نهج جدهم السابق في التوحد والحرص على العبادة، وإصلاح شأن الكنيسة[5].

وظلت الأوضاع هادئة حتى وفاة لويس الرابع في سبتمبر 954م، تاركاً العرش الفرنجي لذريته، وممهداً الوضع لبقاء البيت الكارولنجي في الحكم[6].

اعتلى لوثر بن لويس الرابع العرش بعد والده، على الرغم من أنه لم يكن قد تعدى الثالثة عشرة من عمره، وقد أصر كبار الأمراء والأساقفة على انتخاب لوثر Luther وإظهار الولاء للبيت الكارولنجي، ولم يُبدِ هوف أي اعتراض، ثم مات في حزيران 956م، تاركاً ثلاثة أولاد هم : هوف وقد عُرف بهوف كابيه، وأوتون، وأود–هنري، وكان الثلاثة قاصرين وغير قادرين على وراثة قوة أبيهم[7].

---

(1) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 397.

(2) New Fang, World Federation, P. 17.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 397، 398.

(4) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 172.

(5) Morrison, Imperial Lives, P. 11.

(6) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 402.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 490.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان لوثر شجاعاً صاحب عزم وتصميم، وكان يريد إعادة الجاه والعظمة إلى أسرته وعرشها، وساعدته الظروف بوفاة أوتو الكبير (الأول) ملك المانيا سنة 973م، حيث أراد التخلص من عهد الانقياد لالمانيا والتبعية لها. ودخلت العلاقات بين المانيا وفرنسا مرحلة حرجة بقيام لوثر بشن غارة مفاجئة على المانيا، التي ما كان من ملكها أوتو الثاني إلا أن رد على لوثر باجتياح فرنسا والاستيلاء على ليون، وتقدم مخترقاً فرنسا حتى نهر السين، لولا ظهور هوف كابيه أو هيو كابيه الذي أجبر الألمان على التراجع مكتفين بإحراق ضواحي باريس. وفي تلك المناسبة حاول هيو كابيه أن يثبت قوة شكيمته وشدة بأسه؛ تمهيداً لحيازة السلطة في المملكة كلها، رغم أن الحرب لم تُسفر عن فائدة لكلا البلدين إن لم تتسبب في إلحاق الضرر بهما، وفي زعزعة العرش الفرنسي تحت حكم الذرية الكارولنجية[1]. وفي عام 979م أرسل لوثر وفداً إلى أوتون Otto II الثاني للبدء بمحادثات السلام التي انتهت عام 980م بالصداقة والتحالف[2].

وفي عام 983م توفي أوتو الثاني ملك المانيا تاركاً طفلاً صغيراً هو أوتو الثالث، الذي لم يتجاوز ثلاث سنوات، فأراد لوثر أن يكون وصياً على ذلك الطفل الذي كان تحت وصاية والدته الإمبراطورة ثيوفانو Tjovano الإغريقية، ولكن لم يتحقق له ذلك الحلم. أما هوف كابيه فاستغل انشغاله بذلك وفجّر ثورة في البلاد انتهت بعقد الصلح بين الطرفين عام 985م، ثم توفي لوثر في العام التالي 986م، تاركاً العرش لابنه لويس الخامس[3].

تولى لويس الخامس العرش وعمره تسع عشرة سنة، لكن لم تكن له قيمة أبيه، حيث كان خفيفاً متردداً، ومثار استهزاء الناس خصوصاً بعد زواجه على عهد والده بأرملة أمير أكويتين التي كانت تكبره سناً، ثم ما لبث أن دب بينهما الخلاف فهجرها، فتزوجت بعده بكونت آرل Arles. وبالرغم من ذلك ورث الملك، وذلك دليل على مدى قوة الملكية الكارولنجية[4].

دام حكم لويس الخامس سنة واحدة فقط، ثم مات أثر حادث سقوط مروع أصابه أثناء موسم الصيد، فترك العرش دون وريث[5].

بعد موت لويس الخامس لم يبق إلا ممثل واحد للأسرة الكارولنجية، وهو شارل دوق اللورين وأخو لوثر، وكان غير محبب إلى الكبار، وينظر إليه البلاط الجرماني نظرة سوء؛ بسبب

---

(1) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 404، 406.

(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 492.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 406-407.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 493، 494.

(5) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 173.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أطماعه في اللورين الأعلي. وعندئذ رأى هوف كابيه Kabeya أن وقته قد حان[1]، تحالف مع أدالبيرون رئيس أساقفة منطقة الريمس Alreims ورئيس المجلس الأسقفي لورغيربيرت والذي ساهم تأثيره في انتقال المجلس الكهنوتي من يد الإمبراطورية الكارولنجية، كما حث أدالبيرون النبلاء لمنح الملك هوف زمام الحكم، وتم له ذلك في الثالث من يوليو عام 987م[2]. وبذلك انتقل التاج الفرنسي من الأسرة الكارولنجية إلى آل كابيه، وأصبح هوف (هيو) ملكاً على فرنسا[3].

2- أسباب انهيار البيت الكارولنجي.

كانت الإمبراطورية الكارولنجية أعجوبة سياسية خارقة رغم أن الكثير من تلك المعجزات السياسية قد تتشكل في مكان ما إلا أن تلك الإمبراطورية كانت من خوارق الدول المعاصرة لها[4]. لذلك لا زال محللو التاريخ يبحثون عن السبب الرئيس لانهيار تلك الدولة.

ففي عام 800م ويوم عيد الميلاد، وصل الجيش الفرانكوني إلى روما؛ لجعل ملكها الجديد إمبراطوراً على الغرب، لكن بعد قرنين من الزمان، كان مجرد رئيس دير أو سيد اقتطاعية أقوى من الملك، ولفهم عملية انهيار الإمبراطورية الكارولنجية ومراحلها المختلفة نحتاج إلى إدراك مستويين للحياة السياسية فيها أولاً : كانت هناك إمبراطورية متكاملة ذات مقاطعات مترامية ومتفاوتة السيطرة والحكم، أي : أن مقاطعات كان مسيطر عليها بشكل أكبر من مقاطعات أخرى، وكانت المقاطعات التي تقترب من حدود الدولة فيها الأثر الفرانكوني ضعيف حيث كان سكانها من البربر والهمج والذين كانوا الأغلبية من سكان الإمبراطورية بأكملها[5]. كذلك تعثرت سبل التجارة بين الأطراف المترامية للإمبراطورية؛ فقد كانت كل منطقة من مناطقها تعتمد كلياً على ناتجها المحلي معتمدة سياسة الاكتفاء الذاتي لتلبية احتياجاتها، كما أن وسائل المواصلات والاتصالات كانت بطيئة وصعبة إلى حد ما، حتى أن الكثير من الولاة والحكام وحتى صاحب الإمبراطورية نفسه كانوا يجدون صعوبة في تأمين وسائل استخبارية أو وسائل اتصالية تؤمن بسط نفوذهم على باقي أجزاء ولاياتهم، وكانت الحكومة المحلية هي الوحيدة التي تتولى شؤون معظم سكانها، وكانت تلك الحكومة تحت سطوة وحكم الكونتات من الأثرياء وأصحاب النفوذ والذين كانوا مستقلين بشكل تام عن السلطة المركزية[6]. وبموجب القانون، كان يحق للملك إلغاء مهام الكونتات كونه هو من عينهم، ولكنه على أرض

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 495.

(2) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. P. 172, 173.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 216.

(4) Strayer, Western Europe, P. 57.

(5) Poly and Bournazel, The Feudal, P. 9.

(6) Strayer, Western Europe, P. 57.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الواقع لم يكن يستطيع فعل أي شيء ضدهم حيث إنهم لم يكونوا مجرد أدوات بيده أو عملاء له، فقد كان أولئك الكونتات يوظفون في إدارتهم من يختارونه هم دون الرجوع إلى أمر الملك وكان كل واحد منهم يتملك المنطقة التي وُلي عليها، ويصبح السيد الأكبر والمالك الأعظم، ويصبح الرجل الأكثر تأثيراً فيها، وربما تأخذ عنه عائلته تلك السمة لأجيال لاحقة، ويصبح كل من في المملكة خادماً له أو فلاحاً في أرضه أو راعياً أو حارساً لممتلكاته، وكانت أهمية وضع الدولة تتركز في ماهية الوضع المالي لحاكمها ولخزينتها، وما من شك أن الذي كان يتعرض للضائقة المالية في تلك الإمبراطورية هو الإمبراطور نفسه، فعندما كانت تقل الموارد التي تنتج عن أملاكه الخاصة، لم يكن الإمبراطور يستطيع تغطية النفقات التي تليق بمسمى إدارة الدولة، فقد كان على الدولة صرف الرواتب لموظفيها، وفي حال عجزها كانت الإدارة الحكومية تضطر إلى اللجوء إلى الارستقراطية الخاصة، والتي كانت بدورها تستغل ذلك الموقف أبشع استغلال بمناصفتها إيرادات الحكومة الواردة من خلال التعاون بينهما[1].

كذلك استغل أولئك الكونتات الحروب المتعاقبة في القرن التاسع، حيث قاموا بتجهيز الجيوش المتناحرة مقابل أجور باهظة يتقاضونها مقابل إسهاماتهم في تجهيز تلك الجيوش، إضافة إلى عمليات ابتزاز المزيد من الأراضي مقابل الدعم والتجهيز العسكري، إضافة إلى منحهم حصانة ملكية حتى إن البعض منهم أصبح بمثابة ملك صغير على مملكة تكاد تكون من أملاكه، حتى في الممالك الشرقية والغربية الهادئة نسبياً قام أولئك ببناء إمارات شبه مستقلة[2].

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي كانت هناك ظاهرة جديدة طرأت على تلك الفترة، وهي ظاهرة نشوء الإمارات الإقليمية، فالأمير بوز Booz والي برفينس Provence مثلاً فرض نفسه كملك على دولة مستقلة أنشأها في جنوب براغندي Bragnde، وفي شمال المنطقة نصب نفسه رودولف ملكاً على براغندي[3]، وأرنولف فرض هيمنته على أكويتين، وبيرنارد وحد أكثر من إمارة وبسط سيطرته على تلك الإمارات[4].

أما المستوى الثاني : فقد كان على الصعيد الاجتماعي الغير مترابط تحت مستوى الدولة، فقد كان لكل فئة دينها الخاص المتعلق بأرض المولد دون أن تدين بالولاء للإمبراطورية[5]، لذلك عملت الارستقراطية على تنظيم المجتمع، وأعلنت صراحة أن الناس لا بد أن يذوبوا في طياتها ويعملوا بالمفاهيم التي تصوغها، وبذلك استطاعت الأرستقراطية السيطرة على الشعوب في الممالك

(1) Pirenne, A History of Europe, P.P. 111, 112.
(2) Strayer, Western Europe, P. 58, 59.
(3) Lamonte, The world of, P. 165.
(4) Poly and Bournazel, The Feudal, P. 9.
(5) Ibid, P. 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الكارولنجية، وحتى على الذين كانوا يعملون بشكل مستقل عنها، كما قامت باستبدال القوة العامة بقوة خاصة قائمة على نظم الحماية والقضاء الدستوري الخاص، وأصبحت المهام الحكومية الغير موضوعة تحت السيطرة الأرستقراطية شبه معدومة إلا في مواطن قليلة ومتفرقة، وأخذت تتقلص عاماً تلو آخر[1].

هناك من رأى في الهجمات البربرية التي هددت الدولة الكارولنجية سبباً رئيساً في انهيارها، حيث كان التهديد الأشد الذي زعزع الإمبراطورية الكارولنجية في أواخر عهدها هي غزوات الأسكندنافيين[2] Alascndnavians لها[3].

ورأى سترايرر : أن تلك الحروب كان لها دور في تسريع مشهد المفاجأة الذي حل بالإمبراطورية الكارولنجية، أما الملوك المرتبكين فقد كانوا غير قادرين على توجيه جيوشهم لحماية مقاطعاتهم من خطر الغزو المتكرر، فالدفاع عن البلد كان يُدار في أغلب الأحيان محلياً، ولم يكن في غالبيته مؤثراً. أما الكونتات فقد كانوا هم أنفسهم قادة المقاومة، وما كان منهم إلا أن جهزوا جيوشاً خاصة بهم وبنوا القلاع لحماية مداخل المدن، وبنوا الأسوار الشاهقة؛ لحماية أرواح الناس من خطر الحرب. مثل تلك النشاطات زادت من قوة نفوذ أولئك الكونتات وعززت من استقلاليتهم عن الحكومة المركزي[4].

نستنتج مما سبق صعوبة الخروج بسبب رئيس واحد لانهيار الإمبراطورية الكارولنجية، سواء أكان الوضع السياسي أم الوضع الاجتماعي أم الوضع العسكري، بل يمكن القول : بأن تلك الأوضاع مجتمعة كانت السبب في انهيار الدولة، لا يمكن في أي فترة أن يكون أي وضع من تلك الأوضاع منفرداً سبباً في انهيار أي دولة. ومن الطبيعي أن تدهور الوضع السياسي يؤدي إلى تدهور كل من الوضع الاجتماعي والوضع العسكري الذي بدوره يؤدي في النهاية إلى الانهيار الكامل. وبذلك فإن كل الأسباب أو الأوضاع التي ذكرت سابقاً أدت إلى انهيار الدولة الكارولنجية. كما يعد من الخطأ أن يعزي أي باحث أو مؤرخ سقوط الدول وانهيارها إلى سبب رئيس قبل الرجوع إلى دراسة الأوضاع الداخلية للبلاد، لأن الأسس التي يُبنى عليها أي نظام حكومي، هي السبب الرئيس في نهضة البلاد أو انهيارها.

---

(1) Pirenne, A History of Europe, P.P 110, 111.

(2) الأسكندنافيون : شعوب تنحدر من شمال أوروبا، وكانوا يعرفون بالهمجية والوحشية والبسالة في القتال. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2642)، كانوا يسكنون الجزيرة الأسكندنافية، انتشروا في أوروبا، وكانت لهم أسماء عديدة، فقد عرفوا في إنجلترا باسم الدنمركيين، وفي فرنسا باسم الأسكندنافيين، وفي مناطق شرق البلطيق باسم الفراغان، وكان سبب انتشارهم في جميع أنحاء أوروبا يرجع إلى عامل التضخم السكاني، إضافة إلى الهروب من المعارك والنزاعات قبيل تشكيل أي دولة جديدة. (Lamonte, The world of, P. 166).

(3) Lamonte, The world of, P. 166.

(4) Strayer, Western Europe, P. 59.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- أسرة كابيه الأوائل وقيامها في حكم فرنسا (987-1108م).

لقب كابيه هو لقب يعود للأسرة التي انتمى لها الكثير من ملوك وحكام فرنسا على مدى قرون عديدة ولربما كانت السلسلة الأطول في عملية التوارث الملكي في أوروبا كلها، وظل المفهوم اللغوي لكلمة كابيه من حيث معناها محطاً للجدل، لكن أول من لُقب بذلك اللقب هو هوف والذي انتخب كملك لفرنسا في عام 987م[1].

نشأت أسرة كابيه الحاكمة من أسرة إقطاعية والتي كانت أصولها مكتنفة بالغموض لكنها كانت ترتقي إلى الدرجة الملكية، وقد كانت تلك الأسرة فيما قبل تشغل مناصب هامة في الدولة، وتتمتع بحصانة قوية استمدتها من ملوك الدولة الكارولنجية، وكانت تمتلك الثروة والنفوذ ولها تأثير سلطوي مأخوذ بالحسبان[2]. وامتازت تلك الأسرة بالصفات الطيبة التي من خلالها استطاعت أن تمد العرش الفرنسي بسلسلة من الملوك الشرعيين، خلفاً بعد خلف ثلاثمائة من السنين، وظهرت تلك الأسرة على غيرها من الأسر الإقطاعية، أواخر عهد الكارولنجيين، بما أدت من خدمة عامة في ساعة من ساعات الحرج، وفي جهة من أحرج الجهات[3]. كما استمدت الأسرة شهرتها ومكانتها؛ بسبب مقاومتها للنورمان (الشماليين)[4]، حيث ظل عميدها روبرت الصنديد (القوي) كونت باريس يقاتل الشماليين عشر سنين حتى خر صريعاً في حومة الميدان[5]، في معركة حامية الوطيس في عام 866م، فخلفه ابنه أودو الذي كان دوقاً لأنجوا، ثم كونت لباريس، ثم دوقاً لفرنسا[6].

ويعتبر روبرت القوي هو المؤسس الأصلي لتلك الأسرة، والذي أولاه الملك الكارولنجي تشارلز الأقرع ولاية أنجوا وبلويز على طول القطاع الواقع ما بين السين Seine واللوري Lorry، لكن حكم الأسرة الفعلي ابتدأ بهوف، الذي ولد عام 938م حيث كان ابناً لهوف الكبير وهيدويجا[7].

إن أبناء أسرة كابيه امتازوا أيضاً بالحرص امتيازهم بالشجاعة، فظلوا مائة من السنين وهم قانعون بخدمة الإمبراطورية الكارولنجية، مع انتظار الفرصة برغم ما اجتمع إليهم من قوة بالقياس إلى غيرهم من الإقطاعيين الفرنسيين[8].

ورث هوف كابيه عن أبيه اقتطاعات ومساحات أرض لا حصر لها حتى أصبح الإقطاعي الأول في فرنسا بلا منازع، وكانت مملكته عبارة عن كل ما يسمى بفرنسا الحديثة اليوم ما عدا

---

(1) Post, The Hour and the Man, P. 302.
(2) Guignebert, A short History, P. 170.
(3) فشر، تاريخ أوروبا، ص 160.
(4) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 171.
(5) فشر، تاريخ أوروبا، ص 160.
(6) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 171.
(7) Post, The Hour and the Man, P. 302.
(8) فشر، تاريخ أوروبا، ص 160.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بريتاني وأكويتاني[1]. كان حكم هوف كابيه كملك لفرنسا عن طريق الانتخاب من قِبل اللوردات لذلك كانت سلطة كابيه هي أول سلطة عامة مقبولة في فرنسا[2].

خلال تلك الفترة، كان التلاحم الإقطاعي هو السبب في ظهور هوف كملك، وكان من الممكن أن تتخلى عنه المنظومة الإقطاعية، متمثلة في النبلاء الإقطاعيين الذين اختاروه للحكم، في أي وقت، والاستغناء عنه كونها هي الموجدة له كملك، لكن الكنيسة كانت ترغب في حماية ذلك الملك الجديد، فقد حافظ ذلك الملك الجديد على النهج الروماني في توقير رجال الكهنوث والذين صوروه فيما بعد كإرث إلهي يحكم الأرض، وقد حافظ على علاقته مع الكنيسة بطريقة لم تكن معهودة إبان الحكم الكارولنجي، الأمر الذي شد من أزر حكمه وبقاء عائلته على العرش[3].

كان أول ما عمد إليه هوف كابيه هو منع تشارلز والي اللورين من ادعاء حقه هو وعائلته من الانتساب إلى الأسرة الكارولنجية، كما جاهد لجعل أكثر المناطق استراتيجية من الناحية السياسية في يده[4].

تزوج هوف كابيه من أديليدي Adaelide بنت وليام الثالث دوق أكوتياني والتي أنجب منها ابنه روبيرت[5]، الذي قام بتوليته خليفة له، وهو لم يزل على قيد الحياة ومؤهلاً لحكم البلاد، وذلك لإلغاء العادة الكارولنجية التي تقضي بانتخاب خليفة للملك الفقيد السابق وتقاسم إرثه الملكي[6]. كذلك دأب ملوك آل كابيه على تتويج الابن في حياة أبيه[7].

وخلال حكم هوف كابيه، كان عليه أن يؤكد سلطانه أمام كبار النبلاء الإقطاعيين من جهة، والتصدي للأخطار الخارجية من جهة أخرى والتي تمثلت بالهجمات المستمرة على سواحل فرنسا وفي جهات متفرقة[8].

اعتلى روبيرت الثاني أو روبيرت التقي عرش فرنسا بعد وفاة والده هوف كابيه عام 996م، وهو في السادسة والعشرين من عمره، واكتسب روبيرت لقب التقي؛ بسبب تواضعه وأخلاقه الدمثة وحبه لفعل الخير[9]، لدرجة أنه جرى الاعتقاد أن ذلك الملك –روبيرت التقي– يستطيع معالجة مرض الغدة اللمفاوية (مرض جلدي) بمجرد لمسة من يده[10].

---

(1) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(2) New Fang, World Federation, P. 17.
(3) Guignebert, A short History, Vol. 1, P. 173.
(4) Dunbabin, France in the Malsing, P. 115
(5) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(6) Haine, The history of France, P. 38.
(7) فشر، تاريخ أوروبا، ص 162.
(8) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 413.
(9) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(10) Haine, The history of France, P. 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبالرغم من تلك الصفات إلا أنه كان جندياً صلباً ورجل دولة من الطراز الأول. توفي روبيرت في عام 1031م، فخلفه على العرش ابنه هنري الأول[1]. ولد هنري الأول في عام 1008م، وعُين كملك على الرايمز في عام 1027م باقتراح من والده لكي يؤكد خلافته له على العرش، وكانت فترة ولاية هنري الأول هي من شهدت حالة الحرب بينه وبين وليم الفاتح حول ما احتله النورمان، واستولوا عليه في تلك الفترة[2]، لكن هنري هُزم في وقعتين، وقعة مورتمر Murtmr سنة 1054م، ثم وقعة فارفيل Farfil سنة 1058م، وهما أول أدوار النضال الذي ظل ما يقرب من أربعة قرون بين الفرنسيين والإنجليز[3].

لقد أنجب هنري الأول ابنين هما هوف ماغنيس Magnes وفيليب Philip، والأخير هو الذي خلفه بعدما توفي في عام 1060م[4].

كان الملك فيليب الأول هو أول من مُنح حكماً ذاتياً لمدينة في قلب المملكة، وكانت تلك المدينة هي مدينة ماينز في عام 1070م، ولم يكن أكثر من متفرج عندما قام أحد أتباعه وهو وليام النورماني باحتلال إنجلترا، أو عندما قام رجل فرنسي آخر يدعى البابا أوربان الثاني بمبادرة القيام بأول حملة صليبية ضد المسلمين في عام 1096م، لاحتلال الأرض المقدسة (التي ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام)[5]، وكان كل ما قام به فيليب الأول هو استغلال قيام تلك الحملة وحاجة بعض الأمراء الإقطاعيين للمال للخروج وتمويل اشتراكهم في تلك الحملة، فاشترى بعض تلك الإقطاعات ماداً بذلك حدود أملاكه، لكن ذلك لم يغير أوضاع الملكية الفرنسية أو قوتها رغم مد حدودها إلى خارج ما كان يُعرف بجزيرة فرنسا[6].

كذلك أسهم فيليب الأول في تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجوري السابع عندما أراد منع التقليد العلماني وحرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم، والواقع أن ملوك فرنسا في تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلي عن سيطرتهم على رجال الدين؛ لأنهم اعتمدوا إلى حد كبير على المساعدات التي قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمي الأديرة[7]، لذلك حافظ أولئك الملوك على العلاقة والتحالف التقليدي ما بين الكرسي الملكي والكنيسة، وقد كان دير القديس وبنيز Wbnez دعوباً لتلك السلالة الحاكمة[8]، وكانت الأديرة والأسقفيات التابعة للكنيسة في فرنسا تحت

---

(1) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(2) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(3) فشر، تاريخ أوروبا، ص 162.
(4) Post, The Hour and the Man, P. 303.
(5) Haine, The history of France, P. 38.
(6) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 414.
(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 257.
(8) Guerard, French Civilization, P. 137.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إمرة سادات إقطاعيين متمثلين في الأساقفة والرهبان، وكان لهم حقوق سياسية وعسكرية كباقي النبلاء الإقطاعيين الآخرين من باقي الأطر الإقطاعية، وكان ما يقرب من رُبع أو خُمس المناطق الفرنسية تؤول ملكيتها للرهبنة الإقطاعية[1].

وفي الحقيقة شهد النظام الإقطاعي في فرنسا في عهد آل كابيه أوج عظمته، وسيطر على جميع الأمور الحياتية فيها، وكان له أثراً بالغاً في الخطورة؛ لكونه مهدداً لاستقرار القوة الملكية[2].

وقد كان آل كابيه كمعاصريهم من السلطات الإقطاعية يجتمعون ويتحدون على رجل واحد وتارة يجتمعون مع الطرف الآخر ضد الرجل الواحد، وأحياناً يلجأون إلى عرقيات أخرى من أجل التعاون[3].

حاولت أسرة كابيه الأوائل إيجاد مملكة لهم وهي عبارة عن دوقية صغيرة ما بين نهر السين ومناطق اللورين، فنظرياً كانوا يبدون كنبلاء أقوياء، أما عملياً فقد كانوا بمثابة حكام يسهل مقاومتهم أو تحديهم من قِبل أي بارون كانت قلعته تقع على أحد التلال المشرفة على الطرق الواصلة بين مدن آل كابيه. كما اتخذ آل كابيه الأوائل من باريس وأورليانز Orleans مقراً للحكم، وكانت تلك المناطق بمثابة مناطق استراتيجية لها أهميتها في الحكم ومتابعة شؤونه[4].

وارتفع عدد ساكني باريس من (20 ألف) إبان الحكم الكارولنجي ليصبح أكثر من مائتي ألف في عهد آل كابيه، وكانت تشمل على إحدى أهم الجامعات في أوروبا كلها وكان اسمها جامعة باريس[5].

لقد كان آل كابيه محظوظين لتوالد النسل الذكري في عالتهم ممن يمكن لهم حق الترشح والانتخاب لاعتلاء كرسي فرنسا ويشاركون في الحكم وشؤونه أثناء فترة حكم آبائهم الملوك، كما أنهم ظلوا ملوكاً لفترة لا بأس بها من الزمن؛ لأنهم كانوا قادرين على إثبات أنهم من نسل هوف الملك الأول لأسرة كابيه[6].

لقد كانت معلوماتنا الحقيقية عن آل كابيه الأوائل سطحية؛ وذلك لأن تاريخ أول أربعة ملوك من أسرة آل كابيه الحاكمة تاريخاً مغموراً نوعاً ما[7]، ومن الممكن أن يكون ذلك بسبب اهتمام المؤرخين بالإقطاع ونظامه في تلك الفترة والمنطقة أكثر من الحياة السياسية وتاريخ الملوك، كذلك لم تشهد فرنسا في تلك الفترة حروباً خارجية أو اضطرابات، حتى الحروب الداخلية قلت؛ بسبب إسهام عدد من الأمراء الإقطاعيين في الحروب الصليبية[8].

---

(1) Davis, A history of France, P. 44.
(2) Davis, A history of France, P. 44.
(3) Tillay, Medieval France, P. 50.
(4) Guerard, French Civilization, P. 137.
(5) Haine, The history of France, P. 40.
(6) Guerard, French Civilization, P. 137.
(7) Hassal, Medieval, P. 18.
(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 257.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : المانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (887-1106م).

اختلف الجزء الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية (المانيا) عن الغربي (فرنسا) في بنائه السياسي وتراثه الحضاري، حيث إن الجزء الشرقي لم يكن معظمه داخل حدود الإمبراطورية الرومانية Romanian Empire القديمة[1].[2]

كانت المانيا تقسم إلى أربع دوقيات : (فرانكونيا Franconia، وسكسونيا Saxony، وسوابيا Swabian، وبافاريا Bavaria)[3]،[4]، حيث زعمت كل منها أنها تنتمي إلى قبيلة معينة، وتلك الدوقيات تنزلها أقوام : الفرانكونيون، والسكسون، والسوابيون، والبافاريون، ولكل دوقية شخصية مستقلة[5].

وكان يعتقد أن تلك الممالك ستكون، دويلات قبلية، ولكنها في الحقيقة كانت ولايات إقطاعية أسسها كونتات ينتسبون إلى الإمبراطورية الكارولنجية، أولئك الكونتات كانوا أشبه بثلة من الإقطاعيين أكثر من كونهم حكام قبليين[6].

وكان للعامل القبلي أو القومي أهمية خاصة في كل واحدة من تلك الدوقيات؛ لما له من قوة بالغة التأثير عند كل ثائر طَموح، في المرحلة المتوسطة من تاريخ أوروبا العصور الوسطى[7].

وإبان الفترة الكارولنجية كانت كل قبيلة تحت زعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق إداري، ثم حولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعي، وكان تلي دوقات القبائل في السلم الاجتماعي مجموعة صغيرة من النبلاء الكبار، ثم تتلوهم جماهير الفلاحين الأحرار، وكان قادة المجتمع الجرماني هم دوقات القبائل وكبار النبلاء والأساقفة ومقدمي الأديرة الألمانية[8].

---

(1) الإمبراطورية الرومانية : هو مصطلح أُطلق على المرحلة التي تلت الجمهورية الرومانية التي حكمت روما، فهي تطور للحكم السياسي لروما. (The Columbia, Vol. 4, P. 1206 ,_____). انظر الملحق رقم (8).

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 291.

(3) انظر الملحق رقم (9).

(4) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 323.

(5) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 292. العريني، تاريخ أوروبا، ص 418.

Schulaman, The Rise of, P. 10.

(6) Lamounte, The world of, P. 170.

(7) العريني، تاريخ أوروبا، ص 418.

(8) كانتور، العصور الوسطى، ص 356.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومع نهاية القرن التاسع كان الملوك الكارولنجيون قد تحولوا إلى نكرات، فلم يكن باستطاعتهم أن يقودوا القبائل في صراعها لصد الغزاة على طول حدودهم، ففي الغرب كان الخطر متجسداً في الإسكندنافيين، أما في الشرق فكان توغل المجريين[1] والسلاف[2] يشكل خطراً داهماً على وجود الدوقيات الألمانية[3]. ولم ينج جزء من أجزاء أوروبا من الغزو أو الحروب الأهلية في القرن الذي تلا موت شارلمان Charlemaane، لكن المانيا عانت بشكل أقل مما عانته باقي الممالك الكارولنجية؛ لأنها كانت أفقر من فرنسا وإيطاليا، ولم تكن مغرية لأطماع الغزاة بها[4].

وأما دوقية لوثارنجيا، فكانت تتبع المانيا لكنها مختلفة عن الدوقيات الأربع السابقة من حيث إنها ليس لها أصل قبلي، وليس لها وحدة جغرافية[5].

1- نهاية البيت الكارولنجي (887-911م).

أ- أرنولف (Arnulf)، (887-899م).

أُختير أرنولف وهو ابن غير شرعي لكارلمان Carlman[6]-دوق بافاريا- ملكاً على المانيا، وذلك بعد أن عمت الفوضى البلاد حوالي ست سنوات[7]، انتهت بخلع تشارلز Charelsالبدين[8]، وقد امتاز حكم أرنولف البالغ اثني عشرة سنة بالحيوية والقوة[9].

---

(1) المجريون : أو الهنغاريون مجموعة عرقية ولغوية من أصل أورالي ممن كانوا يقطنون جبال الأورال. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2421).

(2) السلاف : هم المتحدثون باللغات السلافية، يستقرون أساساً في أوروبا الوسطى، وأوروبا الشرقية، ودول البلقان، وقاموا في العصور الأخيرة باستيطان آسيا الشمالية. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2691).

(3) كانتور، العصور الوسطى، ص 358.

(4) Strayer, Westen Europe, P. 66.

(5) العريني، تاريخ أوروبا، ص 418، 419.

(6) كارلمان : الأخ الشقيق للملك شارلمان، اقتسم المملكة بينه وبين أخيه بعد وفاة والدهم الملك بيبن القصير، وقد وافته المنية بعد ثلاث سنوات من ذلك الانقسام، حيث انفرد شارلمان بعده بالسلطة.
(_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2390)

(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 188.

(8) تشارلز البدين : أو كارل الثالث ملك المانيا (876-887م)، ثم ملك إيطاليا (879-887م) وإمبراطور (881-887م)، وملك الفرنجة الشرقيين (882-887م)، وأخيراً ملك الفرنجة الغربيين، وملك أكتيانيا، والملك الإسمي لبروفنس (884-887م)، وكان آخر إمبراطور من الذرية الشرعية في السلالة الكارولنجية. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 3052).

(9) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 246.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قضى أرنولف مدة حكمه في محاربة المجريين الذين غزو المانيا من الشرق، في محاولة لفرض هيمنة ضمنية على إيطاليا والتي تبددت في خضم الفوضى السياسية العارمة التي عمت البلاد[1]، وكان طموح أرنولف ورغبته في أن يصبح إمبراطوراً هو الذي دفعه أن يزج بنفسه في السياسة الإيطالية، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ المانيا في العصور الوسطى[2].

لقد أتاح الصراع القائم بين كل من حاكم منطقة فريولي (Friuli)، وحاكم منطقة سبوليتو (Spoleto) على اللقب الإمبراطوري الفارغ أصلاً من مضمونه –حيث إن القوة الحقيقية كانت في يد النبلاء المحليين–[3] الفرصة أمام أرنولف للتدخل في شؤون إيطاليا، وبخاصة عندما اشتد الصراع بين الطرفين، فدخل روما ثم تم تتويجه ملك الفرنجة الشرقيين القوي عام 896م على يد البابا فورموزس (Formusus) [4].

ورغم ذلك فلقد كان حكم أرنولف لإيطاليا حكماً وهمياً، حيث إنه انتهى عن طريق انسحاب القوات الألمانية[5].

وبالرغم من أن دعائم عرش أرنولف لم تكن متينة، إلا أنه لم يتم التنازع في المانيا على حكمه؛ وذلك لأن نبلاء المانيا المحليين اكتسبوا قوة إضافية على حساب التاج الملكي الألماني الذي كان بقائه يصب في مصلحتهم[6].

ب– لويس الطفل (Louis the Childs)، (899–911م).

بموت أرنولف انتقل العرش إلى وريثه القاصر الشرعي والوحيد الذي اشتهر باسم لويس الطفل عام 900م[7].

ولد لويس الطفل عام 893م، وكان حين تولى الحكم لم يبلغ السابعة من عمره[8]؛ لذا أُلحق بمجلس الوصاية الذي أبعد أمه الملكة أودا عن التدخل في شؤون الحكم[9]، وبذلك انتقلت المملكة إلى يد الأساقفة خصوصاً إلى أسقف ولاية "ماينز" Mainz، وأسقف ولاية أوغسبرغ

---

(1) Lamounte, The world of, P. 170.

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 247.

(3) Lamounte, The world of, P. 170.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 248. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 188. كين، حضارة أوروبا، ص 41.

(5) Lamounte, The world of, P. 170.

(6) Ibid, P. 171.

(7) Lamounte, The world of, P. 171. Innes, State and Society, P. 299.

(8) _____, The Columbia, Vol. 6, P. 2944.

(9) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 447.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Augsburg اللذين ضما إليهما بعض الأمراء العلمانيين[1]، وقد أدى ذلك إلى تقوية النزعة الإقطاعية عند الأمراء الألمان، وجاءت تلك النزعة مصحوبة بروح عنصرية قوية وعصبية قبلية واضحة؛ مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات فيما بينهم، وربما أدت حدة تلك المنازعات إلى أن مناصب الدوقات والكونتات أصبحت وراثية؛ مما جعل لكل قسم من الأقسام التي تألفت منها المانيا دوقاً يرثه ابنه في منصبه[2].

وتمتع كل من الكونت الفرانكوني كونراد –وهو أخ لأم لويس– والأسقف هاتون Hatton أسقف ماينز بسلطة مطلقة في عهد أرنولف، فكانا هما القوتان الحقيقيتان خلف عرش لويس الطفل، وتحالفا مع كثير من الجماعات داخل لوثارنجيا Lotherangia؛ لتأمين بسط سيطرتهما عليها بكاملها، واستطاعا طرد كونت لوثارنجيا، الذي كان يسعى للسيطرة عليها، ونتج عن ذلك ظهور استقرار سياسي للمملكة التي كانت تحت حكم لويس[3].

كان اعتلاء طفل العرش، في وقت تحتاج فيه المملكة إلى زعيم عسكري قوي؛ خفة ورعونة، لكن الأوصياء أظهروا حسن تصرف في الأمور؛ فقاموا بإبرام الصلح مع الموارفيين عام 901م، لكن ما لبثت إمبراطوريتهم أن تداعيت في عام 905، 906م، وخضعت لنير المجرمين، وهكذا أصبحت المانيا مهددة بخطر مباشر[4].

وأمام الحملات المجرية، إلى جانب الوهن الداخلي الذي يعتري الداخل الكارولنجي ظهر هناك منافسون كثر للويس كان لهم نفوذ وسلطة لا يستهان بها، فبدأ المجريون في مضاعفة حملاتهم العسكرية ضد بافاريا وسكسونيا ولوثارنجيا[5]، ففي عام 907م هُزم البافاريون هزيمة نكراء على يد المجريين، وقد قتل الدوق أوبتالد Uptald في تلك المعركة، وفي عام 908م عاود المجريون مهاجمتهم للمملكة الكارولنجية مجتازين حدود سكسونيا ولوثارنجيا، أما في عام 909م فقد واصلوا طريقهم إلى المانيا، وفي العام التالي قام الفرانكيون بالالتحام مع المجريين عند تخوم فرانكونيا وبافاريا إلا أنهم هُزموا مرة أخرى؛ فتوقفوا عن القتال[6].

في ظل آخر ملوك الدولة الكارولنجية اتخذ الدوقات دورهم في تغيير مجريات الأحداث، فقد نسب دوق منطقة اللورين نفسه إلى فرنسا كملك، ولم يكن يصدر عن أي نبيل رغبة في التوحد

---

(1) _____, The Columbia, Vol. 6, P. 2944.

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 250.

(3) Innes, State and Society, P. 299.

(4) حاطوم : نور الدين، تاريخ العصر الوسيط، مج1، ص 447.

(5) _____, The Columbia, Vol. 6, P. 2944.

(6) Robinson, Readings in, P. 245.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سوى الأساقفة الذين حرصوا على إيجاد وحدة داخلية تمكن الإمبراطورية من الاستقرار تحت ظل حاكم جديد[1].

أما بالنسبة للنظم الاقتصادية فقد طرأت عليها بعض التحسينات خاصة فيما يتعلق بنظم النقل البحري، إلا أن الحروب المتتالية، والغزوات المجرية والتناحرات الداخلية من قبل النبلاء ذوي النفوذ حالت دون تطور تلك النظم[2].

وبموت آخر حفيد للأسرة الكارولنجية وهو لويس الطفل عام 911، انتهت في المانيا السلالة الكارولنجية[3].

ج كونراد الأول (Conrad)، (911-918م).

توفي الملك لويس الملقب بالطفل عام 911م[4]، دون أن ينجب أطفالاً، وبذلك لم يعد للبيت الكارولنجي ممثلاً إلا ملك فرنسا شارل البسيط أو الساذج[5]، والذي إليه يرجع تاج جرمانيا حسب قوانين الوراثة[6]. لكن الكنيسة وجدت أن سلامة ضياعهم تتوقف على وجود ملك قوي، ففي أثناء حكم لويس الطفل اغتصب الدوقات الكنيسة، واقتفى أثرهم صغار النبلاء، فأرادت ملكاً قوياً يحد من جشعهم، وأما الأدواق رغم رفضهم تولي الحكم ملكاً قوياً، إلا أنهم التمسوا إلى قائد قومي لصد غارات المجريين، والذين أصبحت مقاومتهم مستحيلة ما لم يتولَ الحكم ملكاً قوياً[7].

لذلك قام مجلس كبراء القصر بانتخاب كونراد Conrad دوق فرانكونيا ملكاً لالمانيا[8]، وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية، فيشترك في انتخاب الملك كبار الأمراء ورؤساء أساقفة مينز وكولونيا، ولكن أصبحت عملية الانتخاب مصدر خلافات لا تنقطع[9].

---

(1) Pinnow, History of, P. 16.
(2) Coilson and Cave, A source book, P. 401.
(3) Robinson, Readings in, P. 246. Schulman, The rise of, P. 10.
(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 451. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 292. الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 323. كانتور، العصور الوسطى، ص 358.
Robinson, Readings in, P. 246.
(5) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 451. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 297.
(6) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 451.
(7) العريني، تاريخ أوروبا، ص 419.
(8) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 323. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 297. كانتور، العصور الوسطى، ص 358.
Lamounte. The world of, P. 171.
(9) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 297.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يبدو واضحاً أن ذلك الانتخاب كان انتخاباً صورياً، وربما حدث ذلك الانتخاب رغبة من كونراد نفسه للسيطرة على عرش المانيا، لقد ذُكر سابقاً أن كونراد كان صاحب سلطة مطلقة ونفوذ قوي في الدولة منذ حكم أرنولف واستمر إلى عهد لويس، إضافة إلى ذلك فهو أخ لأم لويس، وكان على علاقة قوية مع الأسقفية والأساقفة، خصوصاً أن أسقف منطقة ماينز كانت تربطه صلة قرابة مع كونراد[1]، وأما عن الوضع السياسي داخل الدولة كان مستقراً، تلك العوامل جميعاً اتحدت لتهيئة الظروف لصالحه، في الوقت الذي كان فيه الورثة الشرعيين للبيت الكارولنجي قد انتهوا، وبذلك لم يكن باستطاعة أحد معارضة انتخاب كونراد، ولكن من المعتقد أنه ليس انتخاباً بالمعنى الشوري وإنما انتخاب ديكتاتوري.

تميز كونراد أن له بسطة ونفوذ عسكري لا يستهان بهما كونه دوقاً لفرانكونيا، لكن نظامه كان ضعيفاً لا يستطيع أن يقيم شيئاً من السلطة لنفسه[2]. كما أثبت بأنه غير جدير بحماية الهيمنة الألمانية أو التصدي للغزو المجري للبلاد[3]، الذي أغار على مدينة كوبلنز Coblens وداهم بازل وأحرقها[4]، إضافة إلى ذلك فإن كونراد لم يكن له مجد موروث –كما كان للملوك الكارولنجيين– يعتمد عليه في توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا إليه على أنه واحد منهم وازدادوا تباعداً عن السلطة المركزية، وهكذا قويت النزعة الانفصالية في أقسام المانيا المختلفة، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية في ذلك العهد[5]، فتقطعت اللورين في عهده إلى أجزاء متناثرة، وواصل السوابيون حروبهم وثوراتهم حتى ممات كونراد، أما دوق بافاريا الذي نفاه كونراد عاد إلى موطنه رغم إرادة كونراد[6].

لذلك حاول كونراد التقارب والتوحد في العلاقات بين الملكية والكهنوت (رجال الكنيسة)[7]؛ ليستطيع القبض على زمام الأمراء[8].

وبالرغم من أنه كان مدعوماً من قبل الأسقفية الكنسية إلا أنه لم يكن قادراً على الاحتفاظ بحكومة مركزية، وكانت فترة ولايته مملوءة بالمشاحنات والعداء المستمر وحركات التمرد الغير منقطعة والتي كان يمارسها سادة الإقطاع في تلك الفترة[9].

---

(1) Pinnow, History of, P. 16.
(2) Pinnow, History of, P. 16. Thompson, Feudal Germany, P. 25. _____, The Columbia, Vol. 6, P. 11636.
(3) Lamounte, The world of, P. 171.
(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 298.
(5) المرجع السابق نفسه، ص 297.
(6) _____, The Columbia, Vol. 6, P. 11636.
(7) Lamounte, The world of, P. 171.
(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 297.
(9) _____, The Columbia, Vol. 6, P. 11636.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يكن كونراد قادراً على ممارسة أي سلطة على الدوقات القبليين الـذين بقـوا علـى استقلالهم[1]، وعندما فكر بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة، هُزم أمام حكام إمارتي بافاريا وسوابيا، واعترف لأمرائها بأنهم مساوون له[2].

أدى فشل كونراد السياسي إلى أمرين أولهما : أن كونراد لم يستطع الوقوف فـي وجـه المؤسسة الإقطاعية التي أنشأها الدوقات والتي تأصلت وتجذرت إلى الحد الذي لم يستطع كونراد أن يقول لها لا، والأمر الثاني : أن الوقت لم يكن يتيح للكنيسة أن تقوم مقام المتفـرد بـسلطتها الخاصة فيما يتعلق بأمور السياسة والحكم، خاصة وأن الكنيسة كانت تسعى إلى الاستقلالية بكـل ما لديها من قوة، إلا أن سعيها انهار فجأة؛ بموت كونراد[3].

أما الأخطار الداخلية والخارجية المحيطة بالبلاد، فأراد كونراد أن يتولى أمـور الـبلاد الأقوى من بين الدوقات، لذلك أوصى قبل موته بأن يكون هنري سليل الأسرة السكسونية خليفـة له على عرش المانيا[4]، بالرغم من أنه كان من ألد أعدائه، لكنه لم ير من هو أنسب منه لتـولي تلك المهمة[5].

توفي كونراد الأول في عام 919م، وبالرغم من الضعف الذي كان يعتري فترة ولايتـه إلا أنه كان رجلاً ذا بصيرة، وكان رجلاً ربانياً يحب التعاليم الدينية[6].

2- الأسرة السكسونية[7] (919-1024م).

أ) هنري الأول (الصياد)، Henry 1 (The Fowler)، (919-936م).

اجتمع جميع أمراء المانيا ما عدا بيركهارد (بريتشارد) Berthard أمير سوابيا، وأرنولف أمير بافاريا، في منطقة فرينزلار Vrinzlar، حيث انتخبوا هنري ملكاً عليهم؛ باعتبـاره الـسليل

---

(1) كانتور، العصور الوسطى، ص 358.
Lamounte, The world of, P. 171.
(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 298. العريني، تاريخ أوروبا، ص 420.
Lamounte, The world of, P. 171.
(3) Thompson, Feudal Germany, P. 26.
(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 298. العريني، تاريخ أوروبا، ص 420.
Lamounte, The world of, P. 171.
(5) Pinnow, History of, P. 17. Innes, State and Society, P. 233. Robinson, Readings in, P. 247.
(6) Robinson, Readings in, P. 246.
(7) للتعرف على الإمبراطورية السكسونية انظر الملحق رقم (10).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأول والدوق الأكبر للأسرة السكسونية في عام 919م بأغلبية الأصوات[1]، وكان غالبية المنتخبين من السكسونيين والنبلاء الفرانكونيين[2].

والمرجح أن تُقال : كلمة (اختاروا) بدلاً من (انتخبوا) لأن كلمة انتخبوا تحمل أموراً كثيرة لم تتوفر في ذلك الوقت وفي تلك العصور، فنرى أن تلك الكلمة تكررت وتتكرر عند مؤرخي الغرب؛ ليضفوا على تاريخهم شيء من النور في تلك العصور المظلمة.

يقال : إن الدوق الشاب هنري كان في ذلك الوقت في منطقة جبال هارز Hars، وقد وجده السفراء المنتدبين لإبلاغه مدثراً بملابس رياضية مزركشة[3]، ومنشغلاً برياضة الصيد، ومن ثم لقب في التاريخ بالصياد (Fowler)[4].

لقد حصل هنري على العرش؛ نتيجة لتوصية كونراد وقبول النبلاء عبر ما يسمى بعملية الانتخاب، لذا فقد أصبح العرش الألماني موروثاً شرعياً لهنري[5].

لذلك قيض لأسرة هنري، والتي عرفت فيما بعد باسم أسرة أوتو "Ottonians"، أن تحكم في المانيا على مدى أكثر من قرن من الزمان، ومن ثم فإن بداية حكمه تعتبر دائماً هي البداية الحقيقية للملكية الألمانية[6].

لقد تورث هنري Henry كل الملك الفرانكوني وأزاح من طريقه المملكة الشرقية الفرانكونية للأبد، وحول بدوره الملكية إلى السكسونيين لكنه لم يتخلى عن العرف الفرانكوني، فقد استبدل القوانين السكسونية بالقوانين الفرانكونية، حتى أنه تقلد اللباس الفرانكوني الذي كان يرتديه ملوك الفرانكونية واتبع الأحكام والتقاليد التي اتبعها أسلافه[7].

كما أن السكسون كانوا أكثر العناصر الألمانية تمسكاً بتراثهم الجرماني القديم وأقلهم تأثراً بتقاليد الكارولنجيين، وهكذا نهضت الدولة الألمانية المستقلة[8].

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P.P. 313, 314.
(2) Pinnow, History of, P. 17. Lamounte, The world of, P. 172.
(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 313.
(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 298.
(5) Lamounte, The world of, P. 172.
(6) كانتور، العصور الوسطى، ص 358.
(7) Barraclough, The Origins of, P. 80.
(8) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 323. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 299.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولد هنري عام 876م، وكان أبوه أوتو دوق تورنجه ثم أصبح دوق سكسونيا عام 888م، ثم خلف هنري اباه على هذه الدوقية عام 912م[1]. لقد وضع هنري الملك ضمن طموحاته منذ وقت مبكر، حتى في عهد كونراد الأول[2].

كان هنري شخصية حيوية ونشطة لها سحر معين يملؤها الشباب والعزيمة، وبجانب صفاته الشخصية تلك كان فطناً وعالماً سياسياً نافذاً، لقد كان تأثير شخصية الملك الجديد موحياً بتطورات وتحسينات سياسية في المانيا مساوية لتلك التطورات التي أحدثها شارلمان قطب الدولة الكارولنجية[3].

كانت المانيا وقت تولي هنري حكم الدولة عبارة عن اتحاد بين الدوقيات الكبرى، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذي يحكم أقوى تلك الدوقيات بلقب الملكية، ومن هنالك كان على هنري أن يحول السيادة الاسمية إلى سلطة فعلية[4]، وبذلك كان من المفترض أن يتم نيل الموافقة على تنصيبه من قِبل الألمان الجنوبيين، حيث كان اختياره كملك اختياراً شمالياً محضاً[5].

كانت مشكلة الدوقيات مفتاح للسياسات الداخلية والخارجية بالنسبة لهنري الأول وأوتو الأول من بعده، فقد كانت هناك ثلاث مسائل شائكة تحتاج إلى حلول، فالمسألة الأولى : كانت تتعلق بالدولة وحكمها فهل كان على الدولة أن يحكمها الدوق في دوقيته ويتصرف فيها بمقتضى المكان والسلطة التي يحياها بعيد عن الملك؟ والمسألة الثانية : هل سيبقى الكونت العربة الرئيسة للحكومة الملكية؟ وهل بإمكانه أن يستقل ولا يصبح تابعاً للتاج؟ وأما المسألة الثالثة هل كان على الدوق أن يتحكم في الكنيسة المتواجدة تحت نطاق حكمه وأنه سوف يؤثر عليها بما يفيده في بسط هيمنته ونفوذه على المنطقة التي يحكمها؟[6].

حاز هنري على قوة كافية تمكنه من حل تلك الأمور الشائكة، وتمكنه من نزع الاعتراف بلقبه الملكي من منافسيه الإقطاعيين أمثال : بريتشارد Pritchard وأرنولف، إضافة إلى جيلبيرت (Gilbert) حاكم منطقة اللورين Lorraine، الذي أعلن ولاءه وإخلاصه لفرنسا

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 455.

(2) Barraclough, The Origins of, P. 80.

(3) Ruskin, The crown of, P. 241. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 314.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 299.

(5) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 314.

(6) Barraclough, The Origins of, P. 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من قبل. لقد أجبر هنري أولئك جميعهم على الاعتراف بشرعية تملكه، ولكن على حساب الاحتفاظ بحكم ذاتي محلي مستقل لكل منهم[1].

كانت سوابيا هي الهم الأول لهنري؛ وذلك بسبب ارتباطها مع براغندي Bragnde وإيطاليا اللتين كانتا تهددان بقاء الملك على كرسيه وتهدد توحد المملكة وشعبها[2]، فعمل هنري كونه ملك لالمانيا على استعادة الكثير من الأراضي الدوقية المقتطعة من سوابيا[3]، وخاصة بعد اغتيال حاكمها بيركهارد على يد الإيطاليون؛ فقام بتعيين أحد أقاربه دوقاً عليها وزوجه أرملة بيركهارد، وبذلك ضمن موالاته للتاج الملكي[4].

أما أرنولف حاكم بافاريا الذي كان يطمع في حيازة تاج المانيا لنفسه بمساندة الشعب البافاري[5]، والذي كان يعرف بالسيء، فقد قام بالتحالف مع المجريين ضد هنري، ولكن هنري حاول بذل كل ما بوسعه لإنهاء ذلك التحالف، فلم يكتف بإبرام سياسة سلمية مع أرنولف، بل زوج ابنه من أخت أرنولوف عام 921م. ولتقوية دعائم مملكته؛ منح الدوقيات لأقاربه؛ لضمان ولائهم له ثم احتفظ بالباقي لنفسه، وبذلك عمل على توحيد جميع البيوت الألمانية القوية تحت إمرة بيت واحد[6]، وللحد من نفوذ أولئك الدوقات؛ حرمهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين، وجعل أولئك الموظفين مسؤولين أمام الملك مباشرة[7].

مثل ذلك التوظيف الموالي للحكم قد نم عن أن هنري بخلاف كونراد، كان مستعداً لملاحظة وجود الدوقيات والإحساس بخطرها، وعدم القدرة على إبطالها أو تنحيتها من الحياة السياسية والاجتماعية، لكنه كان قادراً على وضع حدود معينة للقوة الدوقية، الأمر الذي يؤمِّن استقرار العرش والتاج الألماني[8].

وأما عن أوضاع فرنسا، فقد استنجد بهنري كل من ملك فرنسا تشارلز ودوق باريس Paris روبرت Robert؛ لتخليصهم من رودولف دوق براغندي، لكنه في البداية رفض لعدائه الشديد لروبرت، أما بعد أن جرت معركة بينهم وبين ذلك الدوق، أسفرت عن مقتل روبرت، واعتقال تشارلز؛ ندب هنري نفسه واستطاع طرد رودولف من فرنسا، وأصبح تشارلز حليفاً لهنري[9].

---

(1) Lamounte, The world of, P. 172.
(2) Barraclough, The Origins of, P. 27.
(3) Lamounte, The world of, P. 172.
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 314.
(5) Barraclough, The Origins of, P. 26.
(6) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 314.
(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 299.
(8) Barraclough, The Origins of, P. 28.
(9) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 314.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم تكن سياسة هنري مع الكنيسة تختلف كثيراً مع سياسته مع الأدواق، فلقد عمل على تواصل اتحاده مع الكهنوت بالرغم من عدم صداقته مع مجلس الأساقفة، ولذا فقد كانت صيغة الاتحاد بينه وبين الكهنوت يغلب عليها طابع التحكم[1]. ولضمان تبعية الأسقفية له تبعية ملزمة ومباشرة، منحهم مقتطعات وهبات تخدم المصالح الكنسية دون تجاوز الحد المطلوب من السلطة الحاكمة، وقام ببناء هيكلية إدارية للكنيسة في جميع الدوقيات ليس للدوقات أي سيطرة عليها[2]. وكانت الكنيسة جزءاً مهماً في الدولة، فقد زودت العرش بحاشية مخلصة، مع السماح للسلطة الملكية بالوصاية على انتخابات المجلس الأسقفي؛ وبذلك ضمن هنري ولاء الأساقفة للتاج الملكي[3].

ظلت الحروب الأهلية مستمرة في السنوات الستة الأولى من حكم هنري، ولم تتوقف إلا بسب غارات المجريين التي تجددت على نطاق واسع سنة 924م[4]. فلم تتوقف الغارات المجرية في السنوات الأولى من حكم هنري الأول[5]، لكنها كثفت هجومها على الحدود المتاخمة للمملكة؛ خصوصاً بعدما تسللت إلى أذهانهم النجاحات المتعاقبة لهنري، ففي عام 926م قام المجريون بنهب منطقة إس تي غول S-T-Gul، لكنهم أجبروا على التراجع من قبل القرويين. وتكررت تلك الأحداث في أكثر من موضع إلى أن تم أسر الملك المجري "زولدان" Zuldan عن طريق الصدفة أثناء غارة شنها الألمان. لكن هنري أطلق سراح الملك الأسير ووافق على دفع تعويضات سنوية له شريطة أن يدخل في اتفاقية سلام معه لمدة تسع سنوات[6]، ومما جعل هنري يقبل بتلك الاتفاقية هي أن سكسونيا تلقت وحدها الضربات، دون أن تلقى مساعدة من سوابيا أو بافاريا، وبذلك يستطيع أن يُجَنِّب بلاده خطرهم لاستغلال الوقت في القيام بإصلاحات حربية[7].

خلال تلك السنوات التسعة الفاصلة كان هنري يهدف إلى إخضاع أعداء الإمبراطورية الآخرين خصوصاً السلافيين، وأن يعد العدة لضرب المجر ضربة لا تقوم لها بعدها قائمة[8].

لم تتغير سياسة هنري مع منافسيه طيلة فترة حكمه فكما جنح للسلم من قبل، فقد فعل ذلك مع دوق لوثرينجيا الذي قام بالتمرد على المملكة، فهُزم وسيق إلى السجن في زوبلخ، لكن ما كان

---

(1) Lamounte, The world of, P. 172.
(2) Maehl, Germany in Western, P. 43.
(3) Lamounte, The world of, P. 172.
(4) العريني، تاريخ أوروبا، ص 422.
(5) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 457.
(6) Menzel, The History of, Horrocks (trans), Vol. 1, P. 315.
(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 300.
(8) Menzel, The History of, Horrocks (trans), Vol. 1, P. 315.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من هنري إلا أن وهبه دوقية وَزَوَّجَهُ ابنته، وعم السلام في تلك الفترة جميع أنحاء الإمبراطورية وسنحت لهنري الفرصة لتتبع الشؤون الاقتصادية في الإمبراطورية[1].

في تلك الفترة أصبحت سكسونيا قالباً من قوالب التاريخ الألماني : الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وزُرعت فيها المؤسسات الإقطاعية من كل حدب وصوب[2].

كان من أهم إنجازات هنري هي بناء مؤسسة دفاعية متينة لحماية سكان المانيا من الهجمات الخارجية وكانت الحصون التي أقامها من الموانع القوية التي حافظت على بقاء المانيا[3].

وكانت الوسيلة الأنسب من وجهة نظر هنري لتفادي الهجمات المجرية المفاجئة هي بناء القلاع والمدن المحصنة، وقد كانت إدارة تلك الحاميات تقع مباشرة تحت سيطرته؛ لضمان تأمينها والقيام عليها متجاهلاً بذلك دور القوانين الإقطاعية المشرفة مباشرة على مثل تلك المشاريع الدفاعية، ولم تكن تلك المواقع العسكرية معدة فقط للحماية ضد الهجمات بل إنها كانت أيضاً مواقع تدريب عسكري يتدرب فيها الجنود[4].

واستطاع هنري أن يُنزل بالمجريين هزيمة ساحقة عام 933م[5]، في معركة كبيرة سميت سيلبيرغ Silberg، أدت إلى اقتلاعهم من جذورهم[6].

وامتد نشاط هنري العسكري إلى بوهيميا ودخلت تلك البلاد في تلك السياسة الألمانية التي شجعت فيها تغلغل المسيحية كما في سائر البلاد السلافية الأخرى. وآخر حادث عسكري في حكم هنري كان حرب الدانماركيين[7] وإجبارهم على دفع الضريبة، وتهيئة عمل التنصير الذي تُوجهه كنيسة هامبورغ[8].

توفي هنري الأول في 936م بعد أن حكم المانيا أكثر من عقدين من الزمان[9].

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 315.
(2) Thompson, Feudal Germany, P. 26.
(3) Ruskin, The crown of, P. 214.
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 316.
(5) Lamounte, The world of, P. 172.
(6) Maurice, The story of, P. 27.
(7) الدانماركيون : شعوب ذات عرقية إسكندنافية، كانت تُعرف في العصور الوسطى باسم الفايكنج، وكان معظمهم مهرة في صناعة السفن، وكانوا يُسمون ملوك البحر. (The Columbia, Vol. 6, P. 2461 ,_____).
(8) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، 458.
(9) Maurice, The story of, P. 27.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- أوتو (Otto I) الأول (936-973م).

ترك هنري لابنه أوتو الأول دولة ذات دعائم قوية عزز فيها بقاء ملك أوتو عن طريق تأمين موافقة النبلاء على توليه العرش قبل موت هنري[1].

انتخب أوتو الأول خليفة لوالده هنري حيث كان احترامه في قلوب شعبه نابعاً من احترامهم لوالده الذي حقق إنجازات عظيمة خلدها له التاريخ[2].

ولد أوتو في عام 912م في سكسوني إحدى الدوقيات الألمانية الخمسة[3]، ثم تزوج من ابنة ملك إنجلترا[4].

لم يكن أوتو كوالده مهتماً بشكل أساسي بالمانيا ولا بالسكسونية، فقد حلم بالعرش الإمبراطوري حيث كان هدفه الأول هو الإمبراطورية، متخذاً شارلمان مثلاً أعلى له[5].

بعد تسلم أوتو العرش واجه العديد من التمردات الداخلية، والضغوطات الخارجية، التي اضطُر إلى مواجهتها.

ففي الداخل قام ابن هنري من زوجته الأولى أميرة هاتبيرغ والذي كان يدعى ثانكمار أو (تامو) بالادعاء بأحقيته بخلافة والده على الحكم، حيث طلق هنري زوجته الأولى -أم ثانكمار- ونقل إرثها وولدها إلى سيادة الدولة، وتزوج ماتيلدا التي كان مغرم بها والتي أنجبت له ثلاثة أبناء هم أوتو، وهنري، وبرونو Bruno، ثم رغم أن هنري سمى أكبرهم ولياً للعهد، إلا أن ماتيلدا Matilda كانت ترغب في تولية ابنها هنري العرش بعد وفاة والده[6].

لقد كان لتلك الظروف الاجتماعية التي عاشها هنري الأول تأثير على الظروف السياسية في عهد أوتو، حيث أدى ذلك إلى وقوف كل من ثانكمور Thankmor وهنري أخوة أوتو ضده، ومطالبتهم بالعرش شعوراً منهم بأحقيتهم في ذلك.

فقد ثار ثانكمور مؤيداً من قبل السكسكونيين وقد التحق به إيبرهارد Eberhard دوق فرانكونيا والذي كان هو وأخوه الملك كونراد قد ساهما من قبل في نقل العرش إلى الإمبراطور السكسكوني هنري، لكن عندما مات هنري حاول إيبرهارد تثبيت مزاعمه على العرش متأثراً بكرهه

---

(1) Lamounte, The world of, P. 173.
(2) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 323.
(3) Del Testa, (editor), Government leaders, P. 139.
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 323.
(5) Lamounte, The world of, P. 173.
(6) MenzelThe History of, Vol. 1, P. 323.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشديد لأوتو، كما تعاطف مع ثانكمور، بيرنهارد حفيد لويس التقي [1]. وشارك أيضاً بالتآمر على أوتو كل من دوق غيسيلبيرت Gislbert دوق اللورين، وأخو أوتو الذي يُدعى هنري[2].

تحرك أوتو تجاه مناطق المتمردين وحاصر ثانكمور في منطقة أريزبيرغ Arizberg وذبحه في مذبح الكنيسة، فقام أيبرهارد دوق فرانكونيا بإخضاع نفسه لأوتو متوسلاً بكل ما أوتي من عبارات الندم على ما ارتكبه من خطيئة في حق الملك[3].

كان تصرف أوتو الوحشي مع أخيه ثانكمور، دليلاً واضحاً على مدى أنانيته، وحبه لنفسه، والقضاء على أي شيء في سبيل الحصول على السلطة، وملك زمام الأمور.

ونتفق مع الرأي القائل : بأن أوتو بالكاد كان يستحق لقب الرجل العظيم، فلم يكن يتحلى بالدماثة التي أتاحت لأبيه أن يمتلك قلوب الناس بها، فلقد أحاط نفسه بالصلابة الملكية المتعجرفة، وكان يبحث عن المجد الخاص لذاته وقد اعتمد في تحقيق إنجازاته ونجاحاته على مكره وخداعه وحسن حظه لا على كرمه وشهامته[4].

لقد ظهر الفرق واضح بين أسلوبي هنري الأب وولده أوتو في القضاء على التمردات الداخلية، فنرى كيف استطاع هنري أن يكسب كل المتنافسين له والمتمردين بالطرق السلمية، وظهر ذلك مع كل من أرنولوف دوق بافاريا، ودوق لوثزنجيا، والذي انتهى الأمر بمصاهرتهما.

كانت تلك هي الجولة الأولى من التمردات والتآمرات في فترة حكم أوتو، فقد قام مرة أخرى هنري الابن بتوسيع نطاق المؤامرة من خلال كسب أبناء أرنولف حاكم بافاريا، وعودة إيبرهارد دوق فرانكونيا للتحالف معهم، إضافة إلى غيسيلبيرت دوق اللورين[5]. لكن أوتو استطاع من خلال معركة مميتة أن ينتصر عليهم، بعد مقتل إيبرهارد، وغرق غيسيلبيرت في نهر الراين، أما هنري ففر إلى فرنسا وأخمدت نيران التمرد[6].

ويُقال : "إن أوتو عفا عن هنري، ولم يكن عفوه ضعفاً بل كرماً ولحكمة رآها، لأن من ينزل عقاباً بأخيه ينزل عقاباً بغير أخيه أشد وأنكى"[7]. وذلك القول يناقض تماماً قول مينزال :

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 324.
(2) Maehl, Germany in Western, P. 44.
(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 325.
(4) Ibid, Vol. 6, P. 323.
(5) Maehl, Germany in Western, P. 44. Menzel, The History of, Vol. 1, P.P. 325, 326.
(6) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 326.
(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"إن أوتو اعتمد في تحقيق إنجازاته على مكره وخداعه لا على كرمه وشهامته"، كما تناقض فعله مع ثانكمور –أخاه من والده– وفعله مع الأدواق الأقوياء كما ذُكر سابقاً.

ويبدو أن مينزال قد أصاب الحقيقة بقوله : "إن أوتو بقضائه على الحلقة الأقوى في سلسلة التمردات، لم يكن بحاجة للقضاء على الأضعف"، وذلك الفعل يكون فعل المجرمين وليس فعل الحكماء كما رأى عمران كما أسلفنا سابقاً.

قام أوتو بعدها بوضع فرانكونيا تحت الرعاية الملكية مباشرة وأصبحت قاعدة مركزية؛ لدعم قوة المملكة السكسونية، كما تم تحويل أجزاء من بافاريا أيضاً تحت الرعاية الملكية مباشرة[1]، وقد كانت لذلك دوافع سياسية وجغرافية حيث كان التحكم المباشر في فرانكونيا يضيق الخناق على كل دوقية في محاولات أخرى للانفصال ككينونة مستقلة، فموقعها الجغرافي كان بمثابة موقع سياسي يسهل من خلاله الوصول لأي حركة تمرد وضربها ومنعها من التملص أو الانقلاب حيث لا أمل لبافاريا وسوابيا المعصورتين بين الحدود الإيطالية بالتقدم نحو سكسوني أو الهروب منها[2].

عم السلام لفترة وجيزة جميع أرجاء المنطقة وعُقد لقاء شخصي بين أوتو ولويس ملك فرنسا عام 942م، وفي عام 944م مُنحت ولاية لوثرنجيا إلى كونراد الأحمر بن غيسيلبيرت وكان ذلك كبادرة حسن نية وليعم السلام من قبل جميع الأطراف المتناحرة، وبمنح تلك الولاية إلى كونراد الأحمر ثم تزويجه ابنته، ضم أوتو الجانب الفرانكوني إلى عائلته، واتبع أوتو سياسة الزواج والمصاهرة؛ لتأمين ولاء فرانكونيا وسوابيا وبافاريا عن طريق الارتباط العائلي مع ولاة تلك المقاطعات[3].

بدأت سياسة أوتو تأخذ منحى آخر مختلفاً عن سياسته منذ بداية حكمه، متبعاً بذلك ما سار عليه والده هنري من سياسة الزواج والمصاهرة لكسب الأدواق، وإخضاعهم لسيطرته.

حاول أوتو إلغاء نظام الدوقيات، لكنه لم يستطع ذلك، لما ترتبط به الدوقيات من تقاليد تاريخية قوية، ولأهميتها في الدفاع عن المملكة، فرمى إلى وقف ميل الدوقات إلى جعل تلك الدوقيات وراثية، وذلك بأن لجأ إلى عزل الدوقات وإحلال رجال من أسرته مكانهم، فمنح دوقية بافاريا لأخيه هنري، وجعل سوابيا لابنه الأكبر ليودولف[4]. أما لوثرنجيا فقد قام بها أوتو

(1) Maehl, Germany in Western, P. 44.
(2) Barraclough, The Origins of, P. 82.
(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 330.
(4) العريني، تاريخ أوروبا، ص 424.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بتجربة جديدة، حيث عهد الدوقية إلى أخيه الأصغر برونو –الذي كان من رجال الدين ورئيس أساقفة كلوني– وجاء ذلك من اعتقاده في عدم انفصال الكنيسة عن الدولة، ووجد في أخيه الصفة الدينية والسلطة الملكية التي جعلته قادراً على امتلاك القوة والعدالة[1]؛ بذلك غلب الطابع الإقطاعي على الكنيسة حتى صار من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقاً[2].

إضافة إلى ذلك فقد وجد أوتو أنه من منطلق نظام عدم زواج رجال الدين؛ لن تكون الدوقيات ممتلكات وراثية، دون أن يبذل أي متاعب في إلغاء نظام حق وراثة الحكم الذي سيؤدي إلى عداء الدوقات والكونتات بمملكته؛ وبذلك أيضاً أضعف سلطات الكونتات[3].

كان هناك سبب آخر في إعطاء ولاية لوثرنجيا إلى برونو، فقد ذُكر سابقاً أن ولاية لوثرنجيا منحها أوتو إلى كونراد الأحمر، وزوجه من ابنته، وبذلك صار من الأشخاص الذين يمتون إليه بصلة قرابة، وهنا يمكن أن نتساءل لماذا فعل أوتو ذلك؟

لقد قام كونراد الأحمر –زوج ابنة أوتو– بتمرد جديد عليه، مما دفع أوتو لأخذ لوثرنجيا منه وإعطائها لأخيه برونو[4]، وذلك ما سيُذكر لاحقاً.

لم يتوقف الأمر عند أوتو على إضعاف السلطات بل أراد التغلب على قوة الدوقات القبليين بمساعدة الكنيسة الألمانية، فعزم على وضع الكنيسة تحت سيطرته باستخدام مواردها ورجالها في سبيل إرساء الأسس التنظيمية للسلطة الملكية في المانيا. ولم تكن هناك طريقة أخرى كان يمكن للملكية الألمانية بواسطتها أن تحصل على الثروة والدعم العسكري والإداري اللذين تحتاج إليهما لكي تتمكن من ذلك التغلب، ولم يكن رجال الأكليروس الألمان أقل من الملك رغبة في التعاون معه؛ وذلك لحمايتهم من تسلط النبلاء، وتقديم الهبات السخية على المؤسسات الكنسية، فضلاً عن إتاحة الفرصة لرجال الكنيسة للخدمة في مجلسه الاستشاري وتولي وظائف الوزراء الملكيين[5].

ذلك الأمر جعل الكنيسة تدفع الثمن غالياً لأن تحول الأساقفة إلى أمراء إقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة؛ جعلهم خاضعين للملك خضوعاً مباشراً كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده، وهكذا أخذ أوتو الأول يتحكم في تعيين الأساقفة ثم عزلهم؛ مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها[6].

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 425، 426.
(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 303.
(3) العريني، تاريخ أوروبا، ص 425، 426.
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 331.
(5) كانتور، العصور الوسطى، ص 359.
(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 302.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد رمى أوتو الأول إلى ذلك التعاون مع الكنيسة بمجرد توليته أمور الحكم، حيث تم مباركة استلامه الحكم في كنيسة أكس –لا– شابل X-LA-Chapelle، وتسلم شارات المملكة من رئيس أساقفة ماينز، ثم مسحه بالزيت المقدس، وأقامه على العرش. وبذلك وصل أوتو ما انقطع من التقاليد الكارولنجية زمن هنري، وأعاد ما حدث زمن شارلمان[1].

لقد كان أوتو على عكس ما كان عليه أبوه، حيث كان هنري الأول يخشى الأساقفة ومقدمي الأديرة الأقوياء، كما رفض أن يتم تتويجه على يد أي من رجال الكنيسة[2].

وقد رأى ميهل : أن أوتو الأول كان رجل دين وحماسة[3]، وأنه تعقل مع تقدم السن، وعدل عن شهوات الدنيا، وتمسك بالدين وقام بما يتطلب منه من عبادات عن أمانة وإخلاص، بعد أن كان في شبابه كسائر ملوك عصره لا يراعي قوانين الأخلاق المسيحية[4].

ولكن يبدو أن أوتو استغل الدين والكنيسة لصالح تحقيق أطماعه ومساعيه، ولم يكن تعامله مع الكنيسة إلا لجعلها أداة مساعدة؛ لأن رجال الكنيسة يتحكمون في ثروة طائلة من الأرض[5].

أما الملك فلم تكن لديه أرض أو أملاك أو جيش أو عوائد تخصه بشكل مباشر، ولو قام كبار رجال الدولة بوقف دعمهم للملك فسوف يصبح عاجزاً عن إدارة ملكه[6].

إضافة إلى ذلك فهو تسلم الحكم وهو في ريعان الشباب، إذ كان عمره أربعة وعشرين عاماً[7]، وبارك ذلك الحكم في الكنيسة، وتسلم شارات المملكة من رئيس الأساقفة، وتم مسحه بالزيت، وذلك إنما يدل على تدينه منذ شبابه.

ومع ذلك فقد اتجه إلى شهوات الدنيا، وأخطأ خطيئة أنجب من خلالها طفلاً[8]، فكيف نستطيع أن نربط بين تلك الحقائق؟. لكن تفسير ذلك هو أن أوتو استغل دهاءه وخبثه للسيطرة على الكنيسة، ولم يكن نوع من التدين كما ذُكر.

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 514. العريني، تاريخ أوروبا، ص 423. كانتور، العصور الوسطى، ص 359.

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 359.

(3) Maehl, Germany in Western, P. 43.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 513.

(5) كين ، حضارة أوروبا، ص 44.

(6) Strayer, Westen Europe, P. 69.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 512.

(8) المرجع نفسه، ص 512.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكما نجح أوتو في القضاء على التمردات الداخلية، حقق نفس النجاح في سياسته الخارجية وحروبه.

أراد أوتو توسيع سلطته السياسية في جميع المناطق عاملاً بذلك ضد النفوذ الفرنسي في أي مكان من الغرب، وضد السياسة السلافية من الشرق، وحتى ضد المملكة الإيطالية المتأرجحة في الجنوب[1].

أما فرنسا فقد انقسمت إلى قسمين متناحرين؛ بسبب المعارك التي دارت بين لويس وهوجو كونت باريس العظيم[2] –كلا المتنافسين كانا زوجين لأختي أوتو–[3]، أما هوجو فقد تلقى دعماً نورمانياً لمواجهة لويس؛ من أجل نيل التاج الملكي، وبسبب أسر لويس من قبل النورمان، غزا أوتو فرنسا عام 974م ولكنه لم ينجح في هجماته ضد باريس أو روين عاصمة نورماني في تلك الفترة. وعمّ سلام شامل بين أوتو والنورمان بوساطة كونراد ملك فرانكونيا[4]. ثم لعب أوتو دور الوسيط بين المتنافسين على عرش فرنسا[5]، فاعتلى لوثر بن لويس عرش فرنسا بعد موت أبيه، أما ابن هوجو وهو ابن أخت أوتو فقد تولى العرش بعد انقراض السلالة الكارولنجية الحاكمة في فرنسا[6].

أما في الشرق فاستطاع أوتو إخضاع التمرد البوهيمي (السلاف) وأجبر بوهيميا كلها على العودة إلى الهيمنة الألمانية[7].

وقام أوتو ببناء الأسقفيات في كل من هافيلبيرغ وبراندنبيرغ؛ لتدعيم ملكه في المنطقة التي احتلها من السلافيين ثم تحويلهم إلى الدين المسيحي[8].

سار أوتو باتجاه الدنمارك حيث وقعت معركة دموية بينه وبين الدينماركيين كان الغلبة فيها لأوتو، ثم أجبرهم على حلف يمين الولاء المسيحي له[9]. وقام بإعادة تشكيل الحدود الدنماركية القديمة وبنى حدوداً جديدة[10].

---

(1) Strayer, Westen Europe, P. 67.
(2) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 329.
(3) Lamounte, The world of, P. 173.
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 329.
(5) Lamounte, The world of, P. 173.
(6) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 329.
(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 303.
Lamounte, The world of, P. 173.
(8) Maehl, Germany in Western, P. 44. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 329.
(9) Menzel, The History of, Horrocks (trans), Vol. 1, P. 329.
(10) Lamounte, The world of, P. 173.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقام المجريون بغزو المانيا مرات عديدة في عهد أوتو، كانت أولها عام 937م حيث قاموا بغزو سكسونيا ثم بافاريا والتي تعرضت إلى هجمات مجرية عديدة[1]، وفي عام 955م شن المجريون غارة كبيرة أوصلتهم إلى أوغسبرغ، إلا أن أوتو استطاع حشد قوات كبيرة من السكسون والفرانكون إضافة إلى مقاتلين من سوابيا وبافاريا، وقوات من بوهيميا، ولاقى المجريين في معركة ليخفلد، حيث دُمرت القوات المجرية واندحرت إلى الأبد[2]. وبذا فقد كان عام 955م آخر الغارات المجرية على الغرب، وبعد هزيمة المجريين في معركة ليخفلد Lkhvld انسحبت القوات المجرية إلى سهول الدانوب، حيث استوطنوا هناك وبنوا ما عرف بمملكة هنغاريا، وفي عهد الملك إس تي ستيفن (S.T. Stephen) اعتنق المجريون المسيحية وأصبحوا دولة تابعة للبابوية، وأصبحوا يدورون في فلك السياسة الألمانية[3]. كما حرر ذلك الانتصار شمال إيطاليا من المارقين عليها والمتحرشين بسيادتها[4]، وبعد ذلك الانتصار أصبح أوتو الأول بطل الغرب الأوروبي، كما بدا في عيون النبلاء الألمان أنه قد جعل من زعمه بأنه خليفة شالمان حقيقة واقعة، وفي الميدان الذي شهد انتصاره على المجريين رفعه كبار السادة الإقطاعيين على دروعهم على الطريقة الجرمانية وأعلنوه إمبراطوراً[5].

دمج أوتو لإيطاليا وتتويجه أمبراطوراً.

شعر أوتو أن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وإنما ترتبط بالبابوية في روما وتخضع لهيمنتها. وبذلك وجد أوتو أنه إذا أراد أن يسيطر على الكنيسة الألمانية للسيطرة على المانيا؛ فإنه يجب أن يُخضع البابا أو على الأقل كسبه إلى جانبه، وهكذا وجد أنه من الضروري التدخل في شؤون إيطاليا؛ للسيطرة على البابوية[6].

هيأت الظروف الفرصة المناسبة أمام أوتو لتحقيق غرضه، فقد طلبت أرملة الملك لوثر (أدهيلد) Adhild المساعدة منه، عندما انتزع بيريغر Berger الثاني دوق بافاريا المملكة الإيطالية منها[7]، حيث سجنها في حصن بحيرة كومو Como، لكنها استطاعت الفرار من السجن واتجهت إلى قلعة كانوسا للتخفي هناك[8].

---

(1) Lamounte, The world of, P. 174.

(2) العريني ، تاريخ أوروبا، ص 409. بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53.
Lamounte, The world of, P. 174. Maehl, Germany in Western, P. 44. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 334.

(3) Lamounte, The world of, P. 174.

(4) Hearder and Waley (editor), from classical, P. 35.

(5) كانتور، العصور الوسطى، ص 361.

(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 303.

(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 303.
Lamounte, The world of, P. 175.

(8) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 330.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أسرع أوتو في عام 951م وشن أول حملة على إيطاليا، فعبر جبال الألب لتحرير كانوسا، وكوفئ بالزواج من الملكة، وأجبر بيرينغر على الاعتراف بالتبعية له[1]. وعندما طلب أوتو تتويجه إمبراطوراً على روما من البابا، رفض البابا ذلك[2].

أجبرت حركة التمرد في المانيا أوتو على العودة تاركاً إيطاليا ومهمته لم تكتمل بعد[3]. فقد ثار ابنه ليودولف ضده في سوابيا، وثار كونراد في اللورين الأعلى كما ثار فردريك Frederick رئيس أساقفة ماينز[4].

كان سبب ذلك التمرد هو خلاف قام بين ليودولف وعمه هنري على الحدود الواقعة بين مناطق حكمهما، وتدخل لفض الخلاف الملك أوتو فكان في صف أخيه هنري، فغضب لذلك ليودولوف، واعتقد أن ذلك التحريض من زوجة أبيه (أديهيلد)، والتي اتُهمت بأنها تخطط مع هنري للقيام بأعمال شريرة ضد الملك أوتو، ومن ثم انضم إلى ليودولوف زوج أخته كونراد الأحمر بتأثير من زوجته التي كانت أدهيلد تكرهها بشدة[5]. لكن أوتو استطاع القضاء على أولئك المتمردين؛ بسبب كثرة منافسيهم[6].

ظل أوتو يحلم بإمبراطورية لنفسه، حتى جاءت الفرصة أمامه مرة ثانية، ففي عام 959م وقع صدام بين البابا يوحنا الثاني عشر، وهو ابن أحد كبار النبلاء بروما، وبين برينغر ملك فريولي ألد أعداء أوتو[7]، وقد جمع يوحنا الثاني عشر في شخصه بين السيادتين الدينية والدنيوية في روما[8]. فاستعان البابا يوحنا بأوتو الذي قام بتتويج ابنه أوتو الثاني على المانيا، وأولى المهام الحكومية لالمانيا لأخيه برونو، وابنه الغير شرعي والذي كان قد خلف فريدريك على ولاية ماينز، وعلى الفور وبالتحديد في عام 961م قام باجتياز جبال الألب فخلع برينغر ثم دخل روما لأول مرة في حياته وهناك أجبر البابا يوحنا على تقليده تاج الإمبراطورية الرومانية. وفرض أوتو على الإيطاليين قانوناً يمنع انتخاب البابا دون الرجوع إلى الإمبراطور، وبمجرد

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 430.
Lamounte, The world of, P. 175. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 330.

(2) العريني، تاريخ أوروبا، ص 431.
Lamounte, The world of, P. 175.

(3) Lamounte, The world of, P. 175.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 431.

(5) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 331.

(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 303.

(7) العريني، تاريخ أوروبا، ص 431.

(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 305.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مغادرته قام البابا بالتراجع عن اليمين الذي أخذه على عاتقه[1]، فعاد أوتو إلى إيطاليا عام 963م ثم قام بخلع البابا يوحنا وانتخاب بابا جديد[2]. فما كان من الرومان إلا أن ينتخبوا بابا جديداً وهو بندكت الرابع دون الرجوع إلى أوتو؛ فقام أوتو بنفيه وبتعيين ليو السابع[3].

اتخذت الإمبراطورية الرومانية شكلاً آخر عندما ولي عليها أوتو الأول، حيث غير اسمها لتصبح الإمبراطورية الرومانية المقدسة للشعب الألماني، وقد وجدت أثناء تلك الفترة مؤسسة جديدة تحت قيادة أوتو[4]. واستبدل دوقات إيطاليا العظام بدوقات معظمهم الماني المولد، كما وطن الكثير من الألمان في إيطاليا؛ وبذلك أنشأ حزباً موازياً لقوة روح التمرد التي كانت عند اللومبارديين والرومانيين[5][6]. وقام أوتو بإنشاء الاتحاد الدائم بين المانيا وشمال إيطاليا، والذي تحول فيما بعد تحت قيادة أوتو الثالث إلى اتحاد ضم أربعة شعوب هي : الالمان، الإيطاليون، المغوليون[7]، والسلافيون، وقد جمعتهم مع بعضهم البعض فكرة حماية الكنيسة الكاثوليكية والتي قادها الإمبراطور نفسه[8].

في عام 968م فكر أوتو باستعادة الجزء الجنوبي لإيطاليا من اليونانيين، لكنها استعصت عليه عسكرياً، فعاد إلى سياسة المصاهرة حيث طلب يد الأميرة الجميلة ثيوفانو Tjovano بنت رومانوس Romanos الثاني إمبراطور بيزنطة الأسبق لابنه أوتو الثاني على أمل أن يتسلم جنوب إيطاليا، وهي من الممتلكات البيزنطية في إيطاليا[9]، كهدية زواج الأمير والأميرة، لكن طلبه قوبل بالرفض، لكن في عام 972م عاود النصيب فتزوج أوتو الثاني من الأميرة البيزنطية التي كان لجمالها سحر لا يقاوم، والتي لعبت دوراً كبيراً في تغيير التقاليد الألمانية جالبة معها التقاليد البيزنطية والتي انتشرت تدريجياً وأثرت على العادات التي كان يمارسها الناس في المانيا[10].

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 336.
(2) Maehl, Germany in Western, P. 44. Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36.
(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 337.
(4) Broughton, Dictionary of Medieval, P. 248.
(5) الرومان : شعب روما القديمة، وهم أحد الشعوب اليونانية القديمة، أسس ذلك الشعب مملكة، ثم جمهورية، ثم إمبراطورية، انقسمت لشرقية وغربية، كانت لغتهم هي اللاتينية واليونانية.
(_____, The Columbia, Vol. 6, 2251)
(6) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 337.
(7) المغول : أو المنغول، قوم نشأوا في أواسط أوروبا في منطقة منغوليا، ويطلق هذا اللقب على كل من يتكلم اللغة المغولية، بما فيهم شعب الكالميك الموجودون بشرق أوروبا. (_____, The Columbia, Vol. 6, 2316).
(8) Broughton, Dictionary of Medieval, P. 248. Schulman, The rise of, P. 11.
(9) كانتور، العصور الوسطى، ص 363 (حاشية).
(10) Menzel, The History of, Horrocks (trans), Vol. 1, P. 340. Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عاد الإمبراطور أوتو إلى المانيا في عام 972م بعد ما عم السلام في جميع أرجاء إمبراطوريته[1]، ثم توفي في العام التالي 7 مايو 973م، مخلفاً عرشه لابنه من زوجته إدهيلد (أوتو الثاني)[2].

ترك أوتو الأول لابنه إرثاً قوياً داعماً لمملكته، إلى جانب مهام ثقيلة كادت كتف أوتو الثاني أن تنوء بها، فقد وسعت التخوم المشرفة على المانيا، وانتشرت المسيحية شرقاً وغرباً، حتى أن البوهيميين[3] تحولوا إلى دوقات ألمان، وطالت المسيحية أراضي السلاف، وعقد البولنديون والدانمركيون حلفاً مع المانيا، وعززت السطوة الملكية الداخلية في أرجاء الإمبراطورية[4].

ج- أوتو الثاني (Otto II)، (973-983م).

كان أوتو قصير القامة لكنه كان قوي البنية، ذا بشرة حمراء متوردة اللون، وكان مفرط الحساسية تجاه الأمور لكن حساسيته كانت مضبوطة بأدبه وعلمه الذي تلقاهما منذ صغره من والدته أدهيلد، إلى جانب زوجته التي كانت تحثه على طلب العلم[5].

تولى أوتو الثاني العرش عام 973م، وهو في سن الثامنة عشر، ولما كانت أمه إيطالية وزوجته بيزنطية فقد كان اهتمامه بإيطاليا أكثر مما كان عليه أبوه[6].

حاول أوتو الثاني إقحام الجانب الروحي كمذهب ومبدأ للدولة، فجعل الكنيسة تحت سيطرته الملكية المباشرة بمنحها رقابة دينية ذاتية مستقلة بعيد عن أي إشراف ملكي سلطوي، وبذلك استطاع أن يضع حداً لطمع وجشع النبلاء ممن كانوا يدأبون على مصادرة ممتلكات وهبات الكنيسة، وفي نفس الوقت استبدل الكونتات بأساقفة ورهبان عملوا كعملاء للسلطة الملكية، وكمصدر أساسي لجبي الضرائب لصالح الخدمات العسكرية[7]. وبذلك اتبع أوتو الثاني سياسة والده في الاستعانة بالأساقفة ورجال الدين من جهة، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى[8].

ووصل التحالف بين الكنيسة والملكية أعلى مراتبه في عهد أوتو الثاني عندما قام بتأسيس أسقفيات ضخمة ومركزية[9].

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 347.
(2) Lamounte, The world of, P. 175.
(3) البوهيميون : ينحدرون من أصول جرمانية وسلافية، هاجرت إلى غرب أوروبا في القرن الأول والقرن السادس الميلاديين. (_____, The Columbia, Vol. 6, 2372).
(4) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 347.
(5) Ibid, Vol. 6, P. 342.
(6) Lamounte, The world of, P. 176.
(7) Maehl, Germany in Western, P. 45.
(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 310.
(9) Maehl, Germany in Western, P. 45.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تجددت حوادث التمرد بين الأدواق خاصة في بافاريا وسوابيا[1]، كان ذلك التمـرد نتيجـة نزاع حدودي سابق بين لودولف بن أوتو الأول، وهنري أخو أوتو الأول، وكما ذكرنا سـابقاً كـان حكم أوتو في تلك الفترة لصالح هنري، لكن ذلك النزاع لم ينفض بل تجدد في عهد أبنائهم حيث كان بين أوتو بن لودولف، هنري بن هنري الأخ والذي كان يسمى (بهنري الخصم)، أما أوتو الثاني فقد حكم لصالح ابن أخيه أوتو. وبذلك حاول هنري الخصم أن يثير الكراهيـة الدينيـة فـي صـدور البافاريين والقيام بتمرد مفتوح، علاوة على ذلك تحالف مع بوليسلو البوهيمي[2]، وقضى أوتو الثاني سنوات عديدة من حكمه في محاربة طموحات ابن عمه هنري الخصم[3]. ولكنه نجح في إخماد ذلك التمرد، واستغل الفرصة لإضعاف بافاريا عن طريق سلخ بعض أجزائها الشمالية والشرقية عنهـا. وهكذا انتصر أوتو الثاني ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة في المانيا[4].

أما على المستوى الخارجي للعلاقات، فقد أعطى أوتو الثاني للتاريخ انطباعـاً بنجاحـه التام، حيث وفق في الحصول على ولاء الدنمركيين والنرويجيين[5]، واستطاع المحافظـة علـى علاقات جيدة مع ملك بولندا، كما وأجبر ملك فرنسا على الاعتراف الدائم بتسليم اللورين للمملكة الألمانية في عام 980م، وقد توج ملكاً على الرومان[6].

كان المسرح الرئيس لنشاطات أوتو الثاني هي (إيطاليا) التي ظلت ميداناً للفوضى؛ نتيجـة لأطماع الأمراء من جهة وإغارات المسلمين من جهة أخرى[7].

استُدعى أوتو إلى إيطاليا؛ بسبب تمرد جديد وقع فيهـا، حيـث اغتـصب كرسـكنيتوس Chrisknitus أقوى أمراء روما، حكومة روما محاولاً إحياء ذكريات الإمبراطوريـة الرومانيـة القديمة بفرض نفسه كقنصل على روما، فأمر باغتيال البابا بندكت السادس ثم استبدله بشخص آخر من خاصته يسمى بونيفاكس السادس. فعبر أوتو جبال الألب سنة 980م، ثم أعفى البابا الجديد مـن منصبه ثم عين البابا بندكت السابع، وعفا عن كرسكنيتوس[8].

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 195.

(2) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 342.

(3) Lamounte, The world of, P. 176.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 310.

(5) النرويجيون : شعوب إسكندنافية، تنحدر من نفس الأصول التي انحدرت منها الشعوب الدانمركية، استوطنوا شمال أوروبا، وكانوا يُعرفون بالفايكنج، وكان معظمهم يعملون في المجالات البحرية.
(_____, The Columbia, Vol. 6, 2751)

(6) Maehl, Germany in Western, P. 45.

(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 310، عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 195.

(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 310.
Menzel, The History of, Vol. 1, P. 342.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استغل أوتو الثاني فرصة وجوده في إيطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من إيطاليا وذلك لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين الذين عبروا من صقلية وهددوا بنفنتو Bnvento، والثاني : تأكيد حقوقه وحقوق زوجته ثيوفانو في جنوب إيطاليا بعد أن عادت الدولة البيزنطية إلى المماطلة في تلك الحقوق[1].

كان اليونانيون في تلك الفترة في حرب متواصلة مع المسلمين وفجأة اتحد الخصمان في وجه عدوهم (أوتو الثاني)[2].

صادف أوتو الثاني توفيقاً في حربه بجنوب إيطاليا (981–982م)، فاستولى على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو Salrino، وباري Barry، وتارنتو Taranto. كما أنزل هزيمة بالمسلمين عند قطرون Cotrone، وقُتل في المعركة أبو القاسم[3] أمير صقلية[4]، والتحم مرة أخرى جيش أوتو مع اليونانيين بالقرب من شاطئ البحر بجوار منطقة باسانتيلو، وفجأة هوجم الإمبراطور من الخلف من قبل المسلمين، وما كان منه إلا أن فرّ ناجياً بحياته، وقد عزا المؤرخون نجاته إلى السرعة الفائقة التي كان يتمتع بها فرسه[5].

كانت تلك الهزيمة الكارثة الأولى من نوعها في تاريخ الإمبراطورية الأوتية، إذ أنها قضت لمدة قرنين على سيادة الإمبراطورية الغربية في وسط إيطاليا وجنوبها[6]، وزادت الكارثة عندما جاءت الأخبار إلى الإمبراطورية بتحرك السلاف على نهر الألب، بعد أن أعلنوا ارتدادهم إلى الوثنية، وذبحوا كثيراً من رجال الكنيسة، ودمروا الكنائس[7]. إلى جانب ذلك أقام الملك البولندي الجديد بوليسلي كروبري حاجزاً بين الألمان وبين مطامعهم في الشرق لمدة قرن كامل من الزمان[8].

---

(1) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 311.

(2) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 343.

(3) أبو القاسم : (ت 360هـ=971م) أحمد بن الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي أمير صقلية، كان أبوه يستخلفه عليها ويشركه معه في التدبير والحكم والحروب ثم وليها بعد وفاة أبيه سنة 352هـ، واجتاز البحر إلى كلوبرية Calabria في شرق صقلية، فأحرق في مدينة ريو Regio أسطول الروم وأرسل إلى بلاط الخليفة المعز في المهدية عدداً من كبار الأسرى، ثم استدعاه المعز حين زحف لتملك البلاد المصرية والشامية، فقدمه على جيوش البحر، وكانت أساطيله عظيمة. (الزراكلي، الأعلام، ج1، ص 110).

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 311.

(5) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 343.

(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 311.

(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 311. العريني، تاريخ أوروبا، ص 436. كانتور، العصور الوسطى، ص 363 حاشية رقم (1).

Maehl, Germany in Western, P. 45. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 345.

(8) Maehl, Germany in Western, P. 45.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لذلك عقد الإمبراطور أوتو الثاني مجمعاً في فيرونا Verona عام 983م، وقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الإمبراطور؛ لشن حرب ثانية ضد المسلمين، وفي أثناء الاستعداد لتلك الحرب مات الإمبراطور في ديسمبر عام 983م[1]، ثم دفن بكنيسة القديس بطرس في روما[2].

د- أوتو الثالث (Otto III)، (983-1002م).

مات أوتو الثاني، فخلفه على الحكم طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره[3]، وبسماع ذلك الخبر كانت هناك إشارة إلى قيام ثورة عامة في الشمال. فقام السلافيون شرقي منطقة الألب بتمرد جديد، نتج عنه تدمير معظم المستعمرات الألمانية التي أُنشأت في المنطقة[4]، ثم استيلائهم على مدن هامة، كما بدأ المجريون يتوحدون من جديد تحت قيادة ستيفن الأول الذي تَوجّه أوتو الثاني بيديه. أما الدنمارك فقد انشقت عن المسيحية[5]، وقام حاكمها سوين فورك بيرد (Sweyn Fork Beard)، الذي كان قد عزل والده مسيحي الديانة وأحيا الفرق الوثنية القديمة، باجتياح المستعمرات الألمانية في الدنمارك وحررها من الألمان[6]. وفي تلك الأثناء قام هنري خصم أوتو الثاني بطلب الوصاية على عرش أوتو الثالث كونه طفلاً ثم قام بأسره[7]. وفي تلك الحالة كان يصح إغفال ما لذلك الطفل من دعاوى في التاج؛ نظراً لأن مبدأ الوراثة لم يتحقق بعد، غير أن ما كان للأسرة من مكانة وما للحكومة التي أقامتها الأسرة من قوة، أدى إلى اختيار أوتو الثالث ليخلف أباه على الحكم[8]. وبفضل تأييد رجال الدين خصوصاً رئيس أساقفة ماينز؛ صارت الوصاية لوالدته ثيوفانو[9]، التي كان له التأثير القوى في تربيته[10]، حيث نشأ متأثراً بالروح البيزنطية وتقاليدها التي استقاها منها[11]. واستمرت الوصاية عليه ثلاث عشرة سنة تمكنت خلالها ثيوفانو من صبغ البلاط الألماني بجانب من الحضارة البيزنطية، وزادت من روح النهضة الفنية والأدبية[12].

---

(1) كانتور، العصور الوسطى، ص 363 حاشية رقم (1).
Lamounte, The world of, P. 176.
(2) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 327. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 311. كانتور، العصور الوسطى، ص 363 حاشية رقم (1).
(3) العريني، تاريخ أوروبا، ص 436. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 195.
Lamounte, The world of, P. 176.
(4) Lamounte, The world of, P. 176.
(5) Maehl, Germany in Western, P. 46.
(6) Lamounte, The world of, P. 176.
(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 312.
Lamounte, The world of, P. 176.
(8) العريني، تاريخ أوروبا، ص 447.
(9) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 312. العريني، تاريخ أوروبا، ص 437.
Lamounte, The world of, P. 176.
(10) كين، حضارة أوروبا، ص 44.
(11) Hearder and Waley, D.P. (editor), from classical, P. 36.
(12) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 196.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما قام على تربية أوتو الثالث وتعليمه بعض كبار الأساقفة، الذين كفلوه بالتعليم الراقي، وبثوا فيه روح الحماسة الكنسية[1]، وكان من أبرز أولئك جربرت (Gerbert)، وهو أبرز المختصين في الكلاسيكيات في زمانه[2]. كان جربرت رجلاً فرنسياً وهو واحد من أعظم علماء عصره[3]، فقد درس في أسبانيا الإسلامية (الأندلس)[4]، واستطاع أن يقيم عدة أجهزة ملكية أدخل بها الغرب الأوروبي لأول مرة في مجال الحسابات الفلكية، وجربرت ذلك هو الذي عرف فيما بعد باسم البابا سيلفستر الثاني في عام 999م[5]. واسم سلفستر (Sylvester) كان يطلق على البابا الذي كان زمن قسطنطين، وهو البابا الذي حول أول إمبراطور روماني (قسطنطين) إلى المسيحية[6].

لقد ألهم جربرت تلميذه الحلم المثالي لإمبراطورية وبابوية تحكمان العالم المسيحي[7]، بمعنى أن يجعل أوتو نفسه ملكاً مقدساً تكون له السيطرة على الشؤون الدينية والسياسية معاً[8]. ونظراً لأن قسطنطين نعت نفسه بأنه (سوي الرسل)، اتخذ أوتو ألقاباً ذات صفة دينية، فأطلق على نفسه (خادم الرسل)[9]. وأراد أن يجعل روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة بعد أن أصبحت كنيستها أُم الكنائس الغربية جميعاً[10]؛ فقام بتشييد قصر إمبراطوري جديد فيها واتخذها عاصمة له[11]، وقضى أوتو الثالث حكمه غارقاً في أحلام الماضي، بعيداً عن الواقع والحقائق التي أحاطت به، فأقام معظم أيامه في إيطاليا الأمر الذي أضر بهيبته في المانيا، حتى فَقَدَ مكانته فيها[12]، ومن جهة أخرى قام أوتو الثالث بملء الوظائف الحكومية والإدارية والكنسية في المانيا وإيطاليا بموظفين معظمهم من الألمان؛ مما تسبب في عداء بينه وبين الإمبراطور البيزنطي، وبينه وبين جميع الإيطاليين في مختلف الطبقات، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم ينل تعاطف اللوردات الألمان معه، ولم يفده القول : بأنه أعجوبة العالم كما أطلق على نفسه، فلكونه غريب في إيطاليا، ووحيد في المانيا لم ينجز أوتو الكثير لا لنفسه ولا لمملكته. بل إن حركات التمرد التي خلّفها من

---

(1) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 312.
(2) كين، حضارة أوروبا، ص 44.
(3) كانتور، العصور الوسطى، ص 364.
Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36.
(4) Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36.
(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53.
(6) كين، حضارة أوروبا، ص 44.
(7) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53. كانتور، العصور الوسطى، ص 365.
(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 313.
(9) العريني، تاريخ أوروبا، ص 437.
(10) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 313. كانتور، العصور الوسطى، ص 364.
(11) العريني، تاريخ أوروبا، ص 438. كين، حضارة أوروبا، ص 45.
Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36. Maehl, Germany in Western, P. 46.
(12) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 313.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خلال تصرفاته امتدت لتؤذي من خلفه، فمن خلال بحثه عن تحويل المانيا إلى إمبراطورية رومانية؛ حجر منطق القوة التي كان يتحلى بها ليبني قصوراً هوائية في حوض البحر المتوسط[1].

مات أوتو الثالث عام 1002م[2]، بقرب مدينة روما[3]، وعمره اثنان وعشرون عاماً فقط[4]، ثم لحق به سلفستر الثاني بعد سنة واحدة، ومعهما تلاشى مشروعهما الطموح[5].

هـ- هنري الثاني (Henry II)، (1002-1024م).

بموت أوتو الثالث انتقل الحكم إلى فرع آخر من الأسرة السكسونية، حيث ظهر ملك جديد اسمه هنري والذي كان دوقاً لبافاريا[6]، حيث كان هنري ابن عم أوتو[7] هو الوريث الشرعي الوحيد له على العرش[8].

لم يحظ الملك الجديد بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم ذلك أنه لم يتم توليته عن طريق الوراثة عن آبائه وإن كان حفيد أوتو الأول، كما أحس بأن الفضل في اختياره يرجع إلى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل، بل اختار أن يحكم عن طريق المجالس الاستشارية[9].

تابع هنري سياسة أسلافه في التقرب إلى رجال الدين[10]، وفي تدعيم وتقوية سيطرته الملكية على الكنيسة؛ فعمل على قمع سيطرة النبلاء على المكاتب الكنسية والدينية محرراً التاج الملكي من الاعتماد على أي نبيل أو لورد من اللوردات[11]، واستخدم الأساقفة ومقدمي الأديرة كأداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية حتى صاروا ممثلين للسلطة الإمبراطورية في مناطق نفوذهم[12].

---

(1) Maehl, Germany in Western, P. 46.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53. كانتور، العصور الوسطى، ص 365.
Maehl, Germany in Western, P. 46. Hearder and Waley, (editor), from classical, P. 36.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 328. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 313.

(4) كين، حضارة أوروبا، ص 45. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 196.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 53. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 313. كانتور، العصور الوسطى، ص 365. كين، حضارة أوروبا، ص 45.

(6) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 328. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 314. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 197. كين، حضارة أوروبا، ص 45.

(7) كانتور، العصور الوسطى، ص 365.

(8) Maehl, Germany in Western, P. 48. Lamounte, The world of, P. 178.

(9) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 314.

(10) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 328.

(11) Maehl, Germany in Western, P. 48.

(12) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 314.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان هنري الثاني الإمبراطور الألماني الوحيد الذي حاز على لقب قديس، ولم يحصل عليه بسبب ورعه فحسب، ولكن أيضاً لحماسته تجاه إصلاح الكنيسة[1] وكان ذلك بدافع من زوجته التقية كاينغوندي[2] Kaenogondi.

وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد استنفذت حروبه ضد العناصر السلافية والبولنديين[3] جانباً كبيراً من اهتمامه[4]، فقد أخذ بوليسلاف (Boleslav) حاكم بولندا، بالعمل على توحيد الشعوب السلافية –بوهيميا وهنغاريا– تحت سيطرته[5]؛ ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان إلى ما وراء نهر الألب[6]. فدفع ذلك هنري إلى إشعال فتيل الحرب، حيث استطاع بسط سيطرته على بوهيميا وهنغاريا، لكنه هُزم أمام بولسيلاف، الذي هَزَم الألمان في سلسلة حملات، وادعى لنفسه استقلالية بولندا ونصب نفسه حاكماً عليها[7].

إن خطر البولنديين لم يصرف هنري الثاني عن شؤون إيطاليا، حيث أدت وفاة سلفستر Sylvester الثاني إلى أن تقع البابوية تحت رحمة أمراء روما من آل كرسكنتي (Crescentii)[8]، وتقطعت أوصال إيطاليا، فنصب أردوين (Arduin) حاكم أنيرا Anera نفسه ملكاً لإيطاليا بعد أن هزم جيشاً أرسله هنري لملاقاته عام 1008، بينما قام كونتات توسكلم (Tusculm) في روما بمحاولات بسط السيطرة عليها؛ فقام هنري بثلاث حملات عبر شبه الجزيرة الإيطالية كما قام بهزيمة أردوين وأحرق مدينة بافيا (Pavia)، ولكنه اضطر للرجوع إلى المانيا؛ بسبب القلاقل والاضطرابات التي اندلعت في بوهيميا[9]. وفي عام 1014م وصل هنري إلى روما، ثم توجه البابا بندكت Benedict الثامن إمبراطوراً على روما، وسيطر على شؤون الحكم فيها[10]. وفي عام 1020م زار البابا المانيا، لتدشين أسقفية بامبيرغ (Bamberg) التي قام هنري بإنشائها[11].

---

(1) Lamounte, The world of, P. 178.
(2) Maehl, Germany in Western, P. 48.
(3) البولنديون : يسكنون بولندا، أو ينحدرون من إحدى أصقاع بولندا، وهم مجموعة عرقية تنتمي إلى السلاف الغربيين، ينتمي أغلبهم إلى المسيحية. (_____, The Columbia, Vol. 6, P. 2256).
(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 197.
(5) Maehl, Germany in Western, P. 49.
(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 314.
(7) Lamounte, The world of, P. 178.
(8) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 315.
(9) Lamounte, The world of, P. 178.
(10) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 315.
Lamounte, The world of, P. 178.
(11) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 315.
Maehl, Germany in Western, P. 48.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وما بين عامي 1021–1022م استدعاه البابا بندكت الثامن؛ لمساندته في تنفيذ المخطط البابوي ضد البيزنطيين في أبوليا (Apulia)[1]. وتم الاتفاق بين البابا والإمبراطور على أن يقوم هنري الثاني بحملة شاملة على إيطاليا؛ لإقرار الأوضاع فيها، وفعلاً قام الإمبراطور بحملته سنة 1021م حتى استطاع إخضاع شمال إيطاليا ووسطها، ولكن مرضاً تفشى بين رجاله في أبوليا؛ فاضطر إلى العودة إلى المانيا في العام التالي قبل أن يستقر الموقف تماماً في إيطاليا[2].

لم تكن العلاقة حسنة بين دوقات إيطاليا وهنري، إذ ظهرت بعض القلاقل والشعور بعدم الثقة المتبادل، خاصة أن أولئك الدوقات أجبروا للوقوف بجانب بعض كبار رجال الكنيسة الذين لم تعجبهم حركة الإصلاح داخل الكنيسة[3].

كذلك ظهر العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة، وبين كبار النبلاء وصغارهم من جهة أخرى، وبين المدن وبعضها البعض، أو بينها وبين السلطات الإقطاعية من جهة ثالثة، مما أدى إلى جعل الحال مضطرباً في إيطاليا؛ نتج عنها ظهور حركة معارضة ضد الإمبراطور والبابا، ولكن شاء الله عز وجل أن يموت البابا بندكت الثامن سنة 1024م[4]، ثم يلحق به هنري الثاني في العام نفسه وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الإمبراطور[5].

3- الأسرة السالية (الفرانكونية) (1024–1106م).

أ- كونراد الثاني (Conrad II)، (1024–1039م).

عندما توفي هنري الثاني عام 1024م دون وريث للعرش، اختار النبلاء أقرب أقاربه من سلالة العائلة الملكية وهو كونراد الثاني حاكم فرانكونيا وهو من أحفاد أوتو الأول من ناحية الأم، وبذلك فقد افتتح كونراد أول سلالة أباطرة الإمبراطورية السالية[6]. وكان الفارق كبيراً بين هنري الثاني وكونراد الثاني، إذ كان كونراد جندياً ومحارباً ورأى لذته الكبرى في حياة المعسكرات لا في المناقشات حول المسائل الدينية؛ لأن الحرب كانت في نظره الوسيلة الوحيدة التي تضمن نفوذه الإمبراطوري[7]. كما كان كونراد يتحلى بالحكمة والدبلوماسية الفطنة، وقد

---

(1) Lamounte, The world of, P. 178.

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 315.

(3) Lamounte, The world of, P. 178.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 316.

(5) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 328. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 316.

(6) Lamounte, The world of, P. 178.

(7) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 329. عاشور، تاريخ أوروبا، ص 317.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذكره التاريخ بأنه الملك الوحيد من ملوك العصر الوسيط الذي لم يرتكب الكثير من الأخطاء[1]. وكان لتلك الصفات فضلاً في رأب الصدع الذي أصاب الإمبراطورية وتحسين أحوالها بشكل عام[2].

أعلن الإيطاليون أثناء مرض هنري الثاني بأن حق توارث الإمبراطورية الإيطالية قد انتهى فمنحوا التاج لهوف بن الملك روبيرت ملك فرنسا، الذي رفض ذلك، بسبب خوفه من إغضاب الإمبراطورية الألمانية، لكن الإيطاليون عاودوا الكرة من جديد فمنحوا التاج إلى ابن وليام William دوق أكوتنيا Acotinenya[3]. لذلك عبر كونراد جبال الألب عام 1026 حيث قضى في شمال إيطاليا عاماً كاملاً ثبت فيه نفوذه وأخضع خصومه، ثم قصد روما حيث تُوِّج هو وزوجته تاج إيطاليا على يد البابا حنا Hanna التاسع عشر[4].

وأثناء إقامته في روما زاره كل من رودولف ملك براغندي Bragnde وكانوتي Kanoute العظيم ملك إنجلترا، الذي أعجب بهم وزوج ابنته كونهيلد Konhild من هنري بن الإمبراطور كونراد، وبعد أن استقر السلام في الجزء السفلي من إيطاليا منح كونراد المزيد من الأراضي للنورمان Normans؛ شريطة أن يقوموا بحماية الحدود[5].

خلال غيبة كونراد في إيطاليا حدث تمرد في سوابيا Swabian، قام به إيرنست Ernst الابن الأكبر لزوجة كونراد الثاني (غيسيل) Gisil من زوجها الأول، لكنه استطاع بسط سيطرته على سوابيا من جديد ثم إعادتها إلى سيطرة القبضة الملكية ثم قام بمنحها إلى ابنه هنري[6].

أما في الشرق فقد رفض ميسكو Mickso بن بولسيلاف ملك بولندا الجديد، حلف يمين الولاء للإمبراطورية، وقام بغزو سكسونيا وتدمير كثير من القرى وإحراق كنائسها عام 1029م، إلا أن كونراد لم يساعده الموقف في إنزال ضربة قاسمة بالبولنديين؛ لذلك انتهى الموقف بعد صراع طويل بالصلح سنة 1031م، كما شُغل كونراد الثاني بأمر بوهيميا التي كانت تربطها معها علاقة التبعية للدولة الألمانية، حيث ساءت العلاقات بين كونراد ودوق بوهيميا، وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في بوهيميا حتى عام 1035م[7]، كما ساءت العلاقات أيضاً بين ستيفن ملك هنغاريا وكونراد

---

(1) Maehl, Germany in Western, P. 49.

(2) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 329.

(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 366.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 318. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 199.
Menzel, The History of, Vol. 1, P. 366.

(5) Lamounte, The world of, P. 179. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 366.

(6) Lamounte, The world of, P. 178. Menzel, The History of, Vol. 1, P. 367.

(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 319.
Menzel, The History of, Vol. 1, P. 369.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الثاني؛ مما اضطر كونراد إلى شن هجوم على هنغاريا عام 1030م، لكنه لم يصادف توفيقاً[1]؛ لذلك اكتفى بتحصين حدود الإمبراطورية المتاخمة للهنغاريين[2].

واجه كونراد معارضة في اللورين، حيث رفض أهلها الاعتراف به بعد تتويجه ملكاً، لكن كونراد قضى على ذلك التمرد ثم أعاد الاستقرار إلى المانيا تحت سيادته[3].

في عام 1036م عاد كونراد إلى شمال إيطاليا؛ لحفظ النظام هناك؛ بسبب اندلاع الحرب الأهلية بين النبلاء[4]، حيث إن كونراد الثاني اعتقد أن هناك أمر واحد ينتقص سلطانه الفعلي ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد، وذلك الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء، وارتباط الأفصال[*] بسادتهم الإقطاعيين، وضعف الروابط التي تربط أولئك الأفصال وغيرهم من عامة الناس بالإمبراطور[5]. فاستطاع كونراد تقييد حركة النبلاء بوضع نظام ملكي وظيفي وزاري مؤلف من شخصيات حكومية تقوم على مراقبة الأراضي والاقتطاعات، لاسيما التابعة للكنيسة[6].

أولئك الوزراء من المخلصين جداً لكونراد والموالين بشكل كلي لصالح الشأن الملكي عملوا بكفاءة عالية وأصبحوا بمثابة عنصر هام جداً في الإدارة الألمانية[7]، وتعاظم شأنهم تدريجياً حتى أصبحوا ذوي سلطة فوق سلطة الكونتات والنبلاء الإقطاعيين[8]. كذلك ناصر كونراد مبدأ توريث ما بأيدي صغار الإقطاعيين من إقطاعات؛ ليهيئ لهم قدراً من الاستقرار والثبات في وجه سادتهم الإقطاعيين، وكان تطبيق مبدأ الوراثة في الإقطاعات الصغيرة يدعم مبدأ توريث التاج الإمبراطوري؛ فلجأ كونراد إلى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثية، فضلاً عن دعم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليداً علمانياً، واستخدامهم كأداة؛ للحد من بطش كبار الأمراء[9].

---

(1) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 319.

(2) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 369.

(3) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 318.

(4) Lamounte, The world of, P. 179.

(*) الأفصال : هم الأفراد الذين يعيشون بقرية السيد، ويتبعون السيد تبعية تامة، فيقدم لهم حصصاً من الأراضي، مقابل ما يؤدونه للسيد من خدمات في أراضيه. (باركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 113، هامش رقم (2)).

(5) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 320.

(6) Maehl, Germany in Western, P. 49.

(7) Lamounte, The world of, P. 179.

(8) Maehl, Germany in Western, P. 49.

(9) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 320.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بذلك استطاع كونراد حل عرى الإقطاع في مملكته، ولم يكن لديه أدنى تسامح في تعاظم النبالة والتي لا بغية لها إلا السيطرة على الملك، وفي نفس الوقت تجاوز كونراد كل الأعراف؛ فقام بتعيين موظفين عاديين ممن هم أدنى منزلة؛ لينصبهم كموظفين كبار تنهار مع قوتهم المدعومة من الملك قوة النبلاء الطاغية، وقد تعاظم هو نفسه كملك بعدما وضع فرانكونيا وبافاريا وسوابيا ولوثرنجيا تحت حكمه الحازم كملك[1].

ويبدو أن ذلك النجاح الذي صادفه كونراد في تطبيق تلك السياسة في المانيا وبرجنديا دفعه إلى تطبيقها في إيطاليا[2]، فوجد الإمبراطور مساندين جدد له من النبلاء (الفالفاسور) المعدين من نبلاء الدرجة الثانية، والذين تعرضوا للاضطهاد على يد السادة المعاصرين لتلك الأحداث في إيطاليا[3]، واصطدم أولئك الأمراء بالأساقفة خاصة رئيس أساقفة ميلان Milan (هيربرت) Herbert، والذي تمتع بمركز مستقل في أسقفيته، وأخذ يمني نفسه بنفوذ سياسي إلى جانب نفوذه الديني، فرأى الأمراء في تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم؛ فثاروا ضده؛ مما أدى إلى حرب أهلية تطلبت سفر كونراد إلى شمال إيطاليا؛ لتهدئة الموقف[4].

قام كونراد بتدعيم الأمراء الجدد من الإيطاليين بإعطائهم زمام ملكية الإقطاعات التي منحهم إياها بمثابة ضمان ولائهم له وخلافته في إيطاليا ضد كل طارئ، لكن خلفاءه في إيطاليا كانوا جاهلين بفن تشكيل أقلية نبيلة من بين الجمهور العريض في إيطاليا، وبقوا بدون تأثير يذكر إلى أن استعيدت ممالكهم الجديدة لأصحابها التي حرمهم منها كونراد[5].

مات كونراد في يناير 1039م؛ نتيجة حمى أصابته خلال حملة على جنوب إيطاليا عام 1038م[6].

ومهما يكن من أمر، فإن وفاة كونراد قبل أن يتغلب على مشكلة إيطاليا لا تقلل من نجاحه العام في النهوض بالوظيفة الإمبراطورية، ويكفي أنه ثبت نفوذه الإمبراطوري تثبيتاً قوياً جعل ابنه يعتلي عرش الإمبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة، وذلك لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة[7].

---

(1) Maehl, Germany in Western, P. 49.

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 321.

(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 372.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 321.

(5) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 372.

(6) Lamounte, The world of, P. 179.

(7) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 321.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب- هنري الثالث، (1039-1056م).

اعتلى عرش المملكة الألمانية في عام 1039م ثم عرش الإمبراطورية الرومانية في عام 1046م، ابن وخليفة الإمبراطور كونراد الثاني[1]. وكان قد تُوج كشريك في الملك مع أبيه في عام 1028م؛ لذا لم تظهر أي مشاكل أثناء توليه العرش[2].

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عهده إلى أوج قوتها وعظمتها[3]، وأضحى بوسعها توجيه سياسة الغرب الأوروبي قاطبة[4].

تعلم هنري الخبرة والمهارة عن أبيه وكان فتى بارعاً وذكياً للغاية وقد طور مهارته منذ صغره؛ مما أهله إلى أن يكون رجل دولة وجندي في آن واحد[5]، كان هنري يُدعى بالملك الأسود، وقد كان الملك الأكثر تقوى وإحساناً من بين ملوك العصور الوسطى، وكان هدفه تحويل المانيا إلى حكومة ثيوقراطية (دينية) موحدة، ورغم اعتقاد المؤرخين المعاصرين بأن إيمانه وتقواه هو المحرك الوحيد لحكمه إلا أن المؤرخين الجدد يرون أن هنري كان يدير السلطة عن طريق حسابات رياضية[6].

نستنتج مما سبق أن الحكام استخدموا الدين كأداة ومحرك للحكم؛ لأن الدين هو أكبر مؤثر على قلوب الناس، وهو الطريقة التي سيسيطر بها الحاكم على شعبه؛ لأن الشعب إذا اعتقد بتدين حاكمه وإيمانه تصبح ثقته به كبيرة، وطاعته له سهلة، وذلك من منطلق أن الإيمان الذي يتحلى به الحاكم هو الذي سيضبطه في كل أفعاله، ولذلك فإن المؤرخين المعاصرين والجدد لم يبتعدوا كثيراً في آرائهم، ففي الوقت الذي اعتقد به المؤرخون المعاصرون بإيمانه أضافوا أن ذلك الإيمان كان المحرك الوحيد لحكمه، وذلك يعني : أنهم استغلوه كأداة للحكم، ووجد المؤرخون الجدد أن ذلك الإيمان كان وفق حسابات رياضية وذلك كان فيه تفسير أكثر بقليل من سابقه، فهم لم ينكروا الإيمان لكن أضافوا إليه أنه كان وفق حسابات رياضية أي : أن ذلك لدليل كبير على استغلال الدين للسيطرة على الحكم.

ومن أهم المشاكل التي واجهت هنري هي مشكلة بولندا وبوهيميا وهنغاريا، فخلال توليه الحكم استطاع أن يصهر كل من هنغاريا وبولندا وبوهيميا في مملكته لكن ليس لوقت طويل[7]، كانت

---

(1) Dornberg, Western, P. 88.
(2) Lamounte, The world of, P. 179.
(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 199.
(4) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 322.
(5) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 373.
(6) Maehl, Germany in Western, P. 49.
(7) Maehl, Germany in Western, P. 50.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بوهيميا أول من ثار على هنري حيث حاول حاكمها استعادة استقلالية بوهيميا وقد أعانه أسقف براغو على ذلك[1]؛ طمعاً منه في أن يُرفع إلى درجة رئيس أساقفة؛ حتى يتحقق لبوهيميا الاستقلال السياسي والكنسي[2].

وبعد كفاح عنيف استمر مدة عامين أُجبر الحاكم البوهيمي على الاستسلام وكان ذلك في عام 1042م، كما أجبر على الإدلاء بقسم الإخلاص والوفاء للإمبراطور، أما ابنه الذي خلفه على العرش فقد قام فور توليه عرش بوهيميا بطرد كل الألمان حتى أمه الألمانية من بوهيميا[3].

ولم تكن بولندا مصدر خطر واضح على هنري بعد أن مزقتها الحروب الأهلية، وتعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التي كانت في ذلك الوقت أقوى الدول السلافية، ولذلك لم يصادف هنري صعوبة كبيرة في إعادة بولندا إلى تبعيتها للإمبراطورية، وكانت الصعوبة التي واجهها هنري في هنغاريا شديدة، حيث قام الهنغاريون بخلع الملك ثم تعيين ملك وثني جديد اسمه آبا على العرش، وحاول آبا Aba أن يفوز باعتراف هنري به ملكاً، ولما رفض هنري؛ أغار على المانيا عام 1042م ثم عاد محملاً بالأسلاب[4].

ثم وقعت معركة بين الملك آبا وهنري عند Minefo عام 1044م كان النصر حليف الإمبراطور، ومن ثم تم إعادة الملك القديم بيتر Beter وإعدام آبا. ولكن عاد الهنغاريون عام 1051م للثورة على الملك بيتر وقاموا بانتخاب ملك جديد يدعى باندريس Pandres؛ مما استدعى هنري للقيام بحملة جديدة على هنغاريا أدت إلى إجبار أندريس بالاعتراف بالتبعية للإمبراطور وأن يلتزم بالدستور البافاري الذي قسم هنغاريا إلى مقاطعات[5].

وفيما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد جعل السلاح الرئيس الذي استخدمه ضد النبلاء هو الإصلاح الكولوني، الذي ساعد الملك على إعادة إحياء الحياة الروحية لالمانيا ولجم الهيمنة الطاغية لحركة النبالة فيها، وبدعمه للمطالب التي قام عليها رهبان الإصلاح الكولوني؛ استطاع الملك السيطرة على كل المناطق التي كان يسيطر عليها النبلاء خاصة تلك التي كانت تؤول إلى الكنيسة معيقاً بذلك حركة اللوردات الدائبة لنيل الاستقلالية عن الملك، واحتل فرسان الإصلاح الكولوني المكانة الروحية في المملكة؛ مما أنذر الملك والكهنة في سجال غير محمود

---

(1) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 374, 375.

(2) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 322.

(3) Menzel, The History of, Vol. 1, P. 375.

(4) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 323.

(5) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 375.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العواقب[1]، وذلك ما حصل بالفعل فقد أرغم الملك هنري البابا جورجي الخامس والـذي توجـه بابا بنفسه على التخلي عن منصبه عام 1046م؛ مما أثار غضب الأسـاقفة والرهبـان والـذين أوصلتهم حركة الإصلاح الكولوني إلى نيل استقلالية تامة عن الملك، والادعاء بأحقية البابا بعدم الاستجابة لمطالب الملك وكانت تلك التي أقحمت الباباوات والأباطرة في صراع مرير، وقد دفع ذلك الإصلاح البابا إلى مكانة لم يستطع أي إمبراطور بعدها سحبها منه، وبالرغم من أن هنري حكم نطاق عريض من المناطق إلا أن سياسته قد نفرت الكثير من النبلاء وقوضت آمالـه فـي توسيع إمبراطوريته[2].

وفيما يتعلق بموقف هنري من البابوية، فقد أظهر حماساً بالغاً؛ لانتشال البابوية مما وقعت فيه من الفوضى من جديد[3].

لقد كان الحدث العظيم الذي أربك المنطقة كلها في تلك الفترة هو انشقاق الكنيـسة علـى نفسها بين العديد من الباباوات المعاصرين لفترة حكم هنري وخاصة في إيطاليا[4]، وذلك ما ذكرنا في الفصل السابق.

لذلك هدفت الحركة الإصلاحية منذ البداية إلى تخليص الكنيسة من كل سـيطرة علمانيـة، وكان ما رمى إليه دعاة تلك الحركة هو مقاومة اعتبار كبار الكنيسيين الألمان مـوظفين ملكيـين، اختارهم الملك وقلدهم شارات وظائفهم، ورغم ترحيب هنري بممثلي حركة الإصـلاح الكلـوني، ومساندتهم في إصلاح الأديرة؛ إلا أنه لم يدرك بأن ذلك الإصلاح قصد به أساس نظامه الـسياسي، ولم يدرك ما كانت تنطوي عليه سياسته من خطر[5].

وقد ذكر عاشور أن سياسة هنري الدينية كانت على جانب كبير من الأهمية والتناقض، ذلك أنه عمل على إصلاح الكنيسة من السيمونية وبيع الوظائف الدينية، ومن المفاسد الكنسية الأخـرى، ولكنه حرص في الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية دون أن يدري أن تلك السيطرة من الأمراض الخطيرة التي تشكو منها الكنيسة[6].

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 441.

Maehl, Germany in Western, P. 49.

(2) Maehl, Germany in Western, P. 50.

(3) العريني، تاريخ أوروبا، ص 329، 330.

(4) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 376.

(5) العريني، تاريخ أوروبا، ص 441.

(6) عاشور، تاريخ أوروبا، ص 325، 326.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن المعتقد : أن ذلك ليس تناقضاً بقدر ما هو ذكاءً في التعامل مع الكنيسة، فهنري كسابقيه من الملوك يعلم أهمية الكنيسة لدعم الإمبراطور ونظامه مادياً وعسكرياً، وبذلك قام بدعم الكنيسة ومساندتها في إصلاح الأمور التي لا تمس سلطته ونفوذه، وتغاضى عن هدف الإصلاح في التخلص من السلطة العلمانية، وأصر على حقه في تعيين البابوات. ولعل قبول الكنيسة بذلك من منطلق وجود مصالح متبادلة بين الطرفين.

إضافة إلى ذلك نرى : أن العهود السابقة لهنري كانت الكنيسة تحتاج فيها إلى الإمبراطورية؛ لحمايتها من الهجمات الوثنية، وتوسيع أملاكها فيها، أما في عهد هنري فكانت الهجمات الوثنية قد انتهت، وأملاك الكنيسة وثروتها طائلة، إضافة إلى أن البابوات أنفسهم كانوا من النبلاء[1]، فبذلك تغيرت مطالب الكنيسة، ومهما تكن تلك المطالب فعلى الإمبراطور دعمها ومساندتها وذلك مقابل دعم الكنيسة له ومساندته. وموقف هنري من الكنيسة يعد موقف شخصي يبحث عن مصلحته وملكه فقط، دون النظر إلى ما بعد ذلك.

من ناحية أخرى : عانى الملك في سنوات حكمه الأخيرة من اضطرابات وحركات تمرد في أكثر من نصف الإمبراطورية[2]، فكان دوقات سكسوني واللورين هم من أبدوا المقاومة الأشرس لهنري[3]؛ وذلك بسبب انتزاع هنري لحقوق الدوقات بجنوب سكسونيا، الذين ظلوا زمناً طويلاً مستقلين عن سلطة الملك[4]، فقد فرض الوصاية الملكية على الأراضي التابعة للفلاحين الأحرار وأولى مسؤوليتها لدوقات من رجاله[5]، كما قام بتقسيم اللورين بين أبناء الدوق السابق لتلك المنطقة؛ مما أدى إلى قيام أحد أبنائه بتمرد ضخم انضم إلى ذلك التمرد كونتات هولندا والفلاندرز[6].

وفي عام 1056م هاجمت قبائل اللوتيزي Allotizi السلافية المانيا لكنها لم تستطع اقتحام الجدار الدفاعي الذي أقامه في وجههم حاكم سكسوني، وخلال نفس العام ضرب المانيا زلزال ضخم كان له وقعه الشديد على الإمبراطورية كلها، حيث حلت المجاعات والكوارث تباعاً على المانيا، ومات الإمبراطور نفسه بعدما أصيب بالمرض، ولفظ أنفاسه في منطقة بوثفيلد Bootfeld بالقرب من جبال هارز Harz، وقد ترك الإمبراطورية وديعة لدى

---

(1) كين، حضارة أوروبا، ص 47.

(2) Maehl, Germany in Western, P. 50.
(3) Dornbegy, Western, P. 89.

(4) العريني، تاريخ أوروبا، ص 440.

(5) Maehl, Germany in Western, P. 50.
(6) Dornbegy, Western, P. 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإمبراطورة أجنس Agnes وابنه هنري الذي كان حينها في الخامسة من عمره. وبذلك فإن المسؤولية الكاملة حينها وقعت على كاهل امرأة وطفل لم يتجاوز الخامسة من عمره[1].

ج- هنري الرابع، (1056-1106م).

حكم هنري خمسين عاماً، ويرجع ذلك لتوليه الحكم وهو صغير، فقد توج في عهد أبيه وكان في الرابعة من عمره[2]، وعندما مات والده كان لا يتجاوز الخامسة؛ فخضعت المملكة لحكم أوصياء عديدين، وتولى البابوية وقتذاك أجرأ المصلحين الكولونيين وأكثرهم حماساً، وهو هلوبراند الألماني، الذي صار يعرف فيما بعد بالبابا جريجوري السابع[3]، وقبل أن يبلغ هنري الخامسة عشر من عمره كان الإقطاع في المانيا قد استولى تقريباً على الإرادة الملكية فلم يكن الملك سوى تمثال حجري لملك أو خادم في أسقفية، وقد قاتل الأسقف هلدبراند (جريجوري السابع) -والذي كان المستشار الأول لهنري حتى عام 1066م- ضد حركة النبالة الإقطاعية خاصة في سكسوني، لكنه تم التغلب عليه من قِبل النبلاء الذين عملوا على نهب أبرشيته التي كان يترأسها[4].

وكما كانت فترة قصور هنري فرصة لثورة بعض الأمراء، فإن تلك الفترة أعطت الفرصة للبابوية؛ لكي تستعيد مكانتها بعيداً عن السلطة العلمانية[5]. وفي عام 1066م انتهت الوصاية على هنري؛ فبدأ يشق طريق سياساته الخاصة؛ لشل حركة النبالة في المانيا[6]، كما تحرر هنري من هلدبراند وكان ذلك بداية حكومته الشخصية، حيث عُرف عن هنري أنه رجل موهوب ذكي متهور[7].

كانت إمبراطورية هنري الجديدة تقوم على أسس اجتماعية كان لها أثرها في صراعه مع حركة النبالة والكنيسة، وفيما يتعلق بشؤون المدن والممالك التي كانت لأولئك سلطة مطلقة فيها، فقد كان هنري يبحث عن الحداثة وتأسيس مملكة المانية قائمة على أسس جديدة بعيدة عن التعقيدات الجامدة للكنيسة وتسلط النبلاء، فقد كان ثائراً على الدستور القديم الذي يحكم المملكة[8].

---

(1) Menzel, The history of, Vol. 1, P. 379.

(2) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 201.

(3) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 331. العريني، تاريخ أوروبا، ص 441.

(4) Maehl, Germany in Western, P. 51.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 201.

(6) Maehl, Germany in Western, P. 51.

(7) هارتمان، الدولة والإمبراطورية، ص 218 هامش رقم (2).

(8) Robinson, Henry IV, P. 1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اختار هنري جوزلار Jozlar بجبال الهارتز Alhartz بجنوب سكسونيا لتكون عاصمة له، وشيد بها قصراً ضخماً[1]، وقام بإنشاء العديد من الحصون والقلاع؛ لتأمين الأراضي التابعة للملكية الألمانية، لكن بالرغم من ذلك لم يكن تام الوثوق من التأمينات التي قام بها؛ مما دفعه لبناء المزيد منها، وتحويل البلاط الملكي بكامله مع الأساقفة والرهبان إلى موظفين إداريين يخدمون مصالحه الملكية[2]. ولما كان هنري يرجو ألا يرى أي سيد في المملكة؛ فقد فكر في حرمان وتجريد السادة الإقطاعيين من اقتطاعتهم ونفوذهم بدءاً بالسادة السكسون، حيث كان يريدها مملكة أخلاقية قائمة على نظام إداري راق، وبالرغم من أنه الملك الأقل حظاً إلا أنه يعتبر الموحي الأول لنهضة أسس جديدة في عالم الحكم والإدارة الملكية[3]، وكان بوسع هنري أن ينجح في مشروعاته لإقامة ملكية المانية مركزية قوية، لو لم يصطدم بالبابا جريجوري السابع[4]، فمنذ أن كان هنري شاباً يافعاً إلى أن أصبح ملكاً كان يبدي روحاً ملكية إنسيابية رائعة توحي بأنه الأجدر لتلك المكانة بعد أبيه هنري الثالث، وقد كان رجل يفضل الموت على الهزيمة[5].

وعندما استقر كل شيء لهنري قام البابا بضربه من الخلف مدمراً كل شيء صنعه هنري. وكان البابا جريجوري السابع ذا شخصية لها مكانتها واحترامها، وبعد توليه المنصب البابوي كشف البابا عن نواياه الحقيقية بكلمات ملتهبة قالها في خطبة أمام جمع من الناس "ملعون من يعيد سيفه إلى غمده مملوءاً بالدم" قاصداً هنري وملك فرنسا، وقاصداً أيضاً إعلان سلطة البابوية على الدولة وعلى الكنيسة، وقد طلب من هنري أن يخلع كل مستشاري التاج والعودة إلى البابوية في كل الأمور[6]، فاعترض هنري على تلك القرارات، وهو الذي كان يرى والده بالأمس بعين البابا نفسه، يجد نفسه لا يستطيع أن يعين أي رجل دين، واستمسك هنري بحقه في تعيين الأساقفة ورجال الدين مستنداً إلى ما سارت عليه المانيا دون غيرها من الحكام منذ فترة بعيدة[7][8]. وانتهى الأمر بالصدام المسلح بين الطرفين، ولم يصل الطرفان إلى نتيجة حاسمة فاستعان هنري بالطرق الدبلوماسية وفشل فيها أيضا، وخلال تلك المرحلة كان موقف هنري بين الرضوخ والتمرد إلى أن نجح هنري في إقصاء البابا عن عرشه فعلاً بعد مجمع بركسن

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 442.

(2) Maehl, Germany in Western, P. 51.

(3) Robinson, Henry IV, P. 2.

(4) العريني، تاريخ أوروبا، ص 442.

(5) Robinson, Henry IV, P. 1.

(6) Maehl, Germany in Western, P.P. 51, 52.

(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 202.

(8) Maehl, Germany in Western, P. 52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Brixen الذي عُقد في عام 1080، ونصب مكانه كلمنت الثالث[1] الذي كان من أشد أعد جريجوري السابع[2].

وكان الصراع بين الإمبراطورية والبابوية في تلك المرحلة شديداً للغاية، لم ينتهِ بعزل جورجي السابع بل استمر حتى وفاته، ثم مع خلفائه من بعده[3]، فقد قام البابوات الثلاث الذين خلفوا جورجي بحرمان هنري الرابع كنسياً[4]، وليس لنا في هذا الموضع أن نتتبع مراحل ذلك الصراع فله دراسة أخرى مستقلة.

ورغم جهود هنري الرابع في ضبط زمام الأمور إلا أنه لم يستطع أن يحل كل مشاكله في إيطاليا، كما بدأت المتاعب تشغله في المانيا[5]، فقد انتشر الشقاق والنزاع في المانيا[6]، ونجح الأمراء الثائرون في ضم ولدي هنري وهما هنري الخامس وكونراد إليهم، وظل الصراع قائماً بين الأبناء وأبيهم[7] حتى تنازل هنري الرابع عن العرش لابنه هنري الخامس عام 1105م[8]، ثم ما لبث هنري الرابع أن مات في العام التالي[9].

ونجم عن الحروب الداخلية العنيفة التي دارت أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر، أن ظهرت المانيا أخرى، بالغة الاختلاف عن المانيا السابقة، فقد عمت النظم الإقطاعية البلاد وأضحى صغار السادة أتباعاً للأمراء، وحرص الأمراء أن يجعلوا مناصبهم وأملاكهم إقطاعات وراثية، وعلى الرغم من أن المانيا ظلت نحو قرن محافظة على قوتها، فإن ظهور الأمراء دمر المملكة الالمانية[10].

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 202.

(2) Maehl, Germany in Western, P. 52.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 202.

(4) Maehl, Germany in Western, P. 52.

(5) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 339.

(6) Maehl, Germany in Western, P. 52.

(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 202.

(8) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 340. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 202.

(9) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 340.

(10) العريني، تاريخ أوروبا، ص 443، 444.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

الأوضاع السياسية في إيطاليا وإنجلترا
من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر

أولاً : الأوضاع السياسية في إيطاليا (920-1091م) :

1- إيطاليا قُبيل الغزو النورماني.

2- قيام دولة النورمان جنوب إيطاليا (1018م).

3- شمال إيطاليا ووسطها في القرن الحادي عشر.

ثانياً : الأوضاع السياسية في إنجلترا (871-1097م) :

1- إنجلترا وأخطار الفايكنج (871-1045م).

2- نهاية الحكم الإنجلوسكسوني (1042-1066م).

3- إنجلترا تحت الحكم النورماني (1066-1097م).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً : الأوضاع السياسية في إيطاليا.

1- إيطاليا قُبيل الغزو النورماني.

كانت مجموعة ملوك الدولة (الكارولنجية) في إيطاليا قابلة للنسيان؛ والسبب في ذلك أن ملكاً واحداً فقط وهو (لويس الثاني) هو الذي عاش في إيطاليا طوال فترة عهده؛ والسبب الآخر هو أنه لا يوجد من بين ملوكهم من حَدّد بشكل واضح دور إيطاليا في الإمبراطورية الكارولنجية والمكانة التي تشغلها، وبسبب ضعف ملوك الإمبراطورية الكارولنجية عموماً كان للأثر السياسي الكارولنجي على إيطاليا وقعاً أكبر، وذلك على المستوى الإداري. فقد شرع الكونتات والدوقات بجمع كل ما يمكن جمعه من ضرائب وبسط السيطرة على كل ما أمكن من الأراضي والملكيات؛ لتعزيز قوتهم ونفوذهم إبان فترة الضعف المتلاحق للدولة[1].

كان الموقف في إيطاليا يعتمد تقديره كلية على الظروف التي حددت مصير النجاح الكارولنجي في إيطاليا، والذي سينعكس على البابوية. وبدون تلك الظروف والنتائج لم يكن يتسنى للبابوية أن تنزل إلى مستوى الهبوط التي نزلت له في عهد الدولة الكارولنجية[2].

فتأثرت البابوية كثيراً بالأوضاع السياسية في أوروبا بصفة عامة، وفي إيطاليا بصفة خاصة؛ باعتبارها مركز البابا. وكلما زاد تصارع القوى السياسية وخاصة في إيطاليا؛ عانت البابوية من تنافس الحكام[3].

ففي بداية القرن الثامن قُسِّمت الجزيرة الإيطالية إلى جزأين متفاوتين في درجة الأهمية عن بعضها البعض، فمنذ الغزو اللمباردي أصبحت السيطرة البيزنطية والتي أُعيد ترميمها من قِبل جيوش جاستينيان[4] (Justinian) سيطرة مهترئة ومرقعة ومنحصرة فقط على جنوب إيطاليا، ودوقية روما ورأس الجسر الممتد من رافينا أكويلا إلى فينيسيا في الشمال. في تلك الفترة ظهرت ثلة من الحكام الألمان على عكس النمط البيزنطي المتواجد في إيطاليا، فقد كان أولئك الحكام من ذوي الهمم العالية، وقد كانت إماراتهم متلاصقة مع الإمارات التابعة للإمبراطورية البيزنطية؛ مما أنذر بغزوات المانية مستقبلية على إيطاليا[5].

---

(1) Killinger, The history of, P. 54.
(2) Rops, The church, P. 376.
(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 289.
(4) جاستينيان : إمبراطور روماني تولى عرش الإمبراطورية بصفة رسمية في عام 527م وظل حتى عام 565م، (عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 111)، وأعاد فتح الإمبراطورية الرومانية في الشرق الأوسط. (البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 137).
(5) Rops, The church, P. 377.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان من بين ملوك الدولة الكارولنجية من اعتمد على المجلس الكهنوتي والأديرة؛ لتنفيذ أحكامهم وبسط نفوذهم، ولما كانت الأديرة والكونتات تستمد قوتها من الإقطاعات التي كانوا يمتلكونها ، فقد تنافس الطرفان في ترك أثر سياسي واضح في إيطاليا. وقُبيل عام 920م وصل حكام الإمبراطورية الكارولنجية إلى أقصى درجات الضعف حيث قاموا بالتعاقد مع المرتزقة الهنغاريين؛ للمحافظة على قوتهم ونفوذهم[1]، فلقد هاجم الهنغاريون إيطاليا، واستقر بهم المقام في سهل الدانوب، ثم انقضوا عام 899م بجموعهم على إيطاليا دون أن يلقوا مقاومة، وقد عاود الهنغاريون الكرة مرات عديدة وأعملوا في البلاد الخراب والدمار[2].

ثم تلاحقت الأحداث حيث حول النبلاء الشماليون وجهتهم لبراغندي وبروفنس؛ للمساهمة في تقسيم شمال إيطاليا، وحاول هوف والي بروفنس الدفاع عن المناطق المستهدفة وبسط السيطرة على مركز شمال إيطاليا ضد الغزوات الألمانية، مستخدماً القوات العسكرية لتعزيز قوته، وأثار تتويج أوتو الأول ملكاً لالمانيا مخاوف هوف، خاصة عندما عبر أوتو جبال الألب ثم توج نفسه ملكاً لإيطاليا عام 951م. أما بيرينغر الثاني آخر ملوك الدولة الكارولنجية في إيطاليا فقد كان يحكم إيطاليا باسم أوتو، وكانت قوته تتضاءل شيئاً فشيئاً، وقد التجأ للقوات العسكرية كملاذ له كما فعل أوتو ضارباً بعرض الحائط الأديرة والكهنوت، وفي العقد الأخير للمملكة الكارولنجية رأى الكارولنجيون سلطتهم على إيطاليا تتفلت من بين أيديهم[3].

كانت إيطاليا في ختام القرن العاشر مقسمة إلى عدد من الوحدات تنازعت النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوروبية كبيرة، فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا (Apulia) وكالبريا (Kalbaria)[4] في الجنوب، بعد أن نجحت قوات الإمبراطور باسل المقدوني[5] في طرد المسلمين من تلك الجهات، وإحراز نصر بحري عليهم واسترداد معاقلهم في الجنوب الشرقي من إيطاليا (884–887م). ذلك وإن ظل المسلمون يسيطرون على بعض المراكز في جنوب إيطاليا الغربي وجزيرة صقلية، وذلك بعد أن سقطت سيراكيوز (Syracuse) عاصمة الجزيرة في أيديهم 877م، ومع أن المسلمين فشلوا في اتخاذ مقر ثابت لهم في جنوب إيطاليا، إلا أنهم استمروا يؤثرون في توجيه مصائر ذلك الجزء من أوروبا، ولا سيما الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة[6].

---

(1) Killinger, The history of, P. 54.

(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 459، 460.

(3) Killinger, The history of, P.P. 54, 55.

(4) للتعرف على مدن إيطاليا انظر الملحق رقم (11).

(5) باسل المقدوني : هو مؤسس الأسرة المقدونية، وُلد في عام 862م لأسرة من الزراع، قتل الإمبراطور براداس واحتل عرشه ثم أقام حكم الدولة المقدونية. (البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 92).

(6) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 326. للتعرف على مدن إيطاليا انظر الملحق رقم (11).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي وسط إيطاليا وجدت بعض الإمارات اللمباردية وبعض الإمارات الأخرى كان أهمها دوقية توسكانيا (Tuscany)، وكان حاكمها بونيفاس (Boniface) من أقوى حكام إيطاليا ومن أكبر أنصار البابوية، وظلت زوجته ماتيلدا (Mathilda) وهي من الحزب الولفي الألماني على تلك الصورة من القوة ومساندة البابوية في عصر البابا جريجوري السابع 1073-1085م[1].

أما في شمال إيطاليا فقد ظهرت المدن أو ما يُعرف بالقومونات[2] (Communes)، التي حققت لنفسها نوعاً من الاستقلال السياسي القائم على الحرية الاقتصادية، وقد شجع الحكام قيام تلك المدن، لمقاومة النفوذ الإقطاعي، وقد نجحت تلك المدن في دعم استقلالها ومقاومة أي سلطة تتدخل في شؤونها حتى ولو كانت السلطة البابوية، وقد لعبت تلك المدن دوراً هاماً في تاريخ أوروبا[3].

بالإضافة إلى تلك القوى السياسية كانت هنالك القوى الروحية المتمثلة في شخص البابا، حيث كانت البابوية من بين الفئات التي طمحت أن تكون القوى العليا في إيطاليا في العصور الوسطى، حيث كان لموظفي البابوية والقائمين عليها نفوذاً بدأ يهيئ للبابوية الأجواء لبسط السيطرة على روما[4].

2- قيام دولة النورمان جنوب إيطاليا (1018م).

كانت فترة الظهور للنورمان في صقليا وجنوب إيطاليا[5] فترة هامة جداً، خصوصاً للذين تابعوا ولا يزالون يتابعون أصول وجذور تلك الفئة التي كان لها أثر في تشكيل خارطة التاريخ الأوروبي[6].

تنحدر أصول النورمان كباقي سكان شمال ووسط أوروبا القديمة من سلالة جرمانية قديمة، وقد كانت لهم صلة دم مباشرة مع القبائل الإسنكندنافية والدانمركية أو هم كذلك بالفعل، وكانوا يعشقون حياة البحر، وكانت المناطق التي يسكنوها قاحلة ومخيفة، ويسيطر عليهم ما يسمونه بصوت الجنوب (يُقصد ميلهم نحو غزو المناطق الجنوبية)[7].

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 290.

(2) قومون : ترجمة حرفية لكلمة (Commune)، وكان استعمالها في العصور الوسطى؛ للدلالة على المدن الإيطالية -وكذلك الفرنسية- التي استطاعت بفضل ثروتها الاقتصادية الجديدة أن تحصل على براءات تخولها الهيمنة على شؤونها الداخلية، وألا تصبح الحكومة فيها بيد أرباب الإقطاع، أي : بيد طبقة التجار وأرباب المهن. (فشر، تاريخ أوروبا، ص 199 هامش رقم (2)).

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 290.

(4) Killinger, The history of, P. 54, 55.

(5) انظر الملحق رقم (12).

(6) Cotteriall, Medieval, P. 399.

(7) Cotteriall, Medieval, P. 399.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت كلمة رجال الشمال أو الشماليين تبث الرعب وعدم الثقة في قلوب الأوروبيين فهم أولئك الذين هدموا الكنائس وأحرقوا القرى وأسروا المسيحيين؛ ليستعبدوهم، وعندما قررت مجموعة ضخمة من الشماليين أو النورمان كما سُموا في فترة لاحقة إيجاد وطن في الجهة السفلية من النهر الفرنسي، انتاب المناطق المجاورة لتلك المناطق نوع من الخوف والقلق والشك في النوايا النورمانية[1].

وقد وصفهم أحد المؤرخين بأنهم : شعب خَدَاع وانتقام، وأن الفصاحة والرياء من صفاتهم الوراثية، وجمعوا بين النقيضين الجشع والإسراف، وتعطشهم المتلهف إلى الثروة والسلطان، ومتعتهم في الأسلحة والخيول والثياب المترفة، ورياضة القنص والصيد، ولكنهم عند الشدائد يستطيعون في صبر لا يصدُّق، احتمال قسوة المناخ، ومشاق الحياة العسكرية[2].

كان هنالك ممن تحدث ووصف سلوكهم، ومنهم الأميرة البيزنطية أناكومنينا (Annacomina)، والتي وصفتهم بأنهم لصوص، ليس لهم عهد ولا ذمة، وأنهم برابرة يعشقون الحروب. لكن على أي حال فقد ارتفعت سمعة النورمان إلى عنان السماء بعد انتصاراتهم في إنجلترا، وجنوب إيطاليا، وحملاتهم في اليونان وآسيا، ومشاركتهم في الحروب الصليبية الأولى، وإنشائهم لإمارة أنطاكية تحت قيادة بوهيمند في العام 1098[3].

لعل تلك الأوصاف للنورمان جعلتهم مؤهلين طبيعياً للخروج والمشاركة في الحملات الصليبية.

ففي عام 845م أحرق النورمان مدينة هامبورغ (Hamburg)، وعاثوا الفساد في الكثير من المناطق التي احتلوها، كما قاموا بالسيطرة على شمال المانيا، لكن أرنولف ملك الفرنجة الشرقيين هاجم معسكراتهم في تلك المناطق عام 891م، وأوقع بهم هزيمة نكراء في معركة دايل (Dale)؛ مما اضطرهم إلى الانسحاب للسواحل الشمالية لفرنسا، وتمركز النورمان في تلك الفترة في مناطق نهر السين ثم احتلوا جميع المناطق المحيطة بفرنسا[4].

ولما يئس شارل الساذج ملك فرنسا من طردهم عن شاطئ القتال، لم يسعه إلا أن يعقد سنة 911م اتفاقاً مع زعيمهم هرولف Hrolf (روللو)، تقرر فيه أن يتنازل لهم عما صح أن يُعرف بأرض النورثمن (نورمانديا)، الممتدة من نهر إيت إلى حدود بريتاني، على أن يعتنق

---

(1) Bill and Houts, A companion, P. 18.

(2) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية، ج3، ص 146.

(3) Bill and Houts, A companion, P. 36.

(4) Cotteriall, Medieval, P.P. 399, 400.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

روللو المسيحية، ويصير في دوقية نورماندیا تابعاً للملك شارل الساذج[1]، وسُميت تلك المعاهدة بمعاهدة (سانت كلير) على الإبت، وهي محاولة تصفية للقضية النورمانية[2].

والواقع أن اتفاقية (سانت كلير) لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع؛ لأن تلك المنطقة صار معظمها بأيدي الفايكنج فعلاً، وبحكم تلك الاتفاقية أصبحوا يحكمون نورماندیا حكماً مستقلاً معترفاً به من الملكية الفرنسية مع إقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا[3].

وبذلك ولدت نورماندیا كدوقية إقطاعية، لقائد همجي لواحدة من عصابات الفايكنج المقاتلة[4].

كان الدوق روللو والذي حصل على دوقية نورماندي من الملك تشارلز، ينحدر من سلالة دانمركية، وهي نفس السلالة التي سيطرت على إنجلترا، لكن بعد قرن من الزمن تشعبت تلك السلالة حتى انتشرت في إنجلترا وفرنسا على حد سواء، وكانت سياسة الدوق روللو السلمية والتي احترمت القوانين والأعراف قد فُرضت على جميع مناطق ولايته وقد أثارت إعجاب المؤرخين؛ الأمر الذي جعلهم يسردون حكايات شبه خيالية عن بسط الأمان في عهده، حيث إنه قام بتعليق بعض الحلي والمجوهرات على إحدى أشجار الصندل وبقيت لمدة ثلاث سنين لم يقربها أحد[5].

اعتنق النورمان الذين استقروا في غرب فرنسا المسيحية، وتأثروا بالحضارة الفرنسية، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو، وبعبارة أخرى فإنهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية، وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيدة المدة؛ بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة[6]. كما تبنى النورمان الدستور الفرانكوني كنظام حياة لهم، لكنهم لم يزالوا قراصنة أباً عن جد متحمسين لخوض المغامرات، سواء أكانت عن طريق البحر أم عن طريق البر، وكانوا يطمحون إلى السيطرة على كل شيء[7].

شرع بعض أبناء السادة النورمان في ترك الدوقية والبحث عن خوض مغامرات هدفها الثروة والسيطرة والنفوذ، فمنهم من ذهب إلى أسبانيا ودول أوروبية أخرى، لكن معظمهم ذهب

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 363. مزروع، الفايكنج وإغاراتهم، مج3، ص 290، 291.

(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 474.

(3) مزروع، الفايكنج وإغاراتهم، مج3، ص 291.

(4) كانتور، العصور الوسطى، ص 351.

(5) Maurois, The miracle of, P. 50.

(6) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 328.

(7) Bill and Houts, A companion, P. 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى إيطاليا حيث بدأوا حياتهم هنالك كمرتزقة في صفوف المتنافسة والمتناحرة، ومن ثم وبعد حين من الزمن أصبحوا أسياد تلك الأرض[1].

فنشأت أول علاقة بين النورمان وشعوب البحر المتوسط عن طريق الحج للأماكن المقدسة التي لعبت دوراً هاماً في الحياة والأدب في العصور الوسطى. ولقد ارتبطت فكرة الحج ارتباطاً وثيقاً بالأماكن المقدسة مع بداية المسيحية والآلام التي تحمّلها (الشهداء) المسيحيون، وبالدوافع العملية من أجل التكفير عن الذنوب، حتى أصبح الحجاج يسيطرون على الطريق في أواخر العصور الوسطى. وكان منهم كثير من المسيحيين الذين كانوا يرغبون في التكفير عن ذنوبهم، وذلك بعمل الخير، وكان أولئك المذنبين الباحثين عن التوبة يتجولون أحياناً في أنحاء الأرض لفترة معينة، وكثيراً ما كانوا يقومون برحلة إلى الكنائس المجاورة أو إلى مكان آخر مقدس؛ من أجل التكفير عن ذنوبهم مثل روما أو بيت المقدس أو كوميوستلا (مكان في تلال جالسيا بأسبانيا) حيث يرقد رفات القديس جيمس العظيم James The Great[2].

مع بداية الربع الأول من القرن الحادي عشر نزلت جماعات من النورمان، من الذين كانوا عائدين من البلاد المقدسة على السواحل الإيطالية جانب مدينة سالرينو (Monte Gargano) على الشاطئ الشرقي[3]، وكانت هنالك كنيسة قديمة للقديس ميخائيل موضع احترام من جانب الحجاج النورماني الذين فهموا الفضائل العسكرية[4]. كانت منطقة جنوب إيطاليا تشهد معارك متواصلة بين اليونانيين والسارسانيين واللومبارديين، ولم تكن تلك المعارك يفصلها فاصل، ولا يؤجلها مؤجل، فوجد النورمان في ذلك أرضية خصبة للقتال تؤهلهم إلى نصر سريع ومجزي[5].

وفي أثناء استراحتهم دعاهم أهل المدينة للانضمام إليهم؛ لصد هجوم إسلامي، فأظهروا من الشجاعة ما دفع أهل المدينة إلى حثهم على البقاء، فاستجابوا لندائهم، وأرسلوا يعبرون عن سعادتهم في ذلك، لكثير من أصدقائهم في نورماندي[6].

عاد بعض الناجين من المعارك الضارية التي نشبت في تلك المناطق إلى بلادهم الأصلية نورماندي حاملين معهم أخبار المنطقة الجنوبية من إيطاليا الخصيبة والمفعمة بكل سبل

---

(1) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.

(2) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 270.

(3) Emerton, Medieval Europe, P. 224.

(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 270.

(5) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.

(6) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة، إضافة إلى علمهم بعدم تمتع تلك المناطق بحكومة ثابتة تضمن استقرارها، إضافة إلى حاجتها الماسة إلى مقاتلين أشداء للدفاع[1].

في بادئ الأمر، لعب النورمان دور المرتزقة، وقاموا بمساعدة اللومبارديين ضد اليونانيين، كما ساعدوا اليونانيين ضد السارساريين، وبعدها طالبوا بأجور مُجزية إزاء خدماتهم العسكرية ضمن تلك الجيوش، ولم تكن الأجور التي طلبوها بمثابة ذهب أو أموال وجواد، ولكن الأجر كان الأرض[2].

ازداد عدد المقاتلين النورمان في جنوب إيطاليا بسرعة فائقة وأصبحوا يدعون أحقيتهم في الكثير من المناطق التي ساعدوا في احتلالها، وبدأوا يشكلون جماعات مستقلة في جنوب إيطاليا بمختلف مناطقها[3].

جعل تجمع النورمان في مراكز محدودة نموهم بطيئاً، إلا أن عددهم كان يتزايد باستمرار؛ نتيجة تجنيدهم في وطنهم ليعيشوا كجنود مرتزقة، حيث تُدفع لهم أجورهم. وقد عمت شهرتهم لدرجة أن البابا طلب من أمير سالرينو أن يسرح قوات النورمان إلا أن الأمير أجاب قائلاً : "لقد تكلفت الكثير من الوقت والمال؛ كي أجمع ذلك الكنز الثمين حيث كان جنود الأعداء يظهرون أمامه كاللحم أمام الأسود المفترسة"[4].

بعد ذلك ومن وقت لآخر بدأ يُسمع عن وجود شخصيات نورمانية اعتبارية مرت بجنوب إيطاليا أو استقرت فيها، أو وصلت إليها؛ لتفحُص الأمور هنالك، وقد كانت تلك الشخصيات تقود فرقاً عسكرية تقاتل مع ذلك الفصيل تارة ومع عدوه تارة أخرى؛ من أجل الحصول على المال[5].

واستخدمت العديد من المدن الإيطالية الجنود والجيش النورماني ضد أعدائها ولم يكن النورمان يفرضون سيطرتهم على المدن والأراضي إلا بعد عام 1025م[6].

وأقر كونراد الثاني حق النورمان في امتلاك مناطق من جنوب إيطاليا، وإقامة كينونة نورمانية، حيث سمح لهم بالاستيطان في منطقة كابوا (Capua)؛ لمقاومة حاكمها المتمرد باندلوف

---

(1) Emerton, Medieval Europe, P. 224.
(2) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.
(3) Cotteriall, Medieval, P. 401.
(4) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 271.
(5) Emerton, Medieval Europe, P. 224.
(6) Killinger, The history of, P. 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Bandlov. أما عدو باندلوف وهو دوق منطقة نابولي، وكان يُدعى سيرجس (Sergs)، فقد مَـنح قائد النورمان رانولف مدينة أفيرسا (Aversa) مكافأة له على ما قدمه من مساعدة في الحرب ضد باندلوف، تلك المدينة (أفيرسا) التي تبعد مسافة 12 ميلاً من نابولي، كانت الملجـأ والمقـر الأول للنورمان في إيطاليا حيث شكلت نواة مملكتهم المستقبلية[1].

وما لبثت أن وصلت أخبار تلك المنحة إلى نورماندي التي تردد صداها في جميع أنحـاء البلاد، والتي تمثلت في مستقبل زاهر، وثروات سوف يحصدها النورمان بعـد أن أصـبح لهـم مأوى يلجأون له دون التملق والخدمة في صفوف جيوش غيـرهم[2]. وهكـذا أخـذت جمـوع النورمان تتكاثر في جنوب إيطاليا في النصف الأول من القرن الحادي عشر، حيث وجدوا فـي ذلك الوطن الجديد ميداناً صالحاً لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية[3]. وكان من بـين جموع النورمان أبناء تانكرد هوتفيلي الاثنا عشر، والذين نجحوا في التفوق علـى قـومهم فـي الشجاعة والإقدام وامتلاك القوة[4].

واشتهر من زعماء النورمان في إيطاليا في تلك الحقبة من الزمن ثلاثـة إخـوة بلقـب هوتفيل هم : وليام، وهمفري، ودرونمو، وقد نالوا جميعاً صيتاً رائعاً في ميدان الحرب والقتـال، وتقدم أولئك الإخوة لمساعدة البيزنطيين 1038م لطرد المسلمين من صقلية[5]. لكن تلك المساعدة تحولت بعد ذلك لتصبح صراعاً بين البيزنطيين والنورمان، حيث إن البيزنطيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء ما يحدث لمملكتهم بعد أن أحسوا بأنها تتهالك أو تضيع وتنتقل ملكيتها لحفنـة مـن المرتزقة النورمان، فما كان منهم إلا أن جمعوا الجيش البيزنطي بأكمله، وقام اليونـانيون مـن الطرف الآخر بالتجمع ضد النورمان واللمبارديين، وقد وقعت بينهم ملحمة عظيمة فـي منطقـة أوليفينتو (Olivento) في 17 مارس 1042م، أوقعت بالجيش البيزنطـي واليونـاني الهزيمـة النكراء. وفي الرابع من مايو من نفس العام عاود النورمان تكرار ما فعلوه بنيل انتـصار آخـر في منطقة مونتي ماغوري (Monte Magori)، وكان ذلك النصر على القوات اليونانية، وفـي عام 1043م قام النورمان بتقسيم أبوليا إلى اثنتي عشرة مقاطعة، ولكل مقاطعة كونـت يحكمهـا وكانت العاصمة المركزية لأبوليا هي ميلفي وكان وليام هوتفيلي هو كونت أبوليا[6].

---

(1) Cotteriall, Medieval, P. 401.
(2) Gore, Neglected Heroes, P. 88.
(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 329.
(4) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.
(5) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 329. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 271.
(6) Gore, Neglected Heroes, P. 88, 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان وليام أحد أبناء تانكرد[1] Tankred الاثني عشر، وكان قائداً شجاعاً، لـذلك أطلـق النورمان عليه لقب وليام ذي الذراع الحديدي، لكنه كان ذا شخصية بسيطة في قومه، ثـم مـات في عام 1046م، فخلفه أخوه الأصغر دروغو (Drogo)[2].

وفي العام 1047م أصبح النورمان بمثابة أصحاب إقطاعية استعمارية كبرى فـي قلـب الإمبراطورية الرومانية، بعدما اعترف الإمبراطور هنري الثالث بدروغو رسمي كحاكم لأبوليا، مما حذا به أن يحل نفسه من أي التزام تجاه اللومبارديين، وأدى اعتراف الإمبراطور إلى تقويـة الشوكة النورمانية باسم الشرعية؛ مما حذا بهم إلى الاستمرار فـي توسـيع منطقـتهم الجديـدة والسيطرة على مناطق أخرى[3].

اغتيل دروغو بعد فترة قصيرة، فخلفه أخوه هومفري على عرش أبوليا واتخـذ لنفـسه منصب قائد القوات المشتركة والمؤلفة من القوات النورمانية وقوات من مناطق كالبريـا، وفـي عام 1053م، قامت القوات النورماندية تحت قيادة هومفري مدعومة بقوات من مدينـة أفيرسـا بقيادة الكونت ريتشارد، بهزيمة القوات الألمانية والإيطالية التابعة للملك والبابا ليو التاسع وكانت المعركة من أهم وأقوى المعارك في تاريخ أوروبا. وفي تلك الأثناء توفي هومفري ليخلفه أخـاه روبرت غيسكارد الذي أصبح على رأس الجيش في تلك المعركة[4].

كانت عملية إخضاع جنوب إيطاليا تحت سيطرة الحكم النورمـاني هـي مـن نـصيب روبرت جويسكارد (Robert Jusycard) الابن السادس لتلنكرد، وقد كان رجلاً ذكيـاً وجريئـاً في نفس الوقت[5]، فقد اتصف بكل الصفات التي تخلعها الأساطير على الأبطال، فكان أطول من جميع جنوده، وكان قوي الساعدين، صلب الرأي، جميل المحيا، أشقر الشعر، أصـهب اللحيـة، فخم الثياب، سخي اليد ينثر الذهب نثراً، قاسياً في بعض الأحيان، باسلاً على الدوام، ولـم يكـن يعترف بغير قانون القوة والخداع[6].

عبر روبرت جبال الألب مرتدياً لباس الحجاج، وجند فرقته العسكرية الأولـى مـن بـين المغامرين الإيطاليين، وكان إخوته ومواطنوه قد اقتسموا الأراضي الخصبة في أبوليا، فأُجبر ذلـك

---

(1) لقد تولى رئيس الأسرة تانكرد بارونية هوتفيل، ولكنها لم تكفِ أبناءه الاثنى عشر، فذهب معظمهم ليجـرب حظه في الجنوب. (عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 271).

(2) Cotteriall, Medieval, P. 402.

(3) Gore, Neglected Heroes, P. 89, 90.

(4) Cotteriall, Medieval, P. 402.

(5) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.

(6) ديورانت، قصة الحضارة، ج 14، ص211.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشاب على التقدم نحو جبال كالابريا، وكان هجومه عبارة عن هجوماً مفاجئاً على قلعة أو دير، أو نصب شرك لرجل غني، وسلب القرى المجاورة؛ للحصول على القوت الضروري، وانضوى المتطوعون من نورماني تحت لوائه، وتحت قيادته اتخذ فلاحو كالابريا اسم النورمان وأخلاقهم[1].

وعندما احتل روبرت منطقة كالبريا عاش حياة قطاع الطرق معتمداً على تجهيز نفسه وجيشه عن طريق السلب والنهب[2]. وبقيامه بنهب إحدى المدن البابوية؛ فإنه أثار غضب البابا ليو التاسع الذي خرج على رأس جيش لمحاربته كما ذكرنا سابقاً، واستطاع روبرت أسر البابا[3]، في معركة سينيتات في عام 1053م، عامله النورمان باحترام شديد أثناء مكوثه في سجنه، ثم أطلقوه وواصلوا عدوانهم، حينها عرفت الكنيسة أن التحالف مع قوة مثل قوة روبرت كانت تكمن فيها المنفعة من جميع النواحي. وفي عام 1059م قام البابا نيكولاس الثاني بالاعتراف بروبرت كدوق لمنطقة أبيولا وكالبريا والدوق المستقبلي لجزيرة صقليا. ذلك الاعتراف أعطى الشرعية المطلقة لحكم النورمان، وشكّل أساساً لفرض الهيمنة الروحية الكنسية على جنوب إيطاليا وصقلية، وكان ذلك بمثابة سلاح لصالح البابوية في الحقب القادمة[4]. ويبدو أن هزيمة البابوية أمام النورمان كانت ذات نتائج مهمة؛ لأنها أثبتت للمعاصرين –وبخاصة البابوية– أنه لا يمكن طرد النورمان من إيطاليا[5].

وقد تمكن النورمان من الاستيلاء على باري (Bari) عام 1071م بعد حصار دام ثلاث سنوات، ثم نجح النورمان في غزو أبوليا وكالبريا، والقضاء على ما تبقى من النفوذ البيزنطي في إيطاليا[6].

ولم يلبث الكاردينال هلدبراند نفسه –عندما أصبح بابا تحت اسم جريجوري السابع سنة 1073م– أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا الجزء الجنوبي من إيطاليا، سواء أكانت الممتلكات البيزنطية أم إمارة بنفنتو التابعة للبابوية. لذلك أدرك جريجوري السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية، وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليام كونت برجنديا، على أن محاولات ذلك البابا –المعروف بالعنف والصرامة– لم تفلح في وقف التوسع النورماني، إذ لم يلبث أن غزا روبرت سالرينو وأمالفي، ثم حتَّمت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجوري السابع في صراعه العنيف ضد الإمبراطورية، مما

---

(1) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية، ج3، ص 153، 154.

(2) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 59.

(4) Herder and Waley (editor),A short History, P. 37; Cotteriall, Medieval, P.P. 402, 403.

(5) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 330.

(6) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 272.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جعله يتلهف على مساعدة النورمان له، فأقر جويسكارد سنة 1080م على ما بيده من أراضٍ مقابل قيام روبرت جويسكارد بحماية البابوية من خطر الإمبراطور. وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلاً وقدم لها بعض المساعدات[1].

النورمان والدولة البيزنطية[2].

عزم روبرت على غزو الإمبراطورية البيزنطية جميعها، فبدأ مشروعه بالاستيلاء على كورفو Corfu ودورازو Durazzo على الساحل الشرقي للإدرياتيك[3][4]، لكن الإمبراطور الكسوس كومنينن[5] Aleksos Koumninn لجأ إلى مملكة فينيسيا واستنجد بها، فهاجمت مئات من القوارب البحرية الفينيسية بقيادة الملك الفينيسي أسطول روبرت وأوقعت سفائنها هزيمة منكرة بسفن جويسكارد البحرية[6]، ولكن جويسكارد استطاع نقل جيشه إلى دورازو، وهزم الكسيوس ودخل دورازو عام 1082م. أعطى ذلك الوقت الفرصة لروبرت للوصول إلى القسطنطينية عن طريق منطقة دورازو، والتي كان يمر منها طريق حربي روماني متميز يصل مباشرة إلى القسطنطينية عن طريق منطقة إيجناتيا Aegnatia، لكن الأمور بدت في روما في غاية الخطورة فالإمبراطور هنري الرابع قد استولى على منطقة ليوناين Lonayan–مكان تابع للكنيسة– وحوصر البابا جريجوري السابع في معبد إس أنجليو S. Angeleo، وكان قد أرسل طلب استغاثة ومدد من روبرت[7]، فترك قيادة قواته في البلقان لابنه بوهيمند Bohemund الذي صار فيما بعد قائداً من قواد الحملة الصليبية الأولى، واستطاع بوهيمند أن يُنزل الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي الكسيوس أكثر من مرة، كما استولى على عدة مراكز هامة في إبيروس Epirus وتساليا Thessalia ومقدونيا Macedonia، وأوشكت الإمبراطورية البيزنطية على السقوط في أيدي النورمان مما جعل الكسيوس كومنين يسرع إلى الاستنجاد بسليمان بن قتلمش[8] زعيم سلاجقة الروم، الذي أمده

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 332.

Cotteriall, Medieval, P. 403.

(2) الإمبراطورية البيزنطية : هي إمبراطورية تاريخية كانت عاصمتها القسطنطينية ببيزنطة وكانت تضم عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية قُبيل وفاة الإمبراطور ثيودبسيوس الأناضول، واليونان، وجزر بحر إيجة، وأرمينية، وآسيا الصغرى، وسوريا، ومصر، وبرقة. (_____, The Columbia, Vol. 4, P. 1213).

(3) انظر الملحق رقم (11).

(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 59.

(5) الكسيوس كومنين : إمبراطور بيزنطة عام 1081م، عقب الإطاحة بالإمبراطور نتفور. (البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 17).

(6) ديورانت، قصة الحضارة، ج 14، ص212.

(7) Cotteriall, Medieval, P. 404, 405.

(8) سليمان بن قتلمش : أمير قونية وجدّ سلاطين سلاجقة الروم، قُتل في صفر سنة أربعمائة وتسع وسبعين للهجرة بالمصاف بأرض حلب، فقام بعده ابنه قلج أرسلان. (الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص 138).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بسبعة آلاف رجل؛ مما جعله يحرز نصراً على بوهيمند في تساليا، ثم عاد بوهيمند إلى إيطاليا لإحضار إمدادات جديدة عام 1083م، وعاود روبرت وابنه بوهيمند الكرة مرة أخرى وتحديا الأسطول البندقي المحالف للبيزنطيين، وطالت الحرب بين الطرفين على سواحل إبيروس حتى توفي روبرت جوسكارد في عام 1085م، فعاد النورمان من البلقان إلى إيطاليا[1].

فتح النورمان لصقلية.

أجهض المسلمون جميع المحاولات الغازية لجزيرة صقلية حتى القرن الحادي عشر، غير أن استقرار النورمان في إيطاليا الجنوبية فتح دوراً لحرب الاسترداد، ففي عام 1060م عبر روجر غيسكارد مضيق مسينا[2]، فرُدّ على أعقابه، ثم جدد جهده في شباط 1061م فباء بالخيبة، وعندئذ أدرك صعوبة المشروع وعدم كفاية التبعية، وبمساعدة أخيه روبرت استولى على مسينا في صيف 1061م[3].

كانت حملاته على صقلية تستلزم تشكيل أسطول بحري ضخم، فقام ببناء أكثر من مائة سفينة حربية، وكان على متن تلك السفن ما يقرب من 30 ألف مقاتل، كان من بينهم جنود سارسانيين من الذين قبلوا العمل ضمن القوات النورمانية[4].

واستمرت فترة الغزو ثلاثين سنة، حيث قام روجر بمساعدة روبرت جويسكارد في السنين الأولى من حكمه بذلك الغزو، ولذلك ادعى روبرت بأن له نصيباً في تلك الانتصارات، وكانت النقطة الحاسمة هو مشروع مشترك بين روبرت وروجر الذي نتج عنه حصار وغزو بالريمو Palermo 1072م، الذي مكن النورمان من الاستيلاء على العاصمة الإسلامية التي كانت تعتبر أكبر مدن صقلية وبها ميناء سُمي باسم المدينة[5].

استولى روجر على بالريمو بعد 240 عاماً من السيادة الإسلامية عليها، فأصبحت عاصمة للمملكة المسيحية في الجنوب. ونصّب روجر نفسه كونت لصقلية، لكنه مر زمن طويل فيما يقرب من العشرين عام قبل أن يُحكم سيطرته التامة على باقي الجزر المحيطة بصقلية، وتطويع السارسانيين[6] ليكونوا ضمن قواته[7].

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 273.

(2) انظر الملحق رقم (11).

(3) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 820.

(4) Cotteriall, Medieval, P. 404.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 275.

(6) السارسانيين : جماعات وثنية كانت تقطن في نواحي كثيرة من أوروبا وكانوا في عراك مستديم مع الإمبراطورية الألمانية. (_____, The Columbia, Vol. 4, 1241).

(7) Cotteriall, Medieval, P. 404.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويرجع تفاصيل سقوط صقلية للنزاع الذي قام بين ابن الثمنة[1] أمير سيراكوزة مع ابن الحواس[2] أمير جيرجاني، فاستنجد ابن الثمنة بالنورمان المقيمين في كالبريا، والتحم الجيشان في معركة غير فاصلة أمام كاسترو جيوفاني Castro Giovano، وعوض ابن الثمنة نفسه عن ذلك النصر المزيف بنهب جيرجاني، ولكن مقتله في عام 1062م حرم النورمان من حليف ثمين؛ فردهم إلى دور الدفاع، وفي عام 1063م حاز النورمان بقيادة روجر نصراً مبيناً في سيرامي وتقدموا في منطقة كاسترو جيوفاني. وفي عام 1064م ساعد روجر أخوه روبرت من جديد، وحاصرا بالريمو ولم يستطعا دخولها ولكنهما صمدا عدة سنوات. وفي عام 1071م كان الهجوم الحاسم وسقطت على إثره كاتان Katan في (تموز 1071م) ثم بالريمو (كانون الثاني 1072م)؛ فسقط الحكم الإسلامي في صقلية، واستقر روبرت غيسكارد في بالرمو وفي مسينا، بينما احتل روجر، تحت سيادة أخيه، باقي الجزيرة، وانتزع بعد ذلك آخر ما تبقى فيها من المعاقل الإسلامية[3].

قُبيل عام 1091م انتزع النورمان السيطرة على الجنوب الإيطالي برمته من الألمان وأخرجوا العرب كلية من مدينة سيسلي Sisley. كما التحقت العديد من المدن الإيطالية ذوات الموانئ مثل مدينة بيزا وجنوة وأمالفي بالقوات النورمانية وأطلقت أسطولاً بحرياً لغزو شمال أفريقيا في عام 1087م، عندما قام مسلمو شمال إفريقيا بعمليات انتقام من الجيش النورماني والإيطالي على حد سواء. وبعد تلك الحملة الناجحة لم ينعم الإيطاليون فقط بالغنائم والأسلاب بل إنهم حصلوا على أكثر من ذلك وهو السيطرة الكاملة على الناحية الغربية من المتوسط بأكمله. كما تحدى النورمان البيزنطيين في البلقان وقايضوا الأسطول الفينيسي على العمل الموحد بينه وبين النورمان مقابل منح فينيسيا حركة تجارة حرة في المتوسط[4]. إن وصول القوات النورمانية إلى سواحل شمال أفريقيا دل على أن أطماع الدول الأوروبية في الوطن العربي لم يكن حديثاً وإنما جذوره تعود للعصور الوسطى.

كان توسع النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية ينم عن قوة الطاقة النورمانية التي كانت سمة من سمات مملكتهم القوية، فقد استطاعت المملكة الجديدة في جنوب إيطاليا وصقلية من التقدم بثبات والتأقلم نظامياً وحكومياً مع كل المناطق التي احتلوها برغم الفوارق التقليدية بين شعوب تلك المناطق[5].

---

(1) ابن الثمنة : هو محمد بن الثمنة، الملقب بالقادر بالله، خرج في عسكر حسن الصمصام لقتال المعز بن باديس، وانفرد بمدينتي سرقوسة وقطانية، وتزوج بأخت ابن الحواس. (ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 337. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج33، ص 17).

(2) ابن الحواس : هو علي بن نعمة، خرج في عسكر حسن الصمصام لقتال المعز بن باديس، لكنهم اضطربت أحوالهم وانفرد كل قائد منهم، فانفرد ابن الحواس بقصر يانة وجرجنت وغيرها. (ابن الأثير، الكامل، ج4، ص 337. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج33، ص 17).

(3) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 820.

(4) Killinger, The history of, P. 58.

(5)Bill and Houts, A companion, P. 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- شمال إيطاليا ووسطها في القرن الحادي عشر.

تعرض شمال إيطاليا منذ القرن الحادي عشر لتطورات اقتصادية وسياسية أدت إلى نشأة ما يُعرف باسم القومونات أو المدن ذات الكيان الاقتصادي والسياسي المستقل[1]. والذي عَرّفه أحد العلماء بأنه : اتحاد ضم جميع أبناء المدينة، وليس التجار وحدهم، وارتبطوا فيه بِقَسم للمحافظة على السلام العام، وللدفاع عن الحريات العامة، وإطاعة الحكام. وأخذت قومونات المدن التجارية جنوة، وبيزا، والبندقية تهيمن على تجارة البحر المتوسط، وبدت عظمة البندقية حوالي سنة 1000م بتوسيع مجالها على امتداد الساحل الإدرياتيكي[2].

وأصبحت المدن البحرية الإيطالية في القرن الحادي عشر في حالة تمكنها من القيام باستيراد وتصدير السلع والبضائع بين الشرق والغرب، ومن أهمها وقتذاك مدينة البندقية التي نجحت في السيطرة على البحر الإدرياتيكي، في احتكار تجارة بيزنطة[3].

ولم تَكُفْ البندقية مطلقاً عن المحافظة على نشاطاها التجاري، مع شواطئ الإمبراطورية البيزنطية والقسطنطينية، وما اشتهرت به البندقية من عبقرية تجارية، حملها على المبادرة إلى إقامة علاقات تجارية منذ زمن مبكر، مع الموانئ الإسلامية على البحر المتوسط، وما نتج عن ذلك من آثار كبيرة، أضعفت من حدة التعصب المسيحي[4].

فحرصت المدن الإيطالية التجارية على إقامة علاقات اقتصادية تجارية طيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامي قبل الحروب الصليبية، ورُبما يرجع ذلك إلى أواخر القرن العاشر الميلادي، أو قبل ذلك بقليل. وجاء ذلك في نفس الوقت الذي شهد نشاط المدن الإيطالية، حيث قامت نهضة اقتصادية في المدن الأوروبية المطلة على البحر المتوسط، أدت بالتالي إلى نمو تلك المدن وتطورها في طريق الحكم الذاتي، وقيام نظام القومونات، وتطورت المدن الإيطالية مثل أمالفي والبندقية وجنوة أسرع من غيرها من مدن البحر المتوسط، ونجح نظام القومونات بها قبل غيرها من مدن إقليم بروفانس (Provence) بفرنسا ومدن أسبانيا[5].

فكانت المدن الإيطالية هي الوسيط التجاري بين أوروبا والمسلمين، وقد أصبح التجار الأوروبيون يركبون البحر؛ من أجل المتاجرة مع العالم الإسلامي، ويتاجرون أيضاً مع دول الشرق

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 332.
(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 58.
(3) يوسف، تاريخ العصور، ص 247.
Killinger, The history of, P. 191.
(4) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 159.
(5) نعينع، العلاقات التجارية، ص 333.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأقصى من خلال التجار المسلمين، وقد ساهمت التجارة الخارجية في رواج التجارة الداخلية داخل مدن شمال إيطاليا ووسطها من خلال ظهور المعارض التجارية في أواخر القرن الحادي عشر[1].

إن انتعاش التجارة بين الشرق والغرب، وخاصة عبر المدن الإيطالية المطلة على البحر المتوسط؛ جعلت من تلك المدن قوة من قوى الرخاء الاقتصادي؛ مما ساعد على ظهور طبقة غنية استأثرت بالسلطة، وتحررت من السيادة الإقطاعية فنافستها واستقلت عنها، معززة ذلك الاستقلال بتبادل السفراء والقناصل مع الدول التي ترتبط معها بعلاقات تجارية[2]، وبذلك قضت أرستقراطية التجارة عام 1033 على انتقال السلطة إلى الأدواق عن طريق الوراثة، وعادت إلى مبدأ الانتخاب على يد جماعة من المواطنين، وأرغمت الدوق على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ[3]. وكانت البندقية في ذلك الحين قد أصبحت تلقب بالذهبية (قينسيا أوربا Venetia Aurea)[4].

لقد سمحت البنية السياسية الفريدة من نوعها في إيطاليا في أواخر العصور الوسطى، والمناخ الاجتماعي الحيوي والتجارة المزدهرة بنمو ثقافي فريد، ولم تستعد إيطاليا أبداً وحدة ترابها كما كانت أيام الإمبراطورية الرومانية، بل ظلت مقسمة طوال العصور الوسطى إلى دويلات مدن صغيرة، حيث سيطرت مملكة نابولي Naples على الجنوب، وجمهورية فلورنسا Florence والولايات البابوية على وسط إيطاليا، بينما كان لكل من جنوة وميلانو Milano الشمال والغرب، بينما كان الشرق من نصيب البندقية[5].

لقد ارتبط ظهور المدن الإيطالية وازدهارها تجارياً واقتصادياً بعدة عوامل منها : وقوع بعض المدن بجانب الأديرة الغنية، ونمو بعضها حول قصور الأسياد الذين كانوا يشكلون تكتلاً اقتصادياً ضخماً في تلك الحقبة من التاريخ الإيطالي، وعلاوة على ذلك فقد بنيت تلك المدن على مقاطع ومحطات تسهل من خلالها ازدهار تلك المدن تجارياً فمعظمها كانت تقع على مصبات الأنهار، فضلاً عن المدن الواقعة مباشرة على البحر خاصة مدن الشمال الإيطالي، والتي ازدهرت تجارتها عن طريق التجارة البحرية التي لم يشهد تاريخ إيطاليا في العصور الوسيط ازدهاراً مماثلاً لتلك الحقبة من التاريخ الإيطالي القديم، ولم تكن المدن الإيطالية كثيرة السكان، فبعضها لم يكن يتجاوز العشرة آلاف نسمة باستثناء المدن الإيطالية الضخمة مثل جنوة والبندقية ونابولي[6].

---

(1) Pirenne, A history of, Vol. 1, P. 330.
(2) Cotteriall, Medieval, P. 223.
(3) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 889. ديورانت، قصة الحضارة، ج 14، ص215.
(4) ديورانت، قصة الحضارة، ج 14، ص215.
(5) Killinger, The history of, P. 191.
(6) Pirenne, A history of, Vol. 1, P. 330.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت البندقية في مقدمة المدن الإيطالية، وكانت الأجواء مهيأة –من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر– فرصة ثمينة للمدن البحرية الإيطالية عامة، والبندقية خاصة للتوسع التجاري والسيطرة، ولقد تمكن البنادقة من الاستيلاء على القسطنطينية ونهبها؛ فانتقلت بذلك الزعامة التجارية إليهم، ذلك إضافة إلى حسن العلاقة بينهم وبين سلاطين المماليك في مصر مما جعلهم يحتكرون تجارة السلع القادمة عن طريق البحر الأحمر إلى أوروبا[1].

ازدهرت البندقية بحراً، أما براً فقليلاً؛ وذلك بسبب الهجمات البربرية، مستثمرة بذلك الطاقة الهائلة الكامنة في تجارة الشرق. وكانت المدينة الأوروبية الوحيدة التي أقامت تبادلات دبلوماسية وتجارية منتظمة مع المماليك في مصر وسوريا، وعَرِفَت وقدَّرت الأعراف والديانة والفلسفة والعلوم والتكنولوجيا والفنون الإسلامية. وقد تطورت الصناعة فيها بأشكالها المختلفة[2].

وفي خلال القرن الحادي عشر ظهرت أيضاً جنوة وبيزا كقوى مستقلة أخذت تُسهم في الحروب الصليبية إسهاماً فعلياً، ولم تلبث حركة استقلال المدن وتحررها أن امتدت إلى سهول لمبارديا وإقليم تسكانيا حيث حصلت مدن عديدة على حقها في الحكم الذاتي. ومن أمثلة تلك المدن فلورنسا، ولوكا Luka، وبافيا Pavia، وبرسكيا Brskya، وبولونيا Bolonia، وأظهرت تلك المدن حرصاً شديداً في التمسك باستقلالها السياسي، فأخذت تُقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال، سواء أكانت تلك السلطة دينية بابوية أم سياسية إمبراطورية؛ مما جعلها تلعب دوراً هاماً في تاريخ إيطاليا منذ أواخر القرن الحادي عشر، وبخاصة في حوادث النزاع بين البابوية والإمبراطورية[3].

وبدت عظمة جنوة وبيزا تظهر في مستهل القرن الحادي عشر، إذ نجحتا بعد قتال شديد مع المسلمين، في شق طريقهما إلى البحر المتوسط، بعد أن أغلقه المسلمون منذ القرن الثامن، وبذا نهض على طرفي أوروبا مركزان تجاريان، بفضل جهود الإسكندنافيين والبنادقة[4].

أسهمت كل من جنوة وبيزا إسهاماً كبيراً في ذلك الرخاء الاقتصادي، فكانت الأساطيل البيزانية، والجنوية، وأسطول البندقية تتنافس فيما بينها؛ من أجل السيطرة على طرق الملاحة والتجارة البحرية في المتوسط، واستطاعت جنوة في خاتمة المطاف تدمير أسطول بيزة في البحر، وانتزعت منها السيادة البحرية، لكن التنافس البحري بين جنوة والبندقية استمر أكثر من قرن ثم انتهى بفوز البندقية على جنوة[5].

---

(1) Cotteriall, Medieval, P. 224.
(2) Killinger, The history of, P. 191.
(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 333.
(4) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 159، 160.
(5) Cotteriall, Medieval, P. 224.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ورغم ذلك فقد نعمت جنوة بنوع من الاستقلال في ظل مجلس من النبلاء، كان يُنتخب سنوياً، ويقوم على رعاية مصالحها السياسية والاقتصادية فانتعشت فيها التجارة، واتسعت صناعة النسيج وبناء السفن، وتمت لها السيطرة على جزيرتي كورسيكة Korska وسردينية Srdinia والساحل الليغوري بكامله؛ فغدت قوة بحرية كبيرة، وأسهمت في الحروب الصليبية بنقل القوات الأوروبية إلى الأراضي المقدسة، وبناء آلات الحصار التي استعملت في حصار بيت المقدس، فكوفئت بممتلكات وامتيازات ومستعمرات تجارية في أكثر البلاد المحيطة بالبحر المتوسط[1]. بذلك نشأ عدد من المستوطنات التي تكونت من بورجوازي إيطاليا، وأصبحت مراكز لتجارة الشرق، وقد كانت جنوة في مقدمة المدن التي ساهمت في الحروب الصليبية[2].

تكتلت أنشطة المدن الأساسية في التجارة والحرف، فكانت المصنوعات خاصة المصنوعات الخشبية، وصناعة الأقمشة من أهم السلع التي كان يتداولها التجار براً وبحراً داخلياً وخارجياً[3]. وكان الأفراد الذين يصح أن يتخذوا صفات التجار هم اليهود والإيطاليون[4].

تطورت استقلالية تلك المدن من خلال انتخاب جهاز إداري للمدينة يقوم على رعاية شؤونها المدنية والاجتماعية والاقتصادية؛ مما شَكّل قالباً اجتماعياً متطوراً للمدن الإيطالية، كان له الأثر الغالب في إنشاء حضارة إيطالية لا مثيل لها[5].

---

(1) Herder and Waley (editor),A short History, P. 188.

(2) نعينع، العلاقات التجارية، ص 340.

(3) Pirenne, A history of, Vol. 1, P. 331

(4) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 157.

(5) Pirenne, A history of, Vol. 1, P. 331

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : الأوضاع السياسية في إنجلترا (871-1097م).

1- إنجلترا وأخطار الفايكنج (871-1042م) :

- الفايكنج، Vikings.

الفايكنج أو الشماليون أو النورثمن Northmen، هم مجموعة الشعوب التي سكنت شبه جزيرة أسكندیناوة Scandinavia، وشبه جزيرة الدنمراك وحوض بحر البلطي، من السويديين Swedens والنرويجيين Norwegans والدانيين Danes (الدانمركيين)، ولقد ظل الفايكنج على وثنيتهم وتمسكهم بعبادة قوى الطبيعة، وآلهة ترمز لها مثل إله الرعد وإله الخصب وإله الحروب وغيرها، كما أدت عزلتهم وتطرف وضعهم الجغرافي إلى عدم تأثرهم بالمؤثرات اللاتينية، التي لعبت دوراً هاماً في تطوير الجماعات الجرمانية الأولى، ولذلك ظل الفايكنج متبربرين بدائيين يحافظون على بنائهم الاجتماعي، ويتمسكون بنظمهم في الحكم مثلما يحافظون على ديانتهم الوثنية[1].

وإذا كنا قد قسمنا الفايكنج إلى نرويجيين وسويديين ودانيين فلا يعني ذلك وجود فوارق بينهم، وإنما يُقصد به الإشارة إلى جماعات الفايكنج التي سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من أسكندیناوة أو شبه جزيرة الدانمرك. وهنالك نلاحظ أثر التوجه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنج، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوروبا عبروا البلطيق ثم واصلوا إلى شرق أوروبا والبحر الأسود، أما النرويجيون فقد اتجهوا غرباً فوصلوا إنجلترا أو إيرلندا والجزر الغربية فضلاً عن الجزر الشمالية في المحيط الأطلسي، في حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب؛ فهددوا شواطئ الإمبراطورية الكارولنجية في المانيا وفرنسا وإيرلندا وإنجلترا والجزر الغربية[2]. وقد أطلقت تلك العناصر على نفسها -وأطلق عليها المعاصرون- اسم الفايكنج Vikings بمعنى : سكان الفيوردات أو الخلجان، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا[3].

ودفعتهم طبيعة بلادهم ذات الغابات والأحراش والمستنقعات إلى ركوب البحر، فبرعوا في أمور الملاحة وصيد الأسماك، ووجهوا نشاطهم إلى أعمال القرصنة التي كانت تستلزم بناء السفن التي تفوقوا بها، وتميزوا ببناء سفن صغيرة مكشوفة اتصفت بالطول وقلة العرض، ذات نهاية مدببة، ودُعِّمت كل من حافتيها بصف من الدروع، وكانت تلك السفن تسير بالمجداف أو الشراع، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطي إلى البحر المتوسط، فأصبحوا من أعظم الشعوب البحرية وسادة للبحار[4].

---

(1) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 293.
(2) مزروع، الفايكنج وإغاراتهم، مج3، ص 281.
(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 218.
(4) مزروع، الفايكنج وإغاراتهم، مج3، ص 280.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد ساعدتهم طبيعة بلادهم وكثرة خلجانها على التحرك في البحار والأنهار المحيطة بهم، فكانوا يخرجون في جماعات بغية السلب والنهب، وقد توغلوا عن طريق الأنهار في البلاد التي هاجموها لمسافات طويلة معتمدين على عنصر المفاجأة[1].

والفايكنج هم أول من بادروا إلى الإغارة بحراً على سواحل غرب أوروبا ونهبها، ولم تحدث تلك الحملات أول الأمر إلا صيفاً، ثم واصلوا الإغارة شتاءً في جهات أخرى، وتوغلوا إلى داخل البلاد، فالأراضي المنخفضة وغرب فرنسا والجزائر البريطانية، تعرضت لما أحدثه الفايكنج من التخريب الشامل[2].

ومن أهم الأسباب التي دفعت الفايكنج إلى الخروج من بلادهم والقيام بحركة توسعية هائلة :

1- شعور الحسد والطمع في البلاد المتحضرة القريبة منها، والرغبة في الإغارة عليها؛ لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها في حضارتها.

2- مضايقة الفايكنج اقتصادياً، وشل نشاطهم التجاري، وذلك بغزو الفرنجة فريزيا وسكسونيا، حيث إن الفايكنج كانوا عملاء تجاريين قُدامى للفريزيين قبل غزو الفرنجة.

3- تزايد أعداد الفايكنج في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة، ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ أسكندناوة ودانمرك.

4- نشأة الملكية بين الفايكنج وبخاصة النرويج، حيث تركزت السلطة قُرب منتصف القرن التاسع في يدي هارولد الأشقر (Harold Fairhair)؛ الأمر الذي جعل كثيراً من الزعماء يفضلون الهجرة إلى أوطان جديدة عن الخضوع في ظل نظام لم يألفوه[3].

5- فتحت حملات شارلمان ضد السكسون عيون الدانيين على خطر بات يتهددهم من تلك الجهة، لا سيما وأنهم قد بذلوا قليلاً من المساعدة للسكسون في بعض مراحل الحرب وكان عليهم أن يعملوا على حماية أنفسهم من الفرنجة.

6- ضعف الملوك وتناحر الممالك بغرب أوروبا[4].

امتاز الفايكنج بالمهارة في فنون البحار، فإنهم دون غيرهم من الشعوب المعاصرة أدركوا قيمة الحركات السريعة في الحرب، حتى إنهم كانوا يدخلون نهر التيمز Thames أو اللوار Loire، ويرسلون فجأة عند ناحية من النواحي الزراعية، فيستولون على ما بها من الخيل،

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 231.

(2) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 5.

(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 220.

(4) الشيخ، تاريخ أوروبا، ص 297.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وينتشرون في ضياعها يحرقون الغلات، ويذبحون الفلاحين، ويسرقون ما يسرقون ثم يقفلون راجعين في سرعة البرق، قبل أن يجمع أهل الناحية شملهم البليد لمقاومة المغيرين. والواقع أن المجتمع الأوروبي بدا زمن الفايكنج، كأنما شُلَّت أجزاؤه، أمام عدو قاهر قادر على الحركة والحلول في كل مكان، بحيث استطاع أن يجمع بين الهجوم على قادس Cadiz وأشبلية Sevilla، وهامبورج Hamburg وبوردو Bordeaux في سنوات قليلة[1].

إغارات الفايكنج على إنجلترا.

ظهرت في جنوب ووسط بريطانيا في القرن السابع الميلادي، مجموعة متماسكة من الممالك الإنجلوسكسونية[2] الصغيرة وهي : نورثمبريا Northumbria، مرسيا Mercia، إنجليا الشرقية East Anglia، إسكس Essex، كينت Kent (كنت)، ساسكس Sussex، ويسكس Wessex، حيث دخلت المسيحية في الجنوب عن طريق أوغسطين الرومي وفي الشمال من قِبل إيدان الإيرلندي، وكانت نورثمبريا ومرسيا أكثر القوى المهيمنة في وقت مبكر[3].

حدثت الحركة الأولى من الغزاة الفايكنج في نهاية القرن الثامن عندما بدأت الأحزاب المغيرة بشن غارات على السواحل الشرقية والجنوبية من إنجلترا، وقتل وتدمير كل ما يلاقونه من مقاومة، ثم يهربون بالغنائم على سفنهم الطويلة[4]. وكانت إنجلترا من أولى بلاد غرب أوروبا التي تعرضت لإغارات الفايكنج، إذ شهدت تلك البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التي رست قرب دورشستر Dorchester سنة 787م على عهد الملك بيورهتريك Beorhtric ملك وسكس[5].

وتعرض دير لندسفرين Lindisfrane عام 793م للإغارة عليه ونهبه[6]، وتم سرقة كنوزه. ففر الرهبان لينجوا بحياتهم، حيث تجولوا في البلاد لسنوات عديدة يحملون عظام الراهب كوثبرت معهم، حتى وجدوا موطناً دائماً في تشيستر Chester ودروهام Durham[7]. كما شاركت أديرة أخرى في نفس المصير، كما تعرض دير القديس بولس في الجارو Jarrow في عام 794م[8].

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 359. فشر، تاريخ أوروبا، ص 119، 120.

(2) انظر الملحق رقم (13).

(3) Lehmberg, The constitutionalist, P. 61.

(4) Moor man, A history of the church, P. 40.

(5) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 232.

(6) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 232. فشر، تاريخ أوروبا، ص118.
Moor man, A history of the church, P. 39.

(7) Moor man, A history of the church, P. 39.

(8) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 232.
Moor man, A history of the church, P. 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكشف أولئك القراصنة أن الأديرة والكنائس في إيرلندة وفرنسا وإنجلترا كانت تزخر بالتماثيل الدينية والأدوات والأواني من الذهب والفضة، وتمتلئ بالأقمشة المطرزة والستائر الثمينة والأحجار الكريمة[1].

ويبدو أن الفايكنج في الفترة الواقعة بين سنتي 794م، 835م وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو إيرلندا، لتعود وتبدأ بعد ذلك، فمنذ سنة 835م بدأت إغاراتهم في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقاً. ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفايكنج في ذلك الدور[2].

أصبحت الهجمات أكثر قوة وأكثر تواتراً كلما مرت السنوات، وفي حوالي عام 850م فصاعداً، غيّر الغزاة تكتيكاتهم من غارات لمجرد النهب إلى احتلال بشكل منهجي، وبحلول عام 870م استسلمت الممالك الإنجليزية واحدة تلو الأخرى، ولم يبقَ سوى إسكس لم يتم احتلالها، حتى أن آخر معقل للمسيحية كان سيختفي لولا شجاعة ومثابرة ملكها، ألفريد العظيم[3].

- ألفريد الكبير (العظيم) (Alfred)[4]، (871-899م).

اعتلى عرش وسكس قائد ربما كان أعظم ملوك إنجلترا شهرة، وهو ألفريد الكبير، إذ أنه وضع كل إمكاناته لحماية مملكته من الفايكنج[5]، فذلك الملك آلت إليه الملكية ومشكلاتها الهائلة وهو لم يبلغ من العمر سوى ثلاث وعشرين سنة[6].

لقد أبلى ألفريد بلاءاً حسناً في الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى أنه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه، الأمر الذي جعل الدانيون يقنعون بعقد الهدنة ثم يولون أبصارهم شطر مرسيا[7].

وفي شتاء 878م، هاجم الدانمركيون بغتة، وأجبروا ألفريد على اللجوء إلى جزيرة أثيليني (Athelney) الصغيرة ومعه عدد قليل من رفاقه في مستنقع بعيد، وكانت جزيرة أثيليني وادياً لأعمال الحديد بالنسبة لإنجلترا[8].

---

(1) فشر، تاريخ أوروبا، ص 118.
(2) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 232، 233.
(3) Moor man, A history of the church, P. 40.
(4) انظر الملحق رقم (14).
(5) هُلستر، أوروبا، ص 136.
(6) فشر، تاريخ أوروبا، ص 123.
(7) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 234.
(8) هُلستر، أوروبا، ص 136.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي الربيع التالي لسنة 878م حشد ألفريد قواته وهاجم جيشاً دانمركياً هجوماً ساحقاً في موقعة أونجتون Ongton، فحوَّل ذلك النصر الحاسم مجرى الحرب؛ لأن القائد الدانمركي وافق على اعتناق المسيحية، وأن ينسحب من وسيكس، ويقبل عقد معاهدة سلام دائم، ولم تتعرض وسيكس أبداً لعدوان خطير مرة ثانية، بيد أن الدانمركيين الآخرين رفضوا الالتزام بمعاهدة السلام؛ لذلك فتح ألفريد في آخر حملاته العسكرية مدينة كينت Kent ومعظم ميرسيا Mercia، واستولى على لندن التي كانت أعظم مدن إنجلترا في ذلك الحين. وفي سنة 880م منحت معاهدة سلام جديدة وسيكس معظم جنوب وجنوب غرب إنجلترا، وظل الجزء الشمالي الشرقي من إنجلترا ملك الدانيين وسُمي (Dunelaw) أي : مسموح الدانيين[1].

وأعلن الدانيون ولاءهم لألفريد وانتمائهم له، فلم يقيموا لهم ملكاً من بينهم، ومع ذلك فقد كانوا فعلاً مستقلين، تولت أمرهم فئة أرستقراطية عسكرية بالغة القسوة والعنف، فطردت الإنجليز؛ فقام الدانيون بفلاحة الأرض وزراعتها[2].

والواقع أن ألفريد لم ينتصر على عناصر الدانيين بسهولة، فمثل تلك العناصر التي تعتمد على عنصر المفاجأة في الهجوم تحتاج لتنظيم عسكري غير تقليدي، لذلك قام ألفريد بتسليح أكبر عدد من المواطنين، وكانت عملية استدعائهم تتم في فترات وجيزة، فيحارب بالبعض ويظل البعض في الحقول، ويتم ذلك بالتناوب، إضافة إلى ذلك قام بتحصين الأماكن الاستراتيجية، ووفر لها وسائل الدفاع اللازمة، وأخيراً شيد بعض السفن للتصدي للعناصر المغيرة، وقد جُهزت تلك السفن على طريقة سفن الفايكنج، فكانت طويلة بها ستون مجدافاً، ونجح بأسطوله ذلك في ضرب المغيرين عام 896م[3].

وقام ألفريد بتنقية وإعادة صياغة قوانين شعبه، وعمل على تنفيذ القوانين بكل حزم، ومارس السلطة بشكل لم يسبق لأي ملك إنجلوسكسوني أن يسلكه[4]، كما أصدر قانوناً شاملاً لعادات السكسون والمرسيين والكنتيين، وعمّر ما تخرب من لندن على يد الدانيين بعد أن أدخلها في مملكته[5].

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 234. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 232. الشيخ، محمد، تاريخ أوروبا، ص 301، 302. هُلستر، أوروبا، ص 137.

(2) العريني، تاريخ أوروبا، ص 360.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 232، 233. هُلستر، أوروبا، ص 137.

(4) هُلستر، أوروبا، ص 137.

(5) فشر، تاريخ أوروبا، ص 124.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كان لدى ألفريد طموحان : استعادة السلام، وإحياء الدين والتَّعلُّم، فبسبب إهمال رجال الدين للكنيسة وحرصهم على دنيويتهم؛ تم هجر الأديرة عملياً، فحاول ألفريد استعادة الحياة الرهبانية بصعوبة من خلال إنشاء الكنائس الجديدة في إثيليني للرجال، وفي شافتسبري للنساء، وعمل على رعايتها بشكل كبير[1].

واهتم ألفريد بالعمل على نشر الديانة المسيحية، وارتبط بالبابوية كثيراً وزار روما عدة مرات، وإلى جانب ذلك اهتم بالتعليم فأسس المدارس وأولها مدرسة القصر التي استهدى لها العلماء من أوروبا[2]، وكانت باللغتين الإنجليزية والأجنبية، والتي التحق بها ابنه كطالب، وكان ألفريد حريصاً على أن يفعل شيئين اثنين : أن يقوم بالتعليم العلماني وكذلك الديني المسيحي، وتعليم الناس في إنجلترا أن يحبوا لغته الخاصة. ولتعزيز أول تلك الأهداف؛ قام بتشجيع كل ما عنده من النبلاء على الذهاب إلى المدارس بأنفسهم؛ ليروا كيف يتلقى أبناؤهم التعليم المناسب، أما بالنسبة للهدف الثاني، فقد تلقى هو نفسه التعليم باللاتينية؛ من أجل أن يقوم بترجمة بعض الكلاسيكيات العظيمة من الكنيسة إلى اللغة الإنجليزية[3]. ومن أهم الكتب التي تُرجمت في عصره : سلوى الفلاسفة للمؤلف بوثيوس، العناية الربانية للبابا جريجوري العظيم[4]، التاريخ للمؤرخ أورسيوس، التاريخ الكنسي للأمة الإنجليزية للمؤرخ بِيَده[5]، والمناجاة لأوغسطين[6].

حقق ألفريد تميزاً، باعتباره محارباً، وواضع قانون، ورجل دولة كعالم أيضاً، حيث لم تتردد الأجيال اللاحقة أن تلقبه بلقب (العظيم)، وفي الجزء الأخير من القرن التاسع، كانت إنجلترا بحاجة ماسة إلى جندي عظيم ليوقف تقدم الدانمركيين، وينقذ إنجلترا من الاستسلام الكامل[7].

خلفاء ألفريد.

استمرت حركة ألفريد الاستردادية على يد خلفائه المقتدرين في النصف الأول من القرن العاشر، ففي منتصف القرن العاشر كانت كل إنجلترا في أيديهم، وصار ملوك (وسيكس) هم ملوك إنجلترا، وظلت أعداد هائلة من المستوطنين الدانمركيين مقيمة في شمال وشرق إنجلترا، واستغرقت عملية اندماج العادات الدانمركية والإنجليزية أجيالاً كثيرة، بيد أن الرد الحاسم لملوك وسيكس ضد

---

(1) Moor man, A history of the church, P. 43.

(2) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 233.

(3) Moor man, A history of the church, P. 43.

(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 123.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 233.

(6) Moor man, A history of the church, P. 43.

(7) Ibid, P.P. 43, 44.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التهديد الدانمركي بلور وحدة العالم الإنجلوسكسوني، وتمخضت آلام الغزوات عن ميلاد الحكومة الملكية الإنجليزية[1].

فقد استولى ابنه إدوارد على أرض الدانيين (Danelaw) بإنجلترا شرقي واتلنج ستريت Otelnj Street، وهي معظم يورلستير ولنيكولن وإيست وأنجليا الحالية، ومنها درأ حفيده إثلستان Athlstan هجوماً مزدوجاً من إيرلندا وأسكتلندا في وقعة تقشعر الأبدان من حوادثها، وتذوب القلوب من تفاصيلها، وهي وقعة برونابورة Brunaburh سنة 937م التي ألهمت ملحمة من أعظم الملاحم الإنجلوسكسونية، وغدت مادة لقصة من أبهى القصص في أدب الشماليين[2].

وسطع نجم إثلستان وأصبحت إنجلترا في عهده من دول أوروبا القوية، وزاد إثلستان من نجاحه العسكري بنجاح دبلوماسي، وارتبط بعدة دول أوروبية عن طريق المصاهرة، فزوج أُختاً له إلى هيو الكبير، وزوج أُختاً ثانية إلى أوتو الأول، وزوج ثالثة من شارل البسيط، وبتلك الصورة ارتبط على التوالي بإيطاليا والمانيا وفرنسا[3].

ولم يأتِ عام 954م حتى استطاع إدوارد ملك واسكس أن ينادي بنفسه ملكاً على جميع إنجلترا، من بحر المانش إلى الكيلد[4].

تمتعت إنجلترا بالسلام النسبي، والرخاء الاقتصادي فيما بين سنة 955م إلى سنة 980م، وذلك بعد مرور جيل على غزو الجزء الشمالي الشرقي من إنجلترا على يد الدانمرك Danelaw، حيث قامت الأساطيل الإنجليزية الصغيرة بحماية الشواطئ، وبدأت القلاع القديمة في التطور إلى مراكز تجارية، وانكب رجال الكنيسة، الذين وهبوا أنفسهم لله، على أداء مهمة الإصلاح الديري، غير أن السكان الدانمركيين في شمال وشرق إنجلترا ظلوا تابعين للحكومة الملكية الجديدة جزئياً[5].

وفي عام 975م تولى عرش البلاد إثلرد الذي لم يتجاوز العشر سنوات، فاستعاد كبار النبلاء نفوذهم وقلصوا نفوذ رجال الدين، وفرضوا سيطرتهم على الملك القاصر وعلى شؤون الحكم بطريقة تخدم مصالحهم الخاصة، وقد أضر ذلك كله البلاد[6]، كما أدى ذلك إلى تعرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفايكنج، وفي تلك المرة لم يأتِ الدانيون إلى

---

(1) هُلستر، أوروبا، ص 138.
(2) فشر، تاريخ أوروبا، ص 125.
(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 234.
(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 125.
(5) هُلستر، أوروبا، ص 138.
(6) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 235.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنجلترا على هيئة جماعات متفرقة، وإنما جاءوا في صورة أمة مترابطة[1]. ولكي تكتفي وسكس شر أولئك الأعداء المفسدين؛ لجأت حكومتها الضعيفة إلى شرائهم بالمال، فدفعت جزية، وقد عُرفت تلك الجزية التي دفعها الشعب الإنجلوسكسوني للدانيين باسم ذهب الدانيين (Danegeld)[2].

لم تكن عملية فرض الإتاوات معروفة إبان الهجمات الأولى التي شنها الفايكنج على إنجلترا، لكنها بعد ذلك أصبحت بمثابة علامة وميزة من مميزات الهجمات اللاحقة. وأثرت تلك الإتاوات التي أصبحت بنسب ضخمة جداً منذ عام 990م، في التشكيل الجديد لقوات الفايكنج، وعلى ثروات إنجلترا في نفس الوقت، حيث كانت كميات ضخمة تدفع للفايكنج منذ عام 992م وحتى عام 1012م إلى أن أصبحت تلك الإتاوات داخل إطار البنية الضريبية للدولة، وفيما يلي جدول يوضح حجم الأموال التي دفعتها إنجلترا لقوات الفايكنج[3] :

العام	الكمية المدفوعة بالجنيه الفضي
991	22,000
994	16,000
1002	24,000
1007	36,000
1009	3,000

ولدفع تلك الجزية؛ فُرضت على الناس الضريبة، وهي ضريبة بهظت المزارعين وغيرهم من السكان، وغدوا في حالة من العبودية الزراعية، كأنهم والأقنان وعبيد الأرض سواء[4].

شعر الفايكنج بضعف الدولة من خلال قبول الإنجلوسكسون بدفع الجزية، لذلك ردت الدانمرك في شخص ملكها سوين بحملات متعددة على البلاد ظلت حوالي عشر سنوات (1003-1013م)، وقد انتهت تلك الحملات بهزيمة إثلرد على أيدي القوات الدانية بقيادة سوين، وعجز إثلرد عن المقاومة؛ فهرب إلى نورماندیا[5].

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 325.

(2) العريني، تاريخ أوروبا، ص 360. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 235. فشر، تاريخ أوروبا، ص 125. هُلستر، أوروبا، ص 139.

(3) Logan and Author, The Vikings in history, P. 173.

(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 126.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 236.

Logan and Author, The Vikings in history, P. 177.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم تكن الفترة التي حكم فيها إثلرد محمودة عند كتّاب التاريخ، ففيها فشل الإنجليز في الدفاع عن أنفسهم ضد هجمات الفايكنج بخلاف ما حدث في عهد ألفريد، والذي نجح في صد هجمات الفايكنج مرات عديدة. ولا يستطيع أحد أن يجزم إن كانت عند الملوك الإنجليز السابقين أمثال ألفريد القدرة على مواجهة الجيش الدانمركي المنظم الذي احتل إنجلترا في عهد إثلرد، لكن كل ناقد يستطيع أن يجزم أن السبب وراء هزيمة الإنجليز أمام الفايكنج كان سببه الضعف الإنجليزي، فما كان الجيش الدانمركي يتحلى بالتنظيم والقيادة الجيدة والعدة المتينة والوفيرة والخطط المحكمة والتي كان من شأنها إحراز نصر سهل للفايكنج على إنجلترا[1].

أعلن سوين زعيم الدانيين نفسه ملكاً على إنجلترا سنة 1013م، ثم خلفه ابنه ووارثه كانوت الذي نودي ملكاً على مملكة إسكندناوية شملت : إنجلترا والدانمرك والنرويج وجزائر هبريديز بأطراف أسكتلندا[2].

الملك كانوت وخلفاؤه[3] : Canute (1016-1035م)

كانت فترة حكم كانوت تنتمي إلى التاريخ الإنجليزي أكثر من انتمائها لتاريخ الفايكنج، فقد كان مقاتلاً من الفايكنج لا يشق له غبار، وقد حكم إنجلترا لمدة 20 عاماً، وفي عهده تطورت إنجلترا بشكل مهول[4].

حكم كانوت إنجلترا بطريقة مختلفة عن والده سوين[5]، حيث أمر كانوت الأساقفة والرؤساء والنبلاء وكبار إنجلترا كافة بالاجتماع في لندن، وفي الاجتماع أقسم الحاضرون جميعاً يمين الولاء والطاعة للملك كانوت، واعترفوا به ملكاً بعدما تجاهلوا تماماً أخوه الملك الراحل وأولاده. وبذلك كان كانوت أول ملك داني يعتلي عرش إنجلترا، وباعتلاء كانوت عرش إنجلترا وضع نصب عينيه حل ما يتعلق بها من قضايا دقيقة ومشكلات ملحة، ونظم إنجلترا سياسياً وإدارياً بشكل حال دون قيام أية ثورة ضده[6].

كان الملك كانوت وهو دانمركي الأصل ملكاً لإنجلترا والدانمرك والنرويج، وحاكماً أعلى للسويد، وقد كان يُعد من أعظم الرجال في عصره، وكانت فترة حكمه تُعد من أفضل المراحل التي مرت بها إنجلترا على مدى تاريخها[7].

---

(1) Logan and Author, The Vikings in history, P. 177.

(2) فشر، تاريخ أوروبا، ص 126.

(3) انظر الملحق رقم (15).

(4) Logan and Author, The Vikings in history, P. 177.

(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 237.

(6) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 487.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 623.

Lamonte, The world of, P. 199; Logan and Author, The Vikings in history, P. 177.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد قال البعض : إن كانوت اعتنق المسيحية وزار البابا في روما وأصبح ابناً باراً للمسيحية[1]. أظهر كانوت حيال الكنيسة كل احترام، ولكن علاقاته معها لم تكن على وتيرة واحدة، ففي بداية الحكم رأى فيها قوة يمكن أن تُسهم في عمله فأخذ يداويها في سبيل منفعته ولكنه راعى بعض الحيطة؛ لئلا يثير عليه الجيش الدانمركي الذي كان يضم كثيراً من الوثنيين والمنفيين النرويجيين، وكانوا كُثراً في بلاط وينشستر، لذا اقتصر على تعمير الكنائس التي دمرتها الغارات، وإغناء الأديرة بالهبات، ولم يجرأ على الذهاب إلى أبعد من ذلك. وتحت تأثير الأحبار الإنجليز، أصبح إيمانه أكثر عمقاً وأكثر اقتناعاً، وتطورت بالتالي علاقاته مع الكنيسة[2].

نحن هنا أمام مسألة جديرة بالاهتمام وهي اختلاف درجة تماسك الإنسان بمفاهيم عقيدة معينة، باختلاف العُمر المتلقاة فيها تلك المفاهيم.

فكل إنسان مولود على فطرة الإسلام، لكنه يتلاءم مع مفاهيم أمته ومعتقداتها، التي تترسخ معه منذ طفولته، فإن تلقي الإنسان عقيدة معينة منذ الطفولة فإنه يتلقاها تدريجياً، وتصبح كأنها عادة يومية مقبولة ومستحسنة لديه، يقوم بإجراء مفاهيمها وتعاليمها بكل سهولة وبساطة، ولا يكون لديه أي اندفاع في القيام بتلك التعاليم.

لكنه في حالة تلقي الإنسان لعقيدة معينة في سن متأخرة، نجد أن ذلك الشخص يعطيها زيادة من الوقت والجهد؛ ليتماشى مع تلك المفاهيم حتى يعتاد عليها، وكذلك فهو في بداية اعتناقه لتلك العقيدة يكون أكثر تمسكاً وتنفيذاً لمطالبها.

وبناءً على ذلك يظهر استغلال الكنيسة لأولئك الملوك، من منطلق العفو والتكفير عن الذنوب، خصوصاً عند ندائها للخروج إلى الحملات الصليبية.

ومن خلال استطرادنا للدراسة نجد أن الأحداث متشابهة مع اختلاف الزمن والمكان والأشخاص، حيث إن الشعوب الغازية كانت تدخل البلاد الأوروبية على شكل غارات، فتندمج بتلك البلاد، وتتأثر وتؤثر بها، وتتبع ديانتها وسياستها وإدارتها، لكن النزعة للحرب ظلت مستأصلة داخلياً فيهم، لذلك لن يكون من الصعب عليهم تلبية نداء الكنيسة للخروج للحروب الصليبية، فهو يعتبر عملهم الأول، وغريزة استأصلت فيهم، ولذلك فنحن لا نحتاج إلى الكثير من الأسباب والتبريرات لخروج الحملات الصليبية، فالحرب عادة طبيعية في تلك المجتمعات.

---

(1) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 237. فشر، تاريخ أوروبا، ص 126.

(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 626، 627.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تزوج كانوت من الملكة إيما أرمل سلفه إثلرد على عرش إنجلترا[1]، فأنجب منها ابنه هارثا كانوت (Harthcanute)، بينما كان لديه من زوجته الأولى أوجيف Elgifu ابنان هما سويين (Sweyn)، وهارولد (Harold)[2].

حكم كانوت إنجلترا حكم الملك الوطني، لا الأجنبي، ولم يكن ثمة ما يدعو إلى المفاضلة أو المقارنة، عند ملك اتصف بقوة الإدراك، بين سهول إنجلترا الخصبة، وأنهارها الهادئة الدافئة وغلاتها الوافرة، ومحطاتها التجارية الناشطة، وبين جبال النرويج الوعرة، وتلال الدانمارك السافية، لأن إنجلترا بالقياس هي الأبهى بلا نزاع، وهي الأكثر زراعة بلا شك، ولذا جعل كانوت من إنجلترا مركزاً لإمبراطوريته، وعقد النية على نقل المسيحية منها إلى سائر ممتلكاته[3]. وأقام عادة في وسكس في وينشستر، وضم إلى بلاطه دانيمركيين، ونرويجيين، وسويديين، وحتى نورمان وإنجلوسكسون[4].

حاول الملك كانوت معاملة أهل البلاد كفرد منهم، وليس كمتسلط عليهم أو فاتح يستغل البلاد، فاستعان بمجلس الوتيان في شؤون الحكم والإدارة، واستخدم القانون الإنجلوسكسوني في طول البلاد التي حكمها وطبقه على العناصر الدانية والإنجلوسكسونية مع إضافة بعض القوانين الدانية. كما استعان كانوت بمستشارين إنجلوسكسون بعد أن كان اعتماده على مستشارين دانيين، ويُعرف أولئك المستشارون في التاريخ الإنجليزي في تلك المرحلة باسم الإيرلز (Eearls)، فضلاً عن أن إنجلترا تمتعت باستقلال ذاتي تام، ولم يسهم سكانها إلا استثناءً بالحروب التي اقتضاها التوسع الدانمركي[5]. كما قسم المملكة إلى أربع دوائر كبرى تطابق الممالك القديمة ثم عين على ثلاث منها حكاماً عسكريين، بينما حكم الرابعة وهي وسكس- بنفسه، فأعطى إيست أنجليا إلى الإيرلز توركيل Turkill، ومرسيا إلى الدوق Edric، ونورثامبريا إلى الإيرلز إيريك Eiric[6].

وإمعاناً في إرضاء الشعب الإنجليزي لم يُبق حوله من جنوده سوى حرسه الخاص وإن كانوا بضعة آلاف[7].

---

(1) فشر، تاريخ أوروبا، ص 126.

(2) Lamonte, The world of, P. 200.

(3) فشر، تاريخ أوروبا، ص 127.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 623.

(5) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 624، 625. عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 237.

(6) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 625. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 487.

(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 237.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما قضى كانوت على كل معارضة ساكسونية، وتخلص من كل من سولت لـــه نفـــسه القيام بحركة ضد النظام الداني؛ فأعدم على ذلك النحو إدوين Edwin أخ ملك إنجلتـــرا الـــسابق إدموند من أمه، كما نفى ولديّ إدموند وهما إدوارد وإدموند بإرسالهما إلى ملك السويد ليقتلهمـــا، ولكن الأخير رفض، فأرسلهما إلى ملك المجر سليمان، وهنالك تزوج إدوارد من إيما أخت ملكة المجر، فأنجب منها ولدين هما : إدموند، وإدجر إثلنج Atheling، وبنتـــين همـــا : مارجريـــت Margaret، وكرستينا Christina[1].

وفي المجال الخارجي خرجت إنجلترا، التي ألَّفت القوى الحية لتلك الإمبراطوريـــة مـــن عزلتها، وأسهمت بواسطة مرسيليا وتُجارها وبحارتها، وبفضل العلاقات السياسية فـــي تقريـــب إسكندينافيا من الحضارة الغربية[2]. فقد نجح كانوت في عقد بعض الاتفاقيات التجاريـــة، التـــي ضمنت للمسافرين امتيازات في القارة الأوروبية فسيطرت التجارة الإنجليزية على معظم شـــمال أوروبا حتى البحر البلطي شرقاً، وقد ساعد على ذلك النجاح أن الدانيين أهل الملاحة والأســـفار ورجال التجارة، قد أمدوا العناصر الإنجلوسكسونية بخبراتهم في ذلك المجال، الأمر الـــذي أدى إلى انتعاش الحركة الاقتصادية[3].

وأصبح الواردون على إنجلترا من الدانمارك والنرويج والسويد للتجارة يجدون بموانيها مسيحيين تربطهم بهم رابطة اللغة والدم؛ مما أدى ببعض أولئك التجار إلى اعتناق المسيحية[4].

وبالرغم من أن خلفية الملك كانوت كانت دنماركية، إلا أنه اعتُبر أنه أفضل بكثير مـــن العاهل الإنجليزي إثيلبريد، وكان عهده استمراراً للماضي، إلى حد كبير، إذ أضاف رونقاً وبهـــاءً للتاج الذي كان قد زيفته أسرة ألفريد، وازدهر الدين وازدهرت الثقافة كما كان الحال من قبـــل، وغنى الرهبان إلى إيلي Ely بمرح عندما مر عليهم الملك كانوت[5].

بدا نجاح كانوت واهتمامه بحكم إنجلترا حسب تقاليد الدولة المحتلة، وكأنه قد أنشأ فـــي نفوس الإنجليز حصناً أميناً لا يخشون من خلاله أي غزو لبلادهم، لكن إنجلتـــرا التـــي حكمهـــا كانوت كان يعتريها ضعف محتمل، والذي لربما سيتيح الفرصة في السنين القادمة لغـــزاة جـــدد

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 624. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 487، 488.

(2) غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 366.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 237.

(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 127.

(5) هُلستر، أوروبا، ص 139.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لاحتلالها، فقد مات كانوت وهو في سن الشباب وذلك عام 1035م، فترك خلفه أولاداً تنازعوا فيما بينهم على العرش[1].

مات كانوت في الثاني عشر من نوفمبر عام 1035م في شافتسبري (Shaftsbary)، ودُفن في وينشستر (Winchester)[2]، لتبدأ مرحلة جديدة من النزاع بين خلفاؤه.

بموت كانوت عام 1035م، انتهت الموجة الثانية من هجمات الفايكنج على إنجلترا، وقد حاول بعده الكثير من الملوك الإسكندنافيين ضم إنجلترا إلى ممالكهم لكنهم فشلوا في ذلك، فمنهم كان الملك هارالدهار درادا ملك النرويج والذي فشل في حملته لضم إنجلترا في العام 1066م، حيث هُزم في معركة جسر ستامفورد Stamford، كما فشلت محاولة الملك الدانمركي كانوت في عام 1085م حيث إنه لم يستطع تفريغ حمولة الجنود من السفن على شواطئ إنجلترا؛ بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها الإنجليز. كل تلك المحاولات الفاشلة أكدت على أن الفايكنج لم يعودوا قادرين على استرداد سيطرتهم على إنجلترا[3].

- خلافة كانوت.

بعد موت كانوت سنة 1035م تسارعت الأحداث التي خففت من وطأة ذلك الخطر، وما لبث الملك أن توارى حتى تقسّمت إمبراطوريته، وأظهرت المنافسات الناشئة هشاشة ذلك الصرح الذي تم بناؤه بسرعة زائدة[4].

فبعد موت كانوت تنازعت زوجتاه السيطرة على إنجلترا، فاعتمدت إحداهما، أوجين أم هارولد، على مرسيا وعلى بلاد دنلو، وكان يدعمها كونت مرسيا (ليوفريك)، في حين اعتمدت الأخرى إيما أم هارثا كانوت، على (وسكس، والكونت غودون) الذي لعب دوراً هاماً في السنوات الأخيرة من حكم كانوت الكبيرة، حيث كافح بنشاط لصالحها[5]. ومن الناحية الأخرى كان ابنا إيثرليد وهما إدوارد وألفريد ينتظران الفرصة لاستغلال ذلك التنازع[6].

كان الملك كانوت يرغب أن يخلفه ابنه هارثا كانوت على عرش الدانمرك وإنجلترا، فيما يتولى سوين عرش النرويج، لكن حسابات كانوت لم تكن دقيقة، ففي الوقت الذي وافق فيه

---

(1) Brook, From Alfred, P.P. 82, 83.

(2) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 488.

(3) Logan and Author, The Vikings in history, P. 178.

(4) غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 366.

(5) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 630.

(6) Brook, From Alfred, P. 83.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدانمركيون على تولي هارثا كانوت عرش الدانمرك، رفض النرويجيون تولي سوين عرش النرويج، وطالبوا بأن يكون ماجنوس (Magnus) ابن ملكهم السابق أولات (Olat) ملكاً عليهم في حين انتخب الإنجليز هارولد ملكاً لعرش إنجلترا[1]. لكن رؤساء وسكس وكنت عارضوا ذلك وطالبوا باختيار هارثا كانوت ابنه من إيما، أو أحد أولاد ملك إنجلترا الراحل إثليرد من إيما –وهما ألفريد وإدوارد– إلا أنه نظراً لغياب أولاد إيما عن إنجلترا، حيث كان هارثا كانوت في الدانمرك، وألفريد وإدوراد في نورماندیا ووجود هارولد في إنجلترا؛ خلف هارولد أباه في حكم البلاد، وعندما علم ألفريد وإدوارد وهما في نورماندیا بخبر وفاة كانوت، عبر القنال الإنجليزي إلى إنجلترا في خمس وعشرين سفينة محملة بالجنود سنة 1036م؛ للمطالبة بملك أبيهم، وما أن بلغا إنجلترا حتى ذهبا إلى ونشيستر لمقابلة أمهما إيما، ومن هنالك اتجه الابن الأكبر ألفريد إلى لندن لمحاربة هارولد، لكن قوات هارولد تمكنت من هزيمته وأسرته فأمر هارولد بقتله[2]، وعندما علمت إيما بمقتل ابنها ألفريد أسرعت بإعادة ابنها الثاني إدوارد إلى نورماندیا، وحاولت دفع هارثا كانوت ابنها الثالث من كانوت للمطالبة في حقه بعرش إنجلترا[3].

وبعد أن حكم هارولد إنجلترا أربع سنوات، توفي سنة 1040م في أكسفورد، ودُفن في وستمنستر؛ فجمع نبلاء إنجلترا من الإنجليز والدانيين على اختيار ملك الدانمرك هارثا كانوت أخ هارولد من أبيه كانوت ملكاً على إنجلترا، الذي تُوِّجَ ملكاً (1040–1042م) لفترة قصيرة لكنها كافية لإكساب كراهية الشعب؛ لكثرة فرضه للضرائب وتدابيره الانتقامية من أنصار هارولد الذين شاركوا في قتل أخيه ألفريد وتسببوا في هروب أمه إيما[4]. وبرغم ضم هارثا كانوت لإنجلترا تحت ظل التاج الدانمركي لكنه لم يستطع إثبات أفضليته على أخيه هارولد، ولحسن حظ إنجلترا أنه لم يدم حكمه لإنجلترا إلا مدة عامين ثم توفي تاركاً خلفه أثراً مؤلماً لإنجلترا اتسم بالظُلم والغطرسة والاستبعاد[5].

مات أولاد الملك كانوت في ريعان الشباب، وهم أيضاً كأبيهم بعدما قضوا فترة حكم قصيرة وعنيفة، وبذا مهدت الطريق لإدوارد ليحكم البلاد والذي عُرف فيما بعد بإدوارد التقي[6]. وأدى موت هارثا كانوت إلى انتهاء عهد الدانيين، دون أن تفقد إنجلترا شيئاً من طابعها الوطني[7]، وعودة الملوك الإنجلوسكسون[8].

---

(1) Lamonte, The world of, P. 200.

(2) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 489.

(3) Lamonte, The world of, P. 200.

(4) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 489، 490.

(5) Lamonte, The world of, P. 200.

(6) Brook, From Alfred, P. 83.

(7) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 361.

(8) فشر، تاريخ أوروبا، ص 129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

2- نهاية الحكم الإنجلوسكسوني (1042-1066م).

- إدوارد التقي.

بعد موت آخر ملوك سلالة الملك كانوت أقر مجلس الشورى الملكي أن يكون الملك وريثاً للسلالة السكسونية، ووقع الاختيار على الملك إدوارد والمسمى بالورع؛ لتقواه وصلاحه والذي دلت سيرته الذاتية على أنه لم يكن ربانياً يوماً ما[1]. فلم يكن قديساً أو ملكاً ضعيفاً كما رغب أصحاب الحوليات المعاصرة من الرهبان أن يصوروه، بل كان رجلاً صادقاً حسن المقصد[2].

كان القادة الإنجليز سيحاولون السيطرة على إدوارد حتى يُثْبِت أنه جدير بأن يكون ملكاً بحق، ولم يكن تنقصه الحيلة والدهاء والبراعة، لكنه كان يفتقر إلى الحزم والقسوة التي هي من مقتضيات الملك، ولم يكن إدوارد محارباً عظيماً ولم تكن لديه القدرة في يوم من الأيام على السيطرة على القادة الكبار في الوسط الإنجليزي، لكن ذلك لم يكن يعني أن عرشه كان في خطر[3].

قضى إدوارد معظم حياته قبل أن يكون ملكاً في نورماندي[4]، ولم يكن معروفاً لدى القادة الإنجليز، وذلك كان يعني أنه لن يستطيع أن يحلم على الأقل في فَتَحَ اعتلاء إدوارد لعرش إنجلترا الباب لتطورات سريعة للتأثير النورماني سواء أكان في الكنيسة أم في الدولة[5].

تربى إدوارد في نورماندي وكان نورمانياً أكثر من كونه إنجليزياً في تصرفاته وأفكاره[6]. وكم كانت جبهات حزبية ضاربة الإطناب منذ حكم الدانيين تواجهه دون أن تكون لديه القوة على التصدي لها أو اصطناع الحيلة لهدمها، ولذلك لم يجد بداً، في سبيل حماية ملكه وتدعيم سلطته، من أن يتزوج إديث (Edith) ابنة إيريل جودوين (Godwin)[7].

كان جودوين يعتبر من أقوى رجال حاشيته، وقد كان سيداً من السادة المحليين لكنه أصبح المسيطر الأول على مقاطعة وسكس بأكملها، ذلك النوع من الزواج ناسب طموحات جودوين حيث

---

(1) Maurois, The miracle of, P. 52.

(2) فشر، تاريخ أوروبا، ص 129.

(3) Brook, From Alfred, P. 83.

(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 60. غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 367. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 490.

Brook, From Alfred, P. 83. Maurois, The miracle of, P. 52.

(5) Haskins, The Normans, P. 73.

(6) Lamonte, The world of, P. 200.

(7) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 490، 491.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان يأمل بأن يلعب دوراً هاماً في إدارة قصر صهره[1]. ولم يحدث أن أكمل إدوارد أي زواج لـه لفترة طويلة، ولم يكن له ورثة مقربين منه ممن يستطيعون المنافسة على عرشه بعد موتـه حيـث مات ابن أخيه الوحيد قبله والذي لم يكن في الأصل أهلاً أو متشجعاً لاعتلاء العرش[2]. كما أنه عندما اعتلى إدوارد العرش كان يبلغ من العمر حوالي الأربعين عاماً، ولم يكن قد أنجب، لذا كان من المتوقع حدوث صراع حول من يخلفه على عرش البلاد[3]. كان إدوارد رجلاً إنجليزياً يتحدث بالفرنسية[4]، فأعاقته أساليبه الأجنبية ولسانه الأجنبي عن فهم من حوله[5]؛ فأحسّ بأنه غريب عن إنجلترا[6].

لذلك استعان بعدد من المستشارين النورمان في حكومته، حيث جلـب معـه الكهنـوت النورماني والموظفين والإداريين، وقام بتعيين روبرت والـي جـوميغز (Jumieges) كـرئيس لأساقفة كانتربوري[7]. والتف حوله النورمان وأيدوه تأييداً تاماً، ويُقال : إن بخلافته بدأ عـصر الفتح النورماني[8].

في السنوات الأولى لحكم إدوارد كان هنالك أعظم القادة الإنجليز وهـو جـودوين والـي وسكس، والذي كان يُسمى بصانع الملك، ذلك الرجل هو الذي أمَّن خلافة هارولد الأول كملك بعـد وفاة والده الملك كانوت، وربما كان هو من لَعِبَ دوراً قيادياً مكَّن من خلاله إدوارد مـن العـرش الإنجليزي سيطر جودوين وعائلته على جنوب إنجلترا وكانوا يُـسيِّرون الملـك حـسب أهـوائهم السيادية[9]. أثارت هيمنة جودوين على البلاط الملكي غضب النبلاء النورمان والسكسونيين على حد سواء؛ مما دفع إدوارد عام 1051م إلى إبعاد جودوين وأبنائه الخمسة من إنجلترا[10].

وفي تلك السنة ألغى إدوارد الضرائب الثقيلة التي كانت قـد فُرضـت علـى الـشعب الإنجليزي في عهد أبيه إثلريد التي كانت تُدفع للدانيين[11]، وفي نفـس العـام زار وليـام دوق نورماندیا إنجلترا، وقد ادعى وليام أن إدوارد قد تعهد له بولاية العهد في تلك الزيارة[12].

---

(1) Maurois, The miracle of, P. 52.
(2) Brook, From Alfred, P. 83.
(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 60.
(4) Maurois, The miracle of, P. 52.
(5) فشر، تاريخ أوروبا، ص 129.
(6) بيشوب، تاريخ أوروباه، ص 60.
(7) المرجع السابق، ص 60. غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 367.
Brook, From Alfred, P. 84. Lamonte, The world of, P. 200. Maurois, The miracle of, P. 52.
(8) Haskins, The Normans, P. 73. Lamonte, The world of, P. 200.
(9) Brook, From Alfred, P. 83, 84.
(10) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 491.
Lamonte, The world of, P. 202.
(11) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 491.
(12) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 60. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 491.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لم يكن إدوارد في الحقيقة يستطيع أن يُقدم التاج حتى لنفسه، ولكن ذلك الأمر كان يتم تنفيذه من قِبل مجلس الشورى الملكي، ومن الممكن أن يكون إدوارد قد عرضه على وليام، كما فعل نفس الشيء من قَبل مع هارولد بن جودوين، ومع سوين ملك الدانمرك. إن مثل إدوارد كان يُقارن بالعم الغني الذي وعد بثروته لأكثر من وريث من أبناء إخوته، لقد كان وعد إدوارد لوليام بمثابة اتفاقية هرئة، فقد فعلها مع أكثر من شخص، الأمر الذي جعل من تعهداته أمراً غير مُلزم[1]، إلى جانب ذلك فقد كان التاج الملكي الإنجليزي يُحاز بالانتخاب لا بالوراثة، وبإرادة المجلس الاستشاري الملكي[2]. وفي نفس العام أيضاً توفيت إيما أم ملك إنجلترا الراحل هارثا كانوت، بن كانوت، وأم ملك إنجلترا إدوارد بن إثلرد، ودُفنت في وينشستر[3].

قُبيل انقضاء عام 1052م رتب جودوين أوراقه من جديد للعودة وإعادة إصلاح ما وقع بينه وبين الملك، مع علمه أن الحكومة الشخصية التي كان يتمتع بها لم يعد لها وجود، وفي عام 1053م مات جودوين؛ فآلت سيادته وحصانته إلى ابنه الأكبر هارولد[4].

كان الملك إدوارد في أواخر سنوات حكمه مجرد صفر على اليسار في إنجلترا، فقد كان بطبعه لا يميل إلى المخادعة، وكان نشاطه قد تقلص بشكل ملحوظ من قِبل حاشيته، وكان جل اهتمامه في تلك الفترة إعادة تأسيس وبناء دير ويسمييينستر[5].

أنذر إدوارد بأن يحج إلى روما، لكنه تلقى إعفاءً دينياً من البابا العظيم في روما؛ لكونه أنشأ ديراً في ويسنمينستر، وانتقل للسكن بجواره تاركاً مكانه القديم في لندن. ذلك العمل الذي يعتبر صلاحاً وتقوى من قِبل إدوارد كانت له تداعيات عظمى لم تكن في الحسبان، فقد كان انتقال القصر الملكي من لندن قد بث في صدور اللندنيين روح الاستقلالية والذين مع الزمن كان لهم دور كبير في صياغة التاريخ الإنساني في العصور الوسطى[6].

ظلت قوانين إدوارد لزمن طويل يُعمل بها في إنجلترا والتي أقسم الملوك المتعاقبون على الحكم على صونها والعمل بها، وبالرغم من أن إدوارد لم يضف أي قانون منها إلا أنه كان

Dawson, Medieval Essays, P. 87. Lamonte, The world of, P. 202. Maurois, The miracle of, P. 52

(1) Maurois, The miracle of, P. 52, 53.

(2) Lamonte, The world of, P. 202. Maurois, The miracle of, P. 53.

(3) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 492.

(4) Brook, From Alfred, P. 84. Lamonte, The world of, P. 202.

(5) Brook, From Alfred, P. 84.

(6) Maurois, The miracle of, P. 52.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

آخر ملوك الأسرة الإنجلوسكسونية قبل سقوطها، ولذا فقد أصبح إدوارد رمزاً لإنجلترا المستقلة[1].

وبعد حُكم دام أربعاً وعشرين سنة توفي إدوارد ملك إنجلترا عام 1066م، ولم يعقب ولداً، ودُفن في لندن؛ فنشبت أزمة حول وراثة العرش في مجلس الوتيان، وتضاربت الآراء حول من ينبغي أن يحوز ذلك الشرف[2].

- مرحلة النزاع على عرش إنجلترا.

كان هنالك ثلاثة رجال يطمحون إلى نيل عرش إنجلترا وهم : وليام دوق نورماندي، هارولد الثاني حاكم وسكس، وهارولد الثالث ملك النرويج[3].

أما وليام دوق نورماندي والذي ادعى بأحقيته للمُلك، فلم يكن له أية علاقة نسب لا من قريب ولا من بعيد بينه وبين إدوارد، أما صلة القرابة فهي قرابة من جهة الأم[4]، فقد كان ذا صلة دم ضعيفة مع البيت الإنجلوسكسوني، حيث إن عمته إيما هي أم الملك السابق إدوارد، كما اعتبر أن إدوارد الذي قضى معظم حياته في المنفى في نورماندي أثناء الحكم الدانمركي (حكم أبناء كانوت) لإنجلترا كان قد وعده بولاية العرش أثناء زيارة قام بها وليام لإنجلترا عام 1052[5]، كما ذكرنا سابقاً.

كما ادعى وليام أن هارولد تعهد له بالولاء سنة 1064م، وذلك عندما أوقعت عاصفة بسفينة هارولد وهو يعبر القناة الإنجليزية، حيث أرسله إدوارد في سفارة إلى نورماندي، مما جعلته يقع أسيراً في أيدي كونت منطقة بونثيو (Ponthieu) فأنقذه وليام، وفك أسره شريطة أن يبايعه ملكاً وأن يكون بالمفهوم الإقطاعي الرجل التابع له، وقد جعله يقسم بالولاء على عظام القديس في كاتدرائية بايو (Bayeu)، مما عزز ذلك ادعاءات وليام في أحقيته بالعرش[6].

---

(1) Ibid, P. 52.

(2) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 493.

(3) غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 367.

Brook, From Alfred, P. 85. Dawson, Medieval Essays, P. 87. Hollister, Anglo-Saxon, P. 147.

(4) Maurois, The miracle of, P. 53.

(5) Dawson, Medieval Essays, P. 87. Haskins, The Normans, P. 73.

(6) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 493. بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 60، 61.

Brook, From Alfred, P. 85. Dawson, Medieval Essays, P. 87. Lamonte, The world of, P. 202. Maurois, The miracle of, P. 53. Haskins, The Normans, P. 74.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأمل وليام أن يساعده البابا هيلدبراند (جريجوري السابع) في ذلك، أما البابا فقد أمِل أن تكون للبابا اليد العليا في الحكم والسيطرة على جميع أمراء المسيحية قاطبة وأن يعطي ذلك الملك المرشح للعرش تعهدات بإبقاء الصلة بروما كما فعل كل ملك قبله. لكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه، هو : هل الحصول على القسم تحت الضغط والإكراه يعتبر مسألة قانونية؟ وحتى لو كان هارولد يتمتع بالحرية آنذاك فإن اختيار ملك إنجلترا لم يكن بيده[1].

وفي اليوم الذي أعقب وفاة إدوارد أي : السادس من يناير 1066م تم قبول هارولد ملكاً من قِبل مجلس الشورى الوطني[2]، وتم تتويجه ملكاً على يد كبير أساقفة يورك (York) في كنيسة ويستمنستر الجديدة[3]، ولم يُستشر وليام ولا غيره في ذلك التنصيب حيث لم يكن ضمن حسابات مجلس الشورى الملكي[4].

وفي ذلك الوقت كان هارولد أقوى الشخصيات في إنجلترا، وحاكم وسكس، وآخو زوجة إدوارد، كما كان طويل القامة، ضخم البنية، أشقر اللون، تماماً مثل غيره من الجرمان من أهل الشمال. كما كان جديراً بالاحترام، يتوقد حماساً ومرحاً، رياضياً، نبيلاً من الريف الإنجليزي، أصيلاً، حاز حب الناس أكثر من غيره[5].

كانت الاضطرابات الداخلية في إنجلترا، وعدم استقرار نوثمبريا، وتهديدات الغزو النرويجي، يتطلب وجود ملك ذا شخصية قوية وبأس شديد مثل هارولد لقيادة إنجلترا في مثل تلك الظروف، إضافة إلى الحاجة إلى عقد تصالح وطني بين الخصوم بعيداً عن الفرقة والمنازعات، وكانت الحسابات لتلك الفترة مبررة بما يكفي، فخلال الفترة القصيرة التي تولى فيها هارولد الملك، أظهر براعته وعزمه وشموليته على أكمل وجه[6].

فلم يكن طريق الملك هارولد ممهداً، بل كانت تهدده الأخطار، لا سيما من الخارج، إذ تحالف أخوه توستي (Tosti) مع ملك النرويج هارولد الثالث، بقصد غزو إنجلترا، وأدرك هارولد مدى الخطر المحدق بملكه، فأسرع بقواته نحو الشمال؛ لمواجهة قوات ملك النرويج

---

(1) Maurois, The miracle of, P. 53, 54.

(2) غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 367. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 494.
Brook, From Alfred, P. 85. Dawson, Medieval Essays, P. 87. Haskins, The Normans, P. 74.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 61.

(4) Maurois, The miracle of, P. 54.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 60.

(6) Brook, From Alfred, P. 85.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأخيه توستي، ودارت بين الفريقين معركة حامية عند مدينة ستامفورد (Stamford) قُتل فيها توستي وملك النرويج، ثم عاد بسرعة نحو الجنوب[1].

صمم وليام على أن يكون ملكاً على إنجلترا[2]؛ لذلك طالب الكينونة المسيحية في جميع أنحاء أوروبا فهم وإدراك العمل الإجرامي الذي قام به مجلس الشورى، والذي كان هو ضحيته، وقد أشار إلى أن هارولد قد اخترق القانون، ونكث عهده معه، وأنه سرق التاج لكونه لا يمت لإدوارد بأي صلة قرابة أو دم، واتهمه باغتصاب العرش عنوة. ولم يكن أحد يشك في نوايا وليام السيئة، وأن جلَّ ادعاءاته حول العرش باطلة، وكان الكل يعرف كيف أخذ العهد من هارولد، لكن وليام بدهائه حاول اللعب على القوانين للضغط على هارولد، وكان لذلك العصر قوانينه الخاصة به، التي تشبه إلى حد ما القوانين الدولية المعمول بها في العصر الحديث، والذي لم يكن يحترم تلك القوانين كان يُتهم بانتهاكها، وقامت روما بدعم الدوق النورماني؛ لأنه تعهد بتبني أفكار وأيدلوجية الراهب الأعظم في روما هيلدبراند (جريجوري السابع)، وأن يُصلح الكنيسة في إنجلترا[3].

أرسل البابا إلى نورماندي مرسوماً بحرمان هارولد وأنصاره[4]، مع راية حربية مكرسة (راية مقدسة) لذلك الغرض النبيل، وخاتماً ماسياً يحتوي على شعرة من شعر البابا إس تي بيتر، وإحدى أسنان القديس بطرس[5].

خلال الفترة التي مات فيها إدوارد وتُوِّج هارولد كملك، حتى عبور القناة الإنجليزية، كان وليام منشغلاً بتجهيز نفسه وجيشه لغزو إنجلترا، فقد كانت تلك الغزوة قد استنفذت الكثير من الجهد والعمل، حتى أن وليام استنفر جميع القوات العاملة في إقطاعياته المترامية للاندماج في صفوف الجيش النورماني المتجهة إلى إنجلترا[6]، فشملت قواته أعداداً كبيرة من المرتزقة والحلفاء من بريتاني وشمال شرق فرنسا وفلاترز، إضافة إلى أعداد أخرى من أجزاء مختلفة من فرنسا، ومستعمرات النورماني في إيطاليا، في حين كان هارولد قد جمع جيشاً كبيراً على الساحل الجنوبي لإنجلترا، وعدداً كبيراً من السفن؛ لحماية القنال الإنجليزية[7].

---

(1) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 494.

Lamonte, The world of, P. 202.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 61.

(3) Maurois, The miracle of, P. 54.

(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 61.

(5) المرجع نفسه، ص 61.

Maurois, The miracle of, P. 54.

(6) Haskins, The Normans, P. 74.

(7) Dawson, Medieval Essays, P. 88.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قام وليام ببذل الكثير من الوعود الخلابة والمغرية لأنصاره تتضمن حصولهم على كثير من الأرض، والغنيمة والمناصب والامتيازات الإقطاعية[1].

واجه وليام مشكلة النقل فلم يكن لدى النورمان أسطولاً، ولم يكن بمقدور وليام أن يصنع أسطولاً ضخماً خلال مدة أقصاها ستة أشهر، لكن أقرباءه ومواليه زودوه بما يقرب من 700 قارب لنقل الجنود بحراً إلى إنجلترا، وكانت كل الأمور على ما يرام بالنسبة لتجهيزات الجيش قبيل شهر أغسطس من عام 1066م[2]، وكان هنالك حسن إعداد وتمويلاً لتلك الحملة، لدرجة أن وليام حمل معه حصناً سبق تجهيزه، بحيث يتم تشييده فور وصوله إلى إنجلترا[3].

لكن قوارب العصور الوسطى لم يكن بمقدورها مواجهة العواصف البحرية، لذا فقد انتظر وليام –مدة ستة أسابيع– نسيماً عليلاً يُمكّنه من المضي إلى بغيته، وأخيراً قرر وليام الاستفادة من الرياح الغربية واحتشد الأسطول منتظراً إشارة التقدم[4]، لكنه كما يحدث في التاريخ البشري من مصادقات فإن ذلك التأجيل الغير مرحب به من قِبل قادة جيوش وليام قد حقق لهم انتصاراً سهلاً[5].

استطاع وليام خلال تلك الفترة المحافظة على تماسك جيشه، على العكس من جيش هارولد الذي عانى من نقص الإمدادات وتضاؤل الروح المعنوية لجنوده خصوصاً مع قدوم موسم الحصاد، كما قام بتجميع سفنه قبالة لندن تاركاً القنال بدون حراسة[6]، ومن ثم جاءت الأنباء بتحرك ملك النرويج بدعم من شقيقه، كما ذكرنا سابقاً، وبذلك اضطر هارولد من تحريك جيشه، وبعد عشرة أيام وقعت المعركة واستطاع الانتصار على ملك النرويج في 25 سبتمبر 1066م في معركة جسر ستامفورد[7].

وفي الوقت الذي كان فيه هارولد يكسب معركة الشمال تحرك وليام، وقادة جيشه بمباركة البابا الذي عادى أسرة جودوين[8]، وعبر القنال ليحط في خليج وسكس في 27 سبتمبر 1066م، وفي 28 سبتمبر بعد فَقْد سفينتين من أسطوله، وعند وصوله إلى اليابسة أخذ بيده حفنة من التراب معلناً للجميع أنه ملك إنجلترا[9].

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 61.

(2) Haskins, The Normans, P. 75.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 61.

(4) Haskins, The Normans, P. 75.
(5) Maurois, The miracle of, P. 55.
(6) Dawson, Medieval Essays, P. 88.
(7) Dawson, Medieval Essays, P. 88. Maurois, The miracle of, P. 55. Hollister, Anglo-Saxon, P. 148.
(8) Lamonte, The world of, P. 202.
(9) Dawson, Medieval Essays, P. 88.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وصل وليام إلى المنطقة المرتفعة شمال هاستنغز (Hastings)، ووجد موقعاً حصيناً عند قمة أحد التلال، محصن الجوانب، بحيث كانت مزايا موقعه تعوضه عن الإرهاق وعدم التنظيم الذي ساد معسكره[1]، وشيد قلعته الخشبية هنالك لإدارة العمليات منتظراً عودة جيش هارولد من الشمال[2].

اندفع هارولد بجيشه من الشمال وتبعه موركر وإيدوين[3]، لكنهم تأخروا، وتقابل هارولد والجيش النورماني الغازي في 14 أكتوبر 1066م في منطقة زراعية بين هاستنغز Hastings وسنيلاك (Senlac)[4].

ترك وليام وجيشه القلعة، ووقفوا في مواجهة عدوهم الذي تَمَتْرس بشكل دفاعي في تلة سيلنيكا على بعد 7 أميال من هاستينغز[5]. اقتربت أصوات التحذير بتقدم وليام للهجوم، فاندفع الإنجليز ليأخذوا أماكنهم مشكلين حائطاً دفاعياً في مقدمته خيرة الجنود، ومن خلفهم الرماة وأمامهم كانت الأرض تنحدر شيئاً فشيئاً بدرجة تسمح بالتحرك السريع لجنود المشاة المدرعين بملابس الزرد الثقيلة التي بلغ وزن الواحدة منها حوالي ثلاثين رطلاً، وفي منتصف الطريق وعلى المنحدر كان وليام في الطليعة ينشر جنوده المشاة مشكلاً جبهة عريضة[6].

استمرت معركة هاستنغز طوال اليوم وعلى الرغم من أن عدد الجنود في كلا الجانبين كان متساوياً إلا أن وليام كان لديه سلاح الفرسان والمشاة إضافة إلى الرماة، بينما كان لهارولد فقط سلاح المشاة التقليديين ممن يركبون الخيل عند تحريك الجيش وينزلون عنها للقتال وبعض الرماة[7]. قام هارولد بتشكيل جدار من الدروع على طول التلال وقد استطاع النجاح في صد هجوم جيش وليام، وألحق فيه خسائر فادحة؛ مما اضطر وليام للبس خوذته حتى ينفي الإشاعة القائلة بموته[8].

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 62.

(2) Dawson, Medieval Essays, P. 88.

(3) كان موركو هو الذي ولي حاكماً لنورثمبيا خلفاً لتوستنج الذي اشترك مع ملك النرويج ضد أخاه الملك هارولد، وكان موركو أخاً لأيدوين والي ميرسيا، فأراد هارولد أن يتحالف معهم بالمصاهرة، فتزوج بأختهما، وبذلك فهما شاركا معه في المعركة ضد ملك النرويج.

(Lamonte, The world of, P. 202. Hollister, Anglo-Saxon, P. 147).

(4) Lamonte, The world of, P. 202.

(5) Dawson, Medieval Essays, P. 89.

(6) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 63.

(7) Dawson, Medieval Essays, P. 89. Maurois, The miracle of, P. 55.

(8) Dawson, Medieval Essays, P. 89.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استخدم وليام كقائد الخدعة التقليدية المتعارف عليها في الحروب، وأمر بالانسحاب، فما كان من مشاة الجيش الإنجليزي إلا أن تركوا مواقعهم لمطاردة الجيش النورماني[1]، مما سمح للخيالة النورمان المتمترسين خلف المشاة بشن هجمات متكررة على أولئك الجنود وإلحاق خسائر بهم. وبدأ الأثر التدريجي لسهام النورمان بالظهور بإضعاف جدار الدروع الإنجليزية، وفي النهاية قام الفرسان بشن هجوم أدى إلى موت هارولد حاسمين المعركة وفر بقية الجنود الإنجليز خوفاً. ومن الملاحظ أن معارك ذلك الوقت نادراً ما استمرت أكثر من ساعتين، إلا أن معركة هاستنغز استمرت تسع ساعات؛ مما يدل على إصرار كلا الطرفين على حسم المعركة[2].

إن الأسباب التي تسببت في هزيمة هارولد كانت تبدو ظاهرة، فقد كان الملك يقاتل طيلة حياته في معركة أو اثنتين، لكن الجيش الذي قاتل عند جسر ستامفورد هو نفسه الذي انتقل للقتال سيراً على الأقدام لمدة أسابيع متواصلة، ومما لا شك فيه أن التعب والإرهاق كان المسيطر الأول على قدرات جيش هارولد ومن ثم تسبب ذلك في نهايته كملك وقائد[3].

تحقق النصر للنورمان في هاستنغز، ليس في المعركة فحسب بل وفي الحرب كذلك، وبوفاة هارولد وأخويه؛ ضاعت الزعامة الإنجلوسكسونية، ولم يعد هنالك منافسون خطرون لوليام على التاج الإنجليزي[4].

انتظر وليام مدة أسبوعين للحصول على الاستسلام الرسمي للعرش، لكن عوضاً عن ذلك أعلن مجلس النبلاء الإنجلوسكسوني الشاب إدغار أثيلينغ ملكاً على إنجلترا دون أن يتم تتويجه، وبذلك أصبحت وجهة وليام لندن[5].

كانت شخصية وليام تتميز بالذكاء العسكري والحنكة الدبلوماسية وبدلاً من مهاجمة لندن مباشرة، قام بتطويق المدينة وانتظر استسلام من فيها، وبدلاً من أن يعلن نفسه ملكاً على إنجلترا، انتظر أن يُقدَّم له التاج متمنياً أن يُظهر نفسه ملكاً شرعياً لا عدو مغتصب[6]، وقد أمر أن يكون تتويجه في لندن وبأن يُدعى وليام الأول ملك إنجلترا، وتحقق له ما أراد، وبذلك انتهت الحقبة الإنجلوسكسونية مع موت واستسلام آخر ملوكها[7].

---

(1) Maurois, The miracle of, P. 55.
(2) Dawson, Medieval Essays, P. 89.
(3) Hollister, Anglo-Saxon, P. 148.
(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 64.
(5) Dawson, Medieval Essays, P. 99.
(6) Maurois, The miracle of, P. 55, 56.
(7) Dawson, Medieval Essays, P. 99.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأخيراً : وفي يوم عيد الميلاد عام 1066م تقلد التاج[1] على بوابة مدينة ويستمينستر، ووضع حجر الأساس لبناء حصن على الضفة اليسرى لنهر التايمز الذي أصبح يعرف اليوم ببرج لندن[2]. وبذلك نجح وليام الفاتح في تكوين دولة جديدة حول القنال الإنجليزي، وبدأت مرحلة حكم الإنجلونورمان[3].

تؤكد لنا معركة هاستنغز على أن المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى مجتمعاً طواقاً للحرب، حيث إن تلك القبائل الغازية التي تكون منها ذلك المجتمع جُبلت على الحروب، ووُلدت وترعرعت على ذلك.

إضافة إلى ذلك فإن نظام الإقطاع الذي نشأ ونما وتطور في أوروبا في تلك العصور، بعد أن كان من أجل حماية المجتمع من تلك القبائل، أصبح عاملاً في مساعدة تلك القبائل على الحروب.

3- إنجلترا تحت حكم النورمان (1066-1097م).

كان احتلال إنجلترا من تصور وإعداد وتحقيق رجل واحد، دوق نورماندیا، وليام الفاتح[4].

وُلِد وليام الفاتح عام 1027م أو 1028م، وهو ابن غير شرعي لروبرت الأول الدوق السادس لمقاطعة نورماندي، وأمه هيرليف (Herleve)، لم تكن دوقة حيث كانت ابنة صانع جلود، وَقُبيل إبحار أبيه للحج إلى الأراضي المقدسة مع أنه لم يعد بعد ذلك أبداً، أجبر جميع بارونات على أداء قسم الولاء لابنه وليام البالغ من العمر آنذاك ثماني سنوات، وارتقاؤه للدوقية عام 1035م[5].

كان وليام من أبرز شخصيات العصر الوسيط، وكان من الصعب الكشف عن ملامح سماته، التي أصبحت أسطورية، فقد كان جلداً، مهيباً، قوياً، محباً للفروسية والصيد والحرب، فرض احترام سلطته على بارونات، وعَرِف كيف يستدر عطف شعبه بتأمين السلام في نورماندیا، وذلك

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 64. غريمال وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا، ج1، ص 367. فرغلي، اضمحلال حكم، ص 496.

Maurois, The miracle of, P. 56.

(2) Maurois, The miracle of, P. 56.

(3) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 496.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 685.

(5) عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 21.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاعتدال لم ينفِ عنده الطموح الواسع وإعداد الوسائل لتحقيقه، ففي أقل من خمسين عاماً استطاع أن يقوم بعمل من الطراز الأول أكد فيه قوة مفاهيمه وتحقيقها بأصول وصبر وثبات[1].

فتح الاحتلال النورماني لإنجلترا في العام 1066م، الباب لظهور مراحل تكوينية هامة وجديدة في تاريخ أوروبا تزامنت مع تطور ملموس في المنطقة المحتلة برمتها[2].

فكانت نتائج الانتصار النورماني ذات أهمية كبرى أثرت تأثيراً إيجابياً على إنجلترا، فقد عمد النورمان إثر دخولهم إليها إلى تطوير المناحي الحياتية فيها[3]، ذلك أن المغامرين الذين جاءوا من نورماندیا وآنجو، وبريتاني وفلاندرز، تحت لواء وليام، لم يأتوا إلى إنجلترا لقضاء حاجة في نفس الدوق أو البابا، بقدر ما أتوا لقضاء حاجة في أنفسهم، ثم أنهم لم يقاتلوا في سبيل إقامة ملك نورماني على عرش إنجلترا إلا بعد أن اطمأنوا إلى ما سوف يفيئون من أرض ومغانم إنجليزية[4].

لقد وجد النورمان فلاحين من أصول سكسونية ودانمركية يقطنون القرى ويقطعون الحطب من الغابات والمروج، ويلتفون حول كنيسة مبنية من الخشب، ولم يكن الكلتيين[5] والإسكتلنديين[6] من ضمن المملكة التي احتلها وليام، فالسكسون كالرومان لم يحاولوا احتلال القبائل الكلتية في الشمال والجنوب[7].

لم تكن موافقة مجلس الوتيان باعتلاء وليام عرش إنجلترا نابعة عن قناعة ولكنها تحت تأثير الخوف، وأقسم وليام باحترام القوانين الإنجليزية المتبعة في تلك المرحلة؛ لإرضاء الشعب الإنجليزي، ولكن حكم إنجلترا لم يكن سهلاً في مثل تلك الظروف، فقد كان الكثير من الأعيان يتحينون الفرصة لطرد وليام والنورمان من البلاد، واستمرت تلك المرحلة حوالي خمس سنوات[8].

---

(1) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 685، 686.

(2) Smith, A constitutional, P. 39.

(3) Haskins, The Normans, P. 81.

(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 163.

(5) قبائل الكلتس : إحدى القبائل الجرمانية المغيرة، وهي من القبائل الأشدوثنية في أوروبا في العصور الوسطى. (_____, The Columbia, Vol. 4, 1296).

(6) الإسكتلنديين : هم إحدى ثلاثة شعوب متميزة عاشت تحت سيطرة الرومان حين غزو بريطانيا العظمى، حيث عاشوا في الشمال فيما تعرف بإسكتلندا الآن التي لم يتغلغل فيها الرومان. (عمران، معالم تاريخ، ص 103، 104).

(7) Maurois, The miracle of, P. 56.

(8) عمران، حضارة أوروبا، ص 129.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لذلك كان الهم الأول للمنتصر إكمال عملية الإخضاع التام للسلطة وتنظيم العمل في الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم وتنظيم وتعديل الحكومة المركزية والمحلية في كل المقاطعات[1].

بالنسبة للملك القوي فإن مملكة إنجلترا أصغر من فرنسا، ومن الممكن أن يكون حكمها أسهل نسبياً من حكم فرنسا، فقد كان لها مؤسسات حكومية كثيرة ونظام مالي ونظام جباية، كل تلك الأدوات الحكومية استخدمت من قِبل الملوك النورمان لكن المؤسسات التي بنيت لاحقاً، والتي جعلت من إنجلترا دولة متميزة قد بنيت بأيدٍ نورماندية[2].

لقد أسس وليام الفاتح وطور قوة ملكية نظامية، واستخدم عامِلين سياسيين وعسكريين مهرة للمساهمة في الحفاظ على تلك القوة واستمرار فاعليتها[3]. لجأ وليام إلى القضاء على الأمراء بتجريدهم من أراضيهم التي هي مصدر قوتهم، ووزع الأراضي على رجاله المخلصين من النورمان، ولما كان أولئك النورمان مضطرين للدفاع عن أنفسهم؛ فقد بنوا القصور المحصنة، كما احتفظ وليام بأراضي شاسعة أصبحت ملكاً للتاج[4]. لقد قام وليام بتوزيع الأراضي على أتباعه المخلصين كمستأجرين، وفي حالة عدم وجود ورثة لهم فقد كانت تلك الأرض تعود إلى التاج، وبذلك كانت إنجلترا البلد الإقطاعي الحقيقي[5]، وعلى رأسه وليام الذي مَلَك كل الأراضي، وهو الذي وزعها على الأمراء النورمان؛ فتحول الشعب الإنجليزي إلى عبيد[6]، ولم يسمح لأحد من الإنجليز الأصليين أن يكون من طبقة مستأجري أرض التاج، واحتفظوا فقط بملكية أراضيهم تحت حماية بعض النورمان الأقوياء، وقيدوا أنفسهم وممتلكاتهم بأعباء باهظة نظير الإقطاعات التي أخذوها على أسلافهم[7].

الواقع أن عملية تقسيم إنجلترا إلى إقطاعات صادفت عقبات خطيرة؛ لأن وليام وأتباعه لم يعلموا شيئاً عن جغرافيا إنجلترا، فلم تتوافر لهم سجلات للأراضي، إنما كان لديه طريقتان : الأولى: أن يستخدم ما هو ثابت من التقسيمات الإقليمية التي وضعها الأنجلوسكسون، فيوزع إقطاعاته على أساس تلك التقسيمات، أو أن يفيد من الحيازات القائمة فعلاً، فيبذل على سبيل الإقطاع كل ما يملكه السكسون من أراض، والطريقة الأولى قد تؤدي إلى اعتبار الأراضي إقطاعات، ونظراً لأن ملاك الأراضي من الإنجلوسكسون قد تناثرت ممتلكاتهم وتشابكت، فإن

---

(1) Haskins, The Normans, P. 81.
(2) Maurois, The miracle of, P. 56.
(3) Smith, A constitutional, P. 39.
(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 129. يوسف، تاريخ العصور، ص 213.
(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 64.
(6) عمران، حضارة أوروبا، ص 129.
(7) عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استخدام الطريقة الثانية قد يحول دون قيام الإقطاعات المتماسكة. ولذا اختار وليام أن يستخدم كلتا الطريقتين[1].

جلب النورمان معهم كل الأفكار والمفاهيم الإقطاعية التي تقوم عليها بلدهم الأصلية نورماندي، إلى جانب المضامين الغربية التي كانت تتمثل في الإقطاع كنظام عام يحكم وينظم الشؤون الحياتية، وكانت في إنجلترا نظريات إقطاعية مشابهة لتلك الموجودة في نورماندي، لكنه لم يكن يوجد إقطاع بحسب المعنى الكامل للمعنى (غير منظم وغير معمول به كنظام أساسي)، ولم يكن يوجد نظام تملك أراضي زراعية مرصود ومحسوب، ولا نظام اجتماعي متجانس تعرف من خلاله جميع الحقوق والواجبات للمجتمع المدني داخل كينونة الدولة[2].

ونتيجة لذلك أصبح النظام الإقطاعي في إنجلترا أكثر مركزية، ومختلفاً عن النظام الإقطاعي السائد في القارة الأوروبية، خاصة وأن الكثير من الحروب التقليدية التي سادت المجتمع الإقطاعي الأوروبي في العصور الوسطى قد تلاشت؛ نتيجة لمركزية ذلك النظام في إنجلترا[3].

لقد ذهب وليام إلى إنجلترا ليس كمجرد أحد الغزاة، وإنما كما ادعى كصاحب حق شرعي في العرش إذ أنه ينتمي بصلة القرابة عن بعد إلى الأسرة الملكية الإنجلوسكسونية[4]، وأنه كما ذُكر تم تعيينه على يد الملك إدوارد المعترف، الذي كان قد مات دون عقب في أوائل 1066م[5].

ولما كانت الفوضى والحروب الخاصة طاغية على أوروبا مدة القرن الحادي عشر الميلادي، فلم يكن ثمة سبيل إلى إعادة نسيم الحرية إلى أوروبا إلا بعد استكمال ثلاثة من الأركان الرئيسة في الحكم، وهي :

1- قانون يحترمه الناس ويسيرون على هديه.

2- حصيلة مالية معلومة المبلغ والمواعيد.

3- قوة حربية كافية لشؤون الدفاع عن البلاد[6].

واجتمعت تلك الأركان في الحكومة التي تدين بها إنجلترا للملك وليام الفاتح، ولئن بدت تلك الحكومة استبدادية ملؤها القسوة، فإنها دلت آخر الأمر على ما فيها من مزايا[1].

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 496 (هوامش).

(2) Smith, A constitutional, P. 39.

(3) عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 26.

(4) هُلستر، أوروبا، ص 202.

Maurois, The miracle of, P. 59.

(5)هُلستر، أوروبا، ص 202.

(6) فشر، تاريخ أوروبا، ص 165.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الملك وليام الفاتح بحاجة إلى المال؛ لتوطيد مركزه ومركز أسرته، ولدعم إدارته المركزية، وتمويل مندوبيه المحليين ومؤسساته العسكرية، فأعاد فرض الضرائب التي ألغاها ملك إنجلترا السابق إدوارد، كما أمر أتباعه بتفتيش الأديرة في كل أنحاء الأراضي الإنجليزية قاطبة؛ بحثاً عن الأموال التي خبأها فيها الأغنياء من الإنجليز، وفي آخر عهده فرض ضريبة على كل الأراضي الإنجليزية، حتى غدت الضرائب في إنجلترا في عهد وليام الفاتح تتعدى كثيراً الضرائب في أي بلد أوروبي آخر، وكان ذلك المورد عاملاً من عوامل زيادة قوة الملكية الإنجليزية عن غيرها[2].

كما أمر وليام بعمل إحصاء رسمي ومسح للموارد الطبيعية في مملكته كلها، لم يشمل البشر فحسب، بل شمل الأبقار والخنازير، ذلك لأن أتباع وليام الجدد كانوا على يقين أنهم سوف يقومون بدفع ضرائب ثقيلة على كل الممتلكات التي سوف يتم تسجيلها، أما الممتنعون عن التسجيل فقد كانوا يحاكمون بشدة أمام محاكم هي أشبه بمحاكم العامة التي أُقيمت في كل مكان ليوم الحساب، لذلك فإن تقارير الإحصاء كانت ولا تزال تُسمى (دفاتر الأرض الزراعية)، وهي تُعد من أهم المصادر التاريخية القيِّمة في العالم[3].

دل كتاب الروك النورماني (Doomsday book) (الإحصاء الملكي) الذي تم إنجازه سنة 1086م رغبة في تنظيم ضريبة الدانيين على مبلغ الدقة التي بذلها عمال المالية النورمانية في الكشف عن كل مصدر من مصادر المال[4]، وأصبح ذلك السجل حكماً في جميع المنازعات العقارية بعد ذلك. وعقب الانتهاء من إعداد ذلك السجل دعا الملك وليام جميع الملاك، وكان عددهم حوالي ستين ألفاً إلى اجتماع عُقد في مدينة سالسزبوري (Salisbury)، حيث أقسم كل واحد منهم يمين الولاء والطاعة للملك[5].

كان الدخول النورماني إلى إنجلترا بمثابة عملية إعادة بناء، وإعادة تنظيم، وقد تطلبت كل الجهود النورمانية لإنجازها[6].

---

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 686. فشر، تاريخ أوروبا، ص 165.

(2) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 497.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 64.

(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 486. العريني، تاريخ أوروبا، ص 496. فشر، تاريخ أوروبا، ص 166.

(5) عمران، حضارة أوروبا، ص 130.

(6) Haskins, The Normans, P. 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصبح المجتمع الإنجليزي بعد الغزو النورماني مجتمعاً منظماً مثل تنظيم أمور العلاقات المهنية والتدريجات الوظيفية، فكانت الأنظمة تحدد علاقة العامل بالأرض ومن ثم المصدر الرئيس للقوة والثروة والنظام، وذلك كله يعني أن إنجلترا بدأت في الخضوع إلى نظام الإقطاع النورماني الجديد والذي سيطر على جميع أطر الحياة فيها[1]. واتبع وليام خلاله عملية توزيع الأراضي المصادرة على جنوده نظاماً معيناً فرضه العرف السياسي النورماني، وسهلت تنفيذه القوة السلطوية النورمانية؛ لكونها محتل يمتلك الفاعلية التنفيذية، فقُسمت إنجلترا إلى أجزاء عدة ونال كل نورماني منها نصيبه، وعندما اكتمل الاحتلال والتقسيم معاً، تم استثمار الكثير من البارونات في الأراضي المنتجة، والتي كانت بمثابة عِزب متناثرة ومتفرقة في جميع أنحاء إنجلترا، ولم يكن لدى المستوطنين في تلك المقاطعات أي إمكانية لتأسيس ولايات مستقلة في إنجلترا كما حدث من قبل في نورماندي نفسها[2].

وإذا كان معنى ذلك : أن وليام دعم الإقطاعية في إنجلترا، فمعناه كذلك : أنه حررها من أكبر شرورها في أمور الحكم؛ لأن وليام جعل التمليك على الإقطاعيات في إنجلترا كما في نورماندیا، من حقوق التاج مباشرة مقابل الخدمة الحربية في جيش الملك، ولم يسمح أن تغدو شؤون الحكم في الدولة وقفاً على الإقطاعيين يوماً من الأيام، بل حرص على أن تظل كلمة الملك هي العليا[3].

وبذلك فقد كان المستأجرون بشكل رئيس أو البارونات ممن آلت إليهم الإقطاعات الكبيرة، يقومون بإعالة أتباعهم بإعطائهم جزءاً من إقطاعياتهم، أي : منحهم جزءًا من الأرض في ظل الالتزامات التي تم فرضها على لأفصال، وهكذا كان هنالك حوالي خمسة آلاف من الفرسان تحت أمر الملك، ولكي يضمن وليام تدعيم حكمه؛ فإنه أمر بتشييد عدد من القلاع الملكية في شتى أنحاء الملكية[4].

وقد بُنيت تلك القلاع النورمانية في مناطق استراتيجية من إنجلترا على طول حدود ويلز، وكان نتيجة ذلك تحقيق فائدة ضخمة من حيث مستويات المعيشة الراقية[5].

كان عام 1072م بداية المرحلة الثانية لعهد الملك وليام في إنجلترا، وقد كانت الخمسة عشر عاماً التالية لتلك الفترة بالنسبة لإنجلترا أعوام سلام وأمن، فقد كانت الأحداث التي ميزت تلك الفترة

---

(1) Smith, A constitutional, P. 40.
(2) Davis, England under, P. 31.
(3) فشر، تاريخ أوروبا، ص 165.
(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 64. هُلستر، أوروبا، ص 201، 202.
(5) Smith, A constitutional, P. 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قد جرت على أرض غريبة بفعل السياسة القارية التي اتبعها وليام، والتي كانت أهدافها وسياساتها نورمانية بحتة، فقد اعتمد النورمان على الموارد الإنجليزية لتحقيق النجاحات المتوالية، لكنهم كان لهم الأثر البالغ إثر ذلك في جعل إنجلترا عضواً ضمن المنظومة الأوروبية. كانت تلك الأحداث صغيرة في حجمها لكنها كانت تنبئ بمستقبل التغيير في العلاقات الإنجليزية مع العالم المحيط بها، لكن لا يمكن شرح تلك الأحداث التي وقعت في فترة السلام، دون الرجوع إلى وصف الدولة والكنيسة والعلاقة بينهما والتي تماشت مع رؤية وليام السياسية هو ومستشاريه[1].

ورغم أن وليام استمد شرعية فتح إنجلترا من البابوية، إلا أن سلطته امتدت إلى رجال الدين، فلما فتح وليام إنجلترا وجد رجال الدين الإنجليز يعيشون حياة أقرب إلى الحياة المدنية من الحياة الكنسية[2]، فقد كانت سياسة إدوارد المتهورة والتي تمثلت في دعوة النورمان إلى إنجلترا قد شطرت الكنيسة من القلب وتركتها مؤسسة دينية واهنة، حيث كانت هنالك على مدار خمسين عاماً تقريباً هيكلية قيادة ضعيفة في الكنيسة، وقد عمها الفساد من كافة مناحيها الدينية والدنيوية حتى نُعتت بمواقع العفن والرُكام، لذا فقد كانت الكنيسة في إنجلترا في تلك الفترة في حاجة ماسة للإصلاح، فكان وليام ملكاً من الطراز القديم، حيث كانت فكرته في الإصلاح تعني : إنتاج كنيسة أفضل وقد أعلن منذ البداية أنه يعتبر نفسه رأس الكنيسة الأول في إنجلترا، لذا فقد قام بتعيين الأساقفة والرهبان واستثمرهم في العمل الكنسي وترأس المجالس الكنسية بنفسه، وقد أراد أن يعمل رجال الدين كباقي رجال الدولة الآخرين تحت تصرفه ومراقبته، وحسب ما يريده هو، كما رفض أي تدخل أجنبي في مملكته[3].

ولم يكن بوسع وليام إصلاح كل رجال الدين فاستبدل بعضهم برجال دين من نورماندیا، فاستقدم القساوسة والأساقفة ورؤساء الأديرة، وكان على رأس أولئك لانفرانك (Lanfranc) الذي أصبح رئيس أساقفة كانتربوري. وتعاون لانفرانك مع وليام وتم وضع نظام جديد للأديرة، وفُصلت المحاكم الدينية عن المحاكم الكنسية، والتزم وليام بتنفيذ كل الأحكام التي تصدر عن المحاكم الكنسية، وجمع العشور لمعونة الكنيسة[4].

---

(1) Davis, England under, P. 30.

(2) عمران، حضارة أوروبا، ص 129.

(3) Moor man, A history of the church, P. 59.

(4) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 469. عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 28-30. عمران، حضارة أوروبا، ص 130.

Moor man, A history of the church, P. 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان القائمون على الشأن الملكي كلهم من النورمان، ولم يكن أي شخص ينتمي إلى جنس الإنجلوسكسوني يمكنه الترشح لشغل مناصب عليا في الكنيسة، وحتى موت وليام، لم يكن هنالك سوى أسقفين ينتمون إلى الجنس الإنجليزي يقومون على ديرين من نفس الأصل (إنجليزي)[1].

وفي الوقت ذاته تعاظمت القوة البابوية عندما أصبح هيلدبراند بابا وكُني بلقب جريجوري السابع في عام 1073م، فنقم البابا وسخط على الحاجز الذي بناه وليام بينه وبين الكنيسة، لكن الملك ظل ثابتاً على موقفه، وكان من الممكن أن يسمح الملك النورماني باستقبال النصح والإرشاد من كنيسة روما، لكنه لم يكن يسمح بأي تدخل بابوي في شؤون الحكم في إنجلترا، وقد حاول جريجوري بالتدخل مرات عديدة، ولكن دون جدوى، محذراً وليام من مغبة العواقب التي سوف تلحق به؛ بسبب ذلك العصيان قائلاً : "إن ذلك سيجلب عليك عواقب سيئة فيما يتعلق بخلاصك من الذنوب، فهل تستطيع بعدها أن تتملص من طاعتي؟"[2]، لكن وليام كان يرى في نفسه أنه يستطيع، فلم يكن مستعداً في أي حال من الأحوال أن يخضع لما كان يعتبره أفكاراً سلطوية جديدة، ولكي يؤمن استقلاليته عن البابوية؛ أصدر عدة مراسيم ملكية، بألا يُحرم أي بارون أو وزير ملكي كنسياً دون الرجوع إلى الملك في ذلك الأمر، وألا يغادر أي أسقف إلى أي مكان دون إذن الملك، ولا يُسمح باستقبال أو قراءة أية رسالة ترد من البابا قبل تمريرها أو قراءتها للملك[3].

لكن من الإنصاف أن نذكر أن وليام شمل الكنيسة في إنجلترا بعطفه، وعمل على تدعيمها عندما خول المحاكم الكنسية حق الفصل في المخالفات الدينية التي يرتكبها العلمانيون، بعد أن كانت دور القضاء المحلية هي التي تفصل في ذلك النوع من المخالفات[4].

وسار وليام على نهج إدوارد المعترف كخليفة شرعي له، ووعد بالمحافظة على القوانين والتقاليد التي كانت سائدة على أيام إدوارد المعترف[5]. وحرص على قيام مجلس الدولة (الوتيان) بتتويجه، واستخدم المحاكم الجزئية والكلية القديمة في جميع شؤونه بعد أن حولها إلى محاكم إقطاعية[6]. ولم يَقم الملوك الإنجلوسكسون بإنشاء هيئات من المحلفين تساعد في الاقتصاص من المخالفين للقانون[7]، لكن النورمان قاموا بنقل نظام المحلفين المحليين عن الدولة الشارلمانية كأداة

---

(1) Smith, A constitutional, P. 39.
(2) Moor man, A history of the church, P.P. 59, 60.
(3) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 469.
(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 130.
Moor man, A history of the church, P. 60.
(5) هُلستر، أوروبا، ص 202.
(6) فشر، تاريخ أوروبا، ص 166.
(7) Maurois, The miracle of, P. 56.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لتقرير الأمور القضائية، واستحدث النورمان متجددات من القوانين والعادات، بفضل ما عكف النورمان أنفسهم على إدخاله في الحكم من نظام مركزي شديد[1].

وكان من أهم القوانين التي سنتها الشريعة النورمانية في إنجلترا، تلك القوانين المتعلقة بالإدارة الملكية حيال احترام القانون الخاص للدولة "إني آمر بأن يلتزم الناس بالقوانين التي سنها الملك إدوارد، والقوانين المضافة لها من قِبلنا؛ من أجل صالح الشعب الإنجليزي بأكمله"، كما قام وليام بسن قوانين جديدة وتعديل أخرى كان معظمها يتعلق بتنظيم الشؤون المدنية والكنسية في إنجلترا، وكان لدى وليام القليل من الميل للإعلان عن سياسته على الملأ، أو أن يدونها في بنود قانونية عريضة، ولا أحد يستطيع الجزم بأنه استطاع أن يتنبأ بالأثر الآني لتلك المعايير التي تبناها[2].

تحت قيادة ذلك الملك، نجح النورمان في جلب نظام جديد لم يُعهد في أوروبا من قبل وحققوا ثورة ونهضة في أسس البناء الاجتماعي، وقد استطاع النورمان تحقيق تحول جذري ملموس في العديد من المجالات الأخرى، واستطاعوا تحقيق كل ما تخيلوه وحولوه إلى حقيقة واقعة بعيدة عن درب الخيال، ولم يضيعوا الفرصة في التقدم نحو أهدافهم[3].

فلم يقم ملوك الإنجلوسكسون بإنشاء المؤسسات التعليمية، فلقد كانت المؤسسات الوحيدة التي بناها الملوك السكسون والتي ظلت متواصلة، هي تلك المؤسسات التي كانت تقوم على تنظيم الحياة القروية مثل الاقتصاد في النفقات الزراعية وتوفير البهائم للحرث وتوفير كل ما يلزم الأمور الزراعية، فتحولت الجمعيات القروية في عهد النورمان إلى دوائر حكومية رسمية حيث واصل الإنجليز مشاركتهم في تولي مهام الحكم عبر الجمعيات والهيئات الاجتماعية[4].

كما أن الغزو قد أحدث تحولاً في البنية الاجتماعية في إنجلترا، حيث أخذت الأرستقراطية الإنجلوسكسونية القديمة في الاختفاء، ولم يعد لها أثر، حيث ذابت وسط أصحاب الإقطاعيات الزراعية[5].

أصبحت إنجلترا بمثابة دولة تابعة للإمبراطورية النورمانية، ولكن الناس هنالك لم يكونوا بعد قد لاحظوا ما سوف تؤول إليه الأمور من تقارب وارتباط بين الشعب الإنجليزي والنورماني[6]. ولم يضع الغزاة حداً للخط المتواصل للأساقفة الإنجليز فحسب، بل وضعوا حداً

---

(1) فشر، تاريخ أوروبا، ص 166، 167.

(2) Davis, England under, P.P. 30, 31.

(3) Smith, A constitutional, P. 39.

(4) Maurois, The miracle of, P. 56.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 65.

(6) Haskins, The Normans, P. 82.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

للثقافة الإنجلوسكسونية برمتها، ولم يسبق أن انصهرت ثقافة في ثقافة أخرى بالسرعة والسهولة التي انصهرت فيها الثقافة الإنجلوسكسونية في الثقافة النورمانية، وذلك في الثلاثين سنة الأولى من الاحتلال النورماني لإنجلترا[1].

تحولت إنجلترا بفعل اندماجها مع الدولة النورمانية إلى الوجهة الجنوبية وأقحمها ذلك الاندماج في خضم التيار الأوروبي الجارف وفي أزمات سياسية وروابط دينية وتأثيرات ثقافية بديلة، وأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا، لذا فقد دخلت في عالم حياتي آخر كانت تنتمي إليه فرنسا، حتى أنها أصبحت تتكلم بكلام فرنسا، وتلقت أدب فرنسا وفنون فرنسا، وأصبحت قوانينها فرانكونية بحتة وأصبحت مؤسساتها مؤسسات إقطاعية كاملة[2]. كما ظهرت ملامح ذلك التحول على الكنيسة من خلال الأنظمة البنائية الجديدة التي اتبعتها الكنائس في إنجلترا، حيث تم هدم الكثير من الكنائس المبنية على الطراز الإنجلوسكسوني واستبدلت بتصاميم معمارية جديدة[3]، فحيثما كان السادة النورمان، سواء أكانوا في معاقلهم، أم في مجالس الحكم، أم في ميادين الصيد والطرد، بل حيثما اجتمع أولئك السادة في عمل أو لهو، لم تكن تسمع منهم إلا لسان الفرنسيين، ومعنى ذلك : أنه لم يعد ثمة أمل في تطور الحياة بإنجلترا على اسس إنجلوسكسونية خالية من التخليط الأجنبي[4]. وفي سنة 1087م استقر ما يقرب من مائتي ألف من النورمان والفرنسيين في إنجلترا، وانخرطوا في السكان المحليين، الذين زاد عددهم إلى أكثر من المليون. وكان كثير من الفرسان الجدد القادمين قد تزوجوا بفتيات محليات، وسرعان ما أخذ أولادهم يتحدثون الإنجليزية أكثر من الفرنسية، إضافة إلى ذلك فإن فترة حكم وليام القوية قد حققت لإنجلترا الأمن والنظام، ذلك أنه كان في استطاعة أية فتاة أن تمر في إنجلترا من أقصاها في سلام بما تحمله من ذهب، وفي أمن حسبما ذكر ذلك أحد المؤرخين[5].

وفي مجال الصراعات الخارجية فقد كان أهمها الصراع مع فرنسا، فقد كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر سيداً على كبار الأمراء الإقطاعيين، لكنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على أفصاله من الدوقات والكونتات؛ لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقاً بأن الملك الفرنسي هو سيدهم الأعلى، ومن الناحية العملية، فإن ملك فرنسا سواء أكان من الكارولنجيين أم من أسرة كابيه بعد عام 987م لم يكن هو الآخر أكثر

(1) Moor man, A history of the church, P. 60.
(2) Haskins, The Normans, P. 82.
(3) Moor man, A history of the church, P. 61.
(4) فشر، تاريخ أوروبا، ص 164.
(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من مجرد دوق باريس. ولذلك فإن الدوق النورماني الذي أصبح ملكاً على إنجلترا بعد عام 1066م غدا من الناحية العملية ملكاً نورمانياً في المقام الأول لا مجرد فصل إقطاعي للملك الفرنسي[1].

وبسبب سياسة فيليب الأول ملك فرنسا التي حققت نجاحاً حقيقياً بين عامي 1076و 1079م، قرر وليام الفاتح أن يكسر جهده قبل أن ينمو، لكن تنظيم إنجلترا أجّل مشاريعه الهجومية. وفي آب 1087م اتخذ ذريعة غارة فرسان فرنسيس على الفيكسان النورمانية[2].

انتقل وليام من إنجلترا إلى القارة الأوروبية؛ ليحارب من مدينة رون (Rouen) الواقعة على نهر السين شمال غرب باريس، وتطورت الأحداث، وأحرق وليام مدينة مانت (Mantes) الواقعة على مصب نهر اللوار (Loire)، ولم يكتف بذلك بل أحرق ما جاورها، وفي غمرة ذلك النصر سقط وليام من على فرسه وأُصيب إصابة قاتلة؛ مات بسببها بعد قليل عام 1087م[3].

قام وليام الفاتح بتقسيم أملاكه بين ولديه قبل وفاته، فعهد إلى ابنه الأكبر روبرت بدوقية نورماندیا،وجعل إنجلترا من نصيب وليام (الثاني)، أما الابن الثالث وهو هنري، فحاز إقطاعاً صغيراً في نورماندیا[4]، وهو هنري الأول الذي تولى حكم إنجلترا بعد أخيه وليام (1100-1135م)[5].

- وليام الثاني : (1087-1100م).

لقد احتُرمت إرادة وليام الفاتح الأخيرة، فقد خلف روبرت أباه على نورماندیا دون صعوبة مقابل بعض التنازلات للإقطاعية، واستلم وليام الثاني التاج في إنجلترا بمساعدة لانفرانك، الذي أمَّن له مشايعة مجلس الوتيان، وأقسم أن يحكم حسب قوانين العدل وأن يتكيف مع آراء الكنيسة ويحترم حرياتها[6].

لكن وليام حكم البلاد حكماً استبدادياً، وظل وليام على ذلك الحال حتى عام 1093م[7]. فقد تطرف وليام في معاملة الكنيسة؛ مما هدد بوقوع صدام عنيف بين الطرفين، لولا وفاة لانفرانك، على أن أنسلم -رئيس أساقفة كانتربوري التالي- أصر على مبدأ سمو الكنيسة حتى

---

(1) عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 24، 25.
(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 782.
(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 246.
(4) العريني، تاريخ أوروبا، ص 501.
(5) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 246.
(6) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 783.
(7) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 247.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوشكت العلاقات بين الكنيسة والدولة في إنجلترا أن تنذر بصدام عنيف يساير تيار النضال الذي اشتد بين البابوية والإمبراطورية في ذلك العصر حول التقليد العلماني[1]، وأراد أنسلم أن يتخلى عن مسؤولياته أمام البابا أوربان الثاني، فلم يقبل استقالته لصالح الكنيسة، وفي مجمع باري 1097م، هدد البابا وليام الثاني اللعنة والحرمان، وقامت مفاوضات بذلك الشأن، ولكنها قُطعت بوفاة البابا 1099م والملك 1100م[2]. لكن أنسلم لم يقم بأي محاولة للعودة إلى إنجلترا طوال حكم وليام الذي انتهى باغتياله بيد مجهولة أثناء الصيد[3].

لم تترك المعارضة لوليام الثاني في إنجلترا متسعاً من الوقت للاهتمام بشؤون القادة، ومع ذلك فقد حاول أن يجمع قِطاعي الدولة الإنجلوسكسونية–النورمانية، بطرد أخيه روبرت لكنه ما لبث أن عاد عن ذلك، وفي سنة 1096م ذهب روبرت إلى الحرب الصليبية؛ فعهد إلى أخيه بحكم الدوقية في غيابه، فأفاد وليام من ذلك لمعاودة سياسة التوسع التي قطعها موت أبيه، وفي عام 1097م طالب فيليب الأول بالفيكسان، ومُدن : بونتواز، شومون، ومانت، فقوبل بالرفض؛ فعادت الحرب في تشرين الثاني 1097، وقد كُلف من الجانب الفرنسي الابن الأكبر لفيليب الأول، لويس، بصد الهجوم الذي انتهى بانتصار الفرنسيين[4].

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 470.

(2) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 783. عبد المجيد، دور إنجلترا، ص 46، 47.

(3) عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 247.

(4) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج1، ص 784.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الرابع

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في غرب أوروبا من القرن التاسع وحتى القرن الحادي عشر (الإقطاع)

أولاً : نظام الإقطاع.

ثانياً : أركان الإقطاع.

ثالثاً : جانب من حياة المجتمع الأوروبي في ظل النظم الإقطاعية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن اقتصاد القرن التاسع في المجتمع الغربي كان اقتصاداً طبيعياً، يتصل أساساً بالأرض، بينما تدهورت المدينة باقتصادها النقدي، وتوقفت عن أن تصبح مراكز تجارية كما كانت من قبل، وقل عدد سكانها، واختفى التجار الذين كانوا ذات يوم يترددون عليها أو يقيمون فيها، كما اختفى مع المدن الطابع المدني الذي كانت لا تزال تحتفظ به خلال العصر الميروفنجي[1] Almirovnge. وحول المدن المتدهورة ظلت الأراضي الزراعية والأطيان الشاسعة تحيا حياتها الخاصة[2].

لذلك فإن المتحدث في اقتصاد العصور الوسطى قد تناول ذلك الموضوع من ناحية الإقطاع. ونحن بصدد تلك الدراسة تناولنا موضوع الاقتصاد بالحديث عن الإقطاع (Feudalism).

أولاً : نظام الإقطاع.

في أي تاريخ مفصل للحضارة، لا بد أن يُعطى الإقطاع مساحة كافية من الشرح والتوضيح؛ لأنه كان الحيز الأكبر الشامل للحياة السياسية في العصور الوسطى، حيث إن الإقطاع كان مصدر المبادئ التشريعية وصائغ الأفكار الاجتماعية التي كانت سمة تلك العصور[3].

وكانت الصعوبة في إيجاد تعريف واضح لكلمة الإقطاع تكمن في اختيار علماء التاريخ لمصطلحات ارتبطت بالإقطاع مثل : النبالة والسيادة، لكن المتأمل في الحياة الإقطاعية يجد أن مصطلح الإقطاع ضم في طياته جميع الطبقات الاجتماعية من رجال ونساء وخدم وعبيد وسادة. ولم يرتكز الإقطاع على الوضع الاجتماعي والاقتصادي فقط لتلك الطبقات، بل كان يجنح إلى التدخل في تشكيل الحياة السياسية والأخلاقية وحتى الالتزامات الدينية التي كانت تمارسها الشعوب العامة تحت ظل الإقطاع[4].

---

(1) الميروفنجيين : اسم للدولة الفرنجية التي أسسها كلوفس (Clovis) ببلاد غاليا الرومانية في أوائل القرن السادس الميلادي، وقد ظلت تلك الدولة حتى أواسط القرن الثامن الميلادي، وذلك حين حل محلهم الكارولنجيون الذي أسس شارلمان إمبراطوريتهم الواسعة بغرب أوروبا. (كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 10 هامش رقم (1)).

(2) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 112 هامش رقم (1).

(3) Adams: Civilization, P. 189.

(4) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 15.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبذلك كان الإقطاع يشكّل نظاماً دينياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً، على حد سواء.

1- تعريف الإقطاع.

كلمة إقطاع مأخوذة من كلمة (اقتطاعية)، وهي قطعة أرض أو قطع أراضي يُشرف عليها سيد أو نبيل من أجل الاستفادة منها[1].

يُقال إن كلمة إقطاع (Feudalism) لم تكن اصطلاحاً مستخدماً في العصور الوسطى، فقد ابتكرها رجال القانون الإنجليزي والفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر[2]، عندما وجهت الثورة الفرنسية سنة 1789م عناية العلماء والباحثين إلى بعض خصائص الأنظمة القديمة. ومنذ ذلك الحين أصبحت كلمات مثل (الإقطاع)، و(النظام الإقطاعي)، و(القن)، و(القنية) وغيرها لها مكانها في المعاجم والقواميس، وأصبحت تكون جزءاً من حصيلة المصطلحات التي يستخدمها الكُتّاب والمؤرخون المحدثون[3].

وعندما سُئل أحد المؤرخين عن تعريف الإقطاع رد بإجابتين كان لهما الأثر في قراءات المختصين بتاريخ العصور الوسطى من مؤرخي القرن العشرين :

الإجابة الأولى :

أن الإقطاع كان ينتمي إلى مجموعة من المؤسسات القائمة على الأراضي المقتطعة، وإلى نظام المبايعة الذي نشأ وترعرع في حضن الدولة الكارلونجية، وشبَّ مع بداية القرن الحادي عشر، ثم بدأ يشيخ ثم يهرم ثم اختفت آثاره بشكل كبير؛ بسبب تزايد القوة الملكية فوق قوة النبلاء.

الإجابة الثانية :

أن الإقطاع كان يرجع إلى المجتمع الإقطاعي ككل، الأمر الذي جعل من الاقتطاعة والملكية ليست بالأمر المهم أو المقصود من ذلك النظام.

إن الفرضية الثانية تلك مكملة للفرضية الأولى، وهي جزء لا يتجزأ منها بالرغم من وجود بعض المفارقات[4].

---

(1) Smith, Aconstitutional, P. 40.

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 330. كولتون، عالم العصور، ص 39 هامش رقم (1). الشيخ، النظم والحضارة، ص 9.

(3) كولتون، عالم العصور، ص 39 هامش رقم (1). يوسف، تاريخ أوروبا، ص 107.

(4) Poly and Bournazel, The feudal, P. 1.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالإقطاع إذاً : هو نظام شامل لعدة أنظمة تحكم المجتمع، وهو يوضح أو يحدد موقف الفرد وعلاقته بمن هو أعلى منه، وبمن هو أدنى منه، ويتضمن نظاماً اقتصادياً يعتمد أساساً على الأرض الزراعية[1].

وبذلك يكون الإقطاع بصورة أوضح هو مجموعة من النظم والقوانين خضع بموجبها رجل حر لرجل حر آخر هو السيد، أدى له يمين الولاء والخدمة لا سيما الخدمة الحربية، ونظير ذلك التزم السيد بحماية تابعه والإنفاق عليه، ثم تطور الأمر حد منحه قطعة أرض اتخذت اسم إقطاع[2].

لذلك فإن نظام الإقطاع يرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً، تلك الأرض كان الإمبراطور يهبها للملوك، وأولئك يمنحونها للأشراف والنبلاء، وأولئك لمن دونهم، وهكذا إلى أن تصل إلى رقيق الأرض في أسفل السلم الإقطاعي، ويتوارث حق استعمال تلك الأرض الابن عن أبيه بعد أن يتعهد القيام بواجباته الإقطاعية لسيده المتبوع[3].

وربما كان من الصحيح أن نقول : بأن الإقطاع حالة لم يتم فيها إحلال السلطة على أسس تحالفية شعبية قومية من قبل الأفراد تجاه حكومتهم المركزية، ولكنها وُضعت على أسس خاصة تتعلق بالأفراد فيما بينهم، تلك العلاقة التي جعلت من السيد شخصية نمطية مالكة للأرض لها مميزات الحاكم والقائد الحربي، فيما يظهر التابع متلقياً لكل تلك الأمور، ومسيطراً عليه فيها[4].

2- أسباب ظهور الإقطاع.

في القرن السادس الميلادي اتحدت ظروف شتى مع بعضها البعض، وأثرت تأثيراً كلياً في تحول الاقتصاد في الغرب الأوروبي، وساهمت تلك الظروف إسهاماً تاماً في التجهيز لظهور نظام الإقطاع[5].

كانت التجارة والصناعة في غرب أوروبا نادرة الوجود بالنسبة للشرق الأوروبي، إلا أن بعض النشاطات التجارية ظلت نشطة في حوض المتوسط، أما التجارة البرية فكانت ضئيلة لأبعد الحدود[6].

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 121.
(2) الشيخ، النظم والحضارة، ص 9.
(3) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 108.
(4) كولتون، ص 41، 42 هامش رقم (1).
(5) Durant, The Age of, P. 552.
(6) Lamonte, The world of, P. 229.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان سبب تقلص التجارة البحرية هو ارتفاع تكلفة عمليات النقل البحرية، مقابل أرباح قليلة، حتى في عهد الدولة الكارولنجية كان التجار قلائل. إضافة إلى استيلاء المسلمين في تلك الفترة على المناطق الساحلية للمتوسط[1]، فقد احتلوا عدة جزر في البحر المتوسط مثل جزيرتي صقليا ومالطا، وفي مطلع القرن الثامن استولوا على معظم الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا)[2]، إضافة إلى تعرضها لتهديدات أتت عبر البحر وهي هجمات (الفايكنج) التي بدأت في مطلع القرن الثامن الميلادي، واستمرت حتى القرن الحادي عشر، وقد وصف السجل التاريخي الفرنسي الدمار الذي لحق بفرنسا بشيء من الأسى، حيث وصف أعداد السفن التي كانت تزداد من فترة لأخرى عبر البحر، والتدفق الغير منقطع للفايكنج؛ ونتاج ذلك كان آلاف القتلى من المسيحيين؛ جراء المذابح التي كانت تُرتكب بحقهم من قِبل الفايكنج إلى جانب عمليات الإحراق والنهب والسرقة، ووصف السجل التاريخي ذلك بالقول بأن تلك المذابح والهجمات ستظل علامة في جبين التاريخ ما بقي العالم والناس![3].

ومع نشوء الممالك الألمانية، انقطعت سبل التجارة في العالم الروماني والغربي؛ مما دفع التجار لسلك الطرق الرومانية القديمة، ولم يكن هناك توقفاً تاماً للتجارة، فقد كانت هناك دائماً قلة من التجار الذين غامروا بحياتهم وبضائعهم في تلك الطرق الوعرة[4].

استمرت التجارة لكن ليس في أي من أساسيات الحياة، ولكن في مواد الرفاهية، والتوابل والمواد اللازمة لثياب البلاط وملابس رجال الكنيسة، حيث إنها كانت بضائع لا تواجه مشكلات كثيرة في الشحن[5].

ومعظم أولئك التجار المتجولين حملوا بضائعهم على ظهور الخيل؛ بسبب وعورة المسالك التي حالت دون تحميل البضائع على العربات[6].

وكان للحروب والغزوات الجرمانية أثر على تحطم الطرق، كما نبعت خطورتها من انتشار قُطّاع الطرق فيها، فلم يعد هناك سبيل للحفاظ على الاتصال والتبادل التجاري[7].

---

(1) Lamonte, The world of, P. 230.
(2) Speed (editor), Those who fought, P. 8.
(3) Ibid, P. 7, 8.
(4) Lamonte, The world of, P. 229.
(5) كين، حضارة أوروبا، ص 49.
(6) Lamonte, The world of, P. 229.
(7) Durant, The Age of, P. 552.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن أي أُنموذج سكاني مثل ذلك الأُنموذج يمتلك مثل تلك الصعوبات في الاتصال والمبادلة، وجد الحكام صعوبة في إدارة شؤونه والسيطرة عليه؛ لذا كان الخلل والفوضى هما سيدا الموقف في تلك الفترة[1].

في الوقت الذي لم تعد فيه المدن الإيطالية والفرنسية آمنة؛ بسبب غزوات الفايكنج من القرن الثامن حتى العاشر الميلادي، انتقل الأرستقراطيون والنبلاء إلى دورهم الفخمة الريفية، وأحاطوا أنفسهم برجال من المزارعين كانوا يعملون عندهم، واستعملوهم لأغراض الحراسة[2]، وقد أقيمت قصور أولئك الأمراء في قلب أطيان الأسرة الحاكمة، فأقيمت في هريستال Hearstal، وفي جوبيل Jobel، وفي ميرزن Mirzn بوادي نهر الميوز Almioz، وفي أنجلهايم Ingelheim على نهر الراين، وفي أتيجني على السين وغيرها[3]. وفي تلك الأثناء ظهرت الصوامع وقد دأب رهبانها على حرث الأرض والاشتغال بالمهن الحرفية، حيث بدأت الكنيسة تمثل الحركة المركزية المتجهة إلى اقتصاد شبه منعزل في الريف. ولم يعِ الناس تلك التطورات، ففي جو القتال والحرب والاحتمال الوشيك لأي هجوم كان الناس يدأبون على الالتحاق بالتشكيلات الأمنية التي شكلها السادة والأساقفة، وقد كانوا يبنون بيوتهم بجانب بيت نبيل أو سيد من السادة، أو بجانب صومعة ما؛ طلباً للحماية أي: بجانب أي شخص له القدرة على القيادة. ولكن فهم أولئك السادة للرعية كان مغايراً، فقد كان الرجال الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم، يَعرِضون ممتلكاتهم إلى جانب خدماتهم على أحد النبلاء مقابل الحماية والإيواء، وبالتالي كان النبيل يمنح أولئك الرجال قطعة صغيرة من الأرض بجواره قابلة لإلغاء الملكية في أي وقت[4].

وبانتهاء التجارة انتهت مدن بأكملها، وتحولت معظم المستعمرات الرومانية إلى مجرد قرى يقطنها عمال زراعيون؛ مما تسبب في شبه انتهاء للصناعة المدنية لغرب أوروبا التي انخفضت بشكل مريع، عدا عدة مدن في إيطاليا، وقد اعتمدت أوروبا في تلك الفترة بشكل كلي على الاكتفاء الذاتي بالناتج المحلي؛ فلم يعد هناك طلب على المواد المصنعة[5].

وفي خضم تلك التطورات التي تسببت في نشوء ممالك جديدة، تطور ما يُعرف باسم نظام الإقطاع، الذي يعتقد أحد المؤرخين أنه ربما نبع من قلب القبائل الجرمانية[6] والذين كانوا

---

(1) Speed (editor), Those who fought, P. 7.
(2) Durant, The Age of, P. 553.
(3) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 112 هامش رقم (1).
(4) Durant, The Age of, P. 553.
(5) Lamonte, The world of, P. 330.
(6) القبائل الجرمانية : هي فرع من الجنس الأوروبي الهندي، وصلت إلى أوروبا عن طريق هجرة من الشرق صوب الغرب منذ زمن بعيد، فتحركت صوب الإمبراطورية الرومانية، وكانت أكثر المجموعات البربرية تأثراً بشكل فعّال ومباشر في تطور تاريخ غرب أوروبا. (عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 64، 65).انظر الملحق رقم (11).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقاتلون ضد الإمبراطورية الرومانية[1]. وقد يذكر آخر : أن الإقطاع ظهر بسبب ظروف وأحوال الإمبراطورية الرومانية في أواخر عهدها، ومع أن الألمان قد أجروا تعديلات على المؤسسات الرومانية إلا أن تأثيرهم لم يكن بشكل فاعل[2]. لكن كانتور قال : "إن هناك نقاش كبير حول ما إذا كانت النظم الإقطاعية رومانية أم جرمانية في الأصل، وقد رأى أن همزة الوصل التي تربط بين النظم الإقطاعية في القرن العاشر قد تكونت من خلال أشكال سياسية وقانونية واقتصادية معينة، جرمانية في بعض الأحوال، ورومانية في أحوال أخرى؛ وذلك لحاجة اجتماعية بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب"[3].

ونوافق كانتور في الرأي، حيث إن النظام الإقطاعي نشأ نتيجة أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية، طغت على المنطقة، وفرضت عليها أوضاع جديدة، ونظام مختلف، عُرف فيما بعد بنظام الإقطاع.

3- أنظمة وإجراءات الإقطاع.

أجمع الكثير من العلماء على أن الإقطاع ونظمه ارتكزت بشكل كبير على نظام الولاء بمعنى الالتزام الشخصي والروحي بين القوي والضعيف وبين السيد والتابع، ولو أخذنا ذلك المفهوم (الولاء) على أنه التعبير الأساسي للمثالية النظامية للإقطاع، فسوف ندرك قوة تلك المثالية كقوة سائدة في العصور الوسطى إلى جانب مفهومين هامين هما التسلسل التنظيمي ورابطة القَسَم، جميع تلك المفاهيم كانت واضحة وجلية في طقوس التنظيم الإقطاعي، لكن من مارسها وعمل بها، قد ترك لنا معلومات تكاد تكون شبه معدومة عن تلك الطقوس، كما أنهم لم يتركوا لمن خلفوهم رموزاً مفسرة لتلك المفاهيم وكيفية ممارستها على النحو الحقيقي الذي كان يمارس في تلك الفترة[4].

تطورت العلاقة بين رئيس القبيلة والرعية من خلال العلاقة الإقطاعية بين السيد والمستأجر، ذلك التطور كان عبارة عن حبل كثير العُقد ومفرط الخيوط. وكان أول خيط من خيوط تلك العلاقة المتشابكة هو عملية أداء يمين الولاء؛ وذلك نتيجة قريحة الإمبراطورية الكارولنجية[5]، فقد ورد في تاريخ الدولة الكارولنجية من القصص التي كانت تركز على وصف

---

(1) Speed (editor), Those who fought, P. 9.
(2) Lamonte, The world of, P. 208.
(3) كانتور، العصور الوسطى، ص 334.
(4) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 16.
(5) Speed (editor), Those who fought, P. 9.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عمليات إدلاء يمين الولاء، وكان أشهرها القسم الذي عقده تاسيلو دوق بافاريا للملك بيبن الثالث[1] ملك الدولة الفرانكونية[2].

كانت الطقوس الإقطاعية تتمثل في ثلاث مهرجانات كبرى أولها : مهرجان البيعة، وثانيها: الاحتفال بعقد اليمين، وثالثها : الاحتفال بتولية التابع قطعة الأرض التي سيقوم على خدمتها[3].

كانت عملية حلف اليمين تحظى بمهرجان خاص، وكان التابع أو قيم الإقطاعية يقسم على الولاء للسيد والإخلاص له في جميع الأحوال[4].

وكان على التابع الركوع حاسر الرأس بين أيدي اللوردات الذين أعلن لهم الولاء، ويُقسم اليمين على الطاعة وبأنه سيصبح السيف المدافع عن سيده، والخادم الأمين القائم على شؤونه، ويُقسم أيضاً : بأنه لن يوالي أحداً من السادة غير السيد الذي منحه ولاءه[5]. وكانت عملية القسم تتم كالتالي :

كان المشرف على عملية القسم يسأل الطرف التابع عما إذا كان يرغب في أن يكون رجلاً للسيد الماثل في ساحة القسم؟ فيجيب التابع بكلمة : "سوف أفعل" ثم يضم التابع يديه على بعضها ويمسك بهما السيد ويتبادلان قبلة القسم، والتي تؤكد نجاح عملية الموالاة[6]. وبعدها يقوم التابع بأداء قسم الولاء والإخلاص بتلك الكلمات : "إنني أعد بكل ما يملؤني من إيمان أنني سأكون رجلاً تابعاً لفلان، ومن هذه اللحظة التي أبايع فيها، سأكون ضد كل من يقف ضده دون مكر أو خداع". ثم بعد ذلك يقوم بتأكيد وعده بوضع يده على قبر قديس أو قديسه ويُقسم يمين الولاء والإخلاص مرة أخرى، ثم يقوم السيد بإلباسه صولجاناً هو ومن أقسم معه كعملية تنصيب للمهمة الجديدة[7]. وقد يكون تأكيد القسم بوضع يده على الكتب المقدسة، أو المخلفات الدينية، وكانت إجراءات التبعية معروفة عند الفرنجة، ولعلها كانت أقدم من ذلك، ويبدو أن الاحتفال في جوهره كان خاضعاً للتقاليد للإيفاء بما عليهم من التزامات تجاه سادتهم، الذين أقسموا لهم اليمين

---

(1) بيبن القصير أو بيبن الثالث : كان عمدة قصر نوستريا وقصر أوستراسيا، ثم ملكاً للفرنجة عام 751م حتى عام 768م، وهو ابن كارل مارتل وروترود تريد، وهو والد كارل الأول وشارلمان. (البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص 125).

(2) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 27.

(3) Speed (editor), Those who fought, P. 10.

(4) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 16.

(5) Speed (editor), Those who fought, P. 10.

(6) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 27 هوامش.

Speed (editor), Those who fought, P. 10.

(7) Speed (editor), Those who fought, P. 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالطاعة والولاء والدفاع عنهم في جميع الأحوال، وأحياناً كان الصراع يتم بين السادة والأتباع حيث كل من الطرفين يملك مسوغات الغدر، والتي من شأنها وأد عملية الولاء التي تم أداء اليمين على إيفائها وإعطائها حقاً كاملاً، حتى أن تلك الأطراف المتنازعة لم تكن تعلن صراحة تخليها عن الولاية وإعطاب تلك الرابطة المتفق عليها من قِبلهم[1].

والإخلاص : وهي أن يحلف على الكتب المقدسة والذخائر الدينية بما يؤكد العهد الذي قطعه على نفسه، ويبدو أن الاحتفال كان في جوهره خاضعاً للتقاليد الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التي تقضي بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة أو العشيرة، أما يمين الولاء والإخلاص فقد استحدث نتيجة التأثير المسيحي[2].

وعلى الرغم من أنه يحدث أحياناً أن يضطر رجل، لظروف قهرية، أن يصبح تابعاً لسيد من السادة، فإن عقد التبعية يعتبر من الناحية النظرية قائماً، باختيار الطرفين. ومتى تم العقد، فلا يصح نقضه من جانب واحد إذا جرى تنفيذه إلا في الحالات الاستثنائية التالية :

1- إذا حاول السيد أن يقتل التابع بالتآمر عليه.
2- إذا حاول أن يضربه بالعصا.
3- إذا حاول اغتصاب زوجته، أو ارتكب الفاحشة معها.
4- إذا حاول اغتصاب ابنة التابع.
5- إذا حاول أن يجعل منه قناً.
6- إذا انقضّ عليه وأشهر سيفه عليه.
7- إذا لم يدافع عنه كما ينبغي[3].

والتزم التابع بعدة اعتبارات حين أقسم يمن الولاء منها :

1- تجنب الأذى : ويقصد فيه ألا يُحدث التابع أي أذى في جسد سيده سواء عن طريق الطعن أو الجرح.
2- الأمان : لا يغدر التابع بسيده أو أن يخون ثقته فيه أو ألا يدافع عنه في الميدان بكل ما أوتي من قوة.
3- الشرف : ألا يطعن التابع سيده في عدله أو في أي شيء يمس شرفه.
4- المنفعة : ألا يتسبب التابع في أي أذى لممتلكات سيده.
5- الليونة : ألا يستصعب التابع من أي عمل يستطيع سيده أن يقوم به بسهولة ويُسر.

---

(1) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 16.
(2) Davis, A history of, P. 43.
(3) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 28.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6- العملية : ألا يظهر لسيده الشيء على أنه مستحيل في حال كونه ممكن[1].

كان من أهم مظاهر النظم الإقطاعية الهبة المشروطة لقطعة أرض يهبها السيد للمستأجر أو التابع، وقد كان الأصل في تلك الهبة هي زيادة النفع الذي يعود على السيد المانح، وقد كانت الكنيسة من ممارسي تلك الظاهرة لكنها كانت تحافظ على ملكيتها للاقتطاعية الممنوحة، ويُقال إن أول من ابتكر ذلك النظام هو تشارلز مارتيل[2] (689-741م) والذي أراد أن يعتمد رجاله على أنفسهم في الكسب والعيش. كما دأب الحكام أيضاً على منح قطع من الأراضي لصالح أتباعهم، وقد أصبحت الأراضي الممنوحة تُعرف باسم اقتطاعة[3].

وكانت طبيعة الموالاة تلك تتمثل في أن يمنح السيد قطعة من الأرض لتابعه يقوم على خدمتها وفلاحتها مقابل ما يؤمن له معيشته وكان يتم التعاقد بين الطرفين على ذلك ولم يكن بالإمكان وجود أي اقتطاعية لا يقوم عليها عبيد من عبيد السيد هذا أو ذاك[4].

كما كان قمة الوفاء بالوعد الذي يقطعه النبيل للسيد هو أن يقاتل معه ضد أعدائه وأن يُسدي له النصائح الهامة وأن يساعده في إحقاق العدالة، وأن يمده بالمال في حال احتاجت الحرب ذلك، وأن يفديه من الأسر في حال وقوعه فيه، وكذلك فإن السيد يكون عليه نفس الشروط من حيث عدم تخليه عن النبيل، وأن يوفر له الحماية ضد أعدائه وألا يحرم النبيل من إرثه في حال وفاته[5].

ظلت تلك السمات ثابتة في الإقطاع وبالأخص مسألة منح قطع من الأراضي الزراعية مقابل خدمات الفلاحة والزراعة، فتلك الخدمات وبالرغم من تنوع شروط العقود بين السيد والمسود فيها إلا إنها كانت تعرف دائماً بشكل دقيق[6].

لم تكن جميع الأراضي الموهوبة تندرج تحت إطار كلمة اقتطاعة، فقد كانت هناك الكثير من الأراضي التي تندرج تحت اسم وضع يد ويتم ذلك عندما يسيطر سادة تلك الأراضي على تلك القطعة دون مواجهة ولا محاسبة، وقد تتحول إلى اقتطاعة عندما يطلب الرجال الأقل شأناً الحماية والدعم ممن هم أقوى منهم وأرفع منزلة[7].

---

(1) Speed (editor), Those who fought, P. 10.

(2) تشارلز مارتيل : هو والد بيبن القصير، وجد شارلمان، قاد المعركة التي انتصر فيها على المسلمين والتي سميت بلاط الشهداء، وكان يلقب بالمطرقة. (البعلبكي، معجم ألام المورد، ص 256).

(3) Speed (editor), Those who fought, P. 10.

(4) Smith, Aconstitutional, P. 40.

(5) Davis, A history of, P. 45.

(6) Smith, Aconstitutional, P. 41.

(7) Speed (editor), Those who fought, P. 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن الخطأ الكبير أن نفترض بأن العلاقات الإقطاعية قد أُقيمت بناءً على عقد مُبرم بين طرفين، فذلك الاعتقاد يغض الطرف عن الأفعال المتكررة التي استمدت أصولها من الوثنية القديمة الخاصة بالعناصر الجرمانية المتبربرة التي تقضي بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة، أما يمين الولاء فقد استحدث؛ نتيجة التأثير المسيحي، ومع ذلك لم يكن ذلك اليمين وحده كافياً لإيجاد رابطة التبعية. ففي العصر الكارولنجي المتأخر، كان الأحرار من رعاياهم يلتزمون بأن يؤدوا يمين الولاء له، دون أن يكون لديهم أقل فكرة بأن يكونوا أتباعاً له. والخلاصة : أن الولاء لا تدل على التبعية، غير أن التبعية تدل على الولاء[1].

إن النظام الإقطاعي والذي بني على حرمة وقداسة القسم الذي يدليه التابع للسيد كان يضم نظماً أخلاقية، لكنه حابى أكثر من غيره فكرة لعب الدور الفردي فيما يصب في صالح أشخاص معينين كانوا يتمتعون بالقوة والحرية الشخصية[2].

لكن المثالية الإقطاعية لم تكن تستمر على الدوام، فطالما سجلت حوادث التاريخ صراعات بين السادة تحدث في مضمونها أنظمة الولاء والتبعية، فقد كان الكثير من عبيد الأرض يضطرون لمواجهة السادة الآخرين الأقل درجة من سادتهم، وبذلك فإنه لا يمكن تعريف الإقطاع على أنه حالات معينة أو محددة تمت عن طريق عقد اتفاقيات حرة بين المدافع والحامي وبين المحمي والمدافع عنه، علاوة على ذلك، ربما احتاجت البيعة في كل متغير ما تابع أو أجير مختلف على أن يتم قبول ذلك المتغير حسب موافقة واستحسان الأطراف الإقطاعية الممارسة للنظام[3].

كان المجتمع في العصور الوسطى منقسماً إلى ثلاث فئات؛ هي : طبقة الأساقفة، طبقة النبلاء وطبقة الفلاحين، وكان يتوقع من الجميع الإيفاء بالتزاماتهم؛ للحفاظ على بنية النظام الإقطاعي[4].

ولقد كان الفرسان المقاتلون –من طبقة النبلاء– هم من نتاج النظام الإقطاعي، أما الفلاحون فكانوا من نتاج نظام القرية الإقطاعية، بالرغم من التفاوت الطبقي بينهم[5].

---

(1) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 27، 28 هامش رقم (1). كولتون، عالم العصور، ص 41 هامش رقم (1).

(2) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 117.
(3) Ibid, P. 117.
(4) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 17. Lamonte, The world of, P. 207.
(5) Lamonte, The world of, P. 207.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبسبب تدافع الملوك والسادة على السيطرة والقوة؛ اضطر الأساقفة والفلاحون لإيجاد طريق لهم في خضم ذلك المعترك بالرغم من أنه كان يُفترض في تلك الطبقات الانصياع لمن هم أعلى منهم منزلة ورتبة. وكان الأساقفة يعتبرون أن الطاعة هي للرب، وأن عليهم أن يتذكروا أن الأرباب الأرضيين (الملوك والسادة) ليسوا بأهمية الرب السماوي (الله)، ولكن على أرض الواقع كانت العديد من الأديرة تمتلك المساحات الشاسعة من الأراضي إضافة إلى الثروات الطائلة، وكانت لهم تكتلات سياسية ضاهت تكتلات الطبقة الأرستقراطية[1].

ولكن ظهور بعض القادة العسكريين على كراسي الحكم جعلهم يساهمون أكثر مما ساهمت الكنيسة في تحديد أُنموذج النظام الإقطاعي؛ لذلك فقد كان الإقطاع كمبدأ قائماً على الثنائية في كل زاوية من زواياه، فالكنيسة والدولة كانتا تحكمان بشكل ثنائي كل من جهته وكان كل طرف يحاول القفز على قوة الآخر رابطين كل شعوب أوروبا ضمن هيكليات ثقافية معقدة، لكن خلال الفترة ما بين القرن السادس والقرن الحادي عشر عملت الكنيسة والدولة معاً على منح العديد من الدول الأوروبية تنظيماً اجتماعياً واقتصادياً كان في حقيقته أُنموذجاً ثقافياً جديداً[2].

أما الفلاحون فكان عليهم أن يعملوا في الأرض، وبذا فإن الطبقة السيادية المسؤولة عنهم كان عليها الإيفاء بمستحقاتهم[3].

بوصف المفاهيم والمصطلحات العامة للإقطاع سوف نُدرك أن إحدى تلك الأطراف هو التنظيم الإقطاعي للحكومة، أما الطرف الآخر فهو التنظيم الإقطاعي الزراعي، وكلا الطرفين مر بنفس الظروف التكوينية القديمة وهي الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على حد سواء[4].

(1) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 17.
(2) Eberhart and Diyon, Economics, P. 135
(3) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 17.
(4) Adams, Civilization, P. 192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً : أركان الإقطاع.

لرسم صورة واضحة للنظام الإقطاعي كنظام قائم بين الناس في المجتمع الغربي الوسيط؛ يجب أن نتناول الأركان الرئيسة التي تكون منها ذلك النظام[1]، وقد تمثلت تلك الأركان في ثلاثة عناصر هي : المجتمع القروي، نظام الدومين، وعصر النمو الإقطاعي[2].

1- المجتمع القروي : (الفلاح، القرية، نظام فلاحة الأرض).

كان المجتمع القروي عبارة عن فئة متعايشة بالفلاحة والزراعة في مساحة معينة من الأرض، على طريقة تطلبت تضامناً وتعاوناً مشتركاً بين الأفراد عموماً[3].

أ- الفلاح.

تفاوت الفلاحون أنفسهم ما بين عبيد وأحرار، على الرغم من أن الغالبية العظمى منهم فيما بين القرنين التاسع والعاشر الميلادي، شغلوا حالة متوسطة بين أولئك وأولئك، وجاءوا فيما بين الجانبين وقد عُرفوا بالأقنان الذين ارتبطوا بالأرض[4]، ومن ذلك فإن :

- الرجال الأحرار.

هم الذين كانوا يمتلكون أراضيهم دون التقيد بالتزامات لدى أي نبيل، وشكل أمثال أولئك الفلاحين فقط 4% من العاملين في القطاع الزراعي في إنجلترا في القرن الحادي عشر الميلادي، لكنهم كانوا بنسبة أكبر في كل من غرب المانيا وشمال إيطاليا وجنوب فرنسا، مشكلين بذلك ربع سكان غرب أوروبا[5].

ولم يظهر في إنجلترا إلا فلاحون أحرار، زاد عددهم في الأراضي التي تنمو بها الكروم والجهات الجبلية. ولم يكن معظم أولئك الأحرار إلا أتباعاً، يدفعون لسادتهم الخرَاج، ويلتزمون في أحوال كثيرة بأن يؤدوا لهم خدمات[6].

- العبيد والأقنان :

وقد كانوا يمثلون أكثر عناصر السكان وأحطها قدراً في أوروبا العصور الوسطى. وتكونت طبقة الفلاحين في أساسها من العبيد والأقنان الذين تقاربت ظروفهم جميعاً فاختلطوا وتداخلوا عن طريق ذوبان العبيد وانصهارهم وسط محيط الأقنان[7].

---

(1) يوسف، تاريخ أوروبا، ص 108.
(2) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 17.
(3) المرجع نفسه، ص 6.
(4) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 66.
(5) Durant, The Age of, P.P. 553, 554.
(6) الشيخ، النظم والحضارة، ص 49.
(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 410.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- **العبيد :**

هم الذين كان عملهم الجسدي في منزل السيد غير كافٍ وغير مفيد فنقلهم للعمل في الأرض الزراعية[1]. واقتصرت خدمة العبيد في إنجلترا على الخدمات المنزلية، أما في فرنسا وخاصة في منطقة اللورين فلم تكن العبودية تلقى أي اهتمام، أما في المانيا فقد ارتفعت العبودية إلى أعلى مستوياتها في القرن العاشر الميلادي، حيث كان يتم اختطاف وبيع العبيد؛ من أجل العمل في الأراضي الزراعية الألمانية، أو بيعهم في الأراضي الإسلامية أو البيزنطية، وكان أحياناً يتم اختطاف مسلمين ويونانيين من قِبل تجار العبيد من شواطئ البحر الأسود ومن مناطق غرب آسيا وشمال أفريقيا لنفس الغرض، وكانت تظهر من حين لآخر قوانين وتصرفات من قِبل كبار رجال الدولة، تُقَزّم من عمليات المتاجرة بالعبيد، أشهرها ما قام به البابا جريجوري الأول عندما قام بتحرير اثنين من عبيده على الملأ متشدقاً بأحلى عبارات الإنسانية والرحمة والحق الطبيعي في الحرية لجميع الناس، لكن ذلك البابا ظل مستعبداً لمئات الرجال الذين كانوا يعملون في الإقطاعات البابوية وأصدر عدة قوانين تمنع تحول العبد إلى كاهن، أو أن يتزوج بمسيحية حرة، حتى إن الكنيسة منعت المتاجرة بكل أسير مسيحي للمسلمين، ولكنها سمحت باستعباد المسلمين والأوروبيين الذين لم يعتنقوا المسيحية، ولقد تم توزيع المئات من العبيد السارسانيين على مختلف الأديرة والكنائس، واستمر استعباد الأسرى الغرباء في الأراضي التابعة للكنيسة حتى قرب انتهاء القرن الحادي عشر[2].

فقد قال أحد المؤرخون : "إن الكنيسة كانت تُصر على أن العبيد لهم أرواح، وكانت تحث السادة على معاملتهم بوصفهم مسيحيين"[3]، في حين قال آخر : "إن القانون الكهنوتي كان يثمن ثروة الكنيسة من حيث عدد العبيد وليس من ناحية الجانب المالي"، فقد كان العبيد يعتبرون من ضمن الأمتعة والأثاث، كما حرمت الكنيسة على العبد أن يترك إرثاً لأولاده، أي : في حين موت أحدهم فإن كل ما يمتلكه يعود بدوره للكنيسة[4].

لأول وهلة نرى أن هناك تناقض في القولين، لكن كما رأينا أن الكنيسة كانت تمتلك عبيداً من ديانات متعددة، فربما كانت معاملتها للعبيد المسيحيين تختلف عن معاملتها للعبيد غير المسيحيين، وإن كانت في تلك الفترة الكنيسة إقطاعية تماماً.

---

(1) كين، حضارة أوروبا، ص 52.

(2) Durant, The Age of, P. 554.

(3) بانتر، تاريخ الحروب، ص 15.

(4) Durant, The Age of, P. 554.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما كان السادة يَقبلون على مضض أن يتزوج العبيد، ولكنهم كانوا يُصرّون على تسمية عائلاتهم بالأفراخ (Sequelae)[1].

يدل ذلك بوضوح على دنو منزلة العبد سواء أكان عند السادة أم الكنيسة، وتلك العادة لازمت الناس على مختلف العصور، حتى وصلت عصرنا هذا، رغم تحريم الإسلام لذلك، حيث اعتاد الفرد على اعتبار أن من يخدمه بأجرة فهو أقل منه قدراً، ويعتبر في وضع اجتماعي متدني.

لقد أدت وجود بعض المتغيرات الاقتصادية التي طرأت على المجتمع الأوروبي إلى تقليص العبيد، حيث إن النتاج المعتمد على القوة العضلية لم يكن مربحاً بدرجة كافية، فاتجهت الأنظار إلى العمالة الزراعية أكثر من اتجاهها إلى العبودية؛ مما جعل المزارع أو ما سموا بعبيد الأرض، لعبوا دوراً هاماً في تشكيل نواة المجتمعات في العصور الوسطى[2].

- **الأقنان :**

ترجع طبقة الأقنان في غالبيتها إلى أصل حر، لكن الظروف المحيطة بهم أجبرتهم على التضحية بحريتهم الشخصية في سبيل السلامة، وقد كان هناك طرقاً مختلفة أصبح بها الفلاح الحر عبداً، منها :

1- رفضه طلب الخدمة في الحرب؛ فعوقب بإنزاله مرتبة القن.
2- يهب نفسه للكنيسة أو الدير ليصبح مرتبطاً بتلك الهيئة الدينية.
3- التنازل عن حريته لسيد قوي يحميه من الأخطار التي تهدده.
4- بيعه لنفسه لسيد غني مقابل مبلغ من المال عند الافتقار[3].

وقد عثر على وثيقة يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الحادي عشر الميلادي وصفت عملية تحول فلاح حر إلى قن من عبيد الأرض، حيث نصت الوثيقة على ما يلي :

"ليكن معلوماً، لكل من يجيئون بعدنا، أن رجلاً في خدمتنا يدعى وليم، شقيق دينالد، الذي ولد لأبوين من الأحرار، قد تحرك مدفوعاً بحب الرب صوب غاية سوف يحسبها له الرب حسنة، إذ وهب نفسه قناً للقديس مارتن في (مورمويتيه)، ولم يكتفِ بأن يهب نفسه فقط، بل وهب جميع ذريته من بعده لكي يظلوا إلى الأبد في خدمة رئيس الدير والرهبان في هذا المكان

---

(1) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.

(2) Durant, The Age of, P. 554.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 48، 49. عاشور، حضارة ونظم، ص 410، 411. كولتون، عالم العصور، ص 80.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بشروط واضحة. ولكي يتم التأكيد على هذه الهبة وتوضيحها وضع حول رقبته حبلاً، كما وضع أربع قطع من النقود على مذبح القديس مارتن؛ اعترافاً بالقنانة، وكرس نفسه للرب العظيم، وقد رأى ما حدث، وشهد عليه أولئك الآتية أسماؤهم ..."[1].

ومهما يكن الأمر، فإن تلك الفئة الجديدة من الأقنان لم تلبث أن اختلطت بفئة العبيد القديمة؛ لتنشأ منها جميعاً طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضع ثابت في الحياة الأوروبية[2]. لقد كان تحول الفلاح الحر إلى قن عملية تجري بمعدلات متصاعدة في كافة أنحاء أوروبا، ولم تقف الكنيسة ضدها بل أفادت منها بصفتها أكبر ملاك الأراضي الزراعية في الغرب الأوروبي حتى ذلك الحين، فقد كانت الهبات التي أغدقها الحكام والنبلاء على الكنائس والأديرة قد جعلتها تمتلك مساحات زراعية شاسعة؛ ومن ثم كان لا بد من أن توفر لها من يزرعونها، وقد كانت عملية تحويل الفلاحين إلى أقنان، تحت ذريعة حب الرب، أكثر الوسائل فعالية لضمان قوة العمل اللازمة لزراعة أملاك الكنائس والأديرة[3].

دأب الفلاح في تلك العصور على العمل في قِطَع الأرض التي كان يمتلكها السيد أو النبيل مقابل منحه قطعة أرض يستمد منها أسباب العيش، إلى جانب تأمين الحماية له طالما أنه التزم بدفع إيجار القطعة الممنوحة له، سواء أكانت الأجرة من ناتج الأرض، أم مقابل العمل في تلك الأرض، أم مقابل مادي[4]. وكان الفلاح مربوطاً بتلك القطعة من الأرض، فلا يملك الحرية في الانتقال عنها، وليس له أن يتزوج من جهة خارج منطقة التابع له إلا بإذن متبوعه. وإذا تزوج أو جاءه مولود، أو مات له ميت، فعليه أن يقوم بدفع مبالغ معينة رمزاً لتبعيته، كما أنه كان يُشترى ويُباع ويبدل بغيره، حسب إرادة السيد[5].

وعاش فلاحو المجتمع القروي عيشة تعيسة؛ بحكم كونهم من العبيد أو الأقنان الذين لا يملكون شيئاً، أو يستطيعون التصرف في شيء؛ لأن القن لم يكن له من ريع سوى ما يلتقطه من الأرض بكده وتعبه. وسكن الفلاحون أكواخاً حقيرة بنوها بأنفسهم من فروع الأشجار وجذوعها، وأحياناً كان يتجمع في تلك البيوت الخشبية عدد من أولئك المزارعين يعيشون معاً ويشتركون معاً في خدمة السيد الإقطاعي. كما خلت تلك الأكواخ من كل مظهر من مظاهر الراحة أو

---

(1) قاسم، ماهية الحروب، ص 62، 63.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 411.

(3) قاسم، ماهية الحروب، ص 63.

(4) Durant, The Age of, P. 555.

(5) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 25.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المستوى الصحي؛ مما عرض تلك الفئة للأمراض والأوبئة، ويشغل الرجال أنفسهم بالعمل من شروق الشمس حتى غروبها[1].

لقد اتصفت تلك الأكواخ بالقذارة وحقارة أثاثها، الذي تألف من سرير عبارة عن صندوق خشبي عليه وسادة محشوة بالقش وأوراق الأشجار الجافة، ومنضدة صغيرة، وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاثة أرجل، وصندوق وقليل من الآنية الحديدية والفخارية، ولم يستخدم أية وسيلة صناعية لإضاءة تلك الأكواخ؛ لأن الشموع اقتصر استعمالها على الكنائس ودوار السيد صاحب الضيعة، ذلك فضلاً عن خطر الحريق في قرية من النوع القابل للاشتعال[2]. وكانت الخنازير والدواجن تعيش في الفناء الممتد أمام المنزل، وبالقرب من الكوخ يوجد فناء مسور للأبقار والخيول[3].

وكانت ثياب الفلاح في شكل بدائي مصنوعة من جلود ماشتيه، وصوف أغنامه. ولم يكن أبداً في منجاة من تهديد الجوع. ويتم الانتقال بواسطة عربة يجرها ثور فوق طرق غير معبدة، يكلف صاحبه ثمناً باهظاً[4]. ولم يكن الفلاح يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة في أعياد الميلاد، ثم يحتفظ بالباقي مقدداً ومملحاً؛ ليأكل منه طوال العام، ولكنه في كل الأحوال لم يكن ليأمن على نفسه من المجاعة، فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل، كان تدهور المحصول المحلي في أي إقليم مؤشراً على حدوث المجاعة[5]. وكان ما يقع للفلاح من السمك أو الطير إنما من طريق السطو أو السرقة[6].

وعاش الفلاح على طعام كان كافياً ومغذياً، يتكون من : البيض ومنتجات الألبان والخضروات وبعض اللحوم والخبز الأسود[7]، ولكن تلك الخضروات كانت قليلة، يحصلون عليها من الحدائق الواقعة خلف منازلهم[8]، وعاش مع أقرانه في القرية حياتهم البسيطة يجتمعون في المناسبات وأيام الأعياد والآحاد في ساحة القرية أو الكنيسة. كما كان الفلاح أُمِّياً غير مثقف

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 51.
(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 415.
(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 66.
(4) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.
(5) قاسم، ماهية الحروب، ص 60.
(6) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 31.
(7) عمران، حضارة أوروبا، ص 66، 67.
(8) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليس لديه معرفة عن شيء سوى الزراعة وأعمال القرية التي تكفل له الحياة التي اقتنع بها، لذلك سيطرت عليه الخرافات، لكنه كان مقتنعاً بأن الموت لا ريب فيه[1].

كان مالك الأرض يحق له طرد المزارع أو المستأجر في أي وقت شاء، وفي حال موت المزارع تُسلم الأرض إلى أولاده شريطة موافقة المالك، أما القوانين التي حكمت الفلاح فهي معقدة وظالمة، فكان عليه دفع ثلاث ضرائب سنوياً، منها ضريبة النفس تُدفع للحكومة، ثم مستحقات الاستئجار، وإتاوة كانت تُفرض عليه من الحكومة ذاتها، وكان من ضمن اتفاقيات العقد المكتوب بين المالك والمستأجر أن يعمل لمدة معينة دون أي استحقاقات، كما كان ملزماً بطحن الذرة، وصنع الخبز، وتهيئة الشراب عن طريق عصر العنب وتخميره لصالح المالك دون تقاضي أجر على ذلك، وعليه دفع رسوم محددة في حال أراد أن يمارس الصيد أو حين رعي مواشيه[2].

وإذا اقتضى الأمر وكان للفلاح قضية فعليه أن يرفعها أمام محكمة المال مقابل رسوم معينة تختلف حسب نوع القضية، وعلى الفلاح أن ينضم فوراً إلى جنود السيد الإقطاعي (المالك) إذا ما طُلب منه ذلك. وكان الفلاح يجامل السيد الإقطاعي بالهدايا القيمة؛ إذا أصبح ابنه فارساً، وإذا قام الفلاح ببيع بعض ما يزيد عنده؛ فعليه أن يقدم للسيد ضريبة مقابل ذلك، ولم يسمح للفلاح ببيع ما يفيض عنهم إلا بعد ما يفرغ السيد من بيع ما عنده بأسبوعين، وعلى الفلاح أن يدفع غرامة معينة إذا أرسل ابنه للمدرسة أو ليلتحق بالكنيسة؛ لأن الضيعة سوف تخسر تلك القوة البشرية[3].

ورغم ذلك كله فإن الفلاح لم يعتبر نفسه مظلوماً مغلوباً على أمره، بل تصور نفسه بطلاً يفلح الأرض، قوياً صبوراً، وإنه يتحمل كل ذلك؛ من أجل حياته وحياة أسرته وحياة سيده الإقطاعي والآخرين الذين يعيشون حوله[4].

ب- القرية.

قد يقع القارئ لتاريخ العصور الوسطى في أوروبا بشيء من الغموض، عند تعرضه للقرية الإقطاعية[5]؛ وذلك لظهور ألفاظ عديدة تبدو في اللغة مختلفة، لكنها اصطلاحاً تؤدي لنفس المعنى، وكانت تلك الألفاظ هي : القرية والضيعة والعزبة. ونريد هنا أن نوضح مدلول كل لفظ منهم قبل الحديث المفصل عنهم.

---

(1) عمران، حضارة أوروبا، ص 67.
(2) المرجع نفسه، ص 65.
Durant, The Age of, P. 555.
(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 65.
(4) المرجع نفسه، ص 66.
(5) انظر الملحق رقم (12).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد كانت تلك المصطلحات الثلاث عبارة عن الدائرة التي عاش فيها الفلاح الوسيط، والتي تألفت من فئة من الفلاحين تعمل بالفلاحة والزراعة في مساحة معينة من الأرض[1]. وكان النظام الإقطاعي الذي فُرض في غرب أوروبا في العصور الوسطى قد قلل من إمكانية توفير الفرصة للمزارعين في تحسين مواردهم الزراعية، وقد أُلزموا جميعهم تحت إمرة نظام العِزب والأراضي الزراعية التابعة للنبلاء[2].

ولقد خضع غرب أوروبا لأسلوبين من أساليب الاستقرار والسكن هما : القرى والعِزب (الكفور)، وقام نظام القرى في الإقليم الذي ساد فيه العنصر الجرماني، وكانت أخصب الأقاليم الزراعية التي تعتبر المراكز الأساسية للسلطة السياسية، بينما استقر سكان البحر المتوسط في العِزب والكفور، ويعتبر جانب كبير من أوروبا أرض كفور[3].

أما الضيعة فقد تألفت في العادة من القرية وأراضيها، لكن في بعض الأحيان وجدنا القرية الواحدة، مقسمة بين عدد من السادة والملاك، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص به اسم ضيعة، كما وجدنا هناك حالات أخرى جمعت بعض القرى المتقاربة؛ لتنشأ من تجمعها ضيعة واحدة[4]. ولعل ذلك دفع بعض الكتّاب المحدثين إلى تفضيل اسم القرية للدلالة على الوحدة الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الريفي في أوروبا العصور الوسطى، بدلاً من اسم الضيعة[5].

أصبح كُتّاب التاريخ الحديث على علم بأن القرى الإقطاعية والممتلكات الزراعية كانت مجرد فرع من فروع المؤسسات الإقطاعية، وكانت عملية استئجار الأراضي من المتبرع المستفيد لها طقوس خاصة، يحيط بها ما يشبه الالتزام الأخلاقي بين الطرفين، لقد كان ذلك شائعاً في جميع أنحاء أوروبا، ولكن ربما في اختلاف بسيط في التقاليد من دولة لأخرى[6].

ولقد نشأ نظام العِزب الفردية (القرية أو الضيعة)، التي كان يمتلكها العديد من النبلاء والأعيان، وذلك من خلال تطوير مجال الاستصلاح الزراعي بشكل كبير، حيث رغبت الحكومة في استغلال مساحات شاسعة من الأراضي في الزراعة؛ فعهدت لأفراد بضمان زراعتها والاستنفاع بها، وكان ذلك المتعهد يُعفى من الضرائب لعدة سنوات؛ حتى يعوض مصروفاته ويبدأ بالاستفادة الحقيقة منها. وبدخول الألمان تطور نظام الاستئجار لصالحهم، بحيث يعود جزء

---

(1) يوسف، تاريخ العصور، ص 108، 109.

(2) Anderson, Passages from, P. 185.

(3) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 56.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 413. كين، حضارة أوروبا، ص 51.

(5) عاشور، حضارة ونظم، ص 413.

(6) Lyon, From fife, P. 41.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من النفع من ذلك النظام لصالح المؤسسة العسكرية، التي تقوم على خدمة الدولة والأنظمة السائدة فيها[1].

كانت القرية وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور، كما كان الإقطاع وحدة النظام الإقطاعي، بمعنى : أن الإقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة قُرى، وكانت القرية أشبه بمملكة أو عالم صغير، يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، يمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي، بحيث يشبع إنتاج القرية السيد والمسودين جميعاً[2].

تكونت القرية الإقطاعية من مجموعة من الفلاحين بعضها من الأقنان، والبعض الآخر من أنصاف الأحرار، والأحرار. وكان أولئك الفلاحين يبنون أكواخهم حول قصر أو قلعة السيد الإقطاعي؛ للاحتماء به؛ لذلك كانت تلك الأكواخ متقاربة من بعضها داخل أسوار القرية؛ من أجل الأمان[3].

وكان من الممكن أن يمتلك السيد أكثر من قرية، فيكون مسكنه في مركز تلك القرى، سواء أكانت كاتدرائية، أم كنيسة، أم بيعة، أم قلعة حصينة[4]. وكانت الكنيسة، والدوار، ودكاكين أرباب الحرف اللازمة لمجتمع متكفل بحاجاته، وأهراء المحاصيل وبيوت الفلاحين، كل ذلك في بقعة واحدة، تحيط بها الأرض الزراعية التي لا تزال على حالها حتى الآن، وما عدا ذلك من أرض القرية، فهو الخلاء المشاع لرعي الماشية، والغابة المجاورة له، والمروج التي تنبت الحشائش لعلف الماشية، وهاتان الأخيرتان كانتا في أغلب الأحيان في حوزة السيد صاحب الإقطاع[5].

كانت تلك القرى أو الضياع مملوكة بالواحدة أو بالجملة، فامتلك الدير الفلاني عشرين ضيعة، وامتلكت الأسقفية الفلانية أربعين ضيعة، وامتلك الأمير الفلاني خمس ضيعات. وربما بعدت تلك الضياع –المملوكة لفرد واحد أو هيئة واحدة– بعضها عن بعض خمسين أو مائة ميل؛ مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على أساس مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بمالك معين، وقد يبعد عنها في كثير من الأحيان[6]. وبذلك فقد ظهرت أراضٍ

---

(1) Lamonte, The world of, P. 210.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 412.

(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 67.

(4) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 65.

(5) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 28، 29. يوسف، تاريخ العصور، ص 129.

(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 414.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تحت حكم عدة أمراء، أو مقاطعات تتكلم بلغات مختلفة؛ وذلك نتيجة هبات متتابعة من جمهور المحسنين في حالة الكنيسة، أو حدوث تحالفات بين ملاك الأراضي، أو في حالة الميراث عند النبلاء[1].

نتيجة لذلك أصبحت حصة الفلاح من الأرض الزراعية مبعثرة بأرجاء القرية، وقطع مختلفة المساحات وغالباً ما كانت القطع صغيرة؛ مما أدى إلى صعوبة حرث الأرض ثم حصادها، إضافة إلى صعوبة تقسيم الحصة الواحدة أنصبة متساوية بين ورثة الفلاح عند وفاته، سواء أكان حراً أم تابعاً كالأقنان[2].

ولقد قسمت كل الأرض تحت حكم الكنيسة في القرى إلى ثلاثة أجزاء : أرض مملوكة، أرض مستأجرة، وأرض مشاع[3]. أما الأرض المملوكة فكانت إما لملك، وإما لأحد الأديرة، وإما لواحد من النبلاء، وكان القسم الأصغر يخصص لحاجة المالك، أما القسم الآخر إلى حيازات للمستأجرين[4]. كان كل من يسكن في القرية سواء أكان من الأقنان أم أشباه الأقنان (العبيد)، هم الأشخاص الذين ينتمون إلى اللورد والذين يلتحقون بخدمته ويحتفظ بهم، ومن بينهم يقوم بتجنيد العاملين في عقاره وملحقات قصوره، ومراعيه واسطبلاته والعاملين من الجنسين الذين يستخدمهم في ورش ضيعته، حيث كان ينتج الكتان والصوف ويغزل، وحيث يعمل هناك صانعوا العجلات والعربات ومصلحوها، والصاغة، وصناع الجعة[5] وغيرهم من الصناع[6]. وبما أن النقود لم تكن تُستخدم كثيراً، فكانت الأجرة عينية[7]. وكان سكان القرية يلتقون في سوق القرية في فترات محددة؛ لتبادل ما فاض منهم من السلع، وبذلك عملت القرية على الاكتفاء الذاتي بين الناس[8].

اشترك الفلاحون أيضاً في تحديد موعد حراثة الأرض، فبذر البذور فيها، ثم جمع المحصول منها، بل اشتركوا أيضاً في تقرير أنواع المحصولات التي يزرعونها[9]. وكان لكل

---

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 65.
(2) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 29.
(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 65.
(4) كين، حضارة أوروبا، ص 50.
(5) الجعة : هي النبيذ المتخذ من الشعير وهي من الأشربة. (ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص 485).
(6) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 66.
(7) كين، حضارة أوروبا، ص 50.
(8) عمران، حضارة أوروبا، ص 67.
(9) عاشور، حضارة ونظم، ص 418. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قرية القليل من الأغنام لتمدها بالصوف؛ من أجل الملابس، وقليل من الدجاج من أجل اللحم والبيض. ولكن المصدر الرئيس للحم هو الخنزير، وبإمكان الخنازير أن تجد غذاءها في الغابات صيفاً وشتاءً[1]، كانت تلك الغابات من ضمن الأراضي المشاعة التي اشتملت على مراعي لرعي الماشية ومروجاً تهيئ لها طعاماً في الشتاء، فضلاً عن أن الغابة كان يحصل منها أهل الضيعة على ما يلزمهم من أخشاب[2]، وكان بالقرية ملاحظ يُشرف على المراعي، وقطعان الماشية والخنازير، ويلاحظ الحيوانات في الكلأ[3].

وكانت الأراضي المشاعة تختلف عن الأراضي الزراعية بأنها لم تكن مقسمة إلى حصص؛ لأنها كانت ملكاً للسيد، أما الأراضي الزراعية في القرية فكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام يختص السيد الإقطاعي بملكية قسم منها في شكل مزرعة خاصة به مساحتها الثلث في حين يُقسم الثلثان بين الفلاحين، وكان يخص الفلاح قطعة أرض منتجة أو قطعة بور قاحلة، بقدر ما يسمح لرجل وأسرته أن يحرثوا الأرض، على وجه ملائم مع الاستعانة بثورين، وكان ذلك يختلف باختلاف طبيعة الأرض نفسها[4].

وتعتبر القرية أيضاً وحدة اجتماعية دينية، فللقرويين أعيادهم واحتفالاتهم، ويتم زواج الأبناء والبنات في نطاق المجتمع القروي[5].

وكان يجد القروي تسلية في أعياد القرية، وكان الكاهن هو الذي يتولى القيام بالطقوس المقدسة، وهو الذي أعطى رعيته ما لديهم من معرفة محدودة عن عالم المُثل، وإذا كان الكاهن هو شخص يكاد يعرف الكتابة والقراءة، لذلك فإن تلك المعرفة لا بد وأن تكون محدودة، وكان القرويون أتقياء كما كانوا يؤمنون بالخرافة. كما كان الريف يزخر بالينابيع والأشجار التي تنسب إليها المعجزات، ويبجل الأهالي العديد من القديسين المحليين الذين لم تعترف بهم الكنيسة بصفة رسمية[6]، وحينما نما نظام الأبرشية القروية في القرنين التاسع والعاشر، أضحت للقرية عادة كنيستها وقسيسها، وتألفت جماعة من كبار رجال القرية، للنظر في أمور الكنيسة[7].

---

(1) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.

(2) الشيخ، النظم والحضارة، ص 52. عاشور، حضارة ونظم، ص 418. كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 30.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 52.

(4) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 58.

(5) المرجع نفسه، ق1، ص 58.

(6) بانتر، تاريخ الحروب، ص 13. قاسم، ماهية الحروب، ص 61، 62.

(7) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واعتبرت الكنيسة أن العمل يوم الآحاد يعتبر إثماً كبيراً، لذلك انتظر الفلاحون يوم الأحد للترفيه عن أنفسهم، وكان أولئك الفلاحون يبدأون ذلك اليوم بالصلاة في كنيسة القرية ثم ينطلقون للغناء والرقص، والألعاب الرياضية مثل : كرة القدم والمصارعة والهوكي أو رفع الأثقال. كما تسلى فلاحو القرية بمشاهدة مصارعة الديوك أو الثيران. ومن المشاهد المألوفة في القرية في العطلات، وضع أوزة أو دجاجة في منطقة مغلقة ثم يقوم رجلان معصوبا العينين بمحاولة قتلها بالعصي. وتزاور الفلاحون لبعض الوقت في الأمسيات تناولوا فيها الخمر والحديث عن متاعبهم أو مسراتهم[1].

وللإقطاعية ثلاثة موظفين زراعيين رئيسيين، أهمهم وكيل أعمال السيد المالك، ويُعتبر يد المالك[2].

وكانت شخصية الوكيل من الأهمية داخل القرية حيث إنه كان يقوم بتنسيق نشاط الفلاحين الزراعي، ويتم اختياره بمعرفتهم، وهو الذي يتوسط بينهم وبين السيد الإقطاعي إذا لزم الأمر[3]. كان ذلك الشخص يقوم برعاية جميع ممتلكات السيد من عِزب وقرى وضياع، وكان يمارس دور الرقيب في كل شاردة وواردة[4]. وبذلك اعتبره السيد نائباً عن الإدارة ووكيله، وسرعان ما أخذ ذلك الوكيل، الذي كان في البداية عرضة للإبعاد، حقاً وراثياً لمنصبه[5].

وقد أصدر شارلمان لأولئك الوكلاء تعليمات دقيقة حول إدارة المزارع الملكية في مرسومه الدوري الشهير الذي أصدره عام 802م، فقد كان من ضمن واجباتهم أن يشرفوا بحرص على جمع فتخزين نصيبه من الأرض، ثم نقله إلى أحد مقار إقامته، إذا ما كانت هناك ضرورة لذلك[6].

وكان بالقرية دائماً نوع من المحكمة القروية التي تقوم بتسوية المنازعات حول المساكن وإنزال العقوبة بالذين لم يؤدوا أعمالهم[7]، وكان وكيل المالك يتصدر الجلسة في المحكمة، ولم يكن يقل عن الوكيل أهمية كبير القضاة الذي كان ينتخب سنوياً باعتباره ممثلاً اسمياً عن

---

(1) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.
(2) كولتون، عالم العصور، ص 86.
(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 67.
(4) Durant, The Age of, P. 561.
(5) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 65.
(6) كين، حضارة أوروبا، ص 51.
(7) عمران، حضارة أوروبا، ص 58.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المستأجرين، أما الموظف الثالث فهو موظف الأبرشية، الذي كانت مهمته حراسة الدريس؛ لمنع أي حيوان من التسلل من بين السياج إلى حقل الدريس أو الحبوب أو إلى غابة أي شخص آخر. كما كان عليه أن يسوق أية ماشية يراها شاردة إلى حظيرة القرية. أما الموظف الرابع وهو أقل أهمية من الناحية الرسمية، فهو كبير الفلاحين الذي كان يشترط لتعيينه "أن يحمل عصاه رافعاً إياها فوق رؤوس عمال الحصاد"، ذلك أنه يجوز للسيد أو لموظفيه ضرب الفلاح؛ طالما أن العقوبة لم تصل إلى حد الأذى الجسماني الخطير[1].

ج- نظام فلاحة الأرض.

كانت الطريقة السائدة في زراعة معظم أجزاء أوروبا الغربية تتمثل في نظام الحقلين أو الثلاثة حقول[2]، فالأرض الزراعية الخاصة بالقرية كانت تُقسم إلى حقلين أو ثلاثة حقول كبيرة. فإذا كان حقلان زُرع أحدهما وتُرك الآخر ليحرث، ويُترك بدون زراعة؛ لراحة الأرض كل عام، أما إذا كانت هناك ثلاثة حقول فيُزرع حقلان ويُحرث الثالث ويُترك[3]. واتبع الفلاحون نظام الدورة الزراعية الثلاثية في الحقول الخصبة، والدورة الثنائية في الحقول الأقل خصوبة[4]. ويبدو من المرجح أن كل القرى كانت في الأصل تستخدم نظام الحقلين، وأن الحقل الثالث أُخذ به على سبيل التحسين في المناطق الأكثر خصوبة[5].

وكانت الحقول التي تُقسّم إلى ثلاثة حقول : حقل يُزْرَع في الربيع، ثم حقل يُزْرَع في الخريف، والحقل الآخر يترك مراحاً بغير زرع[6]، وفي كل سنة يحدث تبادل بين تلك الحقول، فأرض الخريف تترك في العام التالي مراحة بغير زرع، وأرض الربيع تُزرع في الخريف، والأرض التي كانت مراحة تُزرع في الربيع[7]. وكان الحقلان اللذان يزرعان، أحدهما يُزرع شعيراً أو شوفاناً[8] والآخر يزرع قمحاً أو شليماً[9]، ثم يتم تقسيم كل حقل من الذي سيزرع إلى

---

(1) كولتون، عالم العصور، ص 87، 88.

(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11. بيرين، تاريخ أوروبا، ص 69. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 57.

(3) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 57. كولتون، عالم العصور، ص 83، 84.

(4) الشيخ، النظم والحضارة، ص 53.

(5) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11. عاشور، حضارة ونظم، ص 419.

(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 419. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 57.

(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 419.

(8) الشوفان : نبات علفي من الفصيلة النجيلية. (مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص 1038).

(9) الشليم : متى طبخ بماء العسل وضمد به نفع عرق النسا. (الرازي، الحاوي، ج3، ص 512).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مساحات صغيرة يفصل بينهما شريط غير مزروع[1]. كانت تلك المساحات على شكل شرائط طويلة وضيقة[2]، وتولى موظفو القرية تسليم كل قطعة أو أكثر إلى أحد الفلاحين لزراعتها طبقاً للخطة الموضوعة[3]، بحيث يكون لكل فلاح عدد متساوٍ من الشرائط في كل حقل[4]، والراجح أنه يتم توزيعها بالاقتراع دفعة واحدة كل سنة. ومن الأدلة ما يشير إلى أن تلك الأراضي بأنواعها ارتبطت دائماً بالمساكن، فكل مسكن تألف من كوخ في القرية، وحديقة مسورة، وربما كان بها بعض أشجار الفواكه، وقدر متساوٍ من الأرض في كل حقل، فضلاً عن حق المشاركة في الإفادة من أرض البور، والكلأ، والمراعي، والغابات. ويبلغ زمام المساكن العادية نحو ثلاثين فداناً من الأرض في الحقول الصالحة للزراعة[5].

وضمت المنطقة التي تطبق نظام الحقلين أو الثلاثة أغنى أجزاء أوروبا الغربية وأكثرها كثافة بالسكان، وهي تمتد من حدود ويلز، وتمر عبر إنجلترا، وشمال فرنسا، وكذلك الجزء الأكبر من المانيا[6].

لقد اتبعت أوروبا العصور الوسطى نظام الدورة الثلاثية في الزراعة؛ لعدم إجهاد الأرض من ناحية والحصول على محصول طيب من ناحية أخرى[7].

فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التعاون على فلاحيها، وبخاصة أيام الحرث والحصاد[8]؛ لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات المادية التي تمكنه من العمل بمفرده في ذلك الموسمين، فإذا فُرض أنه امتلك محراثاً فإنه كان لا يمتلك الثيران اللازمة لسحبه، وكان من العسير شق الأرض الصعبة بالمحراث البدائي المعروف في ذلك الوقت[9]، فلقد كانت المحاريث ثقيلة ومتخلفة، والعدة التي تجهز بها الثيران رديئة التصميم، لذلك كان يلزم لجر المحراث أربعة

---

(1) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.
(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.
(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.
(4) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.
(5) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 57.
(6) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.
(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 419.
(8) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 69. الشيخ، النظم والحضارة، ص 53. عاشور، حضارة ونظم، ص 419. عمران، حضارة أوروبا، ص 68. كولتون، عالم العصور، ص 85.
(9) عاشور، حضارة ونظم، ص 419.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو ثمانية ثيران[1]. ولم تكن الثيران التي عرفتها أوروبا العصور الوسطى سماناً قوية كالتي نعرفها اليوم، وإنما كانت عجافاً هزيلة، بحيث أثارت تغذيتها بالكلأ والحشائش مشكلة دائمة في ضيعة العصور الوسطى[2]، وكانت حركة الثور بطيئة؛ مما أدى إلى صغر مساحة الأرض التي يمكن لعدد من الثيران حرثها[3]. وكان استخدام الثور كحيوان لجر المحراث باعتباره أقل نفقة من الحصان، ثم تطور الأمر واستخدم الحصان بعدما صُنعت الأطواق الجلدية التي ساعدته على الجر دون مشقة، حتى أنه كان يحرث في اليوم أضعاف ما يحرثه الثور[4].

في بعض الأحيان كانت تُربط جميع ثيران الضيعة، وهي عشرون أو أكثر، في المحراث لتعمل سوياً في حرث الأرض، الأمر الذي تطلب من الفلاحين تعاوناً واشتراكاً في حرث جميع أراضيهم، وذلك التعاون نفسه كان مطلوباً أيضاً في وقت الحصاد؛ لأن الشليم والحنطة والشوفان وغيرها كان لا بد من تخزينها بسرعة عند تمام نضجها؛ خوفاً من تساقط حباتها وضياعها[5]. لذلك كان الحصاد موسم نشاط كبير، إذ يشترك في العمل بالحقول جميع من بالضيعة من رجال ونساء وأطفال، حتى يتم تخزين الحبوب في أسرع وقت ممكن[6].

كانت تُجمع كل الحيوانات في القرية داخل حظيرة واحدة؛ للتعقيم بعد الحصاد، وترعى على بقايا الزرع بعد حصاد الحقول وجمع المحصول وإزالة الحواجز[7]. ولم تكن الأرض تنال من السماد سوى فضلات الماشية التي ترعى على الأرض وهي تحرثها[8]، إضافة إلى حرق بقايا النباتات والأعشاب الضارة[9]. لكن بعد الحصاد كان يترك الحقل بما عليه من مخلفات القش وسنابل القمح والحبوب التي تتساقط من عمال الحصاد، غذاء لدجاج القرية وبطها وأوزها، حيث تلتقط تلك الدواجن غذاءها من تلك المخلفات لتصبح في أوج سمنتها ولذيذ مذاقها[10].

---

(1) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 420. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 57.

(3) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.

(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.

(5) عاشور، حضارة ونظم، ص 420.

(6) الشيخ، النظم والحضارة، ص 53. عاشور، حضارة ونظم، ص 420.

(7) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 69.

(8) بانتر، تاريخ الحروب، ص 11.

(9) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.

(10) كولتون، عالم العصور، ص 85.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ظلت طرق الزراعة على حالها لم تتغير طوال العصور الوسطى، واقتصر إصلاح الأرض على التجيير بالتراب الحوّاري[1] (marl)، وتقليب الأرض بالمحراث؛ لخلط التربة بجذامات الزروع، وإطلاق المواشي في الأرض للرعي بعد الحصاد[2]، كما استفاد الأوروبيون من المسلمين وأدخلوا السواقي في العمليات الزراعية[3].

اختلف المؤرخون من حيث كفاية المحاصيل لأهالي القرى، فقد ذكر أحد المؤرخين أنه: "ليس ثمة معنى للمبالغة في عيوب الزراعة في العصور الوسطى، فقد كَفَت محاصيلها أهل البلاد، ولم تعدم القرى فلاحين قادرين أنتجت مزارعهم محاصيل لا تقل عن مستوى العصر الحاضر"[4]. وقال آخر : "إنه كان إنتاج الحبوب منخفضاً للغاية من حيث إنتاجية الفدان الواحد، ومن حيث نصيب كل فرد. وذلك يعني : أن الناس في أي قرية –لكي يتوافر لديهم ما يكفي من الطعام– لا بد أن يعملوا على الاستفادة من كل الأرض التي يمكن حرثها[5].

ومهما يكن من رأي فقد كانت المحاصيل التي تزرع في حقول أوروبا العصور الوسطى هي الغلال والبسلة والفول، وإن كانوا لم ينتجوا المحاصيل ذات الجذور مثل اللفت لتغذية المواشي في موسم الشتاء[6].

وفي بعض المناطق مثل إنجلترا وأجزاء من المانيا، كانت الحبوب التي تنمو في الأرض الزراعية تمد الأهالي بالطعام والشراب، ويقدر بأن نحو نصف إنتاج الحبوب في إنجلترا كان يستخدم لإنتاج الخبز، بينما النصف الآخر لصنع الجعة. وكانت المناطق التي تزرع الكروم من أجل الخمر أسعد حظاً، فكانت الأراضي شديدة الانحدار تُحرث من أجل زرع الكروم[7].

كانت الماشية الموجودة في الضيعة من : ثيران وخنازير وأغنام وغيرها، فكانت المتقدمة منها في السن تُذبح قبل حلول الشتاء، وتقدد لحومها، وتملح ليرسل نصيب الأسد منها إلى دوار السيد المالك. كذلك كان يُذبح ما لا تدعو الحاجة إلى بقائه من صغار الماشية في

---

(1) التراب الحواري : هو نوع من الطين الأبيض. (www.esyria.sy).
وقد ذكره جوزيف نسيم يوسف في كتابه تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها باسم التراب الحراري، ص 130.
(2) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 30. يوسف، تاريخ العصور، ص 130.
(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 68.
(4) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 30.
(5) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.
(6) يوسف، تاريخ العصور، ص 130. كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 30.
(7) بانتر، تاريخ الحروب، ص 12.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخريف، في حين تبقى البقية الباقية لتقضي فصل الشتاء على الحشائش المجففة، التي كثيراً ما كانت تنفذ قبل حلول الربيع، فتسوء حالة الماشية، حتى أنها لا تستطيع السير إلى المرعى في أوائل الربيع التالي إلا بصعوبة بالغة[1].

كان المالك الإقطاعي الأعظم والأغنى والأكثر استفادة من تلك الأنظمة الإقطاعية، حيث كان يعود عليه ثلاثة أخماس ما تنتجه القرية والأراضي الزراعية، وقد كان أولئك الأمراء والإقطاعيين من الطبقة الأرستقراطية العالية أمثال: الأساقفة والرهبان وأبناء وأقارب الملك[2].

2- آثار نظام الدومين.

تعني الكلمة اللاتينية (Dominuis) السيد المالك، ولما كان ذلك السيد المالك قد أُطلقت عليه أسماء مختلفة في أنحاء أوروبا منها السيد (Lord)، والأيرل وتعني : المستشار في إنجلترا، والنبيل أو البارون (Baron) أو الدوج (Doge)، فمعنى ذلك أن كل تلك الألقاب لا تبعد كثيراً عن كلمة السيد المالك في درجات مختلفة[3].

ولكن ما تم التعارف عليه في مصطلح العصر الوسيط، هو أن كلمة دومين تعني : مجموع أملاك السيد الإقطاعي من أبعاديات وضواحي[4]. ومن ذلك على سبيل التدليل "دومين براتوس" أسقف مدينة لمان (Bertrannus, Bishop of Le Mans) فقد كتب ذلك الأسقف وصيته سنة 615م، أورد فيها جميع ما تحت يده من ممتلكات، فجاء فيها ما لا يقل عن ثمانين أبعادية مبعثرة في أنحاء مختلفة في غاليا الفرنجية (فرنسا)[5].

ويتلخص نظام الدومين : في أن الأرض الزراعية كانت تنقسم إلى قسمين رئيسين ينتفع المالك بأحدهما، ويوزع الثاني حصصاً مبعثرة بين الفلاحين مقابل ما يؤدونه للسيد من خدمات في أرضه. وكان الأفراد الذين في الدومين يتبعون السيد تبعية تامة. وازدادت مع الزمن سلطة ذلك السيد حتى أصبح حائلاً بين أهل الدومين وبين الحكومة المركزية[6]، سواء أكانت تلك الحكومة ضعيفة مهلهلة كحكومة الميروفنجيين في غاليا، أم قوية منظمة كحكومة شارلمان بغرب أوروبا[7].

---

(1) عاشور، حضارة ونظم، ص 420، 421.

(2) Lyon, From fife, P. 41.

(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 71.

(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 71. كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 7، 8. هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية،ص 113 هامش رقم (2). يوسف، تاريخ العصور، ص 110.

(5) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 8.

(6) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 9، 10. هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية،ص 113. يوسف، تاريخ العصور، ص 110.

(7) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 10.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولمعرفة أحوال الأفراد الذين يعيشون في الدومين في غرب أوروبا العصور الوسطى، علينا أن نتعرف على العلاقة بين السيد المالك والمستأجر داخل نظام الدومين.

أدى تدهور الاقتصاد في أوروبا العصور الوسطى؛ إلى أن لجأ الناس إلى الاعتماد ذاتياً على الناتج المحلي، وكان الذي يستطيع حماية موارد الناتج المحلي، وتنظيم عمليات الزراعة يصبح بدوره سيداً أو مالكاً كبيراً، وأصبح أولئك السادة الملاك مصدراً للثروة والسلطة[1].

لقد كانت العلاقة بين السيد والفلاح (المستأجر)، عبارة عن توازن بين الاحتياجات والقوة النابعة من حاجة الإنسان القوي الملحة إلى السلطة وحب التملك، وحاجة الإنسان الضعيف إلى الحماية والبقاء. وأكدت العلاقة أن كلاً من النبلاء والفلاحين قد وُلدوا مناسبين تماماً لأوضاعهم، وأنهم يجب أن يبقوا هكذا إلى الأبد. كذلك كان هناك اعتقاداً بأن دماء النبلاء تختلف تماماً عن دماء غيرهم من العوام حتى في تركيبة تلك الدماء[2].

وبالرغم من تطور بعض الممارسات الإقطاعية الخاصة بكل دولة إلا أنه كان هناك توحداً عاماً في الممارسة الإقطاعية لجميع أنحاء غرب أوروبا، وكانت عملية استئجار الأراضي من المتبرع المستفيد لها طقوس خاصة، يحيط بها ما يشبه الالتزام الأخلاقي بين الطرفين، لقد كان ذلك شائعاً في جميع أنحاء أوروبا، ولكن ربما مع اختلاف بسيط في التقاليد من دولة لأخرى[3]. ولا شك أنه ضمن كل نظام اقتصادي يوجد رجال يديرون رجال، والذي يدير الرجال في النظام الإقطاعي هو السيد المالك، وقد كانت له ثلاث مهام محددة هي :

1- تأمين الحماية لأراضيه وللناس القاطنين فيها.

2- تنظيم العمل الزراعي والصناعي، والاتجار بالمحاصيل أو بالأراضي نفسها.

3- القيام بمهام الدولة الموكلة إليه من قِبل الملك أو الحاكم[4].

لقد حددت العلاقة بين السيد والفلاح مجموعة من الحقوق والواجبات التي ألقت العبء الأكبر من المغارم على كواهل الفلاحين، وقد اختلفت الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم من مكان إلى آخر؛ نتيجة لاختلاف العادات والملابسات، ولكنه يمكن مع ذلك تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الخدمات، المقررات، والاحتكارات[5].

---

(1) Durant, The Age of, P. 560.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 127.

(3) Lyon, From fife, P. 41.

(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 71.

Durant, The Age of, P. 560.

(5) عاشور، حضارة ونظم، ص 421.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أ- الخدمات.

تمثلت الخدمات في تسخير الفلاح في فلاحة الأرض في خدمة أسبوعية مفروضة، يقوم فيها الفلاحون بالخدمة أياماً معينة في كل أسبوع، كل بحسب حصته في الأرض التي تحت يده[1].

وعمل الفلاح عادة مدة ثلاثة أيام في الأسبوع، أما بقية الأسبوع فكان يعمل في الأراضي التي كانت في حوزتهم، نظير تقديمهم لعدد لا يُحصى من الالتزامات، حسبما جرت العادة بذلك منذ القدم[2]. أما يوم الأحد فكان العمل فيه محرماً[3]، ويسمى ذلك النوع من السخرة بالخدمة الأسبوعية، وكانت هناك السخرة الفصلية التي تُفرض على الفلاحين في مواسم جمع المحصول وحصاده، وهناك نوع آخر من السخرة كان يُفرض على الأقنان عندما يُطلب منهم إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر، إلى غير ذلك من الأعمال المرهقة[4].

وفي ذلك قال المؤرخ مارك بلوخ (Marc Block) : "وفي أيام بعينها كان على المستأجر أن يقدم إلى كاتب السيد بعض القطع النقدية من الفضة، والكثير من حزم القمح التي جمعها من حقله، والدجاج من الحظائر الموجودة في أرضه، وأقراص الشمع وبها العسل من مناحله، أو من بيوت النحل الموجودة في الغابات المجاورة، وفي الأوقات الأخرى كان عليه أن يعمل في البساتين الخاصة بالسيد أو المراعي التابعة له، وفي بعض الأوقات نراه يقوم بتحميل براميل النبيذ المصنوعة من الخشب، أو أجولة القمح لحساب سيده إلى مسكن السيد البعيد، كذلك كان من ضمن عمله ترميم وإصلاح أسوار القلعة، وإعادة حفر الخندق المائي الذي يحيط بالقلعة، وإذا حدث وأتى للسيد بعض الضيوف، فقد كان يتحتم على الفلاح أن يقوم بتقطيع فراشه ليقدم الملاءات الزائدة والضرورية لضيوف سيده، وعندما يحين موسم الصيد، فإنه يصبح في مقدوره أن يتناول بعض ما يتبقى على مائدة السيد من لحوم الصيد، وعندما تندلع الحرب، فإنه يقدم خدماته كجندي من المشاة، أو كأحد الجنود النظاميين، تحت قيادة الموظف الإداري للقرية"[5].

ب- أما المقررات : فقد كانت الالتزامات الإقطاعية قد صيغت بشكل حر، وكانت العقود والاتفاقيات الإقطاعية تُحترم، وكانت الأعراف الإقطاعية تؤخذ بعين الاعتبار، لكن السيد أصبح قوياً بدرجة كافية لأن يُجبر غيره على الولاء، وهنالك كانت تكمن المشكلة[6].

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 53.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 125. الشيخ، النظم والحضارة، ص 53.

Anderson, Passages from, P. 185.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 53.

(4) المرجع نفسه، ص 53. عاشور، حضارة ونظم، ص 421.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 125.

(6) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 173.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكانت تشمل عدة مكوس وضرائب تتمثل في[1] :

1- **ضريبة الرأس** : حيث تعين على كل قِن أن يدفعها سنوياً للسيد صاحب الضيعة إما نقداً وإما عيناً، وهي تدفع للحكومة، ويبدو أن تلك الضريبة كانت تافهة وبسيطة، ولكن الغرض الأساسي منها هي أن تظل رمزاً للعبودية.

2- **ضريبة العُشر** : حيث كانت تُقدَّر بعُشر ما تخرجه الأرض من حبوب وخضر، فضلاً عن : الماشية والدجاج والبط والأوز والبيض وغيرها.

3- **ضريبة الولاية وضريبة الجبن** : حيث يقوم الفلاح بدفع رسوم محددة في حال أراد ممارسة الصيد في البركة أو النهر أو رعي المواشي في مراعي الضيعة.

وقد ذكر العالم الشهير (كولتون) : أن الدجاجة التي كان يحصل عليها اللورد نظير ضريبة العُشر عن الدجاج، كان اللورد يرفضها ويعتبرها مريضة إذا لم تستطع أن تجري في كل أنحاء الحديقة وهي في حالة ذعر، وأن الطحان يجب أن يملأ خزان المياه لآخره؛ كي لا يمنع أية نحلة من أن تقف على حافة الخزان لتشرب دون أن تبتل أجنحتها[2].

وكان على الفلاح بجانب ذلك طحن الذرة، فصنع الخبز، وتهيئة الشراب عن طريق عصر العنب وتخميره لصالح السيد المالك دون تقاضي أجر على ذلك[3]. كما كان عليه أن يقدم أكواخاً من جذوع الأشجار وأخشابها مقابل جمعه الأخشاب والأحطاب التي يوقد بها النار من الغابات القريبة[4].

ج- الاحتكارات.

قامت جملة من الاحتكارات التي لم يكن للفلاح بد من قبولها صاغراً منها :

1- أن يطحن ما يحتاج إلى طحنه من الغلة بطاحونة السيد المالك، سواء كان ذلك السيد رجلاً أم كنيسة أم دير.

2- فرض استعمال معصرة الدومين على الفلاحين.

3- إجبار الفلاحين على استعمال الفرن الذي يملكه السيد المالك. كل ذلك مقابل مبلغ من المال أو مقدارٍ من الغلة يؤديه له عاجلاً أم آجلاً[5].

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 54. عاشور، حضارة ونظم، ص 422. عمران، حضارة أوروبا، ص 65. كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 32، 33، 34، 37. يوسف، تاريخ العصور، ص 126.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 126.

(3) Durant, The Age of, P. 555.

(4) الشيخ، النظم والحضارة، ص 54.

(5) بانتر، تاريخ الحروب، ص 15. بيرين، تاريخ أوروبا، ص 70. بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 125. عاشور، حضارة ونظم، ص 422. عمران، حضارة أوروبا، ص 65. كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 35، 36. يوسف، تاريخ العصور، ص 133، 134.

Durant, The Age of, P. 560. Anderson, Passages from, P. 184.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

4- كان السيد يُحرّم على مستأجريه الاحتفاظ بطيور الحمام، بينما الحيوانات التي يمتلكها تنمو وتزداد اعتماداً على محاصيلهم[1].

5- بناء أحواض مائية ضخمة تسيطر كلية على المياه اللازمة للزراعة، وكان احتكار الماء هو الهدف الأساسي[2].

على أن تلك الاحتكارات لم تكن تثقل على الفلاحين، فالغلة لا بد لها من الطحن والخَبْز، والعنب لا بد له من العصر، والأجور حددها العُرف القديم، وتلك في العادة جزء من الغلة المقدمة للطحن. ولكن بازدياد عدد السكان، وتحسين طرق المواصلات، أصبح ذلك الاحتكار ثقيلاً على الفلاح، إذ حرم الواحد منهم أن يحمل غلته إلى طاحونة أقرب مسافة إليه من الطاحونة التابع لها، متكبداً مشقة السير إليها بأحمال الغلة، ثم ينتظر طويلاً حتى يجيء دوره للطحن، ثم ما يلبث أن يفقد دوره لخادم من طرف أحد الأعيان المتفقين مع الطحان على طحن غلالهم بمجرد وصولها مقابل مبلغ سنوي معين. كذلك الحال في المعصرة وفي الفرن[3].

وفيما عدا الالتزامات السابقة، تعرض الأقنان لأعباء أخرى في حالة الوفاة أو الزواج أو الوراثة أو انتقال حق التمتع بالأرض من فرد إلى آخر[4].

فكان يحصل السيد المالك على أفضل حيوان لدى الفلاح عند موته؛ كي يصرح بدفنه في مكان حفظ الموتى، فإن لم يكن لديه حيوانات فإنه يحصل على أفضل ملابسه، أو مرجله النحاس، أو الفراش الذي مات عليه[5]. وكان على الفلاح الحصول على موافقة سيده المالك إذا أراد أن يتزوج، فإذا اختار امرأة من نفس الدومين كانت المسألة سهلة وبسيطة، أما إذا رغب في الزواج من امرأة في دومين آخر -ينتمي إلى سيد آخر- فإن السيد الأول في تلك الحالة يخشى أن يفقد الفلاح، ولذلك يعارض مشروع الزواج[6]. ولما كان من المستحيل منع زواج فرد من المرأة التي اختارها لنفسه، فقد لجأ السادة الإقطاعيون في القرن الحادي عشر إلى فرض مبلغ كبير من المال على الفلاح الذي يطلب الزواج من خارج الدومين[7].

---

(1) بانتر، تاريخ الحروب، ص 15. بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 125.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 422.

Anderson, Passages from, P. 184. Durant, The Age of, P. 560.

(3) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 35، 36.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 423.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 126.

(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 423.

(7) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 69. الشيخ، النظم والحضارة، ص 55. عاشور، حضارة ونظم، ص 423.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويُقال : إن أي فلاح يرغب في الزواج من إحدى النساء الأقنان في ضيعة محددة، يجب عليه أن يُقدم للورد تعويضاً عبارة عن قِدر كبير من النحاس، ذلك القدر يجب أن يكون ذا سعة كبيرة بحيث تستطيع العروس أن تجلس فيه دون أن تضطر للانحناء[1].

كذلك فرض السيد المالك ضريبة كبيرة على النساء غير الأحرار؛ لممارستهن الفجور والفسق، حيث يعتبرها ملكاً له، وكل من يمارس الفسق معها فعليه أن يدفع له مبلغاً نظير ذلك[2].

ولنا هنالك أن نتصور مدى الانحطاط الأخلاقي والديني الذي وصلت إليه أوروبا في العصور الوسطى، ومنها :

1- أن الضريبة فرضت فقط على النساء غير الأحرار بسبب الملكية، يعني ذلك : أن النساء الأحرار لا علاقة للسيد بهن يفعلن ما يرغبن به.

2- كانت العقوبة التي فرضت هي دفع المال من أجل المال، وليس البعد عن تلك الفاحشة، لذلك من الطبيعي أن تتم ممارسة ذلك مع من لديه مال، ومن الممكن أن السيد كان يقصد الحصول على المال من وراء تلك الفريضة.

ولما كان الفلاح لا يمتلك شيئاً من الأرض التي يعمل بها، وبالتالي فإنه ليس له حق بيعها أو تقسيمها بين ورثته، ومع ذلك فإن ارتباطهم بتلك الأرض كان مدى الحياة، ثم صار وراثياً[3]. وبذلك فعند وفاة الفلاح ورغبة أبنائه أو ورثته في احتلال مكانه، فإن السيد الإقطاعي يقوم بفرض ضريبة عليهم نظير الانتفاع بأرض المتوفى، فضلاً عن حقوق السيد في إرث جانب من تلك الأراضي أو إرثها كلها إن رغب[4]. وغالباً ما كانت ضريبة السيد فَرَساً أو ثوراً قوياً اعترافاً بما للسيد من حق في المنقولات الزراعية الخاصة بالأرض[5].

وبالإضافة إلى الحقوق الاقتصادية التي تمتع بها السيد الإقطاعي، فقد حصل على الحقوق القضائية[6]، بوصفه نائباً عن الملك في ضيعته، حيث باشر جميع ما كان للملك من حقوق قضائية[7]، وصارت محكمته تعالج مختلف أنواع القضايا، ثم توقع على المذنبين شتى

---

(1) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 127.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 125، 126.

(3) عاشور، حضارة ونظم، ص 424.

(4) الشيخ، النظم والحضارة، ص 56. عاشور، حضارة ونظم، ص 424.

(5) عاشور، حضارة ونظم، ص 424.

(6) الشيخ، النظم والحضارة، ص 55.

(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 423.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أصناف العقوبات بما فيها عقوبة الإعدام[1]. وإذا لم يتمكن سيد الدومين من شنق عبيده، فإن السيد الذي يعلوه في المرتبة يمكنه تنفيذ ذلك الشنق، ويسره أن يفعل ذلك بناء على طلبه[2].

وإذا اقتضى الأمر وكانت للفلاح قضية فعليه أن يرفعها أمام محكمة السيد الإقطاعي مقابل رسوم معينة تختلف حسب نوع القضية[3].

عادت تلك الحقوق القضائية بفوائد كبيرة على السادة المُلاّك؛ لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين في كثير من القضايا الصغرى، في حين كان يستولي السيد على جميع ممتلكات الشخص الذي يُحكم عليه بالإعدام، وازدياد نفوذ السادة الملاك وسيطرتهم على الأقنان، نتيجة مباشرة تلك الحقوق[4].

ونحن بصدد ما تقدم أردنا أن نضيف بعض المعلومات البسيطة عن حياة السيد المالك لتتضح لنا الصورة أكثر عن نظام الدومين.

3- أحوال عصر النمو الإقطاعي.

لقد استغرق النظام الإقطاعي في دور نموه مدة القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وكان الغرب الأوروبي خلال ذينك القرنين مسرحاً لأحداث سياسية واضطرابات اجتماعية كبيرة، وقد تميزت تلك الفترة بأنها عصر الغموض والظلام، خاصة وأنه ليس لدينا من المصادر المتوفرة كاتب معاصر واحد يمكن أن نستشف من كتاباته شيئاً ينير لنا الطريق في ذلك السبيل المظلم، ولتسهيل فهم ذلك الركن يمكن تقسيمه بدوره إلى عصور ثلاثة هي : عصر التمهيد للنظام الإقطاعي، عصر نموه، وعصر نضجه واكتماله[5].

أ- العصر الأول : عصر التمهيد للنظام الإقطاعي.

لم يكن الإقطاع نظاماً في حد ذاته، لكنه كان بالأساس تصرفاً ذاتياً من قِبل أفراد وقطاعات معينة؛ لتلبية الحاجات الضرورية اللازمة للعيش، فكان الإقطاع بمثابة ظاهرة كونتها الظروف وشكلتها الأحداث، ثم طورها رجال لهم قدرات ومهام مختلفة ومتعددة[6]. فكان لتهاوي المقاطعات الرومانية في أيدي الغزاة، أن نزع الجميع إلى حماية ممتلكاتهم الخاصة؛ بسبب

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 55. عاشور، حضارة ونظم، ص 423.

(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 15.

(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 65.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 423، 424.

(5) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 10، 11. يوسف، تاريخ العصور، ص 111.

(6) Strayer, The Western Eorup, P. 60.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سحب الفيالق الحربية من أطراف الإمبراطورية البعيدة للتصدي للغزاة الذين وصلوا إلى بوابات روما، فاستشعر المواطنون في القرى بالخطر على مساكنهم وحياتهم، حتى مسببات العيش كالغذاء والمأوى والملبس فقد تعرض للشح والضياع بسبب ذلك الغزو. ومن أجل الحماية والعيش؛ تطورت المؤسسات الإقطاعية في كثير من المناطق؛ لتلبية مطامح الناس في عيش آمن تحت حماية وأمن إقطاعي مقابل خدمات تصل في درجتها إلى العبودية[1].

وعندما نذكر النظام الإقطاعي فإننا دائماً، نشير إلى النظام الذي نشأ في غرب أوروبا في العصور الوسطى، وللبحث في أصوله توجد هناك العديد من الحقائق التي لا يمكن تجاهلها، تكمن في الظروف المجتمعية التي هيأت للنظام الإقطاعي فرصة الظهور إلى جانب حقيقة المؤسسات القديمة، والتي تم تحويلها إلى مؤسسات إقطاعية؛ بسبب الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على أوروبا في تلك الفترة والتي ساهمت في صياغة الملامح النهائية لذلك النظام[2].

ولقد ثار جدل عميق بين علماء التاريخ حول تحديد أصول الإقطاع، إلا إنهم لم يتوفقوا صراحة على مدلولات مطابقة لجميع آرائهم، وذلك يبدو أكيداً لسبب رئيس، هو أن شخصية السيد أو المالك المحلي وعظيم منطقته الذي يقطن فيها، ظهر في أوروبا منذ القِدم متمثلاً في شخصية الرجل الغني بالمال والحرث والماشية، والحامي لأرواح الناس، وقائد الجيش والقابض على زمام الأمور كلها، مثل تلك الشخصية كانت معروفة للإيطاليين الأوائل وقبائل الكلتس، إضافة إلى الألمان القدماء[3].

لقد نمت بعض الملكيات الجرمانية (كالملكية الميروفنجية مثلاً) في غرب أوروبا؛ نتيجة لتأثر أولئك الجرمان بروح الاستقرار والنظريات الرومانية السائدة في البلاد التي استقروا فيها، حيث إنه لم يلبث ذلك الاستقرار الذي نعمت به القبائل الجرمانية غداة اقتحامها العالم الروماني أن أثر بدوره في تنظيمها الاجتماعي، لأن اتساع رقعة البلاد التي حكمها ملوك الجرمان، مع انتشار عوامل الفوضى التي سادت ذلك العصر، أدت إلى إفلات الزمام من أيديهم تدريجياً. وهكذا يبدو أنه في الوقت الذي هيأت بعض الظروف لملوك الجرمان قدراً متزايداً من السلطان والنفوذ، اضطر أولئك الملوك تحت ضغط ظروف أخرى، إلى التخلي عن تلك السلطة وذلك النفوذ وتقويضها لمن ينوب عنهم[4].

---

(1) Eberhart and Dixon: Economics, P.P. 133, 134.
(2) Adams: Civilization, P. 191.
(3) Strayer, The Western Eorup, P. 61.
(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 380.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت الإمبراطورية الرومانية هي الدولة الوحيدة التي قزمت من صلاحيات أولئك السادة، لكنها لم تمحُ تأثيرهم وهيبتهم في قلوب رعاياهم، لكن المانيا استبقت على النظام القديم الذي يرعى مصالح الأسياد والخدم، وعزز الاحتلال الألماني لغربي الإمبراطورية الرومانية النزعة والميل القديم لنظام الملكية المحلية أما باقي الأفكار والأنظمة الرومانية فقد احتفظت بشيء من تأثيرها إلى فترة وجيزة، لكنها سرعان ما تلاشت؛ لعدم تطبيقها من قِبل الملوك والدوائر التي عملت إبان الاحتلال الألماني لغرب الإمبراطورية الرومانية[1].

وفي خضم تطور الدولة الجرمانية في الغرب، طور الألمان ما يُعرف بنظام التجنيد الخاص، حيث عزز ذلك النظام بشكل كبير من القدرة العسكرية، وقد لعبت الاتفاقيات بين الحكومة وأولئك الأفراد، دوراً كبيراً في تأمين المزيد من العملاء والتابعين للدولة، وكانت أتعاب أولئك المتعاملين مع الدولة هي بمثابة منحهم قطعاً من الأراضي للاستخدام والاستنفاع الشخصي، من هنالك بدأ التمهيد للإقطاع بمنح أجير أو تابع قطعة من الأرض مقابل خدمة يؤديها إلى الدولة[2].

ومنذ النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي زادت نسبة الأتباع بالنسبة للمجموع الكلي للأحرار، وزادت صفة الأتباع العسكرية دون شك، وأطلقت عليهم ألفاظ مختلفة ترمز لتبعيتهم وتشير إلى صفتهم، وشاع في القرن التاسع لفظ (Vassus) أو الفصل (Vassal)؛ للدلالة على التابع، و(Vassal) كلمة من أصل كلتي استُخدمت في الفترة الفرنجية للدلالة على محارب في خدمة سيد كبير، أي : رجل حر وضع نفسه تحت حماية رجل آخر أكثر غنى وأكثر قوة، فأصبح فصلاً وتابعاً له[3].

وذلك عندما أصبحت موارد دولة الفرنجة محدودة في القرن الثامن بحيث لا تفي بكل مطالب الحكم والسلطة، فإن (شارل مارتل) لجأ إلى حل يتفق وتقاليد ذلك العصر[4]؛ فعندما وجد شارل نفسه بحاجة المال، لكنه أيضاً بحاجة لقوة عسكرية يعتمد عليها؛ فقد سن عُرفاً تقليدياً تمثل في إنشاء نظام المنفعة الذي تبنته الكنيسة الفرانكونية، والذي كان يقضي بمنح الأراضي لأجل مستديم مقابل الاشتراك في المنفعة التي تُجبى من خلال العمل فيها، وكان ذلك النظام يقتضي بجلب رجال يعملون في تلك الأراضي بعد الإدلاء بقسم خاص[5].

---

(1) Strayer, The Western Eorup, P. 61.
(2) Lamonte, The world of, P. 213.
(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 18، 19.
(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 381. كانتور، العصور الوسطى، ص 337.
(5) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لذلك اعتبر المؤرخون أن المؤسسات الإقطاعية نشأت من قلب المناطق الفرانكونية، وكانت تلك المملكة خاصة المناطق الواقعة بين اللورين ومناطق نهر الراين، هي السّباقة لإنشاء وتبني ذلك النظام[1].

سجل (شارل) أسماء المحاربين، وجعلهم يُقسمون له يمين الولاء، ثم أعطى كلاً منهم إقطاعاً يكفي لسد مطالب معيشته على أن يبقى ذلك الإقطاع في حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية. وبذلك استطاع شارل مانل من التغلب على ما واجهه من صعاب، فكون جيشاً قوياً من الفرسان استغله في طرد المسلمين من جنوب غاليا (فرنسا)، وفي محاربة السكسون في الشمال، والمهم في ذلك التنظيم الذي وضعه شارل مارتل لجيشه، واقتفى أثره فيه بيبن القصير، ثم شارلمان، أنه قام على أساس إقطاعي واضح[2].

عندما أتت الدولة الكارولنجية للسلطة، كان رجال الدولة الكارولنجيين أكثر قوة ونفوذاً من ملوك الدولة الميروفنجية، فقد طبق أولئك الرجال الأوامر الملكية فقط عندما كانت تلك الأوامر تتماشى مع مصالحهم أو مزاجهم السياسي أو الاجتماعي، وفي حال تم العكس كان من أسهل ما يكون التمرد على تلك الأوامر وإبطالها، ولقد مارس رجال الدولة الكارولنجية نفوذاً سلطوياً على جميع من حولهم من السكان المحليين ممن كانوا يقطنون في أراضيهم لكنهم لم يتولوا المسؤولية الكاملة في إدارة شؤونهم[3].

وكان من أهم التطورات التي طرأت على عصر الكارولنجيين في أوروبا، هو التطور العام نحو المحلية، والبعد عن فكرة الحكومة المركزية، ثم ما أنشأه الأباطرة الكارولنجيين من حكومة وسعت نظمها كل ما تأصل بالغرب الأوروبي من تطور نحو المحلية؛ مما سهل السبيل لقيام تلك السلطات الكبيرة التي خولها شارلمان لنوابه الإقليميين ولمرؤوسيهم[4].

وحرص الكارولنجيون دائماً على ألا تتهيأ الفرصة لأتباعهم، لأن يحولوا ما حصلوا عليه من ضياع على أنها إقطاعات، إلى أملاك خاصة لهم، فأعلن شارلمان في وقت من الأوقات "سمعنا أن بعض الكونتات وغيرهم ممن يحصلون منا على إقطاعات، إنما يتصرفون فيها على أنها أملاك خاصة لهم" وذلك دليل على أن محاولات من ذلك القبيل حدثت فعلاً[5].

---

(1) Ganshof, Feoladism, P. 34. Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 16.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 381. كانتور، العصور الوسطى، ص 337.

(3) Strayer, The Western Eorup, P. 61.

(4) يوسف، تاريخ العصور، ص 112.

(5) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأدرك الكارولنجيون تلك الحقائق؛ فقاموا بتعديل النظام الإداري الحكومي حسب تلك المعطيات، فلم يكن بمقدورهم تدمير قوة السادة المحليين، لكنهم أرادوا استغلال تلك القوة للعمل في صالحهم، ومنذ أن أسقطت فكرة السيادة المحلية المفهوم الروماني القاضي بإقصاء المحلية للنظام الإداري الحكومي، أمر الكارولنجيون جميع الرجال في كل مقاطعة باختيار سيد لهم على أن يكون الكارولنجيون أنفسهم أعلى طبقة سيادية في الدولة، كل ذلك ساهم في خلق مفهوم التباين بين فئات المجتمع الواحد والتفاوت الطبقي بين مستويات السيادة وباقي أفراد الرعية[1].

لقد أدت سياسة الدولة الكارولنجية إلى أن أخذ السادة الكبار في النصف الغربي من المملكة الكارولنجية في محاكاة الملك؛ فحولوا فرسانهم إلى فرسان مقطعين، وكان لتلك الرابطة المتنامية بين الإقطاع والتبعية الإقطاعية تأثيرها من حيث الارتفاع بمكانة الفصل الاجتماعية، فمن البلطجي الأجير، كان ذلك الفصل نفسه، يصبح سيداً محلياً مرموقاً في كثير من الحالات، يتمتع بالسيطرة على إقطاع أو أكثر، وبطبيعة الحال، كان هناك تبايناً شديداً بين الدوق أو الكونت التابع للملك، وبين عامة الأفصال من الفرسان، الذين ظلوا على مدى عدة قرون تالية، قوماً أفظاظاً خشني الطباع[2].

وفي ظل فساد الحكومة المركزية للدولة الكارولنجية، وكثرة الحروب الأهلية والغزوات والركود الاقتصادي؛ ظهر الإقطاع كحالة جديدة قابلة للتطور[3].

ب- العصر الثاني : عصر النمو الإقطاعي.

ساعدت الحرب العنيفة التي قامت في القرن التاسع بين لويس وأبنائه على نمو نظام الإقطاع وتفرعه، والتي استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم، كانت في ذاتها كافية لأن تُثير جواً من الفوضى أصبحت فيه الكلمة الأخيرة لقوة السلاح وحدها[4]. فعندما كان يقضي أي ملك نحبه، يتنازع أبناؤه على تقسيم ممتلكاته، ويبذل كل منهم جهده في الاستئثار بما كان لدى الملك من ممالك وأراضٍ وحيازات ملكية أخرى، وبعدما تكررت الانقسامات بين أبناء الملوك بسبب تلك المشاكل، تطورت العملية الملكية في أوروبا فأصبح هناك ملوكاً لمناطق كانت متحدة تحت سيطرة ملك واحد، وكانت تلك المناطق مثل النمسا ونوستريا (Nostreia) وبراغندي، حتى إن التنافس امتد ليشمل الطبقات الأرستقراطية في تلك الممالك. وكان التنازع بين الأبناء والأحفاد

---

(1) Strayer, The Western Eorup, P. 61.

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 337.

(3) Strayer, The Western Eorup, P. 60.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 382.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على العروش والممالك يشبه تنازع البهائم المتوحشة على أسباب عيشها في الغابات والصحاري، وقد تطورت تلك النزاعات لتشمل التنازع بين الملوك والسادة والنبلاء، وكانت تلك النزاعات بطبيعتها نزاعات دموية لفرض القوة، وبسط الهيمنة كل على الآخر[1].

واستمر نمو الإقطاع وسط الظروف التي كانت تمر بها أوروبا حينئذ، إذ أغار الفايكنج على سواحل فرنسا، ثم توغلوا في البداية إلى أبعد من مصبات أنهارها، وأغار المجريون على الشطر الشرقي من غاليا، بينما وصل المسلمون إلى دلتا نهر الرون[2].

كان الملوك في فرنسا وإيطاليا نادراً ما ينجحون في صد أي عدوان، وكانت اليد العليا في الحكومة غالباً لأولئك الكونتات والسادة المحليين، وكان ملوك إنجلترا والمانيا أنجح نسبياً في صد الكثير من الهجمات، فلم يكن للسادة المحليين نمو سلطوي ملموس، حيث احتفظت الحكومة المركزية ببعض سلطتها على الحكام المحليين[3].

وأدت إغارات الفايكنج والمسلمين والمجريين على غرب أوروبا ووسطها في القرن التاسع، إلى جعل القرى والمدن والمؤسسات الدينية لا يأمنون على أنفسهم إلا في ظل القوة المسلحة[4].

كانت الدولة في تلك الفترة عاجزة عن بسط الأمن والسلام في مناطقها، فقد كانت بنيتها السياسية والعسكرية بنية بدائية، وكانت طواقمها الإدارية قليلة وذات تركيبة بسيطة، لا يُعتمد عليها في أي حال من الأحوال في كونها مؤسسة حكومية قادرة على أداء مهامها على أكمل وجه. ذلك الأُنموذج الاجتماعي للمجتمع الأوروبي في العصور الوسطى شجع على إظهار طبقة من الخدم والعاملين تحت إمرة من هم أقوى منهم؛ طلباً للحماية والأمن تحت ظلهم، وكان طلب الأمن والحماية يعني : أن يؤدي أولئك الأفراد خدمات معينة نظير ما يتمتعون به من الحماية[5].

وأمام حالة الفوضى التي كانت عليها البلاد، لم يكن أمام مُلاك الأراضي إلا بديلين اثنين عمليين : إما أن يحصل الواحد منهم على الدعم والحماية العسكرية بأن يُصبح تباعاً لأحد الجيران الأقوياء، وإما أن يهبط إلى فئة الفلاح القروي الذي لا يتمتع بحرية. وقد اختار كل مالك تقريباً الطريق الأول، إذا كانت ثروته تسمح له بتجهيز نفسه كجندي، ولا يبقى خارج النظام الإقطاعي سوى أقوى الأشخاص وأكثرهم عناداً[6].

---

(1) Ganshof, Feoladism, P. 3.

(2) الشيخ، النظم والحضارة، ص 20.

(3) Strayer, The Western Eorup, P. 59.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 382.

(5) Ganshof, Feoladism, P. 3.

(6) بانتر، تاريخ الحروب، ص 17.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كذلك أخذ الملوك وكبار الأمراء ومُلاك الأراضي يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم في التغلب على ما واجههم من أخطار، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجة أسرته إلى منح تلك الزيادة على هيئة إقطاع لأتباع له من الجنود[1].

وكان هناك من الطبقة السيادية التي تطمح في أن تشغل منصباً سياسياً هاماً في الدولة، أو تأمل في الاستفادة من الخلل السياسي القائم في الدولة لصالحها، أو تريد زيادة أرباحها المادية، فقد كانت في حاجة لتلك الخدمات التي فرضتها على الطبقات الدنيا التي لجأت إليها، وكانت تلك الخدمات إما أن تتمثل في الأغراض الاقتصادية وإما العسكرية، وعلى أية حال فإن أولئك الرجال الأحرار هيئوا أنفسهم ليصبحوا عبيداً للطبقة العليا، والتي استغلت وجودهم لاستخدامهم في أغراضها العسكرية كدرع حام لممتلكاتهم[2].

تلقى ذلك النظام دعماً وتأييداً من الأساقفة والكونتات، فقد كانت للأساقفة مكاتبهم الخاصة بجوار الرعاية الملكية، مما كان يعود عليهم بالنفع المطلق. أما الكونتات فبالرغم من أنهم كانوا ينتخبون من قِبل فئات معينة من مُلاك الأراضي والإقطاعات، إلا أنهم لم تكن لهم ممتلكات مطلقة تورّث من بعدهم، لذا فقد كانوا دوماً يتطلعون إلى الحصول على المزيد من الثروة والقوة عن طريق مساندة الملك والتقرب منه؛ لكي تتنامى[3].

أخذ أولئك الأفصال الذين يملكون إقطاعيات، يبحثون عن امتلاك المزيد منها الإقطاعيات، كما سعوا إلى تأكيد الصفة الوراثية للأرض التي حازوها من سيدهم، وعلى الرغم من أن الإقطاع لم يكن وراثياً، حيث كان يؤول إلى السيد بعد موت الفصل، فإنه بمنتصف القرن العاشر صار الإقطاع وراثياً بالفعل[4]، وبدفع ضريبة وراثة تُسمى (Relief) كان ابن الفصل المتوفى يقدم ولاءه للسيد؛ فيُمنح الإقطاع لقاء ذلك[5]. ومثال ذلك ما توارثته أسرة نيبلونجن (Nibelungen)، من الإقطاعيات من زمن شارل مارتل، حتى القرن التاسع الميلادي، وما كان من حرص الأتباع على أن يحصلوا لأنفسهم ولأبنائهم على إقطاعات، كل ذلك أدى إلى أن يوجهوا جهودهم بجعل الإقطاعيات وراثية، وإلى أن يحصلوا على إقطاعيات من سادة مختلفين[6].

---

(1) عاشور، حضارة ونظم، ص 382.

(2) Ganshof, Feoladism, P. 3, 4.

(3) Strayer, The Western Eorup, P. 62.

(4) كانتور، العصور الوسطى، ص 338.

Durant, The Age, P. 552. Anderson, Passages from, P. 185.

(5) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 35.

(6) كانتور، العصور الوسطى، ص 338.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان السادة والكونتات والنبلاء الذين كانوا أكثر الطبقات الأرستقراطية احتكاكاً مع العامة، أقل انشغالاً بالتنظيم بقدر ما كانوا منشغلين بالهدم والتدمير، وأقل قلقاً من أن يحكموا وينظموا الأمور على عكس ما كانوا حريصين على الاستغلال والنهب، وبدلاً من قيام السادة بحماية من هم دونهم من الفلاحين والبسطاء، قاموا بممارسة الظلم عليهم[1].

ويبدو جوع أفصال القرنين التاسع والعاشر للأرض واضحاً في الملحمة الإقطاعية المعروفة باسم (Raoul de Cambrai)، التي –رغم أنها وصلتنا في أشعار تعود إلى القرن الثاني عشر– كانت تعكس بشكل غامض حادثة حقيقية وقعت في القرن الثامن، كما كانت تعكس أخلاقيات الطبقة الإقطاعية في تلك الفترة، وفي الملحمة غفل الإمبراطور منح (راؤل) الإقطاع الذي كان بيد أبيه؛ فبادر راؤل إلى رفع السلاح ضد سيده، في محاولة لإجباره على منحه ما اعتبره ميراثه الشرعي[2].

وعلى الرغم من أن بعض الأتباع أفادوا من الاضطرابات التي حدثت في القرن التاسع الميلادي، ولا سيما في غرب أوروبا، فاتخذوا الإقطاعيات ملكاً لهم، فظلت معظم الإقطاعيات محتفظة بصفتها الأصلية، سواء أكان الإمبراطور قد بذلها لأتباعه الملوك أم السادة أم المؤسسات الكنسية، إلا أنها لم تتعدَ حقوق التابع، في نهاية القرن التاسع، حقوق الانتفاع بالأرض[3].

كما وجدنا أن امتلاك الأرض في تلك الفترة أصبح مصاحباً لحق امتلاك الحكم والسلطان فاندمجت الأرض بالسلطان، وقامت العلاقات بين صاحب الأرض ومن يعيش على تلك الأرض، وارتبطت العلاقات بتعهدات مشتركة والتزامات متبادلة بين الطرفين حتى صارت تلك التعهدات هي القاعدة التي سارت عليها أمور الحكم ومتطلبات الأمن والحياة، ومن ذلك يتضح أن نظاماً وسطاً، وهو النظام الإقطاعي قد قام بين الحكومة المركزية واللامركزية؛ لأن النظام الملكي ظل باقياً في وضع هزيل لا يمكنه من مواجهة الأحداث[4].

كانت الإمبراطورية الكارولنجية ذات مساحة واسعة، وبرقعتها الضخمة لم تكن تعني شيئاً للإنسان العادي والبسيط، الذي يقطن الإمبراطورية، فقد كان كل ما يعنيه الحكومة المحلية فقط بسبب دنوه منها ودنوها منه، ولذلك كان يُظهر الإنسان العادي حباً شديداً للحاكم الإقطاعي الذي يقوم على تأمين حياته، لذلك كان يظهر ولاءه وطاعته للهيكلية المحلية برمتها سواء أكانت حاكماً أم إدارة، وكانت بيئة تلك الحكومة والرغبة في جعلها أكثر قوة ونفوذاً، من العوامل التي ساهمت في تطوير الأساليب والممارسات السياسية على مر العصور اللاحقة. كما كان من أسباب ضعف الإمبراطورية الكارولنجية أنها في النهاية اعتمدت فقط على ولاء ودعم الكنيسة لها[5].

---

(1) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 175.

(2) كانتور، العصور الوسطى، ص 338.

(3) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 31.

(4) عمران، حضارة أوروبا، ص 70.

(5) Strayer, The Western Eorup, P. 65.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فلقد حاول الأساقفة الحفاظ على الدولة الكارولنجية، لكنهم كانوا مجبرين على البحث عن الحماية من قِبل رجال الدولة وأصحاب المراكز العليا فيها، أما الكونتات الذين كانت تنتابهم نوبات النزوع إلى الاستقلالية، فقد استفادوا فائدة كبيرة من الحروب الأهلية؛ فملّكوا أنفسهم إقطاعات موروثة ومن ثَمّ نصبوا أنفسهم حكاماً مستقلين على المناطق التي كان لهم فيها نفوذ قوي[1].

قسمت أوروبا إلى عدد كبير من الممالك بعد سقوط إمبراطورية شارلمان، وكانت سلطة معظم الملوك على ممالكهم واهية، وترتب على ذلك أن مئات من التابعين الذين كانوا يحملون ألقاباً مثل الأمير أو البارون أو الدوق أو الكونت، أصبحوا حكاماً مستقلين في إقطاعاتهم الخاصة، كما حكم أولئك النبلاء إقطاعاتهم من خلال شكل من الحكم عُرف بالنظام الإقطاعي[2].

كما تكونت في القرن التاسع طبقة من السادة الإقطاعيين والأفصال، فأصبح المحارب أو الفارس الصغير الذي لا يمتلك من الأرض إلا قدراً بسيطاً فصلاً لمالك أكبر، ربما كان كونت الإقليم، في حين صار ذلك الكونت فصلاً لمالك أعظم، قد يكون الدوق أو الملك، على أن ذلك النظام الهرمي الذي كان الملك في قمته والفارس العادي في أسفله، لم يكتمل بناؤه بالصورة التي قد نتصورها في القرن التاسع، إذ ظلت هناك كثيراً من أراضي الملكيات الحرة التي لم تدخل ضمن التنظيم الإقطاعي منتشرة في غرب أوروبا حتى القرن الثاني عشر[3].

كان العضو الأُنموذجي للطبقة الحاكمة في ظل النظام الإقطاعي هو النبيل والفارس والتابع والسيد في آن واحد، وكان النبيل نبيلاً؛ لأنه ولد في طبقة نبيلة، ثم يصبح فارساً عندما يقرر أن يقضي حياته محارباً محترفاً، ثم يصبح تابعاً عندما يتعهد بخدمة ملك أو شخصية مهمة أخرى مقابل الإقطاعية التي خصصت له، ويصبح في نهاية المطاف سيداً عندما يعطي جزءاً من الأراضي المقطعة له إلى أشخاص يتعهدون بخدمته[4].

ج- العصر الثالث : عصر النضج والكمال في النظام الإقطاعي.

شغل ذلك الدور مدة القرنين الحادي عشر والثاني عشر، عندما تلاشت الحكومات المركزية في الغرب الأوروبي، وعندما تحول ولاء الجماعات من تلك الحكومات إلى بعض السادة المحليين الذين أسسوا أسرات إقطاعية كبيرة ترجع أصولها إلى عصر النمو الإقطاعي[5].

---

(1) Strayer, The Western Eorup, P. 62.
(2) Ruether, The church, P. 66.
(3) عاشور، حضارة ونظم، ص 383.
(4) Ruether, The church, P. 66.
(5) كوبلاند، الإقطاع والعصور، ص 10، 11. يوسف، تاريخ العصور، ص 113.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما تمثلت المرحلة النهائية في تطور النظام الإقطاعي في انتقال السلطة الحكومية والقضائية إلى كبار أفصال الملك، الذين نقلوها بدورهم إلى أفصالهم، تلك المرحلة كانت نتاج القرن التاسع، التي كانت بدورها نتاج عجز الكارولنجيين الأواخر عن الحفاظ على سيطرتهم على الدوقات والكونتات، الذين اغتصبوا السلطة الملكية في دوقياتهم وكونتياتهم ثم حولوها إلى إقطاعيات وراثية، وتضمنت السيادة على الضياع الإقطاعية دائماً السيطرة السياسية والقضائية على الفلاحين التابعين، غير أن تلك السلطة كانت ضئيلة إلى حد بعيد[1].

كان المحور الأساسي للإقطاعية بين السيد وأفصاله في ميدان الحرب؛ لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعي كانت حماية أفصاله وأراضيهم، في حين كان الواجب الأول على أولئك الأفصال هو الخدمة في جيش سيدهم[2].

لقد كان بروز نمط إقطاعي من التنظيم الاجتماعي مقدمة لعملية التهذيب والتبرير التي خضعت لها جوانب كثيرة من جوانب السيادة، فضلاً عن تعزيز مجموعة من القيم الاجتماعية التي قامت على أساس من مثل الولاء[3].

إن تعريف الإقطاع كظاهرة لا يمكن أن يوجد إلا عن طريق اتباع طرق تعريف تدريجية لها علاقة بالملكيات والأحقيات الاستغلالية للثروات، بحيث إن تلك التدرجات لا يمكن فصلها عن بعضها البعض في أي حال من الأحوال، فكان المبدأ التنظيمي للإقطاع قد أوجد التصرف المطلق في الملكية الخاصة على مستوى النبالة، حيث كانت تُقسّم منتجات الأرض بين السيد والفلاح بنسب متفاوتة بين نبيل ونبيل، وفلاح وآخر، كان ذلك الانقسام في توزيع الثروات هو المسبب الرئيس في المواجهة الطبقية بين الفلاحين والسادة داخل الإطار الإقطاعي التنظيمي[4].

بذلك فإن الإقطاع كان نظاماً غير ممنهج ولا يستحق أن يوصف بأنه نظام تشريعي، فقد اختلفت العقود والمواثيق الإقطاعية عن بعضها في الصيغة والمضمون من زمن لزمن ومن بلد لآخر، ولكن الإقطاع في حد ذاته كان شيئاً متنامياً ولينا يتماشى مع مقتضيات العصر إلى حد ما، ولم يكن ثابتاً أو متجمداً كنظام اقتصادي يقوم على الإدارة الاقتصادية للبلاد، وكان يحوي الكثير من الأنظمة والعادات المحلية المختلفة والاتفاقات الفردية، التي كانت تُوصف بالوهن في ظل تنامي وتعاظم الإقطاع، كل تلك السمات مثلت هيكلية متنامية حية متسارعة التكاثر والحيازة والتملك والسلطة[5].

---

(1) كانتور، العصور الوسطى، ص 338.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 387.

Ruether, The church, P. 67.

(3) كانتور، العصور الوسطى، ص 339.

(4) Anderson, Passages from, P.P. 183, 184.

(5) Smith, A constitutional, P. 40.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وطمح السيد إلى توسيع نطاق ملكيته باستقطاب الخدمات العمالية بشكل مكثف؛ ليضمن زيادة في الربح، وكان السيد يفرض شروطاً واستحقاقات على الفلاح المستأجر، وفي حال عجزه عن أدائها كان يُجرَد من الأرض التي يمتلكها –بصفته مستأجر والسيد بمثابة جهة دعم إنتاجية– ويصبح خارج نطاق العمل الزراعي فيها، وكان المستوى التنظيمي الذي يعمد إليه النبيل الإقطاعي يندرج تحت إطار مرحلي هام في تعزيز ملكيته كسيد، وكانت تلك المسألة تساهم في تطوير أساليب جديدة يبتدعها سيد هناك وسيد هنالك[1].

لقد نبعت أصول الإقطاع من المانيا وإيطاليا، إلا أن خصائصه ومميزاته تطورت في فرنسا؛ وذلك بسبب تعدد متغيراته الزمنية والمكانية، أما في إنجلترا فلربما بدأ الإقطاع باستعباد الحكم الأنجلوسكسوني للإنجليز باستخدامهم كمزارعين، لكن التطور الحقيقي لذلك النوع من الاستخدام البشري للأرض تطور في فرنسا بشكل هائل إبان الحكم النورماني لها[2].

كانت عمليات الإقطاع في مجملها ناضجة ومناسبة، وأكثر منطقية في مناطق مثل فرنسا وجزئها الشمالي فقد حاز الكونتات في تلك المناطق على استقلال عملي عن الملوك مع الحفاظ على سلطتهم على مناطق نفوذهم، أما الأقوياء والعدوانيين منهم فقد قاموا بمهاجمة جيرانهم ثم أقاموا دولة إقطاعية كبرى مكونة من عدة دول صغرى، أما الجنوب الفرنسي فقد كان الأكثر فوضى حيث لم ينخرط الكثير من مالكي الأراضي في النظام الإقطاعي الجديد، ولم ينجح الكونتات من ذوي النفوذ الأقوى في السيطرة على السادة ممن هم دونهم في المكانة والنفوذ[3].

لقد كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر سيداً على كبار الأمراء الإقطاعيين، لكنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي عليهم، كذلك لم يكن يتمتع بأي سلطان على أفصاله من الدوقات والكونتات؛ لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار، وطالما كان الملك القابع في باريس عاجزاً عن أن يهزم دوق نورماندي، أو كونت تولوز، فإنه لم تكن له أية سيطرة عليهما أو على غيرهما، وذلك على الرغم من أنهما يتبعانه، من الناحية الرسمية، فقد كان جيش دوق نورماندي أقوى كثيراً من جيش الملك، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقاً بأن الملك هو سيدهم الأعلى، ومن الناحية العملية، فإن ملك فرنسا –سواء أكان من الكارولنجيين أم من أسرة كابيه بعد سنة 987م– لم يكن أكثر من مجرد دوق باريس[4].

---

(1) Anderson, Passages from, P. 184.
(2) Durant, The Age, P. 553.
(3) Strayer, The Western Eorup, P. 63.
(4) كانتور، العصور الوسطى، ص 342، 343.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبذلك فلم تكن فرنسا بالكامل تحت السيطرة الإقطاعية، فقد بقيت الكثير من الأراضي والإقطاعيات تؤول ملكيتها إلى ملاك مستقلين بعيداً عن تأثير الملك والإقطاع[1].

وفي بداية القرن الحادي عشر أصبحت فرنسا هي الدولة الإقطاعية الوحيدة في أوروبا، وكان الملك (Capetian) –في الأساس– سيداً إقطاعياً في بلاطه من خلال مد نطاق مملكته، ومن خلال تكوين جيش من أتباعه في دوقية فرنسا، ومن الكتائب الصغيرة التي كان السادة الكبار يرسلونها إليه، وكان نبلاء فرنسا مستعدين للإقرار بأنهم أتباع الملك، ولكن نادراً ما كانوا يأبهون لتقديم أي خدمات له. وواقع الأمر أن فرنسا لم تكن بمفردها دولة، بل كانت تحالفاً من ولايات تربطها فيما بينها السيادة الواهية للملك، فالملك من حيث القوة الفعلية كان أضعف من معظم أتباعه. إن الملكية –في أوائل القرن الحادي عشر– لم يكن باستطاعتها أن تفعل شيئاً سوى مجرد البقاء، ففي جزيرة فرنسا لم يكن لها سوى سلطة محدودة، أما خارجها فلا سلطان لها على الإطلاق[2].

بعض المعجبين بفترة العصور الوسطى يدّعون بأن فرنسا كانت مثالاً حياً لنزاهة الإقطاع، حيث إن القصر فيها كان بمثابة ملجأ للمشردين والفلاحين والبسطاء، الذين كانوا يفرون من العدو الأجنبي الذي كان يحيط بهم، وعندما كان السيد يأوي أولئك البسطاء، فإن إيوائه لهم كان من منظور مادي، فهم من كانوا يقومون بالفلاحة والتجارة. لقد تخيلوا أن السيد سوف يقوم بفتح أسواق لهم، وأنه سوف يقوم بإمدادهم بمعاصر للخمر، ومخابز ومطاحن للدقيق، وأن يحسّن لهم إنتاج المحاصيل عن طريق اهتمامه بالتربة ومدها بالمواد اللازمة للإنتاج الغزير؛ لكي ينقذهم من المجاعة التي يحيونها، وكانوا يعتقدون بأن السيد سوف يقوم بجبي الضرائب لا لشيء سوى توفير سبل الحماية اللازمة لهم، ولإصلاح الجسور والطرق التي يعبرون منها، أو حتى أن يقوم بإصلاح بنية الكنائس وإقامة كنائس جديدة؛ ليقيمهم مقاماً آخر هو مقام الإرضاء الروحي، ويلبي حاجاتهم الأخلاقية والدينية[3].

أما في المانيا فقد كانت للملك السلطة على الرجال والدوائر أكثر مما كان عليه الحال في فرنسا[4]، ففي الجزء الشرقي من المملكة الفرانكونية (المانيا) كان الملوك هم الأقوى والمسيطرون على الزمام الإقطاعي، أما في غرب المملكة فقد كانت الغلبة السلطوية في صالح السادة[5].

---

(1) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 14.

(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 24.

(3) Sellery (editor), Medieval Civilization, P.P. 174, 175.
(4) Strayer, The Western Eorup, P. 63.
(5) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 14.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي إيطاليا فقد كان الحال فيها كما الحال في جنوب فرنسا، فقد كان الإقطاع فيها مزعزعاً وغير متكامل[1]. ففي البندقية، بل وفي كل إيطاليا فإن الشخص الأرستقراطي كان هو التاجر الغني أو رجل المال، وفي كثير من المدن الإيطالية كان يعيش داخل الأسوار في قلعة شامخة، وفي فلورنسا كان هناك حوالي 275 قلعة أو برجاً من ذلك النوع، بعضها بلغ حوالي 200 قدم[2]. أما في جنوب إيطاليا فقد بنى روبرت جويسكارد وروجر الصقلي ولاية إقطاعية على النهج نفسه الذي خطهُ وليم النورماندي، إذ كان بها تسلسل إقطاعي متدرج تسيطر عليه بإحكام حكومة مركزية قوية فعّالة[3].

ظهر في إنجلترا نوع من التبعية كان بمثابة تبعية عسكرية، لا يؤثر بأي شكل من الأشكال على الحياة الاقتصادية اليومية لأي فرد، أما عن العلاقتين بين الرجل والأرض، وبين الرجل والرجل فقد نقلتا إلى إنجلترا عن طريق قبائل الإنجليز والسكسون، الذين أسسوا بريتونيا بعد احتلالها بسهولة عقب رحيل الفيالق الرومانية عنها. أما الإقطاع في إنجلترا فقد جمع ما بين العناصر الرومانية والتيوتينية في آن واحد، ولقد فرضت القبائل الغازية نوعاً من الهيمنة، لكنها لم تستعبد أفراد المجتمع المحلي داخل إنجلترا، أما مفهوم النبالة والطبقية فقد بدأ بالتطور شيئاً فشيئاً بوتيرة بطيئة جداً[4].

وظلت إنجلترا بعيدة عن الإقطاع حتى قدوم الغزو النورماني لها عام 1066م، حيث فرض عليها قانون الإقطاع المعمول في شمال فرنسا[5]، والسبب في ذلك أن الدوق النورماني كان قد تعلم خلال القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر كيف يستخدم النظم الإقطاعية بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية، ولم تكن تلك هي الطريقة التي ساد عليها النظام الإقطاعي في الإمبراطورية الكارولنجية المتأخرة[6].

تمتع وليام بصرامة شديدة، حيث أقر أن يخسر الإنجليز الكثير من أراضيهم وممتلكاتهم لصالح الدولة النورمانية، وكان الكثير من تلك الأملاك المصادرة تؤول إلى ملكيته وإقطاعياته الخاصة، وبذا فقد أصبح التاج هو المالك الأكبر للإقطاعيات في إنجلترا، حيث بلغت أملاكه هو ومن خلفه أكثر من سبعين غابة مشجرة إضافة إلى آلاف المروج والحقول التي كانت تؤول إلى

---

(1) Strayer, The Western Eorup, P. 63.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 128.

(3) بانتر، تاريخ الحروب، ص 26.

(4) Eberhart and Dixon, Economics, P. 135.

(5) Strayer, The Western Eorup, P. 63.

(6) كانتور، العصور الوسطى، ص 343.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سكان إنجلترا، إلى جانب ذلك كله كان الملك يستحوذ على مبالغ ضخمة من العائدات الضريبية، فقد كانت له وحده[1].

واحتفظ الملك النورماني وليم بالسلطات التي كان يتمتع بها أسلافه الأنجلوسكسون، ففي كل مقاطعة هنالك مأمور معين من الملك، يمكن نقله إذا رغب، وهو الذي يرأس المحاكم الشعبية، ويُشرف على ممتلكات الملك، ويجمع مستحقاته. كذلك كان وليم يجمع ضرائب على الأرض تسمى دانجيلد (Danegeld)، وكان الملك الوحيد في أوروبا الغربية الذي يملك مصدراً من ذلك النوع للدخل. أضف إلى ذلك أن الملك وليم أقام نظاماً إقطاعياً كامل التدرج، تتوفر له الشكليات اللازمة، وابتدع عدة تجديدات في العُرف الإقطاعي، وأصر على أن كل رجل حر إنما يدين بولائه الأساسي للتاج[2]، وبذلك فقد أكد وليم في دستوره الذي فرضه على الشعب الإنجليزي بأن إنجلترا لا بد أن تكون خاضعة للنظام الإقطاعي الشامل[3].

لقد كانت من أكثر الدول نمواً وازدهاراً وتقدماً من بين الدول في تلك الأثناء فرنسا وإنجلترا، فقد نمت وازدهرت في مناطق يحكمها الإقطاع كلية، أما إيطاليا والمانيا فكانتا أقل تبعية للنظام الإقطاعي، وبذلك كانتا أقل نمواً وازدهاراً من فرنسا وإنجلترا من الناحية الاقتصادية والسياسية على حد سواء. ومن الواضح أن الإقطاع لم يكن كارثة منعت تطور العديد من النظم الاقتصادية والسياسية[4]، بل ظلت قطاعات كبيرة من القطاعات الزراعية في أوروبا، لا تحمل سمة الإقطاع أمثال رعاة الأغنام ومربي الخيول في البلقان وجنوب إيطاليا، إضافة إلى مزارع كروم العنب في غرب المانيا وجنوب فرنسا[5].

ويجد المتقصي أن الذي أثر في الإقطاع وأثر الإقطاع بدوره فيه هو التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي طرأ على أوروبا خلال القرن الحادي عشر والثاني عشر، وقد قدم الإقطاع لأوروبا خدمات جليلة حيث أوجد حضارة موحدة ومتطورة مما سجل تقدماً هائلاً عن العصور الأوروبية المظلمة في مختلف المجالات المحلية المختلفة[6]. كما كان العامل الاقتصادي هو المصدر الأول للتأثير في التنظيم الإقطاعي الزراعي، أما المؤسسات التي كانت تحمل مسؤولية الجانب الزراعي فقد طورت واستحدثت؛ لتتناسب مع التطورات الجديدة للنظام الإقطاعي[7].

---

(1) Smith, A constitutional, P. 41.

(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 25.

(3) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 14.
(4) Strayer, The Western Eorup, P. 63.
(5) Durant, The Age, P. 553.
(6) Anderson, Passages from, P. 182.
(7) Adams, Civilization, P. 192.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت القفزة النوعية في التطور الزراعي وغزارة المحاصيل، والعلاقة الريفيـــة الجديـــدة بالنتاج الزراعي قد أتاحت وجود فائض مميز من المحاصيل الزراعية في بلدان أوروبا، وقد كانت الابتكارات التقنية الحديثة في تلك الفترة هي الأدوات التي ساهمت بشكل فاعل في ذلك التطور، ولا شك أن المحاريث المعدنية المستخدمة للفلاحة والمجرورة بالخيول والثيران وسواقي الماء والأسمدة لتحسين التربة كانت كلها من تلك الأدوات المطورة[1]. وظهور نظام الحقول الثلاثة، الذي انتشر في معظم أنحاء أوروبا، والطاحونة الهوائية، والطاحونة المائية، حيث إنه بحلول سنة 1086م كانـــت هنالك أكثر من خمسة آلاف طاحونة مائية في إنجلترا وحدها-[2].

وكانت الأهمية الكامنة في تلك الابتكارات الجديدة المساهمة في التطور الزراعي قد أثرت بشكل فاعل على الأيدلوجية الاقتصادية الأوروبية الجديدة، والتي أخذت في طياتها جميـــع الأطـــر السياسية والدينية بما فيها الكنيسة، وكانت تلك بداية اندماج الإطار الديني ضمن المنظومة الإقطاعية الحديثة، وكانت تلك الابتكارات بمثابة نواة المجتمع الجديد الذي دأب على استخدامها بشكل موسع؛ مما ساهم في رقي اقتصاده بدرجة كبيرة، ولكن تناسبها مع مقتضيات المجتمع الحـــديث لـــم يكـــن يتسنى إلا بعد بلورة النظام الإقطاعي الجديد خاصة في الأماكن الريفية[3].

لم يكن الفلاح أقل أهمية في ذلك التطور، حيث ارتفع شأن الفلاح؛ لأن امتلاك الرقيق الذي كان نادراً في العصر الكارولنجي اختفى من الناحية الواقعية في أوروبا بحلول القرن الحادي عشر، حيث أن الذين فلحوا الأرض كانوا من الأحرار والأقنان في أغلب الأحوال، وفي الغالـــب امتلـــك الرجل الحر حقله الصغير، بيد أن القن كان موجوداً في المزارع الكبرى بصفة عامة[4].

كان تطور النظام الإقطاعي في تلك المناطق بمثابة القوة الدافعة للحركة الإنتاجية، ولـــيس التطور التكنولوجي الذي هو إحدى أدواتها[5]. ورغم ما قيل عن تطور الإقطاع إلا أن البعض قـــد ذهب إلى أن الفترة الذهبية للإقطاع، والتي بسط فيها سيطرته هي فترة القرن العاشر؛ وذلك بسبب فقدان الحكومة المركزية، والغزوات النورمانية المتوالية، والتي أجبرت الناس على قبول قوانينـــه؛ طلباً للأمن، وحرصاً على أسباب العيش؛ مما دفعهم إلى الانصياع لأوامر سادة وكبار القوم. لكن لو فُرض جدلاً أن الإقطاع كان في أول فتراته نافعاً، فإن ذلك النفع كان بمثابة نفع زماني محدود، وإن ذلك العصر الذهبي المزعوم للإقطاع وأينما وُجد في كل مكان من أوروبا لم يكن سوى مثالية مجردة من الفعل ولم يكن سوى نظام لعصبة مسلحة تشكلت منذ لحظة سقوط آخر ملوك الدولة الكارولنجية[6].

---

(1) Anderson, Passages from, P. 183.

(2) هلستر، أوروبا، ص 161.

(3) Anderson, Passages from, P. 183.

(4) هلستر، أوروبا، ص 168.

(5) Anderson, Passages from, P. 183.

(6) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 174.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثاً : جانب من حياة المجتمع الأوروبي في ظل النظم الإقطاعية.

1- المجتمع الحربي.

أ- الحروب الإقطاعية.

كانت الحرب هي الرياضة المفضلة عند الفرسان وغيرهم من أفراد الطبقة الأرستقراطية في المجتمع الغربي الوسيط، ففيها يُشبعون رغبتهم في القتال التي ورثوها عن أجدادهم الجرمان، فقد كان يحدد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان في معظم الأحيان ضاحيتين متخاصمتين، ويكون الحكم أحد الفرسان، حيث كان يصطف المتبارزون على ظهور خيولهم، ويستمر القتال حتى ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه. كانت تلك الهواية لعبة خطيرة تراق فيها الدماء وتزهق الأرواح، ومع ذلك كان ينال الغالب شرفاً كبيراً، فضلاً عن الأسلاب والغنيمة، فقد كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه، ما لم يستردهم الأخير مقابل مبلغ معلوم[1].

إن الحرب بكل أشكالها يمكن أن يُقال عنها : إنها من قوانين العالم الإقطاعي، فلقد كانت المهمة الأساسية لتلك الطبقة الأرستقراطية المثيرة للجدل هي قنص واغتصاب الأرض والممتلكات[2].

فظهر الإقطاع كمنظمة عسكرية داخل إطار مجتمع زراعي أنهكته النزاعات والتناحرات، وكانت مهام ذلك المجتمع حربية أكثر من كونها اقتصادية، وكان عبيده إلى جانب سادته يؤهلون أنفسهم دوماً للقتال، ودائماً على أتم الاستعداد لأي لحظة يتم فيها ترك المحراث وتقلد السيف للقتال[3].

لقد كان قوام الجيش الإقطاعي، وعموده الفقري هم الأتباع الفلاحون الذين يعملون في خدمة السيد اللورد، وقد كان أولئك الأتباع يؤدون الخدمة العسكرية إذا طلب منهم سيدهم ذلك، فيساعدونه بالقتال في صفوفه كلما نشبت حرب بينه وبين غيره من الأعداء، ثم يعودون إلى حقولهم عندما تنتهي الحملة أو الإغارة. وبتلك الطريقة كانت تتكون الجيوش الإقطاعية في أوروبا في العصور الوسطى[4].

---

(1) عاشور، حضارة ونظم، ص 406. يوسف، حضارة أوروبا، ص 122. كولتون، عالم العصور، ص 160 هامش رقم (1).

(2) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 177.

(3) Durant: The Age, P. 569.

(4) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 132 هامش رقم (1).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد سيطر أصحاب الأراضي على المجتمع في العصور الوسطى، وكانوا هم الذين يقررون ويوجهون الحرب، ومثل أولئك الفئة رأوا في سلوكهم ضمان وضعهم في المجتمع، وبالتالي كانت الحرب تتأثر بقوة العلاقات بين تلك النخبة، خاصة أن جميع كبار ملاك الأراضي يتمتعون بدرجة عالية من الاستقلال[1].

بدت الروابط الإقطاعية بين الأفراد وكأنها حلقة مسببة للصراع والعنف، أكثر من كونها ضماناً للسلام والأمن. كانت النفس الطموحة للبارون تتطلع دائماً للإحاطة بممتلكات من دون ذلك البارون وكذلك الحال بين كل سيد وسيد، فمن يرى ضعفاً في الآخر يساومه على ممتلكاته بالحرب حيث يكون الطرف الآخر ضعيفاً ولا يستطيع مواجهة المعتدي بأي شكل من الأشكال، حتى التابع عندما كان يرى في نفسه قوة أو يكون السيد غائباً في مهمة ما، كان لا يضيع الفرصة على نفسه ويُحكم حوله الخنادق ويطرده خارج ممتلكاته[2].

كانت تدور رحى الحرب في أوروبا بلا هوادة، فكانت العائلات تقاتل العائلات، والشرق فيها يقاتل الغرب، والمغامرون يقاتلون المغامرين، والنبلاء يقاتلون النبلاء، ودُمرت خلال تلك الحروب العديد من المدن وفر الناس للنجاة بأرواحهم في كل مكان، حتى الأباطرة والملوك في تلك الفترة كانوا يفقدون السيطرة على زمام الأمور، وقد واجه النبلاء نفس المصير فكان النبيل الأكبر يحاول الاستيلاء على كل من حوله لكن الحروب بين النبلاء من الذين هم دونه كانت تُفقده السيطرة، وأحياناً يؤدي به ذلك إلى الخسارة، وكانت تتخلل تلك الفترات القتالية فترات سلمية تعود فيها الحياة إلى مجراها الطبيعي فيما تقوم الأطراف بمعاودة مزاولة أعمالهم، إلا أن الحرب لم تكن مأمونة فكان احتمال نشوبها في كل مكان وزمان لا يمكن تخمينه[3].

كان يتحتم على كل سيد حماية أتباعه من الأعداء القادمين من خارج الاقتطاعة، وكل تابع مدين بتقديم الخدمة العسكرية لسيده. وفي بعض الحالات لا يتحمل التابع سوى الخدمة الخاصة بحماية شخصيته فحسب، وفي حالات أخرى يكون ملزماً بقيادة عدد محدد من الفرسان؛ لينضم إلى جيش سيده. وفي معظم الإقطاعيات كانت هنالك خطوط واضحة تميز بين الحملات الهجومية والحملات الدفاعية[4].

---

(1) France, Western Warfare, P. 39.
(2) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 177.
(3) Knox, Japanese Life, P. 25.
(4) بانتر، تاريخ الحروب، ص 19.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كانت الأرستقراطية ضرورة عسكرية، ففي عالم سادت فيه سلطة عامة تفتقر إلى وسائل السيطرة على الأراضي، كان من الضروري أن يدافع مالك الأرض عنها. ونظراً لضعف الحكومة والفقر النسبي؛ كان على ذلك الرجل الذي اتكأت عليه الهيئة العامة تقديم جنود. وكان المبدأ الرئيس لحياتهم هو الطموح الشخصي والسلالي، فأعطاهم الميراث الحقوق التي احتاجوها للدفاع عن المتطلبات التي يحتاجون إليها، وتابع الملوك واللوردات الكبار الادعاءات، ودافعوا عن الحقوق باسمهم واسم أسرهم وليس باسم الدولة[1].

كانت معظم المعارك تقوم على خلفية أحقية الأفراد في إرث مشترك لاقتطاعة أو أرض شاسعة أو على حدود بين الاقتطاعة وجارتها أو على خلاف في شروط امتلاك الأرض، فقد نشبت المعارك بين أفراد العائلة الإقطاعية الواحدة، حيث كان الابن يقاتل ضد أبيه؛ لأنه لا يستطيع الصبر حتى وفاة أبيه ليستمتع بالأراضي والممتلكات والامتيازات، والتي من الممكن أن تُسقط من حقه مع مرور الأيام، وكان الأخ الأصغر يهاجم أخاه الأكبر؛ لعدم حصوله على نصيب متكافئ مع نصيب أخيه من الممالك والاقتطاعات من الإرث الذي تركه أبوه، حتى أبناء الأخ كانوا يفتعلون الحروب ضد أعمامهم؛ لكون الأعمام يريدون إطالة مدة الوصاية على أبناء إخوتهم لأجل غير محدود أو لرفضهم شروط الوصاية التي تضمن إرث الآباء للأبناء، وفي حالات أخرى كان الابن يقاتل أمه الأرملة لإجبارها على التخلي عن ملكيتها الكاملة للعقارات والعِزب الموروثة[2].

تلك الصراعات ليست مجرد حرب على الممتلكات، بل كانوا يقاتلون أيضاً من أجل السيطرة على الرجال، وخاصة الأغنياء والأقوياء المحليون، فقد استولى فولك من أنجو على سوموور في عام 1026م، وطرد الأتباع الكبار لكونت بلوا، ولكن الرجال الأقل سمح لهم بأن يحتفظوا بأراضيهم ما لم يكونوا قد أظهروا ولاء خاصاً للوردهم السابق[3].

ففي المجتمع الإقطاعي الحربي، منح السيد الإقطاعي تابعه الأراضي الزراعية مقابل الولاء والخدمة –وكانت خدمة عسكرية فروسية في المقام الأول– وعُرف ذلك الإقطاع العسكري باسم إقطاعة (Fief)، وكان ذلك النظام الإقطاعي استجابة منطقية لمتطلبات الدفاع المحلي، واستمراراً لقدر ما من سلطته السياسية على الأقل، وندرة الأموال التي حتمت منح الأرض مقابل الخدمة بدلاً من دفع الأجور المالية[4]. وكان المركز الحقيقي لسلطة السيد يتمثل في قلعته، حيث كان يمكنه من خلف أسوارها أن يقاوم جميع القادمين، حيث كان الالتزام

(1) France, Western Warfare, P. 43.
(2) Sellery (editor), Medieval Civilization, P.P. 177, 178.
(3) France, Western Warfare, P. 45.
(4) هلستر، أوروبا، ص 143.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحقيقي للفصل هو الخدمة في الحرب، وقد كانت ضيعته تُقيّم حسب عدد الجنود الذين تـوفرهم الضيعة. ولم تترك حروب النبلاء الإقطاعيين سوى قدر ضئيل من السلام في أنحاء عديدة مـن أوروبا خلال القرون الأربعة التي أعقبت عام 1000م[1].

لقد تميز القتال في ذلك العصر بشن الغارات على أراضي العدو؛ بقصد السلب والنهب، أو قيام المناوشات بين جماعات قليلة العدد من الفرسان، أو المنازلات والمبارزات الفردية، أو المعارك المتعلقة بحصار المعاقل والحصون. لذلك كانت الحروب بمعناها الواسع المألوف نادرة الوقوع في أوروبا[2].

وكان الجرمان يستخدمون المشاة في جيوشهم في أغلب الأحوال، ومـا أن بـدأ القـرن الثامن حتى كان هنالك عدداً متزايداً من سادة الجند المستنيرين يتلمسون بناء جيوش على أساس الجندي الراكب المدرع أي : الفارس[3].

ونظراً لأن الصفة التي كانت غالبة على ذلك المجتمع هـي القتـال وممارسـة الحـرب الإقطاعية، فقد حاولت الكنيسة أن تحد من تلك الحروب، وأن تحول جهود الفرسان إلى ما اعتبرته نفعاً وفائدة، فبذلت الكنيسة كل ما في طاقتها لمحاولة حصر نطاق الحرب في المجتمع الإقطـاعي خلال القرن الحادي عشر بصفة خاصة[4]، واشتدت الكنيسة في الدعوة إلى مذهبها الرسمي، وفـي الحرص على أن تنال نصيبها من الغنيمة في الحرب[5].

ولذلك قررت الكنيسة ما يُعرف بهدنة الله[6] والسلام الإلهي[7] (Pzx Dei) و(Treaga Dei)، وهي الفقرات التي يتحتم فيها تحريم القتال، وفرضت على النبلاء الإقطاعيين أن يكونوا جماعـات

---

(1) كين، حضارة أوروبا، ص 60.
(2) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 132 هامش رقم (1). يوسف، تاريخ العصور، ص 118.
(3) كانتور، العصور الوسطى، ص 336.
(4) الشيخ، النظم والحضارة، ص 44. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 51.
(5) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 51. باركر، الحروب الصليبية، ص 10 هامش رقم (1).
(6) هدنة الله : تعتبر امتداد لسلام الرب، على أن هدنة الرب يغلب عليها الطابع الكنسي، فالكنيسة هي التي تقررها، وتفرض العقوبات على من يخالفها؛ لذا حتمت الكنيسة على المسيحي أن يعتبر بعض الأيام والأزمة مقدسة، فيكف أثناءها عن القيام بأي عمل من أعمال العنف. (باركر، الحروب الصليبية، ص 12 هامش رقم (2).
(7) السلام الإلهي : حاولت الكنيسة أن تقيد من روح الفروسية لصالحها، فأصبحت الحرب لتحقيـق أغـراض الكنيسة مقبولة وجائزة (الحرب المقدسة) على أن ما ساد من الفوضى والاضطراب الذي أدى إلـى تخريـب الكنائس، وما أصاب الفقراء من الشدة، جعل المجامع الدينية، التي انعقدت أول الأمر في أكيتانيـا وبرجنـدا، منذ سنة 989م، تتكر تلك الفوضى، وتسعى إلى اتخاذ ما يعرف بالسلام الإلهي (Peace of Cod). (باركر، الحروب الصليبية، ص 10 هامش رقم (2)).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لحفظ السلام، وأن يعدوا بعدم القتال في أيام معينة، ويبدو أن رجال الكنيسة كانوا قد نزعوا إلى فكرة تحويل نشاط الفرسان إلى قتال المسلمين[1].

وبحلول الألفية الجديدة، كانت الكنيسة حريصة على النفوذ وتعديل سلوك المحاربين، فبدأ رجال الدين بالحديث عن الحروب الصليبية بوصفها نظاماً متميزاً في المجتمع المسيحي، وسعوا إلى توجيه السيطرة على غريزتهم العدوانية، وهي العملية التي بلغت ذروتها في الحركة الصليبية. تمتعت تلك الضغوط الأيديولوجية بنجاح متزايد، وإن كان محدوداً في أوساط النخبة الأوروبية، حيث كان سلوكهم لم يرُق لطموحات الكنيسة، لكن على الأقل شربوا بعض الشعور بالهدف (الأخلاقي)[2].

ب- الجيش الإقطاعي.

كان الجيش الإقطاعي جيشاً نظامياً يحكمه ائتلاف إقطاعي، وكان يتولى قيادة ذلك الجيش الأمير أو الدوق أو الماركيز أو الكونت، أما الأسقف فكان يتقلد رتبة لواء[3]، والقسيس أو الراهب رتبة نقيب، أما الفرسان فقد كانوا يلتحقون بسلاح الفروسية، بينما كان ناظر الأملاك (الوكيل) مساعداً مباشراً للسيد أو مالك الأرض، أما البسطاء فقد كانوا عبارة عن وحدات مشاة، وكان يسير خلف الجيش الإقطاعي آلاف من اللقطاء كما سجل في العديد من الحملات الصليبية عبر التاريخ، وقد كانوا يسيرون دون قائد أو ضابط[4]. لقد ساعد أمثال أولئك المشاة في عمليات نهب الأماكن التي فر منها أصحابها أثناء الحروب، وفي تخفيف آلام الجرحى والمصابين من العدو بالإجهاز عليهم بالفؤوس والهروات[5].

أما الأسلحة التي كان يستخدمها المحارب في الجيش الإقطاعي فأهمها الرمح والسيف أو القوس والسهم، أما الفارس فكان يستخدم السيف فقط[6].

ويُعد الفرس الذي يمتطيه الفارس الجهاز الأساسي للحرب، فبدونه لا يعتبر الفارس فارساً، وهو فرس مطهم مزوّد بالسرج والركاب واللجام[7]. ولقد كانت الفروسية عماد الحروب الإقطاعية، ولكن الحال تبدل عندما تطور القوس وازدادت كفاءة الرماة بالتدريب، فقد كان بوسع

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 44. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 51. عمران، حضارة أوروبا، ص 85.
(2) France, Western Warfare, P. 57.

(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 83.

Durant, The Age, P. 569.
(4) Ibid, P. 569.

(5) عمران، حضارة أوروبا، ص 83.

Durant, The Age, P. 569.
(6) Ibid, P. 569.

(7) الشيخ، النظم والحضارة، ص 43.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولئك الرماة قتل جواد الفارس من بعيد، فيضطر الفارس إلى الترجل والقتال على الأرض، وهي طريقة لم يألفها فتزعزعت مكانة الفارس[1]. وكان الفارس الذي يعتلي صهوة الفرس يعد له شرف المعارك، وكان ذا شأن عال في الجيش، أما المشاة فلم يكن لهم تقديرهم حتى القرن الرابع عشر[2].

لقد لعبت الحصون والقلاع والأبراج دوراً كبيراً في وسائل الدفاع، كما كان بوسع سكان المدينة التي تُهزم في ميدان القتال أن تتراجع وتتحصن في الأماكن الحصينة[3]، فلا يجد الجيش المهزوم مأوى إلا في تلك الحصون، أي: داخل أسوار عزبة أو إقطاعية فسيحة فيستطيع المقاومة عن طريق الأبراج المنصوبة فيها، لكن تلك الأبراج كانت لها طرق لمقاومتها أيضاً[4].

استخدم المعاصرون مجموعة منوعة واسعة من الكلمات لوصف التحصينات، حيث إنه كان من الصعب فهم أي نوع من التركيب الذي أشار إليه في القرن العاشر، فكان الكثير من التراب والخشب، ولا يزال من الصعب تمييز بقايا الحواجز الترابية التي لا تُعد ولا تُحصى التي ملأت الريف الأوروبي، لكن في المناطق التي كانت تتوافر فيها الجير والحجر كانت تبني الأبراج الحجرية[5].

فبعد أن كانت الحصون الإقطاعية معاقل يلوذ بها أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء وبخاصة الفايكنج، تطورت مع تطور النظم الإقطاعية، حتى غدا الحصن الإقطاعي مقر السيد وحاميته. بذلك صارت الحصون الإقطاعية مسرحاً لجزء كبير من النشاط الاجتماعي لطبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى[6]، فكان السيد الإقطاعي يملك حصناً واحداً على الأقل. ومعظم الحصون في القرن الحادي عشر من النوع الذي يُسمى (الساحة المسورة)، حيث يحفر الفلاحون التابعون للسيد خندقاً دائرياً يبلغ عمقه ما بين 9 أو 10 أقدام، وقد يتسع ليبلغ 30 قدماً، ثم يجمعون بواقي الحفر في كومة أو هضبة صغيرة يحيط بها الخندق ويقيمون الأسوار عند الحافة الداخلية للخندق، أو الخندق المائي، وعند قمة الهضبة الصغيرة، يتم بناء برج خشبي من طابقين أو ثلاثة[7]. فالقلاع التي كان يملكها السادة الإقطاعيون، كانت في أغلبها مبنية من الأخشاب وفروع الأشجار، وحتى القرن الثالث عشر لم تكن أي قلعة تزيد عن حجرتين إلا نادراً، يباشر السيد أعماله في قاعة

---

(1) عمران، حضارة أوروبا، ص 83.

(2) Durant, The Age, P. 569.

(3) عمران، حضارة أوروبا، ص 83. يوسف، تاريخ العصور، ص 120.

(4) Durant, The Age, P. 570.

(5) France, Western Warfare, P. 81.

(6) عاشور، حضارة ونظم، ص 406.

(7) بانتر، تاريخ الحروب، ص 23.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منها، يستقبل فيها ضيوفه وأتباعه، ويعقد فيها محاكماته[1]، ويتناول فيها هو وأسرته وحاشيته الطعام على موائد مختلفة، وفي الليل تستخدم تلك الموائد أسرّة للحاشية والضيوف، وعادة ما تكون تلك الحجرات مكتظة بأفراد أسرته أو ضيوفه، لدرجة أن الملك الإنجليزي كان مشهوراً عنه أنه كان يعقد جلسات بلاطه الملكي في غرفة نومه، وزوجته الملكة جالسة على السرير؛ بسبب ضيق المكان، وكان الأطفال ينامون مع والديهم أو مع الخدم على الأرض في الصالة[2].

ج- الفروسية والفارس.

لقد كانت طبقة الفرسان ثمرة لنظام اجتماعي قديم، كما كانت تتمتع بامتيازات عظيمة، وتوكل إليها مسؤوليات خطيرة، ومن دراسة نظام الفروسية في العصور الوسطى يمكن فهم دور تلك الطبقة في المجتمع الأوروبي الوسيط[3].

الفروسية كلمة معقدة تشتمل على معنى مفهوم النخبة المسلحة، وهي نمط الحرب، ورمز السلوك العسكري حيث الشرف الشخصي هو الهدف الأسمى، وقد كانت داخل المجتمع اختلافات واضحة لمنزلة النبيل، فقد عمل الأقل شرفاً إلى الأعظم، ومع ذلك كانت هناك جالية القيم المشتركة، وجميع أعضاء ذلك المجتمع ابتهج في عنوان الفارس كنوع من رمزية العضوية[4].

وكان الفارس هو المقاتل الذي ينحدر من أصل عريق ويحارب من فوق ظهور الخيل، وكانت شجاعة الفرسان نوعاً من المغامرة الهوجاء، وولائه هو ولاء التابع للسيد اللورد[5]. والأصل في كون الفارس من طبقة عريقة هو ارتفاع تكلفة الخيول التي لا يستطيع شخص من طبقة بسيطة أن يحصل عليها[6].

وكان للفارس نوعان هما فارس السيف وفارس الحمام[7]، أما فارس السيف : فهو الذي أخذ ذلك اللقب في ميدان القتال؛ نظير بسالته في الحروب، أما فارس الحمام : فقد مر بمراحل كثيرة منذ صباه[8].

---

(1) الشيخ، النظم والحضارة، ص 45. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 47.
(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 131.
(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 40.
(4) France, Western Warfare, P. 53.
(5) يوسف، تاريخ العصور، ص 118. هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 132 هامش رقم (1).
(6) France, Western Warfare, P. 53.
(7) لُقِّب بذلك لأنه في يوم الاحتفال بتدشينه كفارس، يبدأ ذلك الحفل بالاستحمام رمزاً للتطهير الروحي والجسدي. (عمران، حضارة أوروبا، ص 86. كولتون، عالم العصور، ص 136).
(8) عمران، حضارة أوروبا، ص 85.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وارتبطت حياة أبناء الطبقة الإقطاعية بالإعداد للقتال وممارسة مهنة الحرب، ونظراً للاعتقاد بأن والديّ النبيل الصغير، يسرفان في تدليله[1]. فقد جرت العادة أن يُؤخذ أبناء تلك الطبقة في سن السابعة أو الثامنة إلى دار الأمير الإقطاعي الذي هو في أغلب الأحيان السيد الإقطاعي لوالد الطفل، حيث ينشأ الصبي تنشأة حربية خاصة، فيتعلم استعمال الأسلحة وأدوات الحرب كالدروع والتروس وركوب الخيل ويتدرب عليها، ويحيا حياة خشنة تعده مستقبلاً لحياة الفروسية[2]. وعندما يبلغ سن العشرين أو الحادية والعشرين ويثبت أنه غدا مستعداً لمباشرة الحرب ويثبت تفوقاً في ذلك، يجري تدشينه فارساً في احتفال مَهيب، حيث يركع متقلداً أسلحته أمام فارس مجرب، يتلقى منه ضربة خفيفة على كتفه رمزاً لتنصيبه فارساً، ومتى تقلد الشاب سلاحه، كان ذلك بمثابة تعميد آخر للفارس يكتسب منه مكانة في المجتمع[3].

وكانت الفروسية تعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك يجب أن يتحلى بها أفراد تلك الطبقة من المحاربين في علاقاتهم مع بعضهم البعض، فالفارس ينبغي أن يكون شجاعاً إلى درجة المجازفة والتهور، ويُقاتل وفقاً لقواعد خاصة دون أن يلجأ إلى الخديعة والأساليب الخسيسة للتغلب على خصمه، ذلك بالإضافة إلى ما يجب أن يتحلى به الفارس من وفاء لأصدقائه وتبجيل للمرأة واحترام للعهد، وإذا انتصر على خصمه عامله معاملة كريمة[4].

ونشأ أيضاً العرف الخاص باعتبار الأسير ضيفاً يُحسن معاملته، بل وإطلاق سراحه؛ ليتمكن من جمع فديته، ثم العودة إذا لم يوفق في جمعها، وأحياناً يتم قبول ابن الأسير أو أخيه رهينة إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته، وأيضاً كان ينبغي أن يتحلى الفارس بالفضيلة والكرم والسخاء والجود والعطاء[5].

وقد أمدتنا أغاني المآثر وأشعار الملاحم بصور متعددة من حياة الفرسان والنبلاء الإقطاعيين في العصور الوسطى، ومن أمثلة ذلك أنشودة رولان التي دونها قسيس نورماني من وحي الحروب بين المسيحيين والمسلمين في أسبانيا أواخر القرن الحادي عشر الميلادي[6].

---

(1) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 45، 46.

(2) الشيخ، النظم والحضارة، ص 40، 41. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 46.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 41. عاشور، حضارة ونظم، ص 402. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 46.

(4) الشيخ، النظم والحضارة، ص 41، 42. عاشور، حضارة ونظم، ص 402.

(5) الشيخ، النظم والحضارة، ص 43، 44. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 50.

(6) الشيخ، النظم والحضارة، ص 42.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبرزت تلك الملحمة المسلمين في صورة الخصم لتبرز رولان في هيئة البطل الصليبي المدافع عن المسيحية وكيانها، وترجع أهمة تلك الأنشودة التي ذاع صيتها من إيرلندا حتى بيت المقدس إلى أنها أمدتنا بكثير من المعرفة عن المثل الإقطاعية في العصور الوسطى، ذلك أن الفكرة الأساسية التي سيطرت على أنشودة رولان هي فكرة التبعية الإقطاعية وارتباط الفصل بسيده وإخلاصه له، حيث بدا رولان مخلصاً لسيده شارلمان يحارب من أجله في الوقت الذي يحارب أيضاً من أجل نفسه ومن أجل الحصول على الشهرة والمغانم، وفي خلال حوادث القصة بدا رولان قاسياً على خصومه، شديد الرفق بأصدقائه[1].

2- المرأة في ظل النظم الإقطاعية.

كان مركز المرأة في مجتمع أوروبا العصور الوسطى ثانوياً بحتاً، فلم تكن فيه المرأة سيدة نفسها على الإطلاق، فقبل الزواج كانت في رعاية والدها، ثم تنتقل إلى وصاية زوجها، فإذا مات الزوج كانت في وصاية سيدها أو ابنها الأكبر[2]. وكان على الفتيات أن يتزوجن بمجرد وصولهن إلى سن البلوغ، وأن يلدن من الأطفال على الأقل ثلاثة[3]. ولا يجوز للتابع أن يزوج ابنته إلا بعد موافقة السيد، فإذا تزوجت البنت نقلت معها جانباً من إقطاع أبيها على أنه بائنة زواجها، فإذا كان من المعروف أن الزوج سوف يسيطر على الأرض التي حازها التابع من السيد، فللتابع الحق أن يتأكد من أن الزوج ليس من أعداء السيد[4].

أما النساء اللواتي كان لهن نصيب في المعترك الإقطاعي، فقد كان عليهن طاعة الرب أو طاعة الزوج معتمداً ذلك على كونها متفرغة للعبادة أو مرتبطة كزوجة، لكن المرأة بسبب خصوصيتها كمرأة كان يصعب تحديد نظام لها داخل القالب الإقطاعي[5]. فلم يكن بوسع المرأة أن تشترك في البيعة أو امتلاك اقطاعية على الرغم من أنها تستطيع أن تنقل إقطاعية إلى زوجها[6]؛ وذلك بسبب عجز المرأة عن القيام بأعباء الوظيفة الأساسية لطبقة الإقطاعيين وهي الحرب. ويبدو أن المصالح العائلية أو المالية هي التي تحكمت دائماً في اختيار الزوجة، حيث كان يُراعى فيها أن تكون وريثة إقطاع أو على الأقل وريثة قدر كبير من الأرض[7].

---

(1) عاشور، حضارة ونظم، ص 403. كولتون، عالم العصور، ص 164 هامش رقم (1).

(2) بانتر، تاريخ الحروب، ص 22. عاشور، حضارة ونظم، ص 427. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 47.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 129.

(4) عاشور، حضارة ونظم، ص 389. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 42.

(5) Purdon and Vitto (editor), Feudal Ideals, P. 17.

(6) بانتر، تاريخ الحروب، ص 22.

(7) عاشور، حضارة ونظم، ص 427.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولم تكن شهادتها مقبولة في المحكمة إلا في حالة اغتصابها، أو مقتل زوجها في حضورها، وليس لها من حقوق إزاء زوجها، فبوسعه أن يتصرف في أملاكها، وأن يضربها إذا ضايقته. وتوضح لنا أناشيد المآثر أن أزواج عهد الإقطاع كانوا يضربون زوجاتهم بوحشية دون أن يخاجلهم أي إحساس بتأنيب الضمير[1]. أما إذا أخفقت المرأة في أن تضع مولوداً ذكراً، كان من السهل على زوجها غالباً أن يغري الأسقف بفسخ الزواج[2].

وباشرت نساء السادة الإقطاعيين الإشراف على منزل السيد وصناعة الجعة والنبيذ والاشتغال ببعض الحرف[3]، وكانت زوجة السيد النبيل لها أهمية في كل شيء؛ لأنها كانت لها بعض الحقوق الإقطاعية على الأرض التي تحصل عليها من إرث زوجها، وكان في مقدورها أن تمارس كل سلطاته، أو أن ترأس أحد الأديرة[4]. وتُعتبر زوجة السيد، سيدة القلعة عند غياب زوجها، فيتحتم على أتباعه وموظفيه وخدامه أن يطيعوها[5]. كما كانت تخرج على فرسها في مواكب الصيد بصحبة الرجال، وفي غالب الأحوال كانت امرأة سليطة اللسان أو مشاكسة، وأحياناً كانت تحب زوجها، ومحبوبة لديه[6]. وكانت سيدة المالك الإقطاعي تتزين في أوقات فراغها وترتدي الثياب الحريرية وتغطي رأسها بغطاء جميل؛ كي تشيع البهجة داخل المنزل[7].

أما زوجات الفلاحين والأقنان، فقد عشن حياة بالغة القسوة، وشاركن فيها أزواجهن في العمل والكفاح من أجل لقمة العيش فكانت المرأة تعمل في حز أصواف الأغنام فغزلها ثم نسجها، وتربية الدواجن وصناعة مستخرجات الألبان، فضلاً عن تربية الأولاد، وخارج المنزل عملت في قطع الأعشاب وجمع الحطب، وبناء الأكواخ وجمع المحصول ثم تخزينه، كما كانت تشقى في تربية الأطفال، وتقوم بتغذية الدجاج وتجمع بيضه وترعى قطعان الخنازير، وتعنى بأشجار الكروم وتغزل وتنسج، وتفصّل الملابس الوطنية وتصبغها وتُفصّل العباءات وأغطية الرأس للناس ثم لنفسها وبناتها[8].

---

(1) بانتر، تاريخ الحروب، ص 22، 23.

(2) عاشور، حضارة ونظم، ص 427.

(3) الشيخ، النظم والحضارة، ص 47.

(4) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 131.

(5) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 131. عمران، حضارة أوروبا، ص 73. العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 47.

(6) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 131.

(7) عمران، حضارة أوروبا، ص 74.

(8) الشيخ، النظم والحضارة، ص 48. عاشور، حضارة ونظم، ص 429.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

3- القضاء الإقطاعي.

لم تكن الحكومة الإقطاعية مرنة، ولم تكن تسير على نهج مخطط أو منظم، ولم تكن تحكمها تلك القوانين الثابتة التي تحكم أي مؤسسة حكومية[1]. وفي النظام الإقطاعي، كان الحاكم والجلاد يجهلون تمام الجهل القوانين المدنية السائدة، فقد كانت تتساوى عندهم التقاليد العرفية والقوانين الحكومية[2]، فعندما كانت تثار مسألة ما حول قضية، يُراد فيها حكم كبار السن في المجتمع وهم من أتباع السيد، يُسألون عما جرت عليه العادة في اتخاذ إجراءات معينة في مثل تلك القضية؛ لذا فقد كان المجتمع نفسه مصدراً لتشريع القوانين، وليس للسيد سلطة تحكمية في التشريع فالقانون ليس إلا العُرف السائد بالإقليم، وهو غير مسطور[3].

ومن أهم العُرف والعادات التي سادت وأصبحت قانوناً سار على مدى العصور الوسطى، أن الابن الأكبر هو من يولى له رعاية شؤون الإقطاعات بعد موت والده[4]، وإذا مات التابع وترك ابناً صغيراً لا يستطيع النهوض بمهام الإقطاع والتزاماته، ففي تلك الحالة يعين السيد أحد أقارب التابع المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية، وقد جرت العادة أن يقوم بالوصاية أكبر خال للوريث؛ نظراً لأنه لا يملك أي حق وراثي في الإقطاع، بعكس العم الذي ربما حاول التخلص من الورثة؛ لتنتقل إليه حقوقهم في الإقطاع. وفي كثير من الأحيان كان يتولى السيد الإقطاعي نفسه الوصاية على الوريث وأرضه[5].

كان القانون الإقطاعي الخاص بالملكيات نظاماً في غاية التعقيد، وقد نظم على ثلاثة أسس، وهي :

الأساس الأول : نظام التملك الغير مشروط.

الأساس الثاني : يتعلق بحق الانتفاع ولكن دون الحق في التملك.

الأساس الثالث : يتعلق بأحقية المستنفع بالتنازل عن قطعة الأرض للمستأجر مقابل عوائد مقتطعة سواء أكانت مادية، أم منتجات زراعية[6].

---

(1) Strayer, The Western Eorup, P.P. 63, 64.

(2) Durant, The Age, P. 566.

(3) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 40. كولتون، عالم العصور، ص 95.
Durant, The Age, P. 566.

(4) بانتر، تاريخ الحروب، ص 19.
Durant, The Age, P. 566.

(5) بانتر، تاريخ الحروب، ص 19. عاشور، حضارة ونظم، ص 389.

(6) Durant, The Age, P. 567.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكان الملك هو الوحيد الذي له حق في الملكية المطلقة حسب النظرية الإقطاعية، حتى النبيل صاحب الأملاك المنتشرة كان أيضاً بمثابة مستأجر[1].

كان السيد هو القائم على حماية السلام والأمن في إقطاعه وكان ملزماً بالتأكد من سير الأمور كما يرام، فيصبح بذلك مسؤولاً قانونياً عن مثل تلك المسائل، لكن قانونياً كان حقه كسيد ضئيل لفقدانه القوة على إرغام من حوله على السير وفق ما يرتئيه[2]. وكان للسيد الإقطاعي نوع من الحقوق القضائية حصل عليها بوصفه نائب الملك في ضيعته، ذلك أن صاحب الضيعة باشر جميع ما كان للملك من حقوق قضائية[3]. كما كان للسيد الحق في الاحتفاظ بمنشآت متعددة الحرية في أن يهجر تلك المنشآت أو أن يقوم بتعديل قوانين ملكيتها متى رغب[4]. وكان العنصر الأساسي في الحكومة الإقطاعية هو محكمة السيد الإقطاعي التي كانت مهمتها مزدوجة : مدنية وجنائية، فقد كانت المحكمة تفصل في كافة الشؤون المتعلقة بالملكية موضوع النزاع، والخدمات التي لم يتم تأديتها، والغرامات غير المسددة، وهكذا[5].

كانت أهم تلك المحاكم هي التي كانت تفصل بين المستأجر والمالك، تلك المحكمة كانت القاضي والمُشرّع والمنفذ للأحكام القضائية على حد سواء[6].

لقد أذعن جميع الأقنان، بدون استثناء للتقاضي في محكمة السيد الإقطاعي، بينما لم يتبع الأُجراء الآخرون إلا في النادر التقاضي أمام المحاكم العامة في حالة الجرائم والجنح، وقد تنوع اختصاص السلطان القضائي الإقطاعي في الأقطار المختلفة تبعاً لمدى الجور الإقطاعي على سؤدد الملك، ولقد بلغ ذروته في فرنسا ووصل إلى أدنى مستواه في إنجلترا، ولكن أينما كان فإنه شمل على الأقل كل المسائل التي تخص الأُجراء، والعمال والمسخرين، والمكوس، وزراعة التربة[7].

كانت المحاكم الإقطاعية تفصل بين المستأجرين، أو المستأجر والسيد، أو بين السيد والفلاح، أو بين السيد والسيد، وقد كانت هيئة المحلفين تتشكل من عدة نبلاء، لكن عندما تكون الخصومة أو الخلاف على مستوى أعلى من ذلك؛ كان يرد الأمر إلى المجلس الملكي للفصل في القضية، وذلك المجلس نفسه كان يُعقد بحضور الملك[8].

---

(1) Durant, The Age, P. 567.
(2) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 178.
(3) عاشور، حضارة ونظم، ص 423.
(4) Strayer, The Western Eorup, P. 64.
(5) كولتون، عالم العصور، ص 92.
(6) Strayer, The Western Eorup, P. 64.
(7) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 67.
(8) Durant, The Age, P. 567.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان القانون والنظرية الإقطاعية يتيحان للسيد إرغام أتباعه المتخاصمين على الخضوع للمحكمة الإقطاعية لحل النزاع القائم بينهما، لكنه لم يكن قادراً على التدخل لجعل الغلبة لصالحه قضائياً[1]. فعادة كان يتم إجراء المحاكمة عن طريق القتال، أو صدور حكم الخيانة، فإذا حدث النزاع على أرض، أو جرى اتهام شخص باغتيال رجل دون مبرر، تخلت المحكمة الإقطاعية للمتقاضين بتسوية النزاع بينهما عن طريق القتال، فإذا حلت الهزيمة بأحدهما؛ تعرض للعقوبة التي نص عليها القانون الإقطاعي، وكل عمل لا يليق بالسيد الإقطاعي، يعتبر من قبيل الخيانة، ومن أمثلة ذلك رفض التابع أن يؤدي ما هو مقرر عليه من الخدمات[2].

في كل المحاكم الإقطاعية كان المدعي أو المشتكي أحياناً ما يتعرض للعقوبة التي كان المفترض أن تقع على المدعى عليه، فقد كانت الرشوة منتشرة بشكل كبير في تلك المحاكم، وكانت أحكام التعذيب شائعة في فترة الإقطاع، فقد كان يتعرض الكثير من المنشقين عن العقيدة للتعذيب بالحديد المحمي على النار أو الحرق أو يعدمون بالخازوق[3].

وكانت المحاكم الإقطاعية على جاهزية تامة لتغيير قوانينها، وخلط المبادئ مع بعضها البعض، وسرعان ما كانت تعمد لتعديل المفاهيم الدستورية حسب ما تقتضيه الظروف المحلية الطارئة. ولم تكن جميع الحكومات المحلية ناجحة في تطوير مؤسسات جديدة، لكن الجيد في تلك الحكومات أنها كانت تأتي بثمار جيدة تعود بالنفع على مجتمعاتها، وكانت الأسس المبدئية والأقسام الحكومية العاملة لحكومتي فرنسا وإنجلترا قد نبعت من تلك المحاكم الإقطاعية المشرعة للقوانين المحلية، وكان القانون الأنجلوأمريكي العام أيضاً نابعاً من القانون الإقطاعي الصادر عن المحاكم الإقطاعية التابعة لملك إنجلترا[4].

بدراسة النظام الإقطاعي في أوروبا الغربية في العصور الوسطى، ظهرت طبقتين من طبقات المجتمع الأوروبي في ذلك الوقت، هما : طبقة النبلاء، وطبقة الفلاحين.

وظهرت صورة الفلاح البائس، الذي تحول من الفلاح الحر إلى القن؛ بسبب الظروف المحيطة به، وتنازل ذلك الفلاح عن كثير من حقوقه؛ من أجل العيش بسلام في كَنَف المالك الإقطاعي، ومع ذلك وجد الفلاح أن المالك لا يوفر له الحماية، ولا العيش الكريم!.

---

(1) Sellery (editor), Medieval Civilization, P. 178.

(2) العريني، الحضارة والنظم، ق1، ص 40.

(3) Durant, The Age, P. 567.

(4) Strayer, The Western Eorup, P. 64.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولو نُظر في سلم التبعية الإقطاعية، لوُجد أن كل تابع شَعَرَ بالظلم والتعسف من قبل السيد المسؤول عنه ويعلوه مباشرة في السلم الإقطاعي، لكن الفلاح القن كان أكثر تعسفاً وجوراً في ذلك المجتمع.

إضافة إلى ذلك عانى الفلاح أيضاً من ظُلم القانون الإقطاعي، الذي كان يتحكم فيه السيد المالك، حيث إن السيد المالك هو الذي يضع القوانين، وهو الذي يصدر الأحكام، فمن الطبيعي أن تكون كل الأحكام وفق أهوائه.

إضافة إلى ذلك انتشار الرشاوى في المحاكم الإقطاعية، ومعنى ذلك أن القضاء دائماً سيكون في جانب الشخص الذي عنده قدرة مالية أكبر للدفع. ولما كان الفلاح أقل درجة مادية، فمن الطبيعي أن يكون حقه دائماً مفقوداً أو مأخوذاً.

كذلك فإن القانون الإقطاعي حرم الأبناء من حقهم في الميراث، حيث جعله للابن الأكبر، ومن الطبيعي أن تنتشر هنالك الأحقاد بين الأخوة وفي الأسرة الواحدة؛ الأمر الذي صعد الفوضى والفساد في البلاد.

إضافة إلى ذلك فقد كان الفلاح رجلاً أمياً غير مثقف، سيطرت عليه الخرافات والأساطير.

كما كان الفلاح يتصف بالفقر والأمية وانحطاط مكانته في الدولة، لكن ذلك لا يعني : أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي للفلاح هما اللذان دفعاه للخروج في الحملات الصليبية.

لكن يمكن القول : إنه ارتبطت إغراءات الكنيسة للفلاح بوضعه الاجتماعي والاقتصادي، ففي الوقت الذي كان الفلاح في أحلك ظروف حياته، انتشرت التنبؤات بقرب ظهور المسيح مرة أخرى، وأنه على كل شخص أن يُسرع بالتوبة قبل ضياع الفرصة، وقد قالت الكنيسة : بإمكان تحقيق ذلك من خلال الاشتراك في الحج والحرب الصليبية المقدسة[1]. واعتبر البابا حنا الثامن[2] أن من يموت في حرب مقدسة فهو من الشهداء[3].

---

(1) عمران، تاريخ الحروب، ص 20.

(2) حنا الثامن : جلس على كرسي البابوي من سنة 872م حتى سنة 882م. (عمران، معالم تاريخ أوروبا، ص 308. هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 197).

(3) باركر، الحروب الصليبية، ص 10 هامش رقم (2).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ونحن بصدد ذلك لا نستطيع أن نجعل العامل الاقتصادي أو الإقطاع سبباً مباشراً أو حتى غير مباشر لخروج الحملات الصليبية؛ لأن ذلك النظام الطبقي الذي ظهر من خلال الإقطاع وُجد على مدى عدة قرون، وأيضاً فإننا وجدنا أن الظلم والاستبداد، والتعدد الطبقي، والفقر، والجهل، والمرض، قد انتشر وما زال ينتشر في مجتمعات عديدة، ولم يؤدِ بهم الوضع إلى الخروج في حملات، أو حروب، وأقصى ما تتخذه الشعوب هو الانقلاب أو الثورة.

لكن اجتماع العوامل السابقة الذكر في الفلاح جعلته يذعن للكنيسة وينقاد إلى دعواتها للخروج للحملات، ومن ذلك فيمكن اعتبار الكنيسة هي العامل الرئيس في خروج الحملات الصليبية، إضافة إلى وجود تقرحات مجتمعية عديدة، تمثلت في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والتي اعتقدت أن شفائها يكتمل بالخروج بالحملات الصليبية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخاتمة

خلصت الباحثة إلى عدة نتائج من أهمها :

1- وصل الإصلاح الكلوني ذروته في القرن الحادي عشر، وهو نفس القرن الذي خرجت منه الحملات الصليبية على المشرق العربي.

2- ارتبط الإصلاح الكلوني بشكل كبير بالدعوة للحروب الصليبية، حيث إن البابوات الذين دعوا للحروب الصليبية وهم جريجوري السابع وأوربان الثاني خرجوا من الأديرة الكلونية ويقال أنهم من أصول يهودية.

3- التحق الفقراء والمعدومون من الفلاحين والأقنان الجاهلون بالأديرة، فكان من السهل على تلك الأديرة تلقينهم تعاليمها ومبادئها سواء صحيحة أو مغلوطة.

4- خرجت الدعوة للحروب الصليبية من داخل الأديرة التي تبنت فكرة الإصلاح الديني، وكان من أهم مبادئها الزهد والتقشف في الحياة الدنيا، وفي ذلك تناقض.

5- حاول اليهود ربط أنفسهم بالأراضي المقدسة منذ زمن الحملات الصليبية، لكن لو وُجد أية علاقة لهم بخروج تلك الحملات، فإنها تكون لتحقيق أغراضهم التجارية، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، ولم يكن هدفهم الأساسي هو الأراضي المقدسة كما زعموا.

6- تكونت الشعوب الأوروبية من قبائل بربرية غازية، اجتاحت البلاد في موجات متتالية، وكان من أهم صفات تلك القبائل التعطش للحروب، فكان من السهل عليها الخروج في الحروب دون مبررات. وكانت القبائل البربرية التي تكون منها المجتمع الأوروبي وثنية، اعتنقت المسيحية، وأعطت نفسها الحق في تحرير قبر المسيح كما ادعت.

7- تكون المجتمع الأوروبي من ثلاث طبقات : رجال الدين وهي الطبقة المسيطرة، الأسياد وهي الطبقة الحاكمة التي أحياناً تخضع للكنيسة خوفاً من قرار الحرمان، الفلاحين الذين لا حول لهم ولا قوة يحاولون البحث عن حياة أفضل؛ ظنوا أنها في ظل الكنيسة.

8- سيطرت الكنيسة في العصور الوسطى على جميع مناحي الحياة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، لذلك خرجت الدعوة للحروب الصليبية بتأثير منها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملاحـــــق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (1)

الإرادة البابوية[1]

Dictatae Papae

هذه الوثيقة تعبر عن مبادئ جريجوري السابع ومثل.

نص الوثيقة :

1- الكنيسة الرومانية إنما أقامها الله وحده.

2- ما من أحد سوى بابا روما، جدير باتخذا لقب المسكوني (العالمي).

3- ليس بوسع أحد سواه، أن يعزل الأساقفة أو يعينهم.

4- ولممثل البابا، مهما انخفضت رتبته، أن يرأس الأساقفة في المجمع، وله من السلطة ما يجعله يصدر حكم العزل ضدهم.

5- وللبابا السلطة في عزل من لم يحضر المجمع من الأساقفة، (دون أن يستمع لدعواهم).

6- ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها، أنه ينبغي ألا يقيم في موضع واحد مع من قضى البابا بقطعهم من الكنيسة.

7- وللبابا وحده الحق، وفقاً لما تقتضيه الأحوال، أن يسن القوانين الجديدة، وأن ينشء أبرشيات جديدة، وأن يشيد ديراً يخضع لبعض قوانين الديرية، أو يجعل عكس ذلك، وله أن يقسم الأبرشية الوفيرة الثروة إلى أبرشيات عديدة، أو يجعل من الأبرشيات الفقيرة أبرشية واحدة.

8- وللبابا وحده أن يستخدم العباءة الإمبراطورية.

9- وينبغي على كل الأمراء ألا يخضعوا إلا للبابا وحده.

10- وينبغي ألا يذكر في الكنائس إلا اسمه وحده.

11- وما يتخذه لنفسه من اسم إنما يخصه دون سواه.

12- وللبابا السلطة وحدة في عزل الأباطرة.

13- وللبابا الحق في أن ينقل الأساقفة من منصب ديني إلى منصب ديني آخر، كلما اقتضت الحاجة ذلك.

14- وله الحق في أن يرسم من يشاء من رجال الدين، من بين هيئة رجال الكنيسة.

15- ومن رسمه وجعله من رجال الدين، صار له الحق في أن يتولى (باعتباره أسقفاً) أمر كنيسة أخرى، غير أنه ليس بوسعه أن يخدم على أنه قس، على أن الذي جعله من رجال الدين ينبغي ألا يتجاوز في مكانته سائر الأساقفة.

16- ولا يعقد سينود عام (مجمع) إلا بأمر البابا.

17- ولا يعتبر ما يتخذ من قرار في السينود كنسياً، دون أن يقر ذلك البابا.

18- وما يصده البابا من قرار ليس بوسع أحد أن يلغيه، بينما جاز للبابا إلغاء قرارات غيره من الناس.

19- ليس بوسع أحد من الناس أن يحاكم البابا.

20- ما من أحد يجرؤ على أن ينكر على شخص آخر، الالتجاء إلى المقر الرسولي.

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 462-465.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

21- وينبغي أن يرفع إلى كنيسة روما (أي إلى البابا)، كل القضايا الهامة، من أية كنيسة من الكنائس.

22- إن كنيسة روما معصومة من الخطأ، وذلك وفقاً لناموس الأناجيل المقدسة.

23- أضحى لبابا روما، الذي جرت رسامته وفقاً لقوانين الكنيسة، القداسة المستمدة من صفات القديس بطرس الرسول، وذلك وفقاً لما أورده من أسانيد، القديس إينوديوس أسقف بافيا، والتي أقرها كثير من الآباء القديسين، كما ورد في مقررات البابا سيماكوس.

24- بمقتضى أمر البابا وإذنه، يجوز للرعايا أن يتهموا حكامهم وأمراءهم.

25- وللبابا أن يعزل الأساقفة أو يعيدهم إلى وظائفهم، دون أن يدعو السينود للانعقاد.

26- لا يعتبر كاثوليكياً كل من لا يتفق مع كنيسة روما.

27- وللبابا السلطة في أن يحل الرعايا من يمين الولاء التي بذلوها للحكام (الأمراء) الأشرار.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (2)

البابا جريجوري السابع يقرر قطع الملك هنري الرابع من الكنيسة وعزله عن العرش سنة 1076م[1]

يا بطرس المبارك أمير الرسل، أتوسل إليك أن تصغى إلي، أنا خادمك الذي حبوته منذ طفولتي بمحبتك وعطفك، وأنقذتني من أعدائي الذين يكرهونني، من أجل ولائي لك، فأنت شاهدي، ومن شهودي أيضاً، سيدتي أم الإله، وأخوك القديس بولص، وسائر القديسين، بأن كنيسة روما المقدسة دعتني، رغم إرادتي، إلى أن أتولى أمر إدارتها، وإنني لم أحز العرش البابوي عن طريق العنف، وكنت أؤثر أن أمضي الأيام في المنفى، على أن أظفر بمكانك بالغش والتدليس أو من أجل أطماع دنيوية.

فأنني بفضل رعايتك ورضاك، لا بجهودي، قمت بتسير العالم المسيحي، الذي عهد المسيح أصلاً به إليك، وبفضل عطفك، وباعتباري ممثلك، منحني الله سلطة العقد والحل في السماء والأرض.

فباسم الله القوي، الأب والابن، وروح القدس، أعلن حرمان هنري (الرابع)، ابن الإمبراطور هنري الثالث، من مملكته بالمانيا وإيطاليا. وإنني لأفعل هذا، باسم سلطتك، ودفاعاً عن شرف كنيستك، لأنه تمرد عليها. فكل من يحاول أن يحطم شرف الكنيسة، ينبغي أن بتجرد من هذا الشرف الذي قد حازه. لقد أبى أن يبذل الطاعة على النحو الذي ينبغي على كل مسيحي أن يؤديها، فلم يعد إلى الله، بل سار على غير هدى، فاشترك مع أشخاص مقطوعين من الكنيسة في ارتكاب الشرور، وسخر من التحذيرات التي أرسلتها إليه من أجل خلاصه. وأنت شاهدي على ذلك. لقد نزع نفسه من كنيستك، وحاول أن يمزقها، ولذا فإنني بفضل سلطتك، أنزلت به اللعنة. وباسمك قيدته بهذه اللعنة؛ حتى تعلم الأقوام أنك بطرس، وأنه على صخرتك، شيد ابن الله الحي كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 466، 467.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (3)

رسالة البابا جريجوري السابع إلى الأمراء الالمان عن الإمبراطور هنري الرابع، وما أعلنه من التوبة والندم في كانوسا (28 يناير 1077م)[1]

نص الوثيقة :

إلى كل رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والكونتات وسائر الأمراء بالمملكة الألمانية، المدافعين عن الدين المسيحي، يبعث جريجوري، الأسقف، وخادم خدام الله، بالتحية والبركات الرسولية.

نظراً لمشاطرتكم لنا، ومشاركتنا فيما تعرضنا له من أخطار، نجمت من النزاع الذي وقع أخيراً، رأينا من الصواب أنه لا بد من إخطاركم بما جرى أخيراً من أحداث، وكيف أدى الأمر إلى أن نقبل توبة هنري، ونمنحه التحلل والغفران.

فوفقنا للاتفاق، الذي تم إبرامه مع ممثليكم، قدمنا إلى لومبارديا، وأخذنا نرقب وصول أولئك الذين بعثتم بهم لمرافقتنا إلى بلادكم. وبعد أن انقضى الموعد المقرر، علمنا أنه كان من المستحيل إرسال قوة للسير في صحبتنا وقتذاك، نظراً لما اعترض طريقها من عقبات، فاشتدت معاناتنا لما حصل، وزادت الريبة فيما ينبغي أن نفعل. وفي تلك الأثناء، علمنا أن الملك (هنري الرابع) أخذ يقترب من المكان الذي ينزل به، ذلك أنه قبل أن يدخل إلى إيطاليا، أرسل إلينا، وعرض علينا بأنه يكفر تماماً عن ذنبه، بأن وعد بأن يصلح حلاه، وأنه منذ هذه اللحظة، سوف يطيعنا في كل الأمور، بشرط أن نمنحه التحلل والبركات.

ترددنا في ذلك بعض الوقت، واغتنمنا فرصة ما يجري من المفاوضات، فأمعنا في تقريعه وتأنيبه على ما ارتكب من ذنوب سابقة. ثم قدم هنري نفسه، آخر الأمر، إلى كانوسا، ولم يصحبه إلا حاشية قليلة العدد، ولم يظهر شيئاً من النوايا العدوانية.

وعند وصوله، مَثُل بنفسه أمام باب القلعة (كانوسا) حافي القدمين، مرتدياً خرقاً من الصوف، وأخذ يتضرع، وقد امتلأت عيناه بالدموع، وصار يتوسل لأن نمنحه التحلل والعفو. وجرى على هذا المنوال ثلاثة أيام متوالية، حتى رق لحاله جميع من كان حولنا من الناس، فتوسطوا له، دموعهم وتضرعاتهم.

والواقع أنهم دهشوا لصلابة قلبنا، بل إن بعضهم جأر فعلاً بالشكوى بأن تصرفنا لم يكن ليليق إلا بالاستبداد المطلق، ولم يكن الغرض منه التشدد في العقوبة، ولم يلبث أن تغلب على إبائنا وإحجامنا، ما حدث من مضي الملك في إظهار الندم، وتوسلات كل من كان بصحبتنا، فرفعنا عنه قرار الحرمان، وقبلنا عودته إلى أحضان كنيسة روما، أم الكنائس المقدسة.

غير أنه (هنري الرابع) بادر قبل كل شيء، إلى أن يحلف اليمين التي أرفقنا نصها بهذه الرسالة، وتعاهد بضمانه رئيس دير كلوني، والكونتيسة ماتيلدة، والكونتيسة إديليد، وكثير من رجال الكنيسة والأمراء العلمانيين.

وإذ حقق هذا الإجراء مصلحة الكنيسة والإمبراطورية، عزمنا على القيام بزيارتكم في بلادكم، متى سنحت الفرصة، إذ أن الأمر، كما تدركون من الشروط الواردة في القسم، لا يعتبر منتهياً، إلا بعد مناقشته معكم. ولذا فإن أحثكم على أن تبقوا متمسكين بما حفزكم أول الأمر إلى العمل، من الولاء وحب العدالة. ولم نلزم أنفسنا بأمر من الأمور، فيما عدا ما تكفلنا به للملك من أن يركن إلى مساعدتنا في كل ما يسعى إليه لإنقاذه، وللإبقاء على شرفه.

---

(1) العريني، تاريخ أوروبا، ص 468-470.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (4)

الإمبراطورية الكارولنجية[1]

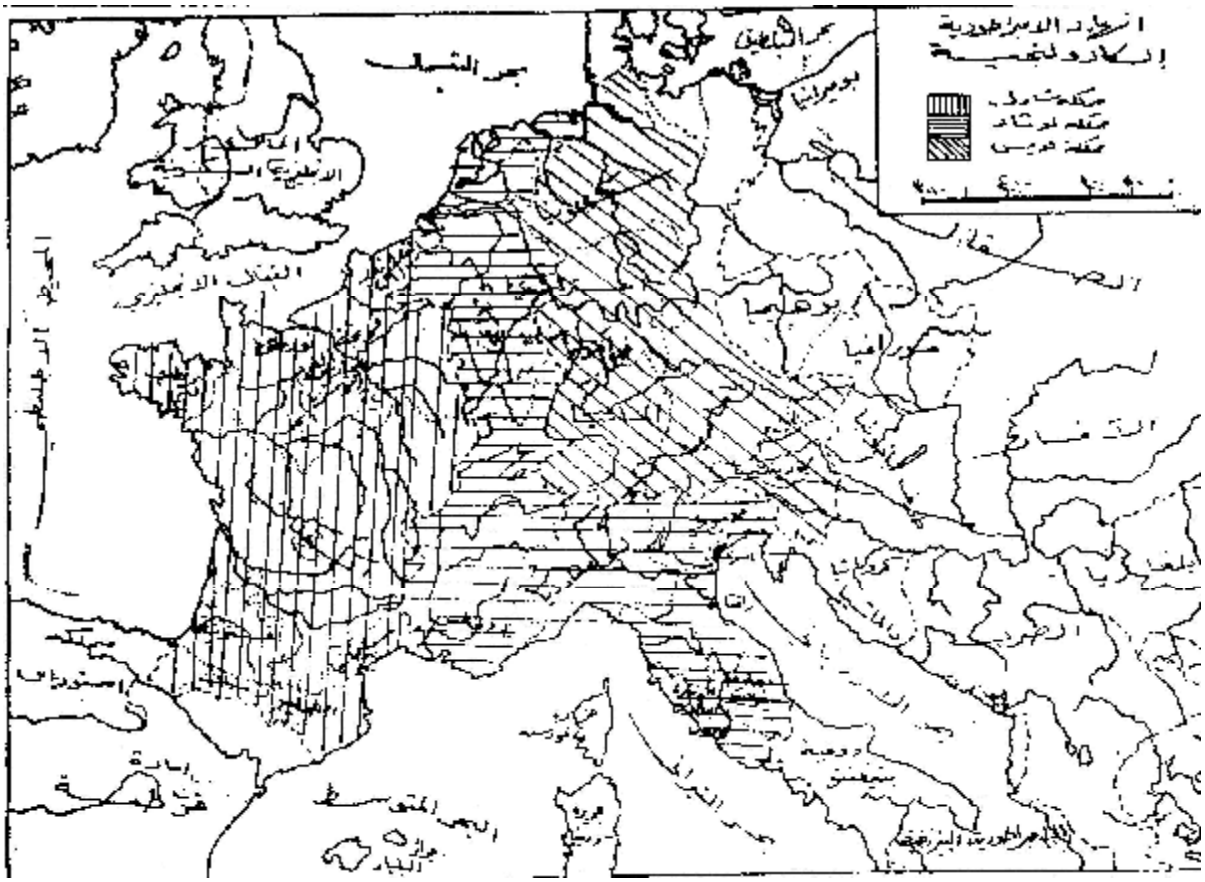

(1) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 202.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (5)

أنساب أسرة شارلمان

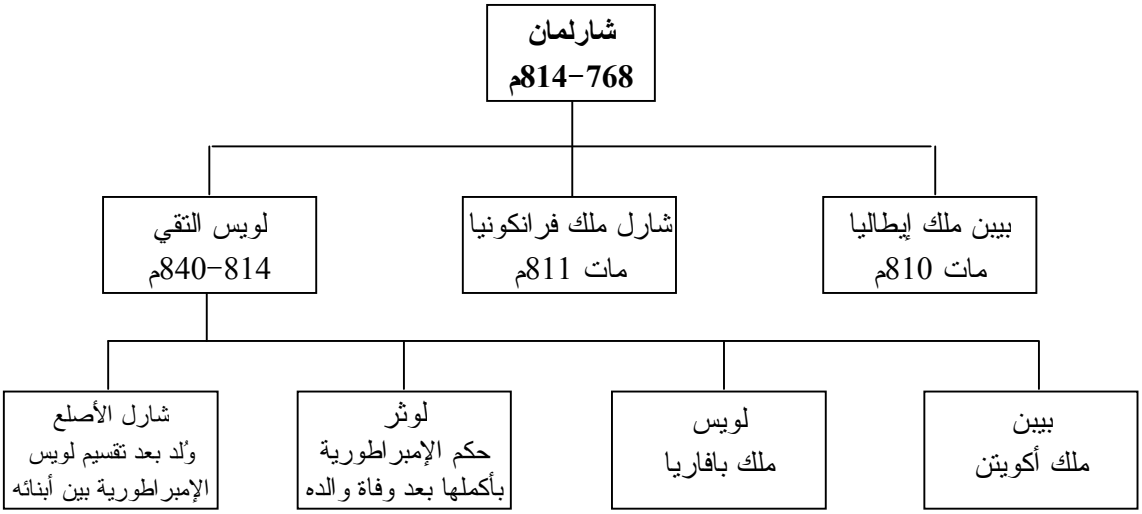

إعادة تقسيم بعد وفاة لويس التقي وابنه بيبن من خلال معاهدة فردان 843م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (6)

معاهدة فردان عام 853م[1]

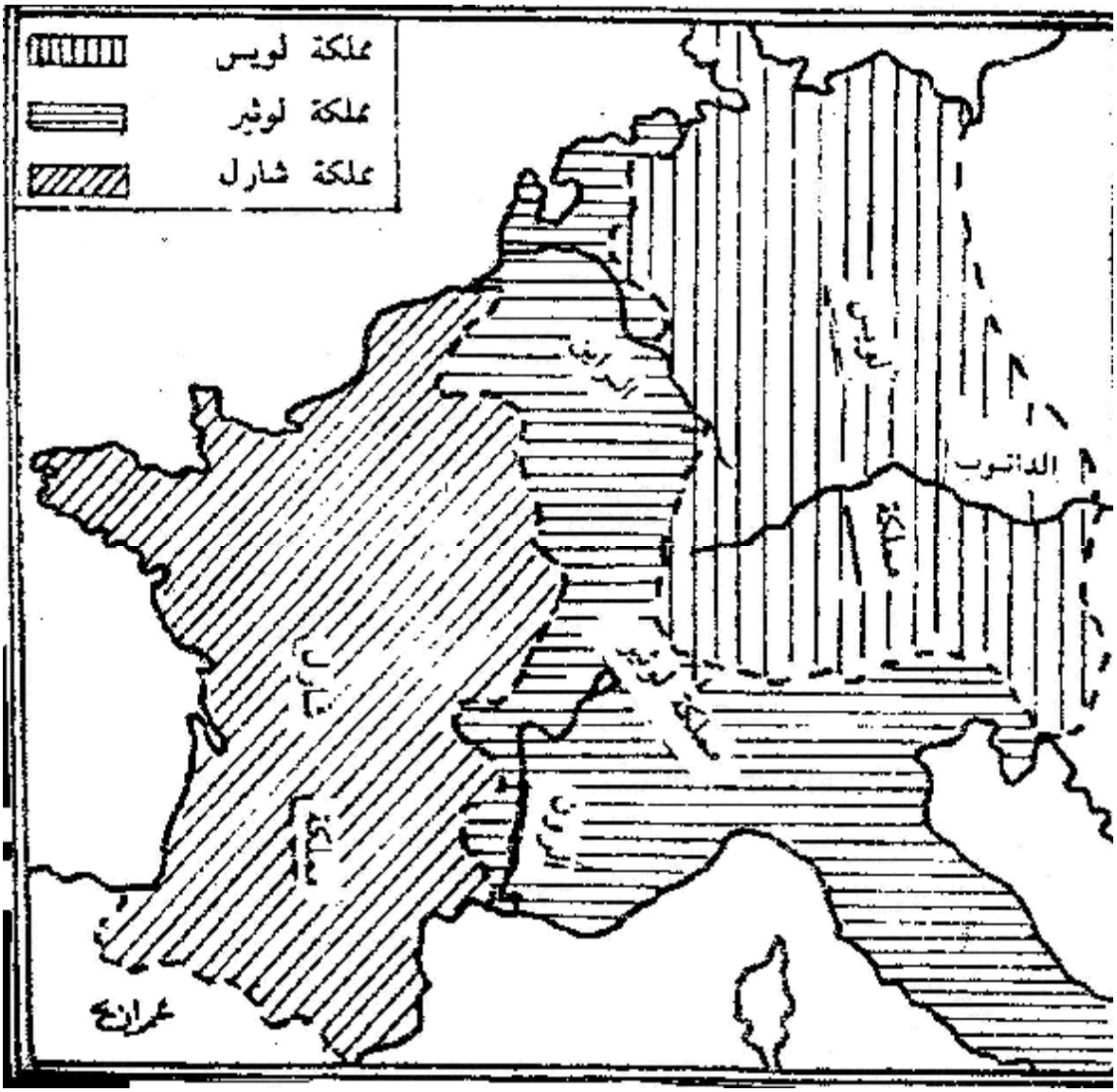

(1) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 198.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (7)

معاهدة ميرزن سنة 870م[1]

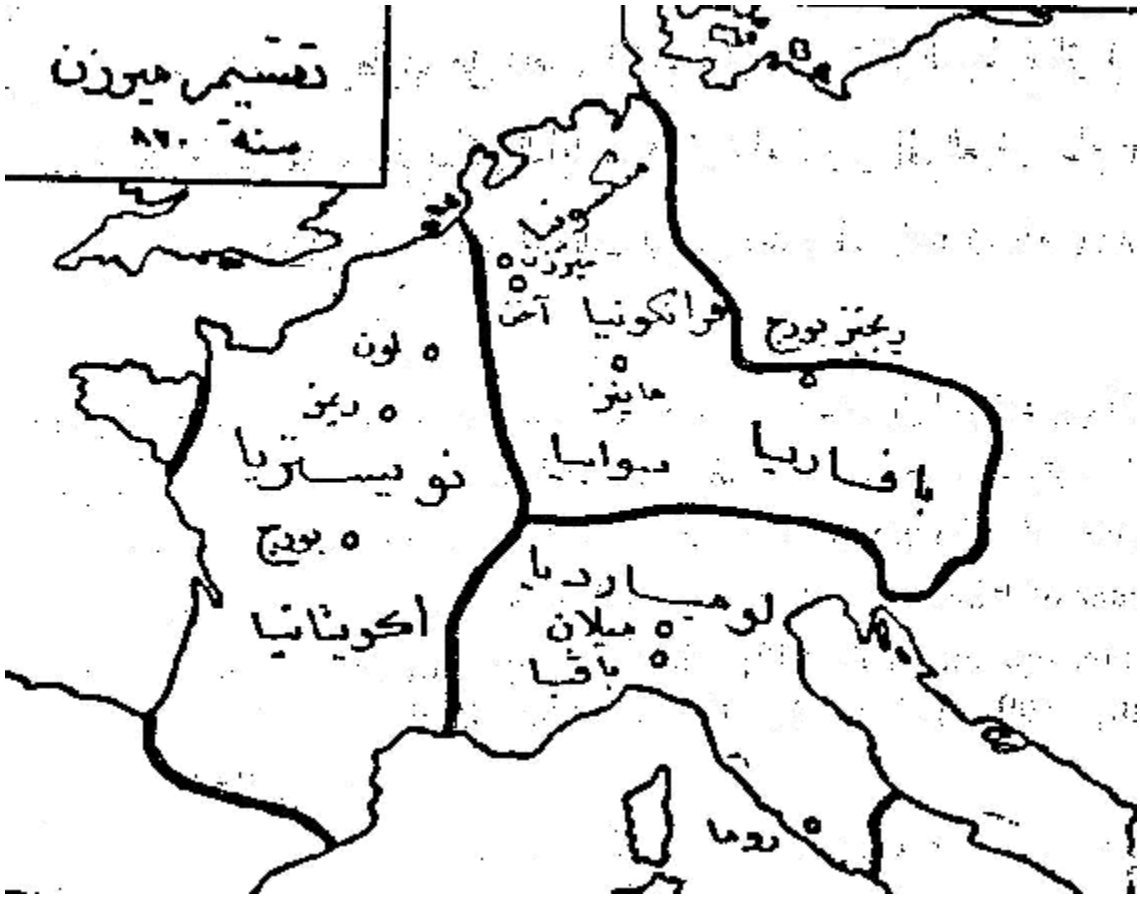

(1) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 198.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (8)

الإمبراطورية الرومانية القديمة[1]

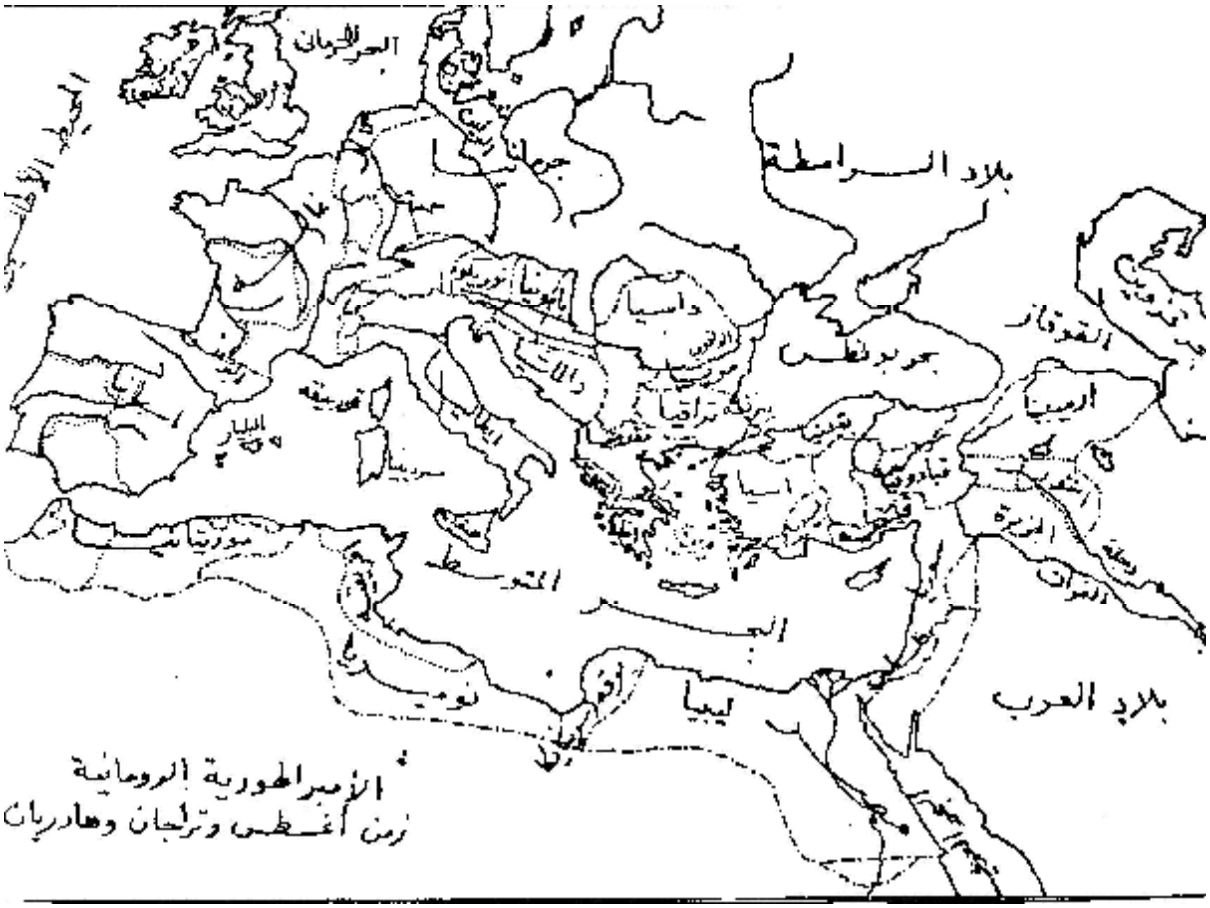

(1) عاشور، أوروبا العصور، ص 33.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (9)

الإمبراطورية الغربية في القرن العاشر[1]

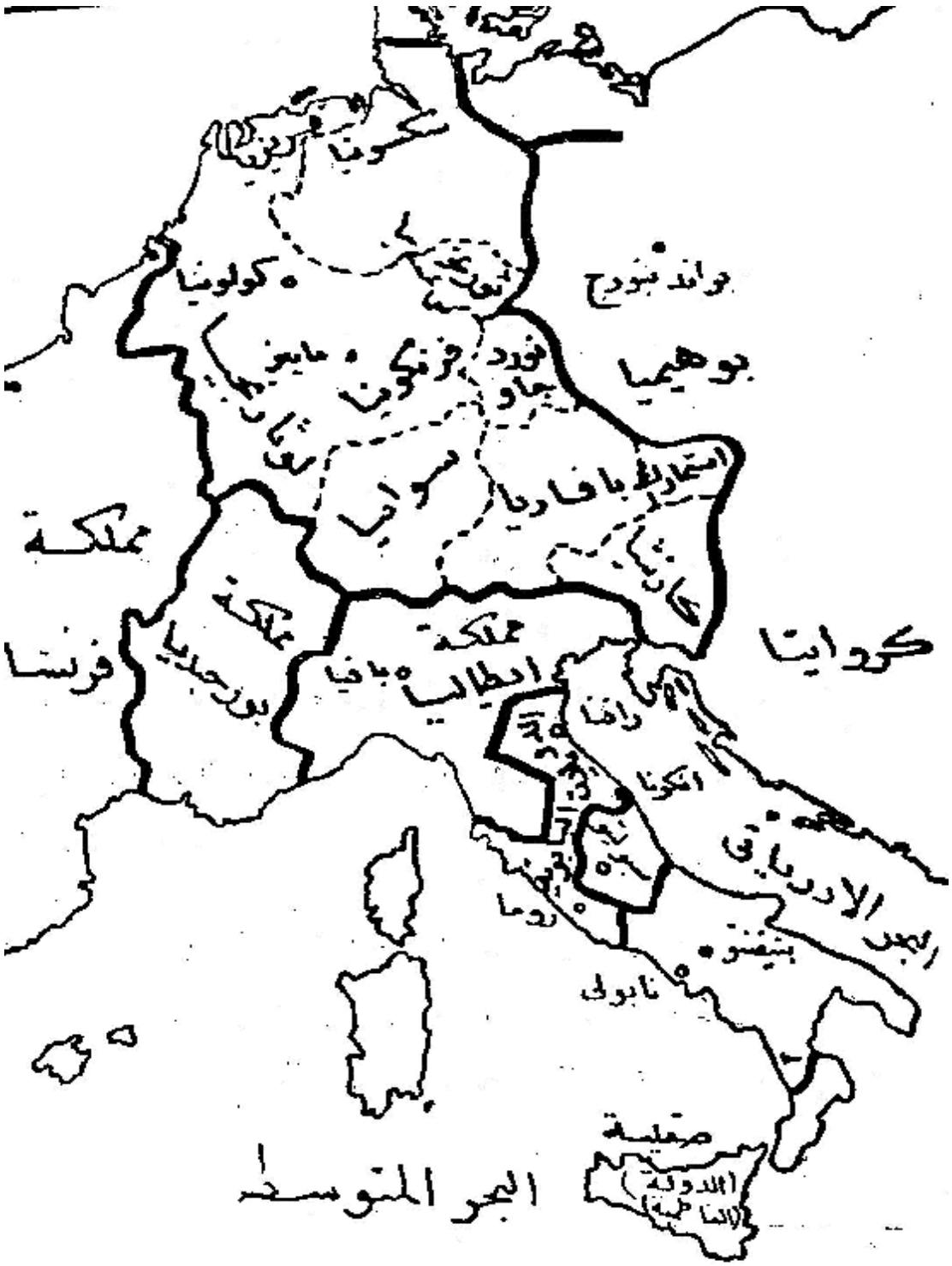

(1) هارتمان وباركلاف، الدولة والإمبراطورية، ص 205.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (10)

الإمبراطورية السكسونية[1]

(1) فشر، تاريخ أوروبا، ص 141.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (11)

خريطة إيطاليا[1]

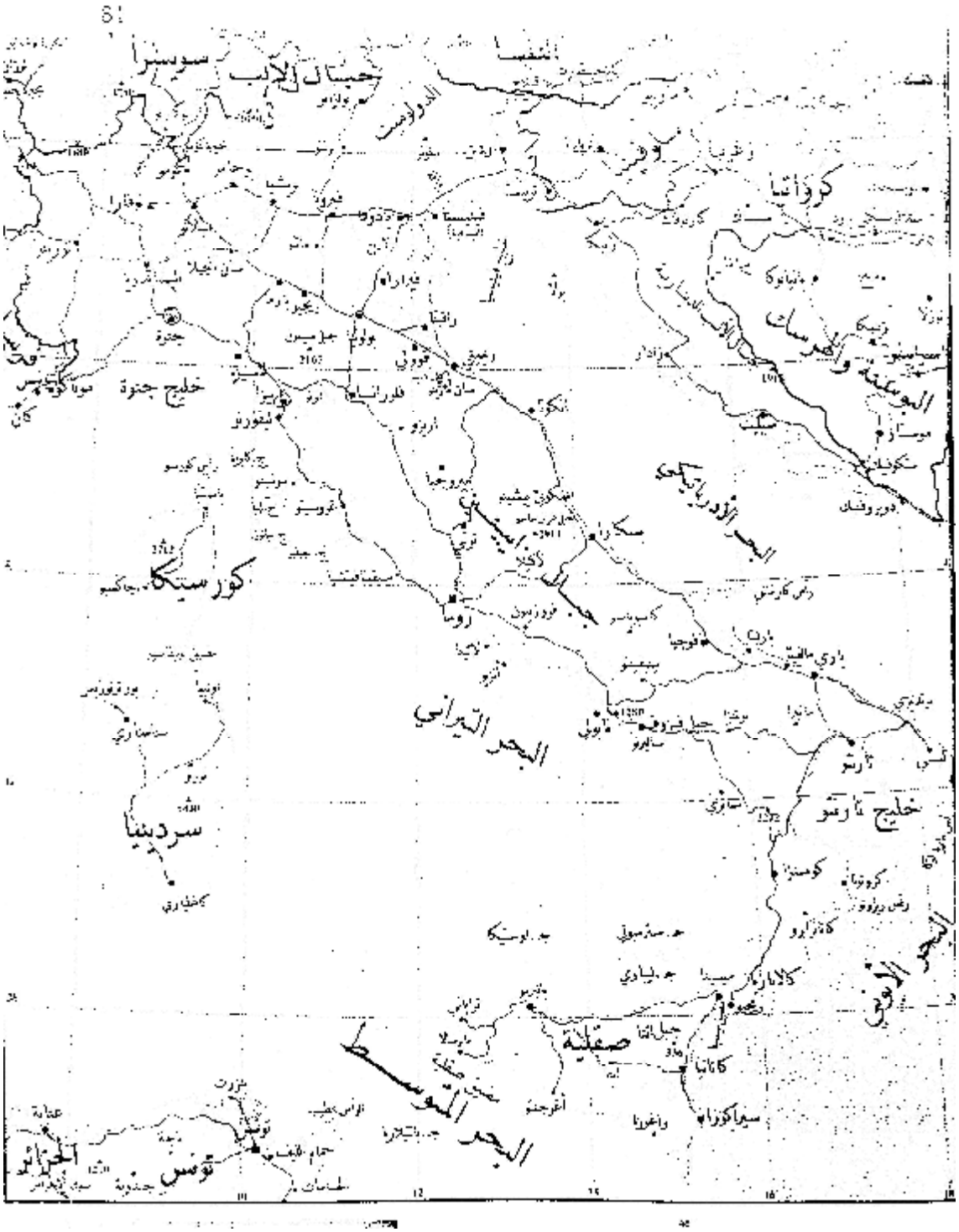

(1) أطلس العالم، ص 81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (12)

النورمان في صقلية وجنوب إيطاليا[1]

(1) عاشور، أوروبا العصور، ج1، ص 331.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (13)

الممالك الإنجلوسكسونية السبع[1]

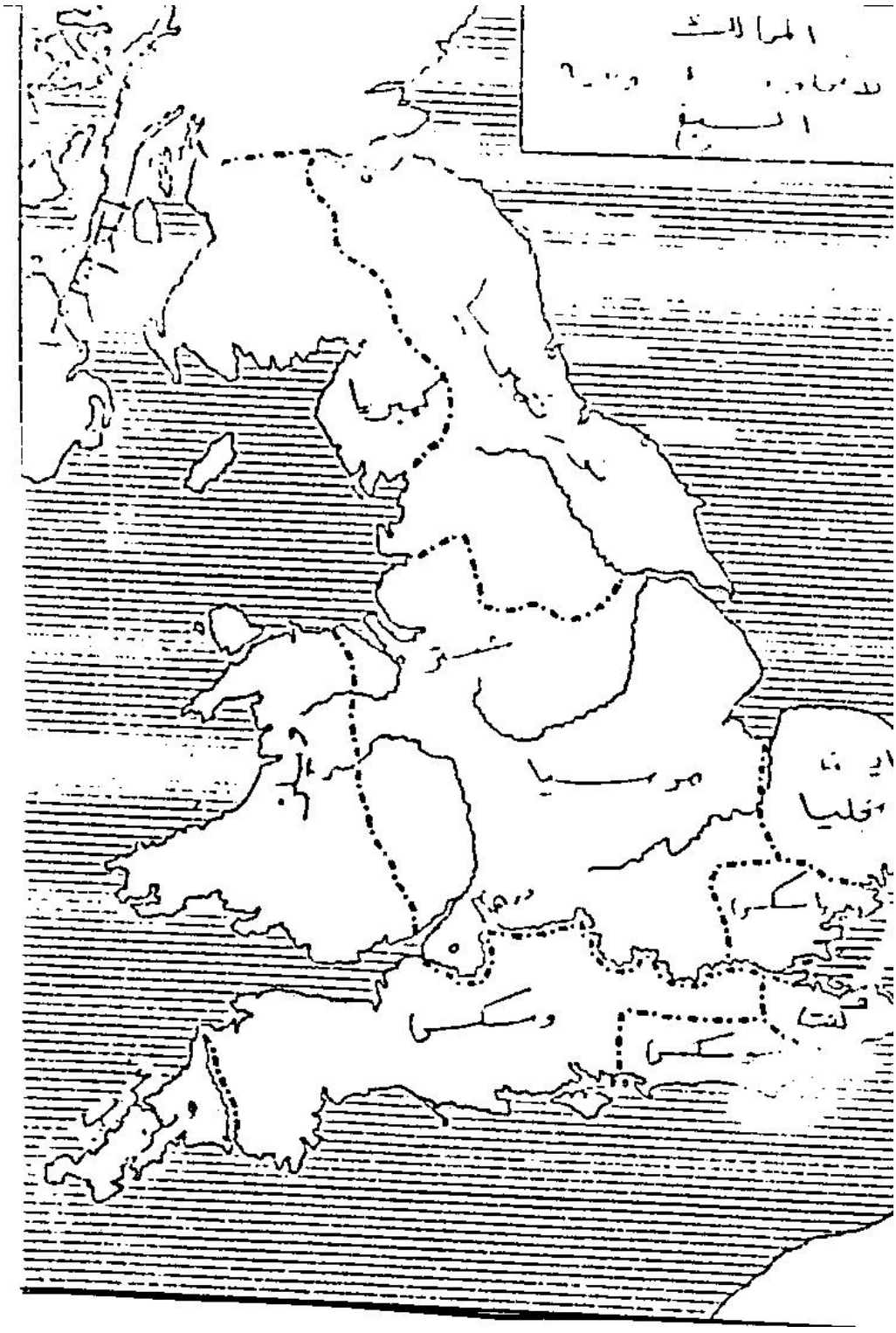

(1) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 500.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (14)

إنجلترا في عهد الملك ألفريد[1]

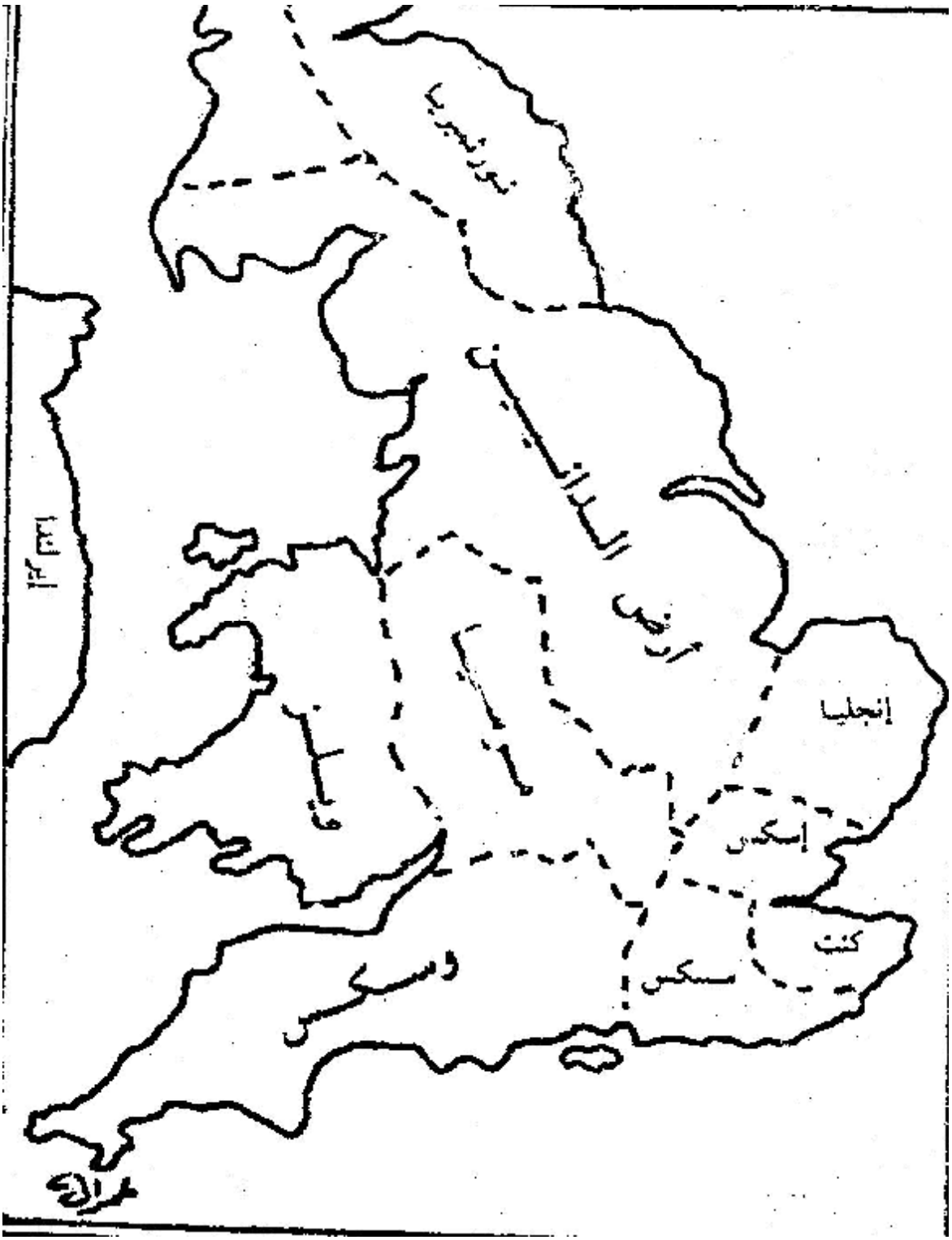

(1) عمران، معالم حضارة، ص 341.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (15)

الملك كانوت وخلفاؤه[1]

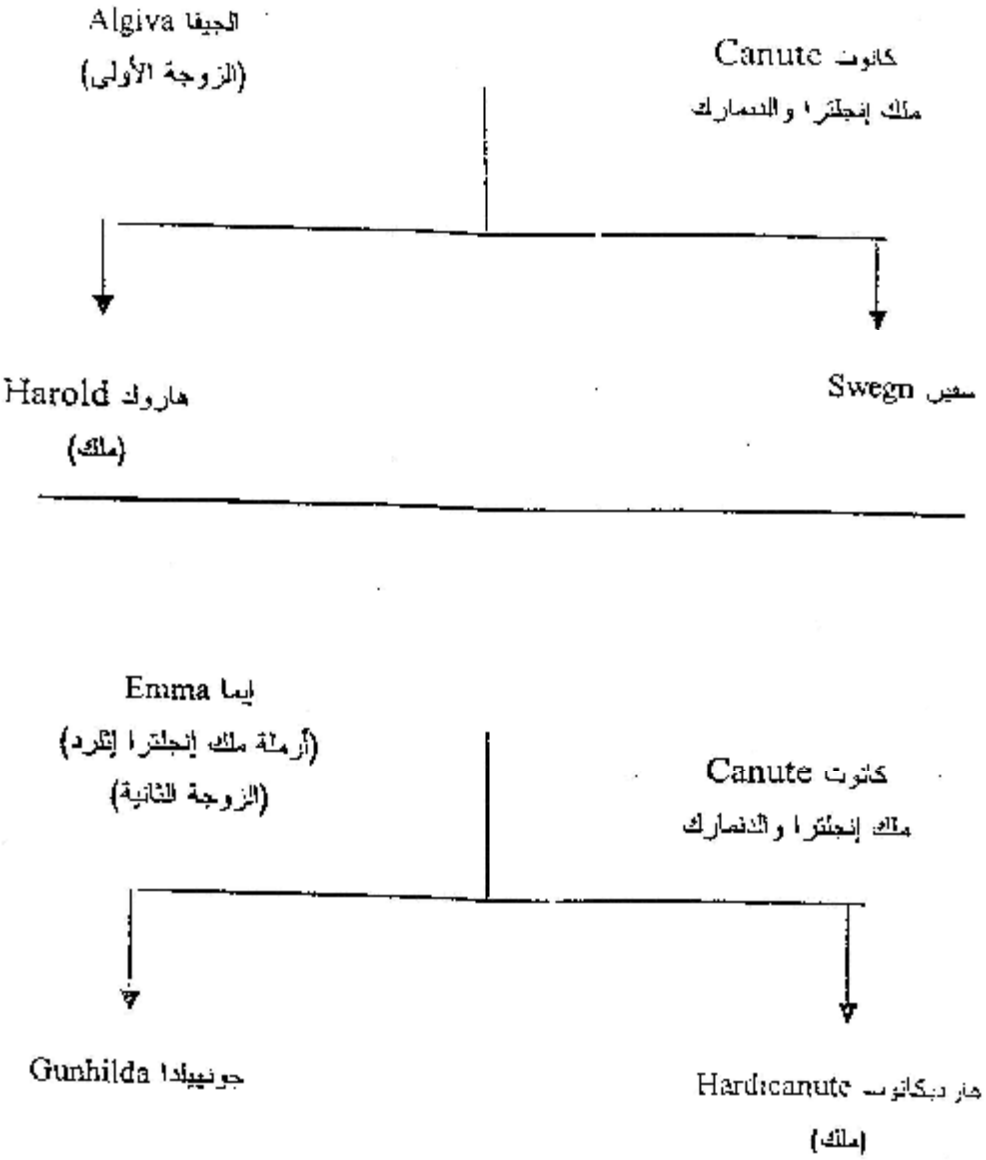

(1) فرغلي، اضمحلال حكم، ص 499.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (16)

الممالك الجرمانية[1]

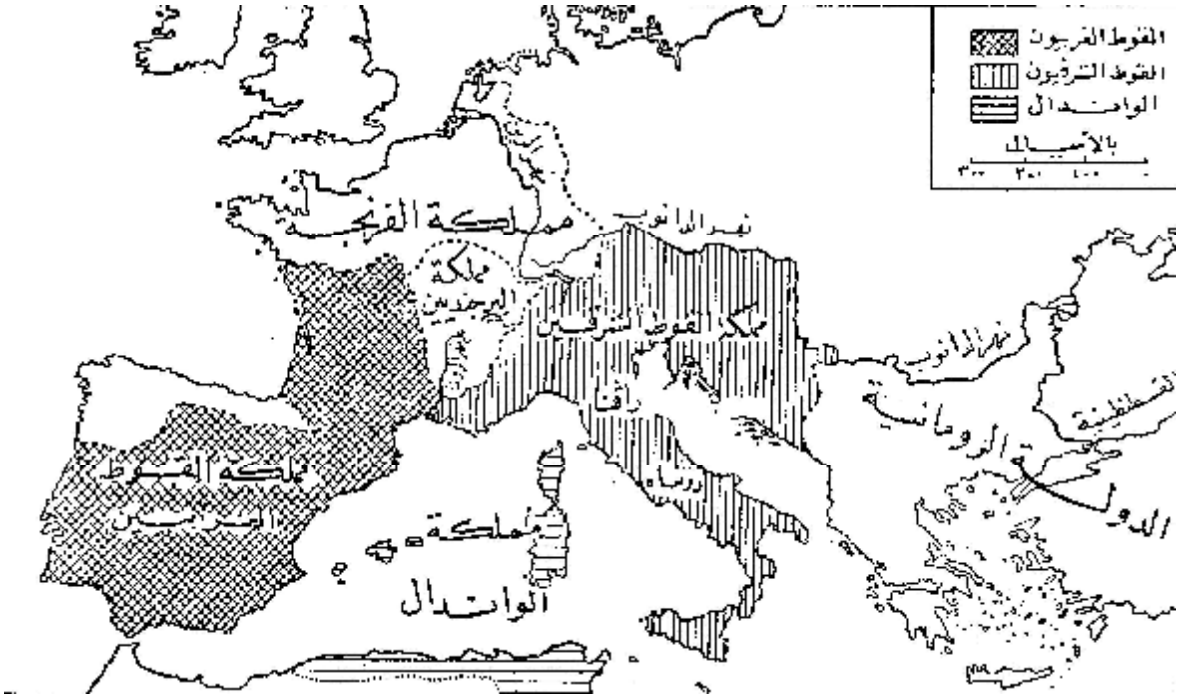

(1) عمران، معالم حضارة، ص 338.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (17)

القرية الإقطاعية[1]

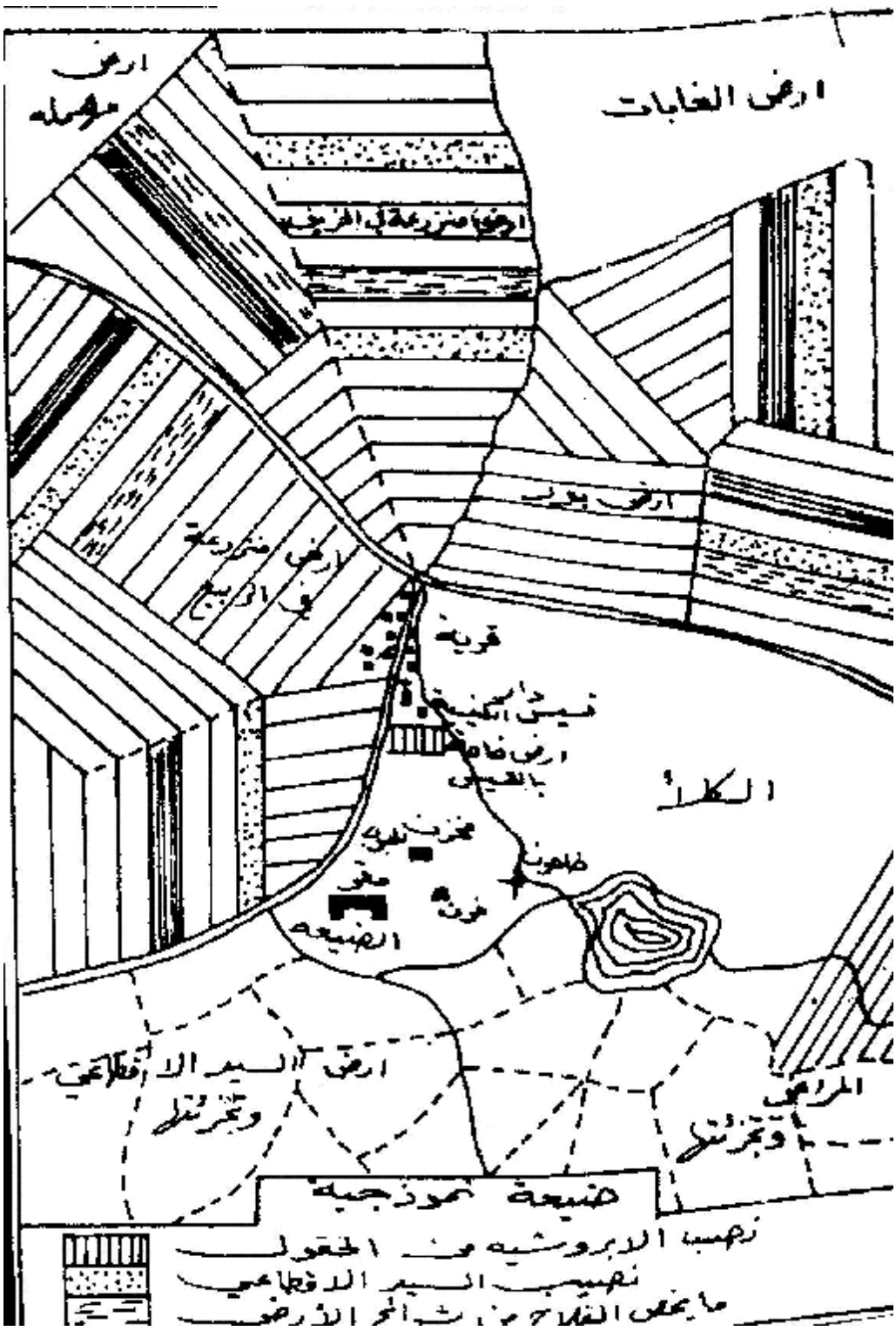

(1) كولستون، عالم العصور، ص 79.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ملحق رقم (18)

إمبراطورية شارلمان[1]

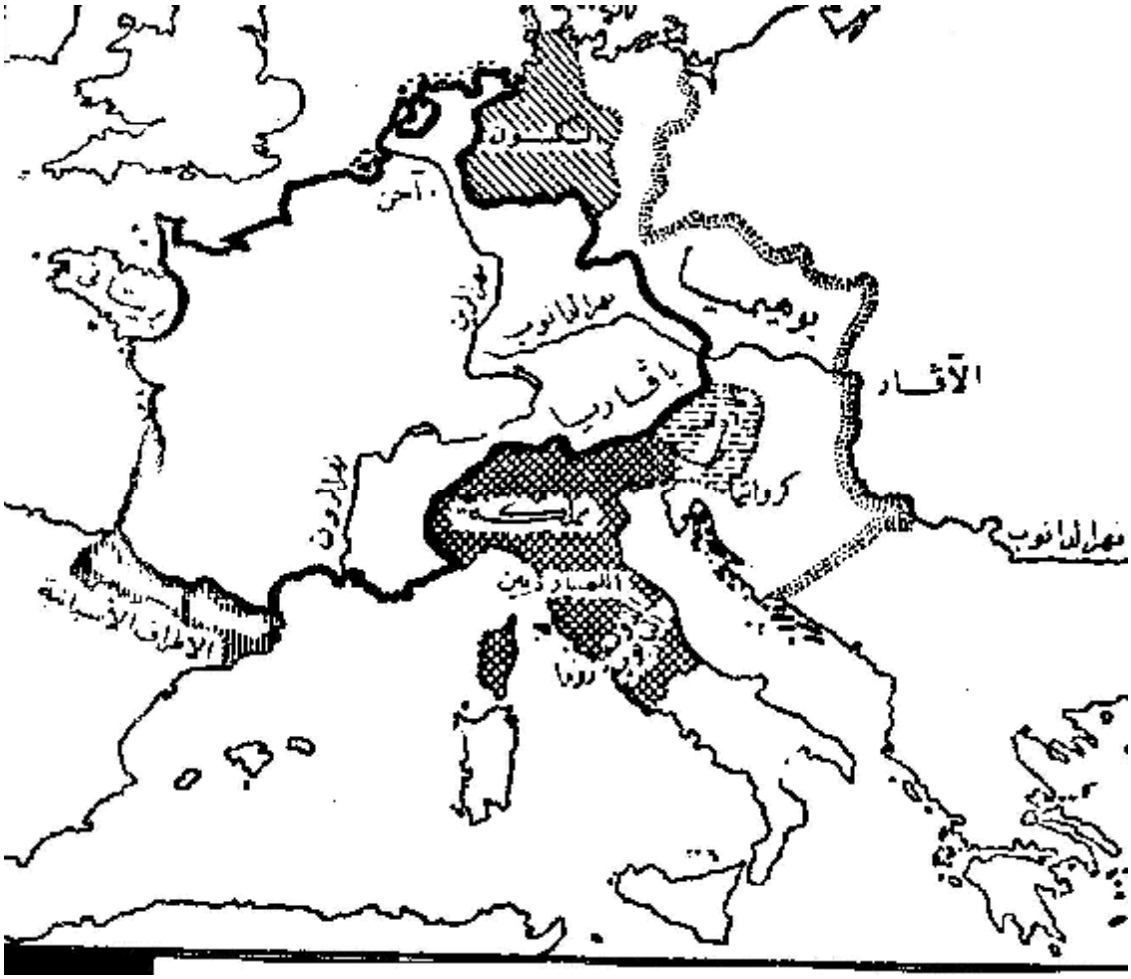

(1) عمران، معالم حضارة، ص 339.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربية :

1- **ابن الأثير** : أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، (ت 360هـ)، الكامل في التاريخ، 11 ج، عبد الله القاضي، (تحقيق)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 818هـ=1415م.

2- **الذهبي** : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 33ج، عمر عبد السلام تدمري (تحقيق)، (دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1407هـ=1987م).

3- **الرازي** : أبو بكر محمد بن زكريا، (ت 313هـ)، الحاوي في الطب، هيثم خليفة طعيمي (تحقيق)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1422هـ=2002م.

4- **الزركلي** : خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي (ت 1396هـ)، 8ج، الأعلام (دار العلم للملايين، بيروت، ط 15، 2002م).

5- **الصفدي** : صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت 764هـ)، الوافي بالوفيات، 29ج، تركي مصطفى (تحقيق)، (دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ).

6- **ابن منظور** : محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت 711هـ)، لسان العرب، 15ج، دار صادر، بيروت، ط .

الموسوعات العربية :

7- **الكيالي** : عبد الوهاب وآخرون، موسوعة االسياسة، 6ج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1989م.

8- **مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر**، الموسوعة العربية العالمية، 30ج ، المؤسسة، الرياض، ط2، 1999م.

9- **المسيري** : عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 8ج، دار الشروق، القاهرة، ط ، 1999م.

10- **مفرِّج** : ط.ب، موسوعة عالم الأديان : كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم، 24ج، Nobilis، بيروت، 2004.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الموسوعات الأجنبية :

11- **Lernout & Hauspic** Speech products N.V, The Columbia Encyclopedia, Vol. 6, Columbia University, New York, 2004.

الموسوعات المترجمة :

12- **بروي** : إدوارد، القرون الوسطى، تاريخ الحضارات العام، يوسف داغر وفريد داغر (ترجمة)، 7مج، عويدات للطباعة والنشر، بيروت، 2003م.

13- **ديورانت** : ول وايريل، قصة الحضارة، محمد بدران (ترجمة)، 42ج، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.

14- **غريمال** : بيار وآخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العام : أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، أنطوان أ. الهاشم (ترجمة)، 3ج، منشورات عويدات، 1995م.

المراجع العربية :

15- **البعلبكي** : منير، معجم أعلام المورد : موسوعة تراجم لأشهر الأعلام العرب والأجانب القدامى والمحدثين، دار العلم للملايين، بيروت، 1992م.

16- **الجنزوري** : علية عبد السميع، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.

17- **حاطوم** : نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ج1، دار الفكر العربي، دمشق، 1982م=1402هـ.

18- **حبشي** : حسن، الحروب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، دمشق، 1958م.

19- **الشيخ** : محمد محمد مرسي، النظم والحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، الشهابي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.

20- ــــــــــــــــــــ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، مص، 1995م.

21- **عاشور** : سعيد عبد الفتاح وأنيس : محمد، النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة، لجنة البيان العربي، القاهرة، ط2، 1960م.

22- **عاشور** : سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية : صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ج1، مكتبة الأنجلو المرصية، القاهرة، 1982م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

23- ـــــــــــــــــــ، أوروبا العصور الوسطى (التاريخ السياسي)، ج1، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، ط6، 1991م.
24- ـــــــــــــــــــ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1900م.
25- ـــــــــــــــــــ، حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1900م.
26- **العريني** : السيد الباز، الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ق1، دار النهضة العربية، بيروت، 1963م=1383هـ.
27- ـــــــــــــــــــ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1968م.
28- **عمران** : محمود سعيد، تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، دار النهضة العربية، بيروت.
29- ـــــــــــــــــــ، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، 1991م.
30- ـــــــــــــــــــ، معالم التاريخ الإسلامي الوسيط، دار النهضة، بيروت، ط1، 1998م.
31- ـــــــــــــــــــ، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ط2، 1986م.
32- **فرغلي** : سعيد السيد علي، اضمحلال حكم الإنجلوسكسون في إنجلترا 979-1066م/368-458هـ، بحوث في تاريخ العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2004م.
33- **قاسم** : قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية، الدوافع، النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.
34- **نعينع** : سهير محمد إبراهيم، العلاقات التجارية بين المدن التجارية الإيطالية ومصر والشام في القرنين 11، 12 الميلاديين في ضوء الوثائق التاريخية، بحوث في تاريخ العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2004م.
35- **يوسف** : جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ط2، 1967م.
36- ـــــــــــــــــــ، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1984م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع المترجمة :

37- **باركر** : أرنست، الحروب الصليبية، السيد الباز العريني (ترجمة)، دار النهضة العربية، بيروت، 1967م=1386هـ.

38- **بالار** : ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني : من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، بشير السباعي (ترجمة)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 2003م.

39- **بانتر** : سيدني، أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية؛ تاريخ الحروب الصليبية، سعيد عبد المحسن (ترجمة)، ج1، منشورات بيت المقدس، رام الله، ط1، 2004م.

40- **بيرين** : هنري، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، عطية القوطي (ترجمة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996م.

41- **بيشوب** : موريس، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، علي السيد علي (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005م.

42- **جيبون** : إدوارد، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، محمد سليم سالم (ترجمة)، 1969م.

43- **رنسيمان** : ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية : الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس، السيد الباز العريني (ترجمة)، القاهرة، ط3، 1993م.

44- **سميث** : جوناثان ريلي، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، محمد فتحي الشاعر (ترجمة)، الهيئة المصرية العامة للطباعة، القاهرة، ط2، 1999م.

45- **فشر** : ه.أ.ل، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني (ترجمة)، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1950م=1369هـ.

46- **كانتور** : نورمان ف.، العصور الوسطى الباكرة (القرن الثالث/القرن التاسع الميلادي)، قاسم عبده قاسم (ترجمة)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1993م.

47- **كاهن** : كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، أحمد الشيخ (ترجمة)، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995م.

48- **كرامب وجاكوب** (تحرير)، تراث العصور الوسطى (مجموعة بحوث)، محمد بدران ومحمد مصطفى زيادة (ترجمة)، مؤسسة سجل العرب، 1965م.

49- **كوبلاند** : ج.و، الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا، محمد مصطفى زيادة (ترجمة)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1946م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

50- **كولتـــون** : ج.ج، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، جوزيف نـــسيم يوســـف (ترجمة)، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1983م.
51- **كين** : موريس، حضارة أوروبا العصور الوسطى، قاسم عبده قاســـم (ترجمـــة)، عـــين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط1، 1994م.
52- **مصطفى** : إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، 2ج، مجمـــع اللغـــة العربيـــة (تحقيـــق)، القاهرة.
53- **هارتمان** : ل.م وباركلاف : ج، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، جوزيـــف نسيم يوسف (ترجمة)، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، 1984م.
54- **هلستر** : س. وُرِن، أوروبا في العصور الوسطى، محمد فتحي الشاعر (ترجمة)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988م.
55- **وليم** : تاريخ الحروب الصليبية : الأعمال المنجزة فيما وراء البحـــار، ســـهيل زكـــار (ترجمة)، دار الفكر العربي، دمشق، ط1، 1990م.

المراجع باللغة الإنجليزية :

56- _____, A history of Europe: From the Invasions to the XVI Century, University books, New York, 1955.
57- _____, Medieval Germany (911-1250), Geoffrey Barraclongh (trans), Black well, Oxford England, 1938.
58- _____, States rights, Cloumbia Univestiy press, New York, 2009.
59- _____, The Fathers of the church, Denis J. Kavanagh (translator), Cathloic Univesity of America press, Washington, 1947.
60- **Adams**: George Burton, Civilization during the Middle Ages: Especially in relation to modern Civilization, Charles Scribner's Sons, New York, 1922.
61- **Anderson**: Perry, Passages from Antiquity, to feudalism, Humanities press, London, 1974.
62- **Barraclough**: G, The Origins of modern Germany, Basil Blackwell, Oxford, 1946.
63- **Bartlet:** J. Vernon and Carlyle, Christianity in History: A study of religious development, Macmillan, London, 1917.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

64- **Bill**: Christopher Harper and Houts: Elisabeth van (editor), A companion to the Anglo-Norman World, Boydell press, Suffolk, England, 2003.

65- **Bonhoeffor**: Dietrich, The communion of saints, Harper & Row, New York, 1963.

66- **Brentano**: Frantz Funck, The Earliest times, E. F. Buckley (translator), William Heinemann, London, 1927.

67- **Brook**: Christopher, from Alfreed to Henry III (871-1272), Tomas Nelson and Sons, Edinburgh, 1961.

68- **Broughton**: Bradford B, Dictionary of Medieval knighthood and chivalry: Concepts and terms, Megan Blumbergs (illustrator), Green wood press, New York, 1986.

69- **Canning**: Joseph, A History of Medieval political thought (300-1450), Routledge, New York, 1996.

70- **Chadwick**: Henry, The church in Ancient society: from Galilee to Gregory the Great, Oxford University press, Oxford, 2001.

71- **Cotterill**: H.B, Medieval Italy during a thousand years: A Brief Historical Narrative with chapters on Great Episodes and personalities and on subjects connected with religion, Art and literature, George G. Harrap, London, 1915.

72- **Coulson**: Herbert, H. and Cave: Roy C., A source book for medieval economic history, Biblo and Tannen, New York, 1965.

73- **Davis**: H. W. C, England under the Normans and Angevins (1066-1272), Methuen, London, 1965.

74- _____**,** Jerome, Business and the church, the century Co, New York, 1926.

75- _____**,** William Stearns, A history of France from the earliest time to the treaty of Versailles, Houghton Mifflin, Boston, 1919.

76- **Dawson**: Christopher, Medieval essays, Sheed and ward, New York, 1954.

77- **Deltesta**: David W (editor), Government leaders: Military rulers and political activists, Oryx press, West port. CT, 2001.

78- **Dornberg**: John, Western Europe, Oryx press, phoenix AZ, 1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

79- **Duggan**: Anne J., Nobles and Nobility in medieval Europe: Concepts, Origins, Transformations, Boydell press, Rochester, New York, 2000.
80- **Dunbabin**: Jean, France in the making (843-1180), Oxford University press, New York, 2000.
81- **Durant**: Will, The Age of faith; A history of medieval civilization-Christian, Islamic and Judaic- from Constantine to Dante, A. D (325-1300), Simon and Schuster, New York, 1950.
82- **Eberhart**: E. Kingman and Dixon: Russel A, Economics and cultural change, McGraw-Hill, New York, 1938.
83- **Emerton**: Ephraim, Medieval Europe (814-1300), Harvard University press, Cambridge, 1934.
84- **Fawtier**: Robert, The Capetian Kings of France: Monachy & Nation (987-1328), Lionel Butler and R.J., Adam (translation), St. Martin's press, New York, 1960.
85- **France**: John, Western Warfare in the age of the Crusades (1000-1300), University of Wales, Swansea.
86- **Ganshof**: F.L, Feudalism, Philip Grierson (translator), Long mans-Green, London, 1952.
87- **Garvey**: John, Mistaken Identity: The church is not the kingdom, Commonweal foundation, 2002.
88- **Gore**: Terryl, Neglected Heroes: Leader ship and war in the Early Medieval period, praeger publishers, West port CT, 1995.
89- **Guerard**: Albert Leon, French Civilization: From Its origins to the close of the Middle Ages, Hough Mifflin, Boston, 1921.
90- **Guignebert**: Charles, A short history of the French people, F. G. Richmond (translator), The Macmilan Company, Vol. 2, New York, 1930.
91- **Haine**: W. Scott, The history of France, Green wood press, West port, 2000.
92- **Haskins**: Charles Homer, The Normans in European history, Constable, London, 1916.
93- **Hassall**: Arthur, France: Medieval and Modern a history, Clarendon press, Oxford, 1919.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

94- **Heared**: Day, H. and Waley: D. P (editor), A short history of Italy: From Classical times to the present day, Cambridge University press, Cambridge, England, 1963.

95- **Hen:** yitzhak and Innes: Mathew (editor), The uses of the past in the Early Middle Ages, Cambridge University press, Cambridge, 2000.

96- **Holliste**: G. Warren, Anglo-Saxon Military institutions on the eve of the Norman conquest, Clarendon press, Oxford, 1962.

97- **Hughes**: Plilip, A history of the church, Sheed & Ward, London, 1948.

98- **Innes**: Mathew (editor), State and society in the early middle ages: The Middle Rhine Valleg (400-1000), Cambridge, University press, Cambridge, 2000.

99- **Keen**: Maurice (editor), Medieval warfare a history, Oxford University press, Oxford, 1999.

100- **Killinger**: Charles, L., The history of Italy, Greenwood press, Westport, CT, 2002.

101- **Knox**: George William, Japanese life in Town and Country, G.P. Putnam's Sons, New York, 1908.

102- **Lamonte**: John, the world of the Middle Ages: Areorientation of Medieval history, France, 1949.

103- **Lehmberg**: Stanford, The constitutionalist revolution: An Essay on the history of England, The renaissance Society of America, New York, 2007.

104- **Logan**: F. Donald and author, The Vikings in history, routledge, London, 1992.

105- **_____,** Donald: A history of the church in the Middle Ages, Routledge, London, 2002.

106- **Lyon**: Bryced, From fief to Indenture: The transition from feadal to Non-Fendal contract in Western Europe, Harvard University press, Cambridge, 1957.

107- **Maclean**: Simon, King ship and politics in the late Ninth century: Charles the fat and the end of the Carolingian Empire, Cambridge, University press, Cambridge, 2003.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

108- **Maehl**: William Harvey, Germany in Western Civilization, Univesity of Alabama, Alabama, 1979.
109- **Mathews**: Shailer, The church and the changing order, The Macmillan Co., New York, 1907.
110- **Maurice**: C. Edmund, The story of Bohemia from the Earliest times to the fall of National Independence in 1620, G.P. Putnam's Sons, New York, 1896.
111- **Maurois**: Ander, The Miracle of England: An Account of her rise topre-Eminence and present position, Hamish Miles (trans), Harper & Brothers, New York, 1937.
112- **McCabe**: Joseph, crises in the history of the papacy, G.P. Putnam's Sons, New York, 1916.
113- **Mckitterich**: Rosamond, The Frankish kingdoms under the Carolingians (751-987), Longman, London, 1983.
114- **Menzel**: Wolfgang, the history of Germany from the earliest period to the present time, George Horrocks (trans), Vol. 1, Bel & Daldg, London, 1871.
115- **Miller:** Maureen C., The Formation of a medieval church: Ecclesiastical Change in Verona (950-1150), Cornell University press, Ithaca, 1993.
116- **Moorman**, John R.H, A history of the church in England, Morehouse-Gorham, New York, 1954.
117- **Morrison**: Karl F., Imperial lives and letters of Eleventh Century, Theodor E. Mommsen (translation), Columbia University press, New York, 1962.
118- **Motley**: John Lothrop, The rise of the Dutch republic: A history, Vol. 3, Harper & Brothers, New York, 1880.
119- **Newfang**: Oscar, World federation, Pierre Gault (translation), Barnes & Noble books, New York, 1993.
120- **Northcutt**: Wayne, The regions of France: A reference Guide to history and culture, Greenwood press, Westport CT, 1996.
121- **Oline**: John C., The Catholic reformation, Fordham University press, New York, 1992.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

122- **Parkinson**: Northcote, The evolution of political thought, Houghton Mifflin, Boston, 1958.
123- **Pinnow**: Herman, History of Germany: People and state through a thousand years, Mabel Richmond Brails ford (trans), The Macmillan Company, New York, 1933.
124- **Peirnne**: Henri, A history of Europe: From the Invasions to the XVI Century, University Book, Vol. , New York, 1955.
125- _____, A history of Europe, Vol. 1, Vol. 2, Doubeleday, Garden City, 1958.
126- **Poly**: Jean Pierre and Bouranazel: Eric, The feudal transformation (900-1200), Caroline Higgitt (translator), Holmes & Meier, New York, 1991.
127- **Post**: C.W., The hour and the man: A Biography with Genealogical supplement, Nettie Leitch (illustrator), Judd & Detweiler press, Washington, 1963.
128- **Purdon**: Liam O. and Vitto: Cindy L., The rusted Hauberk: Feudeals of order and their Decline, University press of Florida, Gainesville. Fl, 1994.
129- **Robinson**: I.S., Henry IV of Germany (1056-1106), Cambridge University press, Cambridge, 1999.
130- **Rops**: H. Daniel, The church in the dark ages, butler Audrey (trans), J.M. Dent & Sons, London, 1959.
131- **Ruether**: Rosemary Radford, the church against itself: An Inquiry into the conditions of historical existence for the eschatological community, Herder, New York, 1967.
132- **Ruskin**: John, The crown of wild olive, George Allen and Unwin, London, 1919.
133- **Schulman**: Jana, K., The rise of the medieval world (500-1300): A Biographical Dictionary, Greenwood press, Westport. Ct, 2002.
134- **Schutz**: Herbert, the Carolingians in Central Europe, their history, arts and architecture: A cultural history of central Europe (750-900), Brill, Boston, 2004.
135- **Sellery**: George Clarke, medieval civilization, Dana Carleton Munro (translator), Century, New York, 1907.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

136- **Singman**: Jeffery L., Daily life in medieval Europe, Green wood press, Westport CT, 1999.
137- **Smith**: Goldwin, A constitutional and legal history of England, charles Scribner's Sons, New York, 1955.
138- **Speed**: Peter (editor), Those who fought: An Anthology of medieval sources, Italica press, New York, 1996.
139- **Strayer**: Joseph, R., Western Europe in middle ages, Appelton century crofts, New York, 1955.
140- **Thompson**: James Westfall, Feudal Germany, University of Chicago press, Chicago, 1928.
141- **Tilley**: Arthur, Medieval France: A companion to French studies, Cambridge University press, Cambridge, England, 1922.
142- **Vidler**: Alec R., prophecy and papacy, Scribner, New York, 1954.
143- **Wells**: H., G, Brief of the world history, Appelton century crofts, New York, 1920.
144- **Young**: Robin Darling, The church fathers, institute on religion and public life, 1999.

الرسائل العلمية :

145- **عبد القوي** : زينب عبد المجيد، دور إنجلترا في الحروب الصليبية في الفترة من 1189-1291م، رسالة دكتوراه "غير منشورة"، القاهرة، 1993م.

الدوريات :

146- **مزروع** : وفاء عبد الله، الفايكنج وإغاراتهم على الإمبراطورية الكارولنجية، حولية التاريخ الإسلامي الوسيط، مج3، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.

الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) :

147- www.esyria.sy.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Abstract

The Middle Ages in Western Europe , especially before the era of the Crusades, are considered as the most important Stages of the European history, which requires to be studied by Muslims due to the fact that they paved the way to campaigning the Crusades that were the most dangerous events threatened the Islamic world .

I tried through this research to view the most important conditions experienced by Western Europe before these wars .

The research focused on the religious situations in Western Europe that are represented in the church and its development which made it a feudal and viewed the relationship between the papacy and the Western Church and the colonic reform movement and the relationship between the empire and papacy at that period.

It also focused on the political conditions of France and the collapse of the Carolingian family and the rise of Capeih family and the first Capeih in France in 11108 .

It also focused on the conditions of the political Germany which was called the Holy Romanian empire in addition to the Saxon and Salic families.

The research also discussed the subject of Italy in the period in which the Normans came forth and set up their state in 1018 and the conditions of South and central Italy in the 11th century , in addition to the conditions of England in terms of dangers caused the Vikings and the end of the Anglo-Saxon rule, and the conditions of England under the Norman rule in 1066.

Finally, the discussions dealt with the economic conditions that are represented in the feudal regime in terms of its systems and foundations and some other life aspects in it.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com